

محمد يونس هاشم

المدارس السلفية

وجدلية النقل والعقل والمصلحة

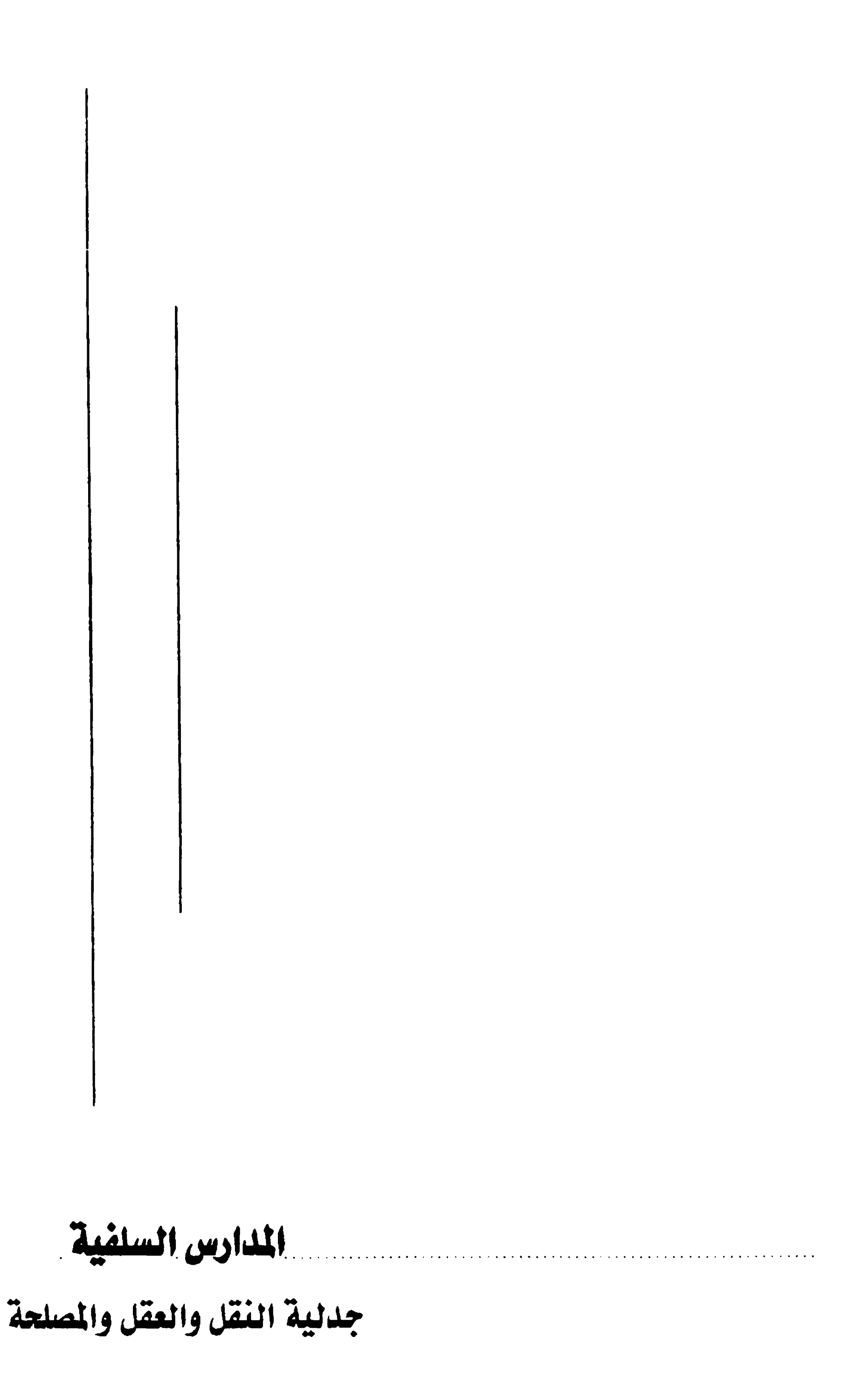
دراسة موضوعية مقارنة

العقيدة ، الشريعة ، العقل ، المصلحة .

- مدرسة الحديث (ابن حنبل)
- السلفية الإصلاحية (ابن تيمية ..)
- الوهَابية (ابن عبد الوهاب)
- السلفية النهضوية (الأفغاني ومحمد عبده ..)
- الإخوان المسلمين (حسن البنا)
- مدرسة الحديث المعاصرة (الألباني)
- السلفية الجهادية .



دار زهور المعرفة و البركة



المدارس السلفية

جدلية النقل والعقل والمصلحة

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

الناشر : دار زهور المعرفة والبركة
٣ ش مكة المكرمة الطريق الأبيض أرض اللواء الجيزة
٠١٠٠٠٧٤١١٦٤ - ٠١٢٢٦٤٠٦٤٨٩
البريد الالكتروني : yuness112@hotmail.com

محمد يونس هاشم

المدارس السلفية

وجدلية النقل والعقل والمصلحة
دراسة موضوعية مقارنة

* العقيدة ، الشريعة ، العقل ، المصلحة .
* مدرسة الحديث (ابن حنبل)
* السلفية الإصلاحية (ابن تيمية ..)
* الوهَّابية (ابن عبد الوهاب)
* السلفية النهضوية (الأفغاني ومحمد عبده ..)
* الإخوان المسلمون (حسن البنا)
* مدرسة الحديث المعاصرة (الألباني)
* السلفية الجهادية .

دار زهور المعرفة والبركة

٣ ش مكة المكرمة الطريق الأبيض أرض اللواء الجيزة

اسم الكتاب : المدارس السلفية ، وجدلية النقل والعقل والمصلحة

اسم المؤلف : محمد يونس هاشم

الناشـــــــر : دار زهور المعرفة والبركة

٣ ش مكة المكرمة الطريق الأبيض أرض اللواء الجيزة

رقيم الإيداع : ٢١٤٩١ / ٢٠١٢

الترقيم الدولي : ٢٦٣٠١٠١٠٢٦٢١

هاشم ، محمد يونس

المدارس السلفية ، وجدلية النقل والعقل والمصلحة : دراسة موضوعية مقارنة

الجيزة : دار زهور المعرفة والبركة ، ٢٠١٢

ص ٤١١، ٢٤×١٧ سم

١- الإسلام – دعوات سلفية

أ- العنوان ٢١٧

المقدمة

دين الله عقيدة وشريعة: فالعقيدة هي الإيمانيات والمعتقدات، وهذه اتفق عليها كل المرسلين، فما من نبي إلا وقد قال لقومه { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}(الأعراف : ٥٩)

فعقيدة الأنبياء أجمعين من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليهم أجمعين هي توحيد رب العالمين: توحيده رباً خالقاً، وإلهاً معبوداً، وفعَّالاً لما يريد ، ومالك يوم الدين .

يقوله تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ } (الأنبياء:٢٥)

وإذا كان جميع الرسل يتفقون في وجوب الإيمان بالله تعالى وتوحيده وعبادته فإن شرائعهم مختلفة فلكل نبي شرعة ومنهاج .

يقول تعالى : { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } (المائدة: ٤٨)

هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد، كما ثبت في صحيح البخاري، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: " نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات [١] ديننا واحد " يعني بذلك التوحيد، الذي بعث الله به كل رسول أرسله، وضمنه كل كتاب أنزله، كما قال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ } (الأنبياء: ٢٥) وقال تعالى: { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } (النحل: ٣٦) ، وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفاً فيزاد في الشدة في هذه دون هذه. وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة. [٢]

---

(١) الإخوة لعلات: هم الإخوة من الأب ومعنى الحديث : أن دين الأنبياء واحد ، وهو توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة ، وإن تفرقت شرائعهم ، كمثل الإخوة الذين لهم أب واحد وأمهات شتى .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٢٩

إذن أصول الدين التي جاء بها الرسل واحدة، وهي دين الإسلام، قال الله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ} (آل عمران : ٩) وأما فروعه وهي الشرائع فقد تختلف، ورغم اختلافها فإنها تتفق على الحفاظ على الضروريات (الكليات) الخمس: الدين، والعقل، والنفس، والعرض، والمال ، كما تتفق إنها جاءت جميعها لمصلحة العباد تلك المصلحة التي لا بد أن يتوفر فيها شرطان : القطعية ، والكلية .

فالمصلحة التي تعتد بها الأديان السماوية مصلحة قطعية أي مجزوم بتحقيق النفع من ورائها غير مشكوك في ذلك ، كما ينبغي أن يكون هذا النفع نفع عام يشمل سائر الأمة وليس قاصراً على نفع فئة دون سواها .

يقول رشيد رضا : " إن المصلحة تُعتبر في حجج الشرع وأصوله إذا كانت ضرورية قطعية كلية ، فالضرورية : أن تكون إحدى الكليات الخمس التي عليها مدار الشرع ، وهي : حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسب (أي النسل الشرعي ، ويدخل فيه تحريم الزنا واللواط) ، والقطعية : هي المجزوم بحصول المصلحة فيها دون ما كانت مظنونة ، والكلية : ما كانت فائدتها عامة للأمة لا لشخص معين . " [١]

ومما تميزت به الشريعة المحمدية أنها أحلّت للناس كل الطيبات وحرمت عليهم كل الخبائث ووضعت عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم وشرعت لهم أموراً تتعلق بعباداتهم ومعاملاتهم امتازت باليسر والتخفيف .

{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } (الأعراف: ١٥٧)

يقول الشيخ محمد عبد الله دراز : " يجب أن يفهم – أن تعديل الشريعة المتأخرة للمتقدمة – ليس نقضاً لها ، وإنما وقوفاً بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدر .

مثل ذلك كمثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل في الطور الأول من حياته، فقصر غذاءه على اللبن ، وجاء الثاني من مرحلته التالية فقرر له طعاماً ليناً ، وطعاماً نشوياً خفيفاً ، وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها فأمر له بغذاء قوي كامل.

---

(١) محمد رشيد رضا " مجلة المنار " ج ٢٣ ص ٤٢١

لا ريب أن ها هنا اعترافاً ضمنيّاً من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقاً كل التوفيق في علاج الحالة التي عرضت عليه ، نعم إن هناك قواعد صحية عامة في النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها ، لا تختلف باختلاف الأسنان فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل ، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين .

هكذا الشرائع السماوية ، كلها صدق وعدل في جملتها وتفصيلها ، وكلها يصدق بعضها بعضاً من ألفها إلى يائها ، ولكن هذا التصديق على ضربين : تصديق للقديم مع الإذن ببقائه واستمراره ، وتصديق له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية " (١)

فالشرائع تختلف في الفروع المناسبة للزمان وللمكان وللبيئة ، أما الأخلاق والعقائد فهي واحدة فمنهج مُوحَّد عند جميع الرسالات ، كما قال سبحانه : { شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ . . } (الشورى : ١٣)

فدينٍ الله واحد ، نزل به جميع الرسل والأنبياء ، فإنْ قلتَ : فما بال قوله تعالى : { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً . . } (المائدة : ٤٨)

نقول : نعم ، لأن العقائد والأصول هي الثابتة التي لا تتغير : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أمّا المنهج والشريعة الخاصة بالفروع فهي محلُ التغيير بين الرسل؛ لأنها أمور تتعلق بحركة الحياة ، والحق ، تبارك وتعالى ، يعطي لكل بيئة على لسان رسولها ما يناسبها وما يعالج أمراضها وداءاتها .

والشِّرْعة : هي القانون الذي يحكم حركة حياتك ، أمَّا الدين فهو الأمر الثابت والموحَّد من قبل الله ، عز وجل ، والذي لا يملك أحد أنْ يُغيِّر فيه حرفاً واحداً .
لذلك ، كانت آفة الأمم أنْ يجعلوا أنفسهم فرقاً مختلفة وأحزاباً متباينة ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم : { إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ }
(الأنعام : ١٥٩)
فالله تعالي يقول : { فَرَّقُواْ دِينَهُمْ . . } ولم يقُلْ : فرّقوا شريعتهم ولا منهجهم ، ذلك لأن الدين واحد عند الله ، أمّا المناهج والشرائع فهي مجال الاختلاف على حَسْبِ ما في الأمة من داءات ، فهؤلاء كانوا يعبدون الأوثان ، وهؤلاء كانوا يُطففون الكيل والميزان ، وهؤلاء كانوا يجحدون نِعَم الله . . الخ .

وآفة المسلمين في التعصُّب الأعمى الذي يُنزِل الأمور الاجتهادية التي ترك الله لعباده فيها حريةً واختياراً منزلةَ الأصول والعقائد التي لا اجتهادَ فيها ، فيتسرَّعون

(١) نقلاً عن د. محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ج١ ص ٢١٣

في الحكم على الناس واتهامهم بالكفر لمجـرد الاخـتلاف فـي وجهـات النظـر الاجتهادية .

فمن رحمة الله بنا أنْ جعل الأصول واحدة لا خلاف عليها ، أما الفروع والأمور الاجتهادية التي تتأتّى بالفهم من المجتهد فقد تركها الله لأصحاب الفهم ، { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرسول وإلى أُولِي الأمر مِنهُمْ لَعَلِمَهُ الذين يَسْتَنبِطُونَهُ مِنهُمْ . . } (١)

وأمة محمد ﷺ ينطبق عليها ما انطبق على سائر الأمم ينبغـي ألا تختلـف فـي أصول العقيدة ، وما هو معلوم من الدين بالضرورة ، قطعي الثبوت والدلالة ، أمـا الفروع والأمور غير قطعية الثبوت والدلالة فهي مجال اجتهاد ممن تـوفرت فـيهم شروط الاجتهاد ، والأمور الاجتهادية تتغير بتغير الزمان والمكان والحـال تمامـا مثل شرائع الرسل السابقين بشرط أن يكون هدف هذه الاجتهادات مصلحة الأمـة ، وأن تكون ضرورية قطعية كلية ، كما بينا ، وألا تخرج عن مقاصد الشريعة التـي يقول فيها ابن القيم : " إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فـي المعاش والمعاد وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفـسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صـدق رسوله ﷺ " (٢)

فالأمور التي أحكمها الله باللفظ الصريح المُحْكَم أصول لا خلافَ عليها ولا اجتهادَ فيها ، وأما الأمور التي تركها سبحانه للاجتهاد فيجـب أن نحتـرم فيهـا اجتهـاد الآخرين ، وإلا لو أراد الحق سبحانه لجعل الأمر كله مُحْكماً لا مجالَ فيه لـرأي أو اجتهاد .

وهذا منهج الصحابة رضوان الله عليه أجمعين لم يختلفوا أبداً حول أصول العقيدة وإن تنوعت اجتهاداتهم حول فروع الدين ولم ينكر واحد منهم على الآخر اجتهاده ، بل عدُّوا ذلك من وجوه السعة على الأمة .

يقول الشاطبي : " إن الله حَكَمَ بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلـة للأنظـار ومجالاً للظنون وقد ثبت عند النظار أن النظريات لا يمكـن الاتفـاق فيهـا عـادة فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف لكن في الفروع دون الأصول وفي الجزئيـات دون الكليات فلذلك لا يضر هذا الاختلاف .

---

(١) تفسير الشعراوي ص ٦١٦١
(٢) ابن قيم الجوزية " إعلام الموقعين " ج ٣ ص ٣

يقول تعالى : { وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } (هود : ١١٨)

إنا نقطع بأن الخلاف في مسائل الاجتهاد واقع ممن حصل له محض الرحمة وهم الصحابة ومن اتبعهم بإحسان رضي الله عنهم بحيث لا يصح إدخالهم في قسم المختلفين بوجه فلو كان المخالف منهم في بعض المسائل معدوداً من أهل الاختلاف، ولو بوجه ما ، لم يصح إطلاق القول في حقه : إنه من أهل الرحمة وذلك باطل بإجماع أهل السنة .

أن جماعة من السلف الصالح جعلوا اختلاف الأمة في الفروع ضرباً من ضروب الرحمة وإذا كان من جملة الرحمة فلا يمكن أن يكون صاحبه خارجاً من قسم أهل الرحمة .

وبيان كون الاختلاف المذكور رحمة ما روي عن القاسم بن محمد قال : لقد نفع الله باختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في العمل لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنه في سعة .

وروى ابن وهب عن القاسم أيضاً قال : لقد أعجبني قول عمر بن عبد العزيز : ما أحب أن أصحاب محمد رسول الله ﷺ لا يختلفون لأنه لو كان قولاً واحداً لكان الناس في ضيق وإنهم أئمة يقتدى بهم فلو أخذ رجل بقول أحدهم كان سنة .

ومعنى هذا أنهم فتحوا للناس باب الاجتهاد وجواز الاختلاف فيه لأنهم لو لم يفتحوه لكان المجتهدون في ضيق لأن مجال الاجتهاد ومجالات الظنون لا تتفق عادة فيضير أهل الاجتهاد مع تكليفهم باتباع ما غلب على ظنونهم مكلفين باتباع خلافهم وهو نوع من تكليف ما لا يطاق وذلك من أعظم الضيق فوسع الله على الأمة بوجود الخلاف الفروعي فيهم فكان فتح باب الأمة للدخول في هذه الرحمة فكيف لا يدخلون في قسم من رحم ربك ؟! فاختلافهم في الفروع كاتفاقهم فيها والحمد لله . [١]

وبعد عصر الصحابة استمر التابعين لهم بإحسان على نفس المنهج ، ولكن بعد ذلك للأسف بدأ التنابذ بين المجتهدين والاتهام بالفسق والتبديع بل وبالكفر أيضاً حتى في الأمور التي يجوز الاختلاف فيها مما فرق المسلمين شيعاً وهذا ما حذر الله تعالى منه .

{ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } (الأنعام: ١٥٩)

---

(١) الشاطبي " الاعتصام " ج ١ ص ٤١٣

والآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفًا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه { وَكَانُوا شِيَعًا } أي: فرقًا كأهل الملل والنحل ، وهي الأهواء والضلالات ، فالله قد برَّأ رسوله مما هم فيه .[1]

وللأسف الشديد فإن المسلمين في هذا الزمان اختلفوا وتفرقوا شيعاً وأصبحوا {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } (الروم: ٣٢)

فتفرَّق المسلمون في الدين إلى أحزاب وشيع، وجعلوا دينهم أدياناً رغم أنهم متفقون في أصول الدين ، ولكنهم جعلوا الاختلاف على الفروع كالاختلاف على الأصول يوجب التكفير ولم يعد كثير من هذه الجماعات يحاول تفهم موقف الآخر والتعاون معه فيما اتفقوا عليه والتماس الأعذار لهم فيما اختلفوا فيه من الحق .

أخرج البيهقي قول جعفر بن محمد : " إذا بلغك عن أخيك الشيء تنكره فالتمس له عذراً واحداً إلى سبعين عذراً ، فإن أصبته، وإلا، قل لعل له عذراً لا أعرفه." .

وأخرجه ابن عساكر بسنده إلى محمد بن سيرين قوله : " إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذراً ، فإن لم تجد له عذراً فقل لعل له عذراً " .

لم نعد نلتمس للمختلفين معنا أعذاراً بل صرنا نتتبع عورات بعض وسقطات بعض ونشنِّع بها بدلاً من التواصي بالحق والتواصي بالصبر لم نعد نقول " رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب " كما أثر عن الأئمة المجتهدين بل ادعت كل فرقة العصمة لرأيها فهو صواب لا يحتمل الخطأ ورأي غيرها خطأ لا يحتمل الصواب ، وهكذا صارت كل فرقة أو جماعة معجبة برأيها زاعمة أن الحق معها وحدها وما عداها باطل ، والله عزَّ وجلَّ أمرنا بالاعتصام بدينه وحرم علينا الفرقة .
{ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا } (آل عمران : ١٠٣)
والقرآن الكريم هو حبل الله المتين الذي ينبغي التمسك به ، وكذلك يجب التمسك بالمعلوم من الدين بالضرورة الذي اتفقت عليها الأمة .
قال رسول الله ﷺ : "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هو حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وهو النور المبين وهُوَ الشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، ونَجَاةٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ" (رواه الحاكم بسند صحيح)

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٧٧

ولا ينبغي التفرق بسبب الأمور الاجتهادية الخلافية وقد وردت الأحاديثُ المتعددة بالنهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف .

قال رسول الله : "إنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا، ويَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا، يَرْضى لَكُمْ: أنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وأنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا، وأنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاهُ اللهُ أمْرَكُمْ؛ ويَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وإضَاعَةَ الْمَالِ" (رواه مسلم) .

فالمجتهدون المختلفون في كتاب الله بالحقٍ مهديون جميعاً أما المختلفون في كتاب الله بسبب البغي والهوى والحقد والحسد فضالون .

{ كَانَ النَاس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النبيين مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزلَ مَعَهُمُ الكتَاب بالحق لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَاسِ فِيمَا اختلفوا فيه وَمَا اختلف فيه إلاَّ الذين أُوتُوهُ من بَعْد مَا جَآءَتْهُمُ البينات بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى الله الذين آمَنُواْ لِمَا اختلفوا فِيهِ مِنَ الحق بِإِذْنِهِ والله يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } (البقرة : ٢١٣)

إن الله يهدي الذين آمنوا من كل قوم بالرسول الذي جاء مبشراً ومنذراً وحاملاً منهج الحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . وبذلك يظل المنهج سائداً إلى أن تمضي فترة طويلة تغفل فيها النفوس ، وتبدأ من خلالها المطامع ويحدث النسيان لمنهج الله ، وتنشأ الأهواء ، فيرسل الله الرسل ليعيدوا الناس إلى المنهج القويم ، واستمر هذا الأمر حتى جاءت رسالة الإسلام خاتمة وبعث الله سيدنا محمداً ﷺ للدنيا كافة ، وبذلك ضمن لنا الحق سبحانه وتعالى ألا ينشأ خلاف في الأصل؛ لأننا لو كنا سنختلف في أصل العقيدة لجرى علينا ما جرى على الأمم السابقة . هم اختلفوا فأرسل الله لهم رسلاً مبشرين ومنذرين ، لكن أمة محمد ﷺ وسلم أراد الحق لها منهجاً واضحاً يحميها من الاختلاف في أصل العقيدة . وإن اختلف الناس من أمة محمد ﷺ فعليهم أن يسترشدوا بالمنهج الحق المتمثل في القرآن والسنة . (١)

وكان النبي ﷺ إذا قام من الليل يفتتح صلاته قائلاً : " اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِى لِمَا اخْتُلِفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ ، إِنَّكَ تَهْدِى مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " . (رَوَاهُ مُسْلِمٌ)

وفي الدعاء المأثور: " اللهم، أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً ووفقنا لاجتنابه، ولا تجعلْه ملتبسًا علينا فنضل، واجعلنا للمتقين إمامًا " .

---

(١) تفسير الشعراوي ص ٥٦١

وفي هذا الكتاب نحاول رأب الصدع الذي وقع بين أبناء الأمة الواحدة مبينين ما لا ينبغي الخلاف فيه ، وما يسوغ فيه الاختلاف من خلال عرض لمنهج السلف الصالح في فهم كتاب الله تعالى والسنة الصحيحة في مجالي : العقيدة والشريعة . مع استعراض للمدارس السلفية المختلفة التي سعت للجمع بين النقل الصحيح والعقل الصريح في الوصول إلى مقاصد الشريعة وتحقيق مصلحة الأمة .

لكن لماذا المدارس السلفية تحديداً ؟

لأنها تمثل رأي السنة والجماعة ونحن هنا في مصر ، كما في معظم العالم الإسلامي ، أتباع هذا المذهب وإن اختلفت مدارسه وتعددت اتجاهاته فإن الاختلاف بين أتباع هذا المذهب اختلاف تنوُّع وليس اختلاف تضاد ، غالباً ، وأن المسلمين المتمسكين بالدين الحريصين على اتباع شرع الله لا يخرج ، عامة ، عن اتباع مدرسة من مدارسه المتعددة : الحنبلية أو الإصلاحية أو الوهابية أو النهضوية أو الإخوانية أو الألبانية ، أو الجهادية ...

وفي هذا الكتاب سوف نتتبع أسباب نشأة كل مدرسة والمنهج الذي انتهجته في التعامل مع النقل والعقل والمصلحة ، وعلاقة كل مدرسة بالسلطة الحاكمة ، ودوافعها للالتزام بهذا المنهج ، والأدلة التي استندت إليها ، وأهم اجتهادات أعلامها وجهادهم ، وما يستفاد من اجتهاداتهم وإنجازاتهم في حياتنا ، وما يؤخذ عليهم ويلتمس لهم فيه العذر ، ولا يلتمس لمقلديهم الآنٍ ، كل هذا في إطار الزمان والمكان والحال الذي عاشوا فيه وتأثروا به واثروا فيه ، ولقد اعتمدنا في بحثنا على كتابات أعلام كل مدرسة صحيحة النسب إليهم ومناقشة آراء أنصارهم وأعدائهم فيهم .

والله نسأل أن يساهم هذا الكتاب في توحيد الأمة وائتلافها وقبول رأي الآخر وتفهم دوافعه والتماس الأعذار له والتعاون معه فيما فيه صالح البلاد والعباد .

{ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } (هود : ٨٨)

محمد يونس هاشم

٧/ ١١/ ٢٠١٢

***

الفصل الأول

العقيدة في عهد النبوة والصحابة

الإســــــلام

الإسلام يشمل جانبين اثنين ، تتفرع عنهما سائر الجوانب الأخرى وتعود إليهما :

الجانــب الأول : الأصول الاعتقادية ، وهي الأساس النظري الذي يشكل القاعــدة الأساسية في بناء هذا الدين ، ومنه ينطلق المؤمن ، ويضبط حركته كلها بضوابطه، ويوجه سلوكه وأعماله بمقتضاه ، وهو يفسِّر له أصل نشأة الإنسان وغايته ومصيره ويحدد علاقته بالوجود كله من الحياة والأحياء بعد أن يحدد له صلة بــالله تعــالى ، وهذا الجانب هو العقيدة التي تقوم على أصول نسميها أصول الإيمان وأركانه ، مما يجب أن يعتقد به المؤمن ويصدِّق به ، وتسمى الأحكام المتعلقة بهذه النواحي أحكاماً أصلية أو اعتقادية .

والجانب الثاني : هو النظام الذي ينبثق عن تلك الأصول الاعتقادية ويقوم عليها ، ويجعل لهذه الأصول صورة واقعية متمثلة في حياة البشر الواقعية ، لذا فهو يحــدد للمكلفين حدوداً في أقوالهم وأفعالهم كما يقول الشاطبي فيبين كيفية عمل المكلــف ، والإتيان به على الوجه الذي أمر به الــشرع ؛ فــي الــشعائر التعبديــة والنظــام الاجتماعي ، ونظام الأسرة ، والنظام الاقتصادي وفي قواعد الأخلاق.. وفي كل ما من شأنه تنظيم حياة الناس وارتباطاتهم وعلاقاتهم ..وتسمى الأحكام المتعلقة بهــذه الجوانب كلها : أحكاماً فرعية أو عملية ؛ لأنها عمل متفرع عن الاعتقاد .

والعلم المتعلق بالجانب الأول من هذين الجانبين يسمى علــم العقيــدة أو أصــول الدين. والعلم المتعلق بالجانب الثاني يسمى علم الشرائع والأحكام ، لأنها لا تــستفاد إلا من جهة الشرع ، ولا يسبق الفهم ، عند الإطلاق ، إلا إليها . (١)

---

(١) عثمان جمعة ضميرية " مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية " موقع المختار الإسلامي .

العقيدة الإسلامية : هي الإيمان الجازم بربوبية الله تعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وسائر ما ثبت من أمور الغيب، وأصول الدين، والتسليم التام لله تعالى في الأمر، والحكم، والطاعة، والاتباع لرسوله ﷺ .

{ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ } (البقرة: ٢٨٥)

وعندما سأل سيدنا جبريل سيدنا محمد ﷺ عن الإيمان قال ﷺ : " أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخر، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ" قَالَ: صَدَقْتَ." (رواه مسلم)

فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه. ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مَهْدِيون هادون إلى سُبُل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله، حتى نسخ الجميع بشرع محمدٌ ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين. (١)

كذلك يجب على المؤمن الإيمان بالبعث والنشور والحساب والجنة والنار بعد الموت، ويجب على المؤمن أن يعمل ما ينجيه من عذاب الله في الدنيا والآخرة . كما يجب عليه الإيمان بالقضاء والقدر " واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك" فترضى بما قسم الله لك .

ومن شعب الإيمان : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، والصلاة والصيام ، والزكاة ، والحج ، والجهاد في سبيل الله ، وبر الوالدين ، والإحسان إلى ذوي القربى والأيتام والمساكين وابن السبيل والجيران والعمال والخدم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولزوم الصبر في جميع الأمور ، والتواضع وعدم

---

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص ٧٣٦

الكبر ، وحفظ الفم والفرج فيما لا يحل ، ورعاية الأمانة والعهد . . إلخ ؛ لما ثبت أن النبي ﷺ قال : " الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ " (١)

العقل وأصول العقيدة

لقد خاطب الله تعالى أولى الألباب في ست عشرة مرة في كتابه العظيم .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الألْبَابِ }

كما أمر الله تعالى أولى الألباب بدراسة سير الأنبياء والصالحين واستخلاص العبرة والموعظة من حياتهم ، والإقتداء بهم في حياتهم الزاخرة بالإيمان والعمل الصالح .

{ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ}

كما أمر الله تعالى أولى الألباب تدبر دورة المياه في الحياة فكيف يصعد البخار العذب من أسطح المحيطات والبحار المالحة عندما تسقط أشعة الشمس عليها ، ثم يتكاثف في طبقات الجو ، وتحركه الرياح ليسقط على منابع الأنهار ويجرى بالخير والنماء فيشرب والناس والحيوان و وينبت الزرع مختلفا أوانه وطعومه وتنشأ{جَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }
(الرعد:٤)

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ } (الحديد : ٢١)

كما يقرر القرآن أن الراسخين في العلم هم الذين يؤمنون بكل ما أنزله الله .

{ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ } (آل عمران : ٧)

كما أن الله تعالى وصف أولى الألباب بأنهم هم أصحاب البصيرة الذين يدركون أن ما جاء به الأنبياء هو الحق بعكس الأغبياء الجهال الذي يصفهم الله تعالى بعمى القلب { أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } (الرعد : ١٩)

---

(١) راجع صحيح البخاري كتاب الإيمان .

كما يعلمنا الله تعالى أن أولى الألباب هم الذين يعملون بأحسن ما عرفوا من علوم الأقدمين وإبداعات المحدثين فهم غير مقلدين إنما يدرسون ويتعلمون ويعملون بأحسن ما عرفوا ودرسوا .

{ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ } (الزمر : ١٨)

واللب أخص من العقل وهو الخالص من الشوائب ، وقيل هو ما زكى من العقل وكل لب عقل ولا عكس .[١]

والعقل إن سيطر عليه الهوى فسد ، وإن بعد عن هدى الدين ضل ، وإن دخل فيما لا مجال له فيه شطّ .

{ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } (الجاثية : ٢٣)

ومما سبق يتبن لنا مدى تقدير الله تعالى للعقل حيث ترك له في مجال العقيدة أن يهتدي إلى أعظم حقيقتين في هذا الوجود : حقيقة وجود الله ووحدانيته ، وحقيقة ثبوت الوحي والنبوة والرسالة .

يلفت الله تعالى الإنسان إلى إدراك وجوده ، سبحانه ، بتدبر بديع خلقه والبحث عن خالق هذا الوجود .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ أُولِى الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } (آل عمران : ١٩١)

ثم يطلب الله تعالى من الإنسان أن يسأل نفسه بعد تفكره في خلق السموات والأرض وما بينهما .

{ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ } (الطور: ٣٥، ٣٦)

دنى الله تعالى لمنكري وجود الله تعالى بمسألة الخَلْق الظاهرة التي لم يدَّعها أحد، ولا يجرؤ أحد على إنكارها ، حتى المشركون والملاحدة؛ لأن أتفه الأشياء في

---

(١) لإمام المناوى" فيض القدير" ج٢ ص ٧٠

صناعاتهم يعرفون صانعها ، ويُقرُّون له بصنعته ، ولو كانت كوباً من زجاج أو حتى قلم رصاص ، لا بُدَّ أن لكل صنعة صانعاً يناسبها .

أليس مَنْ خلق السماوات والأرض والشمس والقمر . . إلخ أَوْلَى بأن يعترفوا له سبحانه بالخَلْق؟ وهم أنفسهم مخلوقون ولم يقولوا إنَّا خلقنا أنفسنا ، ولم يقولوا خلقنا غيرنا ، فمَنْ خلقهم إذن؟

إن الدَّعْوى تثبت لصاحبها ما لم يقُم لها معارض ، والحق - سبحانه وتعالى - قال علانية ، وعلى لسان رسله ، وفي قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة ، وأسمع الجميع : أنا خالق هذا الكون .

فإنْ قال معاند : فمَنْ خلق الله؟ نقول : الذي خلقه عليه أن يعلن عن نفسه .

والحق سبحانه شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ . . . } (آل عمران : ١٨) ولم يقُلْ أحد أنا الإله . إذن : الذين ينكرون الخالق لا حَقَّ لهم. هذا في جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الله .

أما الذين يؤمنون بوجود الله ، لكن يتخذون معه سبحانه شركاء ، فنجادلهم على النحو التالي : شركاؤكم مع الله غَيْب أم شهادة؟ إنْ قالوا : غَيْب فإن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية . وقال : أنا واحد لا شريك لي ، فأين كان شركاؤكم؟

لماذا لم يدافعوا عن ألوهيتهم مع الله؟ إما لأنهم ما دروا بهذا الإعلان ، وإما أنهم دَرَوا وعجزوا عن المواجهة ، وفي كلتا الحالتين تنفي عنهم صفة الألوهية ، فأيُّ إله هذا الذي لا يدري بما يدور حوله ، أو يجبن عن مواجهة خَصْمه؟

فإنْ قالوا : شركاؤنا الأصنام والأشجار والكواكب وغيرها ، فهذه من صُنْع أيديهم، فكيف يعبدونها ، ثم هي آلهة لا منهجَ لها ولا تكاليفَ ، وإلا فبماذا أمرتْهم وعَمَّ نهتْهم؟ إذن : عبادتهم لها باطلة .

ثم نسأل الذين يتخذون مع الله شركاء : أهؤلاء الذين تشركونهم مع الله يتواردون على الأشياء بقدرة واحدة ، أم يتناوبون عليها ، كل منهم بقدر على شيء معين؟

إنْ كانوا يزاولون بقدرة واحدة ، فواحد منهم يكفي والباقون لا فائدة منهم ، وإنْ كانوا يتناوبون على الأشياء ، فكلٌّ منهم قادر على شيء عاجز عن الشيء الآخر ، والإله لا يكون عاجزاً .

وقد رَدَّ الحق سبحانه على هؤلاء بقوله تعالى : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلى ذِي العرش سَبِيلاً } (الإسراء : ٤٢) أي : لَذهبوا إليه إما ليُعنفوه ويُصفُّوا حساباتهم معه ، وكيف أخذ الأمر لنفسه ، وإما ليتوددوا إليه ويعاونوه .

وفي موضع آخر : { إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ ولَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ } (المؤمنون : ٩١) [١]

انظر كيف ترك الله تعالى للعقل أن يهتدي إلى أعظم حقيقة في هذا الوجود وهي: حقيقة وجود الله ووحدانيته .

كما ترك الله تعالى للعقل أن يهتدي إلى حقيقة ثبوت الوحي والنبوة والرسالة .

{ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَى عَذَابٍ شَدِيدٍ } (سبأ : ٤٦)

الله تعالى يدعو الناس إلى التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون .

{ أن تقوموا لله . مثنى وفرادى } . . مثنى ليراجع أحدهما الآخر ، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ ، ولا تتلبث لتتبع الحجة في هدوء . . وفرادى مع النفس وجهاً لوجه في تمحيص هادئ عميق .

{ ثم تتفكروا . ما بصاحبكم من جنة } . . فما عرفتم عنه إلا العقل والتدبر والرزانة . وما يقول شيئاً يدعو إلى التظنن بعقله ورشده . إن هو إلا القول المحكم القوي المبين . [٢]

وهكذا عهد الله تعالى إلى العقل البشري أن يهتدي إلى أعظم حقيقيتين في مجال العقيدة : حقيقة وجود الله ووحدانيته ، وحقيقة ثبوت الوحي والنبوة والرسالة.

أما في مجال التشريع فقد ترك الحق تبارك وتعالى للعقل أن يصول ويجول في فهم النصوص فيفرع منها على الأصول وقيس على الفروع ويستنبط الأحكام ، ويكيف الوقائع ، ويراعى القواعد في جلب المصالح ، ودرء المفاسد ، ورفع الحرج، وتحقيق اليسر ، وتقدير الضرورات بقدرها، واعتبار العرف، ورعاية

---

(١) تفسير الشيخ الشعراوي ص ٧٠٢٣ ، ٧٠٢٤

(٢) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٦ ص ١٢٥ ، ١٢٦

ظروف الزمان والمكان . ولا عجب بعد ذلك أن تعددت المذاهب ، وتنوعت الأقوال ، وخلف لنا العقل الإسلامي في ضوء الوحي ثروة فقهية طائلة لها مكانها الرفيع في تراث الفقه العالمي .(١)

العقل والغيب

لقد فتح الله تعالى الباب واسعاً أمام العقل ليكتشف سنن الله تعالى في خلقه ، ويسخر القوانين التي تسير الكون في نفعه ، وأراحه من عناء البحث فيما لا مجال للعقل فيه من الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله وحده :

{ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} (الأنعام : ٥٩)

وسد الله تعالى على المؤمن باباً من أبواب الضلال الذي أفنى خلق كثير من الفلاسفة أعمارهم في الوصول إلى حقيقة من حقائقه بعيداً عن دين الله فما زادت عقولهم إلا جهلاً وما زادت قلوبهم إلا ضلالاً إنه باب علم الغيب .

{ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا } (الجن : ٢٦- ٢٧)

حتى الأنبياء والمرسلون – فما بالك بمن دونهم – لا يعلمون من الغيب شيئاً إلا ما أطلعهم الله تعالى عليه وهذا هو أعظم البشر أجمعين يقول :

{ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } (الأعراف : ١٨٨)

والغيب ما لا يدرك بالحواس ، والحواس هي منافذ العقل ولقد ضلّ كل من بحث في الغيب بعقله من فلاسفة اليونان ومن نهج نهجهم لذا وجه القرآن الكريم المسلم إلى ما تدركه حواسه في الكون ليبحث فيه فهو مجال علمه ، وأن يؤمن بما أخبره الله تعالى به من الغيب ، والقرآن حافل بالآيات الداعية للبحث في الكون اللافتة إلى بديع صنع الله .

---

(١) د. يوسف القرضاوى "الخصائص العامة في الإسلام " مكتبة وهبة صـ ٥٨

{ إنَّ في خَلْقِ السَّماوات والأرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ والفُلْكِ التي تَجْرِي في البَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ومَا أنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بهِ الأرْضَ بَعْدَ موْتِهَا وبثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (البقرة : ١٦٤)

{ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً} (نوح : ١٦ – ٢٠)

فالله تعالى يأمرنا بدراسة القمر،وهناك سورة باسمه، فهل صعدنا للقمر ودرسناه ؟
ويأمرنا أن ندرس الشمس ونستفيد من نورها وحرارتها فهل استفدنا من أشعتها وطاقتها ؟!

ويلفتنا إلى أنه سبحانه خلق الإنسان من طين الأرض ، فهل حللنا عناصر التربة وعناصر الإنسان وقارنا بين هذه العناصر وتلك ليزداد يقيننا بالله تعالى ؟!
هل درسنا الأرض وكيف { قدر فيها أقواتها } وما فوقها من أحياء { وما تحت الثرى } من كنوز .

من المؤسف أن كثيراً من المسلمين تركوا كل هذا لأعدائنا لكي يستطيلوا به علينا، وشغلوا أنفسهم بأمور غيبية نهانا رسول الله عن بالبحث فيها ، لقد اشتغل كثير من المسلمين قديماً وحديثا بقضية ذات الله تعالى وصفاته وأقحموها على أصول الدين وشغلوا الناس بها عن البحث في الكون وتدبر آيات الله فيه ، وأصبحت هذه القضية المنهي عن البحث فيها من أهم مباحث العقيدة ، ومن أهم أسباب تمزيق المسلمين شيعاً وأحزاباً وكان الأولى السكوت عنها فلقد نهانا النبي عن التكلم فيها بل عن نهانا عن مجرد التفكير فيها ، وسكت الصحابة عنها فلم يؤثر عن الصحابة ولا عن التابعين لهم بإحسان فيها شيء .

النهي عن التفكر في ذات الله تعالى

نهى النبي ﷺ عن التفكر في ذات الله تعالى، وأمر بالتفكر في آياته، كما في معجم الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : تفكروا في آلاء الله ولا تتفكروا في الله .(رواه الطبراني وحسنه الألباني)

وروت العلماء عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال : " تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله عز وجل فإن بين كرسيه إلى السماء ألف عام والله عز وجل فوق ذلك " (١)

اعتقاد الصحابة

اعلم أن الشارع لما أمرنا بالإيمان بهذا الخالق، الذي رد الأفعال كلها إليه، وأفرده بها كما قدمناه، وعرفنا أن في هذا الإيمان نجاتنا عند الموت إذا حضرنا، لم يعرفنا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود، إذ ذلك متعذر على إدراكنا ومن فوق طورنا. فكلفنا: أولاً، اعتقاد تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين، وإلا لما صح أنه خالق لهم، لعدم الفارق على هذا التقدير، ثم تنزيهه عن صفات النقص، وإلا لشابه المخلوقين. ثم توحيده بالاتحاد، وإلا لم يتم الخلق للتمانع، ثم اعتقاد أنه عالم قادر، فبذلك تتم الأفعال شاهد قضيته لكمال الإيجاد والخلق، ومريد وإلا لم يخصص شيء من المخلوقات، ومقدر لكل كائن، وإلا فالإرادة حادثة. وأنه يعيدنا بعد الموت تكميلاً لعنايته بالإيجاد، ولو كان للغناء الصرف كان عبثاً، فهو للبقاء السرمدي بعد الموت. ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء هذا المعاد، لاختلاف أحواله بالشقاء والسعادة، وعدم معرفتنا بذلك، وتمام لطفه بنا في الإنباء بذلك، وبيان الطريقين. وأن الجنة للنعيم وجهنم للعذاب. هذه أمهات العقائد الإيمانية، معللة بأدلتها العقلية، وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة. وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد إليها العلماء وحققها الأئمة، إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد، أكثر مثارها من الآي المتشابهة، فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل. فحدث بذلك علم الكلام.

ولنبين لك تفصيل هذا المجمل. وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود، بالتنزيه المطلق، الظاهر الدلالة من غير تأويل في آي كثيرة، وهي سلوب كلها وصريحة في بابها، فوجب الإيمان بها. ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها. ثم وردت في القرآن آي أخرى قليلة توهم التشبيه، مرة في الذات وأخرى في الصفات.

---

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات ٥٣٠ ، وأبو الشيخ في العظمة ٢١٢/١، وقال ابن حجر موقوف وسنده جيد الفتح ٣٨٣/١٣ .

فأما السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها، وعلموا استحالة التشبيه. وقضوا بأن الآيات من كلام الله، فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها، ببحث ولا تأويل. وهذا معنى قول الكثير منهم: اقرءوها كما جاءت، أي آمنوا بأنها من عند الله. ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها، لجواز أن يكون ابتلاء، فيجب الوقف والإذعان له."(١)

وجميع الفرق الإسلامية تقر أن السلف الصالح لم يتكلموا قط في نصوص الذات والصفات ، ومع ذلك فإن بعض الفرق الإسلامية تزعم إن ما ذهبوا له من رأي في صفات الله تعالى من أصول العقيدة من ينكرها كافر !!

وليس هناك نص واحد من قرآن كريم أو حديث صحيح ولا حتى ضعيف يقول إن نصوص صفات الله على الحقيقة وليست على المجاز أو العكس ، وأن من قال بأنها على المجاز فقد كفر ، أو من قال أنها على الحقيقة فقد كفر .

وسوف نفصل الكلام في هذا الموضوع – مضطرين – عند مناقشة رأي الفرق الإسلامية حول ذات الله تعالى وصفاته .

والآن ننتقل إلى الركن الثاني من ركني الإسلام وهو الشريعة ، بعد حديثنا عن الركن الأول وهو العقيدة .

***

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٧

الفصل الثاني
الشريعة في عهد النبي ﷺ والصحابة

كيف علّم النبي الصحابة الشريعة ؟

سوف نعرض الآن كيف علمَّ رسول الله الصحابةَ الشريعة ، والمنهج الذي اتبعه في فهم نصوصها وكيف كان سلوكهم معه حتى يتثنى لنا الاحتكام إلى هذا المنهج عند مناقشة الفرق الإسلامية المختلفة التي تقتدي بالسلف الصالح وتسير على نهجه.

كان النبي ﷺ إذا نزل عليه وحي أمر بكتابته وعلمه أصحابه .

{ وَمَا هُوَ عَلَى الغيب بِضَنِينٍ } (التكوير : ٢٤)

لا يبخل بالوحي ، ولا يقصر في التعليم والتبليغ .

وكان يدعو إلى دين الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن .

{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (النحل : ١٢٥)

وكان بالمؤمنين رءوف رحيم .

{ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } (التوبة: ١٢٨)

وإذا رأى منكراً نهى عنه بالحكمة والموعظة الحسنة وإذا رأى خطأ نبَّه له بلطف ورحمة ، كما فعل مع الرجل المسيء صلاته حيث أرشده ﷺ إلى الصفة الشرعية للصلاة . " إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاةِ فَأَسْبِغْ الْوُضُوءَ ثُمَّ اسْتَقْبِلْ الْقِبْلَةَ فَكَبِّرْ ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاتِكَ كُلِّهَا . " (متفق عليه)

وكما فعل مع النفر مع الذين تقالُوا عبادته فقال لهم معلِّماً : " مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي . " (رواه مسلم)

وعن أبي سَعِيد الْخُدْرِىِّ ، قَالَ : كَانَ النبي ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ في خِدْرِهَا ، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ في وَجْهِهِ " (متفق عليه)

وكان بين الحين والحين يعظ الصحابة ويعلمهم ، ولا يكثر عليهم في المواعظ .

عن ابن مسعود أنه قال : " كَانَ رسول الله ﷺ يَتَخَوَّلُنَا (يَتَعَهَّدُنَا) بِهَا (أي بالموعظة) مَخَافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا . " (متفقٌ عَلَيْهِ)

وكان ينهى أصحابه عن كثرة السؤال حتى لا يسألوا عن أشياء إن تبد لهم تسؤهم { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ } (المائدة: ١٠١)
نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الشيء قبل كونه؛ فلعله أن يُحرَّم من أجل تلك المسألة. ولهذا جاء في الصحيح: " إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ " (متفق عليه)

وعلَّمهم أن الله تعالى كَرِهَ لهم ثلاثاً : " إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاثًا قِيلَ وَقَالَ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ." (متفق عليه)

والذين يكثرون السؤال يكثر عندهم الخلاف، ولو أخذوا بما عليه العمل، وما تعلموه وعملوا به ، وازدادوا علماً بفقه الكتاب والسنة لحصلُوا خيراً عظيماً ، أما كثرة الأسئلة تؤدي إلى كثرة الخلاف .

فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ" (متفق عليه)

ولقد علَّم النبي ﷺ صحابته عدم تضييع الزمان بما لا طائل تحته ومثله الإكثار من التفريع على مسألة لا أصل لها في الكتاب ولا السنة ولا الإجماع وهي نادرة الوقوع جداً فيصرف فيها زماناً كان صرفه في غيرها أولى ولا سيما إن لزم من ذلك إغفال التوسع في بيان ما يكثر وقوعه .

وأشد من ذلك في كثرة السؤال البحث عن أمور مغيبة ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيتها ومنها ما لا يكون له شاهد في عالم الحس كالسؤال عن وقت الساعة وعن الروح وعن مدة هذه الأمة إلى أمثال ذلك مما لا يعرف إلا بالنقل الصرف والكثير منه لم يثبت فيه شيء فيجب الإيمان به من غير بحث وأشد من ذلك ما يوقع كثرة البحث عنه في الشك والحيرة .(١)

قال أنس بن مالك: " نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ .. " (رواه مسلم)

وعن البراء بن عازب، قال: " إن كان ليأتي عليَّ السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن شيء فأتهيب منه، وإن كنا لنتمنى الأعراب."

وعن ابن عباس، قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ ما سألوه إلا عن ثنتَي عشرة مسألة، كلها في القرآن: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ } (البقرة:٢١٩) و{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ } (البقرة: ٢١٧) ، و{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى } (البقرة: ٢٢٠) يعني: هذا وأشباهه (رواه الطبراني) .(٢)

أنتم أعلم بأمر دنياكم

وكما نهى الرسول صحابته عن السؤال فيما لا طائل تحته وما يوقع كثرة البحث عنه في الشك والحيرة وما لا يترتب عليه عمل أو عبادة – بيَّن لهم الفرق بين ما يقوله تشريعاً موحى به وبيْن رأيه واجتهاده في أمور الدنيا التي مردها للعلوم الإنسانية والخبرة البشرية : كالزراعة وأنواع الصناعة والخياطة والتجارة، وأشباه ذلك .

فيقول ﷺ : " أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ " (رواه مسلم)

يقول النووي في باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي : " فيه حديث إبار النخيل ، وأنه ﷺ قال : " ما أظن يغني ذلك شيئاً فخرج شيصاً ، فقال : " إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإني إنما ظننت ظناً ، فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به وفي رواية

---

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري بشرح صحيح البخاري " ج ١٣ ص ٢٦٧
(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٨٠ ، ٢٨١

"إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر " (وفي رواية) : أنتم أعلم بأمر دنياكم " (قال العلماء : قوله ﷺ : (من رأيـي) أي في أمر الدنيا ومعايشها لا على التشريع .[1]

لماذا كان النبي ﷺ يستشير أصحابه ؟

إن النبي ﷺ كان يستشير أصحابه في أمور الدنيا كالحرب والصلح والمعاهدات وينزل على رأيهم إن انشرح صدره له عملاً بقوله تعالى : { وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ}

فالأصل أن التشاور مطلوب شرعاً ، ولذا أمر الله سبحانه نبيه بمشاورة أصحابه في الأمر ، وأثنى على عباده المؤمنين بقوله: { وأمرهم شورى بينهم }

ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حَدَث، تطييبًا لقلوبهم؛ ليكونوا فيما يفعلونه أنشط لهم كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير ، وشاورهم أين يكون منزل الجند ؟ حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم إلى أمام القوم، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهُورُهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم.

وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ، فأبى عليه ذلك السَعْدَان: سعدُ بن معاذ وسعدُ بن عُبَادة، فترك ذلك.

وشاورهم يومَ الحُدَيبية في أن يميل على ذَرَاري المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجيء لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال.

وقال عليه السلام في قصة الإفك: "أشيروا عَلَيَّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمينَ فِي قَوْمٍ أبَنُوا أهلِي ورَمَوهُم، وايْمُ اللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أهْلِي مِنْ سُوء، وأبَنُوهم بمَنْ -والله- مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إلا خَيْرًا". واستشار عليّاً وأسامة في فراق عائشة، رضي الله عنها.

فكان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها.

وروى ابن مَرْدُويه، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: سُئل رسول الله ﷺ عن العَزْم؟ قال "مُشَاوَرَةَ أهْلِ الرَّأي ثُمَّ اتبَاعُهُم"[2]

ويقول الفخر الرازي في سبب مشاورة النبي ﷺ أصحابه :

---

(١) شرح النووي على مسلم ج ١٥ ص ١١٦
(٢) ذكره السيوطي في الدر .

الفائدة في أنه تعالى أمر الرسول بمشاورتهم وجوه : الأول : أن مشاورة الرسول ﷺ إياهم توجب علو شأنهم ورفعة درجتهم ، وذلك يقتضي شدة محبتهم له وخلوصهم في طاعته ، ولو لم يفعل ذلك لكان ذلك إهانة بهم فيحصل سوء الخلق والفظاظة . الثاني : أنه عليه السلام وإن كان أكمل الناس عقلاً إلا أن علوم الخلق متناهية ، فلا يبعد أن يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح ما لا يخطر بباله ، لا سيما فيما يفعل من أمور الدنيا فإنه عليه السلام قال : « أنتم أعرف بأمور دنياكم وأنا أعرف بأمور دينكم » ولهذا السبب قال عليه السلام : « ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم » الثالث : قال الحسن وسفيان بن عيينة إنما أمر بذلك ليقتدي به غيره في المشاورة ويصير سنة في أمته . (١)

اجتهاد النبي ﷺ في الأحكام الشرعية

ذهب جمهور أهل العلم إلى أنه يجوز للنبي أن يجتهد في الأحكام الشرعية والأمور الدينية ، واحتجوا بأن الله سبحانه خاطب نبيه كما خاطب عباده وضرب له الأمثال وأمره بالتدبر والاعتبار وهو أجلّ المتفكرين في آيات الله وأعظم المعتبرين بها . وإذا جاز لغيره من الأمة ممن هو أهل لذلك أن يجتهد - بالإجماع - مع كونه معرضاً للخطأ فلأن يجوز لمن هو مؤيد بالوحي ومعصوم عن الخطأ أولى .

وإذا اجتهد النبي ﷺ في حكم فإن كان صواباً أقر عليه ، وإن كان خطأً لم يقر عليه ونزل الوحي مبيناً ذلك ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها اجتهاده ﷺ في أسارى بدر وأخذه الفداء منهم ، فنزل قوله تعالى: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ } (الأنفال: ٦٧)

ونحو اجتهاده ﷺ في إذنه للمنافقين في التخلف عن غزوة تبوك ، فنزل قوله تعالى: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} (التوبة : ٤٣) . فعاتبه على ما وقع منه، ولو لم يكن عن اجتهاده وكان ذلك بالوحي لم يعاتبه .

فالحاصل أن للنبي ﷺ أن يجتهد في الأحكام الشرعية التي لا نص فيها ، فإذا أقر على اجتهاده فالواجب اتباعه ولا يجوز العدول عنه بحال وعلى هذا فكل ما ثبت مما ورد عنه ﷺ فهو حق لا مرية فيه وهو منزل من عند الله . (٢)

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ٤٤٥

(٢) د. عبد الله الفقيه " فتاوى الشبكة الإسلامية " ج٢ ص ١٢٥١

اجتهاد الصحابة في عهد النبوة

وربما يتصور الإنسان أن الاختلاف في الرأي برز بين الصحابة بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى وأنهم كانوا في عصر الرسالة على رأي واحد غير أن دراسة حياتهم يكشف عن وجود الاختلاف بينهم في الرأي والقضاء مع وجود الرسول بين ظهرانيهم وإليك نماذج منه .

قالَ النَّبِيُّ ﷺ للصحابة لَمَّا رَجَعَ مِنَ الأحْزَابِ : " لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إلا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ " ، فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمُ الْعَصْرُ فِي الطَّرِيقِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ نُصَلِّي ، لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ " (متفق عليه)

قول النبي ﷺ لا يصلين أحد الظهر أو العصر إلا في بني قريظة المبادرة بالذهاب إليهم وأن لا يشتغل عنه بشيء لا أن تأخير الصلاة مقصود في نفسه من حيث أنه تأخير فأخذ بعض الصحابة بهذا المفهوم نظراً إلى المعنى لا إلى اللفظ فصلوا حين خافوا فوت الوقت وأخذ آخرون بظاهر اللفظ وحقيقته فأخروها ولم يعنف النبي ﷺ واحداً من الفريقين لأنهم مجتهدون ففيه دلالة لمن يقول بالمفهوم والقياس ومراعاة المعنى ولمن يقول بالظاهر أيضاً وفيه أنه لا يعنف المجتهد فيما فعله باجتهاده إذا بذل وسعه في الاجتهاد وقد يستدل به على أن كل مجتهد مصيب وللقائل الآخر أن يقول لم يصرح بإصابة الطائفتين بل ترك تعنيفهم ولا خلاف في ترك تعنيف المجتهد وإن أخطأ إذا بذل وسعه في الاجتهاد " (١)

وظلَّ الاختلاف بين من يتمسك بظاهر النصوص ولا يتجاوزها ، ومن يجتهد في فهمها تحقيقاً للمصلحة العليا ومقاصد الإسلام إلى يوم الناس هذا مع اختلاف جد خطير وهو تحول الاختلاف من اختلاف تنوع إلى اختلاف تضاد .

الفرق بين اختلاف التنوع واختلاف التضاد

الاختلاف نوعان : اختلاف تنوع ، واختلاف تضاد .

اختلاف التنوع هو : ما يكون كل واحد من الرأيين أو الفعلين حقاً مشروعاً مثل : اختلاف الصحابة في فهم قوله ﷺ " لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إلا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ " وهذا

---

(١) د. سيد طنطاوي " التفسير والوسيط " ج ١ ص ٣١٤٦

الاختلاف لا ينبغي التنازع فيه بين المختلفين فكلاهما صحيح ومقبول ، وإن كـان أحدهم أرجح وأفضل ، فينبغي عدم التعصب للرأي الاجتهادي فهو محتمل للصواب والخطأ وأقوال الأئمة المجتهدين في ذلك معروفة .

يقول الشافعي رحمه الله : "رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأى غيري خطأ يحتمل الصواب "

وقد كان مالك رحمه الله يقول في مسائل اجتهادية: { إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَـا نَحْـنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ } (الجاثية:٣٢) ، ويقول: " ما منا أحد إلا راد ومردود عليه إلا صـاحب هذا القبر ﷺ ".

هذا لمن كان له أهلية في النظر في الأدلة ومعرفة الراجح من المرجـوح، أمـا العامي فمذهبه مذهب من يفتيه.

إن التعصب لرأى في الدين ينشأ من سوء الفهم ، فإن الفروع الفقهية التـي هـي مجال للتعصب فيها خلاف عند المجتهدين ، أما الأصول فهـي واضـحة لا يكـاد يجهلها أحد ، والرأي الاجتهادي ليس تنزيلاً من عند الله يلتزم ، وليس هو صـواباً دائماً، بل هو عرضة للخطأ أو يحتمله والسلف الصالح -على الرغم من اخـتلاف رأيهم في بعض المسائل الفرعية - كانوا إخوة متحابين ، يقتدي بعضهم ببعض في الصلاة، ويتزاورون ويتعاونون في الخير ، والتعصب للرأي هو في حقيقته اتبـاع للهوى ، والله يقول { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَـتَمَ عَلَـى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْـدِ اللَّـهِ أَفَـلا تَـذَكَّرُونَ } (الجاثية : ٢٣) ، ويقول : { وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُـوا دِيـنَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } (الروم : ٣١ ، ٣٢) [١]

ومع الأسف الشديد - وكما سنرى - صار اختلاف التنوع في الأمور الاجتهاديـة غير المعلومة من الدين بالضرورة مدعاة للتفسيق والتبديع والتكفيـر بـل التقاتـل واستحلال الدم !!!

هذا عن اختلاف التنوع أما اختلاف التضاد فهو الذي يكون فيه أحد الرأيين علـى صواب والآخر على خطأ ، ولا يمكن الجمع بينهما وقبول الرأيين معاً فهذا النـوع

---

(١) عطية صقر " فتاوى الأزهر " موقع وزارة الأوقاف المصرية ج١٠ ص ٣٩٦

من الاختلاف لا يحتمل إلا وجهاً واحداً مثل : الاختلاف بين الإيمان والكفر ، الحق والباطل ، والصدق والكذب ... إلخ وهو الخلاف في الأصول وما هو معلوم من الدين بالضرورة فلا يجوز لمن يسأل عن فرضية الحجاب للمرأة البالغ أن يقال له هناك رأيان : رأي يقول أنه فرض من فروض الإسلام ، ورأي آخر يقول إنه عادة تركية لا علاقة لها بالإسلام . واختر لنفسك ما تشاء من الرأيين !!

وإذا كان اختلاف التنوع مشروع وسائغ فإن اختلاف التضاد مذموم وغير سائغ ، ومع ذلك لا يجوز لصاحب الحق إلا أن يدعو المخالف له بالحكمة والموعظة الحسنة وجداله بالتي هي أحسن وإقامة الأدلة وكشف الشبهات وبيان الحق فإن عدل عن رأيه ولزم الحق بها ونعمة وإن إصر على باطله – في مجال الرأي– فحسابه على الله .

يقول تعالي لرسوله الكريم مبينا له منهاج الدعوة إلى دين الله تعالى :" { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ إلا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ } (الغاشية: ٢١ –٢٦)

{ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } (الرعد:٤٠)

{ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ }

{ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (الأنعام : ١٠٨)

يقول تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو.

{ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } (البقرة: ٢٧٢)

ومن الأمور التي اختلف حولها الصحابة الصلاة على شيخ المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول فقد وقف عمر أمام النبي ﷺ " قمت في صدره " ليمنعه من الصلاة عليه والنبي يقول ﷺ له " أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ " .

انظروا إلى أي درجة كان الصحابة يناقشون أمور دينهم مع النبي ﷺ وإلى أي درجة كان النبي ﷺ رحيماً بهم لم يكفر ولم يفسّق ولم يبدِّع من خالفه ووقف في وجهه يمنعه من الصلاة على شيخ المنافقين !!

وصدق الله تعالى : " { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ }

(آل عمران : ١٥٩)

وفي صلح الحديبية جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ فَقَالَ بَلَى فَقَالَ أَلَيْسَ قَتْلانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلاهُمْ فِي النَّارِ قَالَ بَلَى قَالَ فَعَلامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَقَالَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا فَانْطَلَقَ عُمَرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبَدًا فَنَزَلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى عُمَرَ إِلَى آخِرِهَا فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَفَتْحٌ هُوَ قَالَ نَعَمْ "

(متفق عليه)

وبعد أن عقد النبي صلح الحديبية قال لأصحابه : " قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا قَالَ فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنْ النَّاسِ فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ اخْرُجْ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا " (رواه البخاري)

لم يكن الصحابة { خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ } مجموعة من الأخشاب الطويلة العريضة ، التي استندت إلى الحوائط ، دون أن يكون فيها حسن ، أو نفع ، أو عقل . أو إحساس ، ولم يكن الصحابة قطع شطرنج مسلوبة الإرادة والقدرة والتفكير إنما كانوا رجالاً عظماء أصحاب فهم ووعي وذكاء { إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً } .

فالآية الكريمة مدح للمؤمنين على حسن تذكرهم وتأثرهم ووعيهم وتدبرهم ، وتعريض بالكافرين والمنافقين الذين يسقطون على باطلهم سقوط الأنعام على ما يقدم لها من طعام وغيره . [١]

وصحابة رسول الله ليسوا ملائكة معصومين { لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } (التحريم : ٦) إنما هم بشر صالحون مجتهدون يصيبون ويخطئون

(١) شرح النووي على مسلم ج ١٢ ص ٩٨

وعندما يخطئون يسارعون بالتوبة والاستغفار "كل بني آدم خطاء" أي كثيرو الخطأ إذ هو صيغة مبالغة "وخير الخطائين التوابون" أخرجه الترمذي وابن ماجه وسنده قوي .

نقول هذا لمن ادعى لهم العصمة وجعل كلامهم مقدساً يحكمون ولا يعقب لحكمهم مع أن هذه من صفات الله تعالى { لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }
(الرعد: ٤١)

عن عَائِشَةَ رضي الله عنها أنها قالت : " صَنَعَ النبي ﷺ شَيْئًا ، فَرَخَّصَ فِيهِ ، فَتَنَزَّهَ عَنْهُ قَوْمٌ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النبي عليه السلام فَخَطَبَ فَحَمِدَ اللَّهَ ، ثُمَّ قَالَ : " مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ ، فَوَاللَّهِ إِنِّى لأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً "

أن هذا العتاب وإن كان خطب به فلم يعين من أراد به ، ولا يقرعه من بين الناس، وكل ما جرى هذا المجرى من عتاب يعم الكل ولا يقصد به أحد بعينه فهو رفق بمن عنى به وستر له . (١)

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ عَامَ الْفَتْحِ إِلَى مَكَّةَ فِي رَمَضَانَ فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ كُرَاعَ الْغَمِيمِ فَصَامَ النَّاسُ ثُمَّ دَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ فَرَفَعَهُ حَتَّى نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ ثُمَّ شَرِبَ فَقِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ صَامَ فَقَالَ أُولَئِكَ الْعُصَاةُ أُولَئِكَ الْعُصَاةُ " (رواه مسلم)

وهؤلاء العصاة أمروا بالفطر أمراً جازماً لمصلحة بيان جوازه فخالفوا الواجب ؛ اجتهاداً منهم وحباً في الصوم وعملاً بقوله تعالى { فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } (البقرة :١٨٤) ولم يفهموا أن النبي يشرع للأمة الإفطار في السفر لمن تضرر بالصوم .فهم لم يعصوا النبي عنداً وكبراً إنما اجتهاداً في فهم الدين ظناً منهم أن الأمر للتخيير وليس للوجوب .

والشاهد أن الصحابة في عهد النبي ﷺ كانوا يجتهدون فيصيبون وقد يخطئون ، يتفقون وقد يختلفون بل أحياناً يصل بهم الاختلاف إلى الخلاف والتنازع بين يدي رسول الله .

وبسبب تنازع اثنين من صحابة رسول الله وتشاتمهما رفع تعيين ليلة القدر .

---

(١) ابن بطال " شرح صحيح البخاري " ج ٩ ص ٢٨٦

" خرج النَّبِيُّ ﷺ لِيُخْبِرنا بلِيْلَةِ الْقدْرِ فتلاحى رَجُلانِ (تنازعا وتشاتما) مِنْ الْمُسلِمِينَ فقال خَرجْتُ لأُخْبِركُمْ بلِيْلَةِ الْقَدْرِ فَتَلاحَى فُلانٌ وَفُلانٌ فَرُفِعَتْ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ " (رواه البخاري)

ورغم أن تلاحي الصحابيين لم يكن أمراً محموداً لكن النبي ﷺ قال : "وعسى أن يكون خيرًا لكم" يعني: عدم تعيينها لكم، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها في ابتغائها في جميع محال رجائها، فكان أكثر للعبادة، بخلاف ما إذا علموا عينها فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط. وإنما اقتضت الحكمة إيهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها، ويكون الاجتهاد في العشر الأواخر أكثر. ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان، حتى توفاه الله، عز وجل. ثم اعتكف أزواجهُ من بعده . (١)

وبسبب التنازع بين كبار الصحابة حرم المسلمون من كتاب رسول الله الذي يحمينا من الضلال .

فعنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " لَمَّا اشْتَدَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَجَعُهُ قَالَ ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لا تَضِلُّوا بَعْدَهُ قَالَ عُمَرُ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ غَلَبَهُ الْوَجَعُ وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللَّهِ حَسْبُنَا فَاخْتَلَفُوا وَكَثُرَ اللَّغَطُ قَالَ قُومُوا عَنِّي وَلا يَنْبَغِي عِنْدِي التَّنَازُعُ فَخَرَجَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ إِنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ كِتَابِهِ " (البخاري)

فكان ذلك ــ والله أعلم ــ وحياً أوحى الله إليه أنه إن كتب لهم ذلك الكتاب لم يضلوا بعده البتة فتخرج الأمة عن مقتضى قوله : { ولا يزالون مختلفين } بدخولها تحت قوله : { إلا من رحم ربك } فأبى الله إلا ما سبق به علمه من اختلافهم كما اختلف غيرهم رضينا بقضاء الله وقدره ونسأله أن يثبتنا على الكتاب والسنة ويميتنا على ذلك بفضله . (٢)

بل وصل الأمر ببعضهم الاعتراض على قسمة رسول الله ومع ذلك رفض رسول الله الرحمة المهداة أن يقتله خالد بن الوليد .

وهذا نص الحديث كما رواه الشيخان : " بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، مِنَ الْيَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ؛ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا، قَالَ:

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٤٥١

(٢) الشاطبي " الاعتصام " ج ١ ص ٤١٣

فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَأَقْرَعَ بْنِ حَابِسٍ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلاَءِ قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، نَاشِزُ الْجَبْهَةِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الإِزَارِ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ اتَّقِ اللهَ قَالَ: وَيْلَكَ أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ .

قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلاَ أَضْرِبُ عُنُقَهُ قَالَ: لا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي فَقَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ قُلُوبَ النَّاسِ، وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ قَالَ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ، وَهُوَ مُقَفٍّ، فَقَالَ: إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِي هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ رَطْبًا، لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ وَأَظُنُّهُ قَالَ: لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ " (متفق عليه)

بل وصل الأمر إلى أن بعض الصحابة خاضوا في عرض زوجة النبي عائشة الصديقة بنت الصديق دون بيِّنة ولا شهود عدول ، وعندما تأكد ﷺ من براءتها – قبل أن يبرأها الله تعالى – واستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول الذي تولى كبره كاد الصحابة يقتتلون في المسجد وهو قائم على المنبر .

جاء في الصحيحين عن السيدة عائشة أن رسول الله : " اسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلا خَيْرًا وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلا خَيْرًا وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلا مَعِي قَالَتْ فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ فَقَالَ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْذِرُكَ فَإِنْ كَانَ مِنْ الأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ قَالَتْ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ الْخَزْرَجِ وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بِنْتَ عَمِّهِ مِنْ فَخِذِهِ وَهُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ قَالَتْ وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلا صَالِحًا وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَقَالَ لِسَعْدٍ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لا تَقْتُلُهُ وَلا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنْ الْمُنَافِقِينَ قَالَتْ فَثَارَ الْحَيَّانِ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَلَّمَ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَتْ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ " .

اجتهاد الصحابة بعد عصر النبوة

واجه المسلمون بعد أن اتسعت رقعة الإسلام واختلطوا بسكان البلاد المفتوحة مسائل كثيرة في كل شأن من شئون الحياة تحتاج إلى تشريع لم يكونوا يحتاجون إليه وهم في الجزيرة ، وواجه الصحابة والتابعون الأوائل أمراً عظيماً ولم يدَّع أحد أن القرآن الكريم والسنة الصحيحة نصا في المسائل الجزئية على كل ما كان وما هو كائن فنتج عن هذا أن كان أصل آخر من أصول التشريع وهو الرأي الذي نُظِّم بعدُ وسمي القياس .

جرى على هذا كثير من الصحابة فكانوا يستعملون رأيهم حيث لا نص وقد نقل إلينا المؤرخون والمحدِّثون والفقهاء جملة صالحة من المسائل التي استعمل فيها الصحابة رأيهم فلم يكد يتوفى النبي ﷺ حتى رأوا أنفسهم أمام أكبر مشكلة قانونية وهي من يتولى الأمر بعده أمن المهاجرين أم من الأنصار ؟ أم من هؤلاء أمير ومن هؤلاء أمير ؟ وإذا فصل في ذلك فمن هو خير من يتولاها ؟

لم يرد في ذلك نص في كتاب ولا سنة فلم يكن إلا أن يستعملوا رأيهم . [١]

قال أحد الأنصار : " مِنَّا أميرٌ ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، فَكَثُرَ اللَّغَطُ ، وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ حَتَّى فَرِقْتُ مِنَ الاخْتِلافِ ، فَقُلْتُ : ابْسُطْ يَدَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ، فَبَسَطَ يَدَهُ ، فَبَايَعْتُهُ وَبَايَعَهُ الْمُهَاجِرُونَ ، ثُمَّ بَايَعَتْهُ الأَنْصَارُ ، وَنَزَوْنَا عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ، قَتَلْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ، فَقُلْتُ : قَتَلَ اللَّهُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ . "

(رواه البخاري)

ولم يفرغ أبو بكر من مبايعة الناس له حتى واجه مسألة الردة فرأى قوماً يمتنعون عن أداء الزكاة مع إقرارهم بالإسلام وإتيانهم الصلاة فكيف يصنع بهم ، ولم تحدث حادثة كهذه في عهد النبي ؟ فلجئوا إلى الرأي فقال عمر : كيف نقاتلهم وقد قال عليه الصلاة والسلام : " أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَهَ إلا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ " فقال أبو بكر : ألم يقل إلا بحقها فمن حقها إيتاء الزكاة كما أن من حقها إقام الصلاة .

وكذلك عرضت فكرة جمع القرآن في مصحف واختلف الرأي أولاً بين أبي بكر وعمر ، حتى شرح الله صدر أبي بكر لقول عمر .

---

(١) أحمد أمين " فجر الإسلام " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٣٧٣ ، ٣٧٤

وعرضت لهم مسألة الجد مع الإخوة هل يرث الإخوة ؟ فالقرآن الكريم لم ينص على هذه المسألة إنما نصَّ على الأب مع الإخوة فذهب ابن عباس وأبو بكر إلى أنه يحجبهم كالأب وذهب آخرون ومنهم زيد بن ثابت وعليٌّ وعمر إلى إرثهم معه ، وأرادوا أن يعطوا الغنائم التي يغنمونها في الحروب فاختلفوا هل يسوِّى بين المهاجرين والأنصار ؟ ...

منهج الصحابة في التعامل مع النصوص الشرعية

كان كثير من الصحابة يرى أن يستعمل الرأي حيث لا نص من كتاب ولا سنة والمتتبع لما روى عن العصر الأول في الرأي يرى أنهم كانوا يستعملون هذه الكلمة بالمعنى الذي نفهمه الآن من كلمة العدالة وبعبارة أخرى ما يرشد إليه الذوق السليم مما في الأمر من عدل وظلم .[1]

هذا هو المنهج الذي التزمه الصحابة في التعامل مع النصوص المختلف فيها من غير المعلوم من الدين بالضرورة وهو ما عبر عنه ابن القيم بقوله : " إن الشريعة مبناها وأساسها العدل وتحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أُدخلت فيها بالتأويل . "[2]

فالعدل والرحمة والحكمة ومصلحة العباد هي الغاية التي تحرَّاها السلف الصالح في فهم النصوص ، فالأمر يدور على المصلحة ، وحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله كما قال المحققون .

ولعل عمر بن الخطاب كان أظهر الصحابة في استعمال هذا المنهج فقد روي عنه الشيء الكثير وكان هذا من توفيق الله للمسلمين فإن عمر قد واجه من الأمور المحتاجة إلى تشريع ما لم يواجه خليفة قبله ولا بعده فهو الذي على يده فتحت الفتوح ومصرت الأمصار وخضعت الأمم الممدنة من فارس والروم لحكم الإسلام، وهي حالة لم يحدث بعد نظيرها ، فكان لعمر من التشريع في المسائل الاقتصادية والسياسية والعمرانية ما كان أصلاً للفقهاء من بعده ، ولذلك يقول فيه الفقهاء في

---

(١) أحمد أمين " فجر الإسلام " مرجع سابق ص ٣٧٤ ، ٣٧٥
(٢) ابن القيم " إعلام الموقعين " ج٣ ص٣

باب الجهاد والسير وهو الباب الذي تبين فيه علاقة الغالبين بالمغلوبين – أنه عمدة في هذا الباب " (١)

الفرق بين عمر والحكّام بعده

وأنا وإن كنت أتفق مع العلامة أحمد أمين في أن عمر بن الخطاب كان أكثر الصحابة اجتهاداً في فهم النصوص في ضوء المستجد من أحداث وأحوال الناس ابتغاء العدل والرحمة والحكمة ومصلحة العباد إلا أني اختلف معه في أن " عمر قد واجه من الأمور المحتاجة إلى تشريع ما لم يواجه خليفة بعده " فقد واجه الحكّام بعد عمر من الأمور التي تحتاج إلى تشريع ما لا يحصى ولكن الحكام بعده – في الغالب الأعم – لم يلتزموا منهج عمر في التعامل معها ابتغاء العدل والرحمة والحكمة ومصلحة العباد بل إنهم ظلموا العباد وقسوا عليهم وأفسدوا وقدموا مصالحهم الخاصة على مصالح العباد العامة لضمان بقاء الملك فيهم وفي أبنائهم من بعدهم لذا فلا عجب أن يُحْصَرَ الحكم في التاريخ الإسلامي في ثلاث أسر : الأموية ، والعباسية ، والعثمانية !!

فتخلى الحكام – إلا من رحم ربك – عن سياسة الدنيا بالدين كما فعل عمر والخلفاء الراشدون إنما تركوا الفقهاء يفتونٍ الناس بما يشاءون بشرط ألا تتصادم هذه الفتاوى مع نظام الحكم بل وجدنا جُل علماء أهل السنة يفتون بعدم الخروج على الحاكم الظالم وإن أخذ مالك وجلد ظهرك كما سنبين بعد ذلك .

يقول ابن تيمية: " كان المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم " (٢)

أما عمر فكان يضع نصب عينية العدل والرحمة والحكمة ومصلحة العباد ورفع الحرج فيقضي بهذا وإن خالف قضاؤه أحياناً ظاهر النصوص .

يقول أحمد أمين : " يظهر لي أن عمر بن الخطاب كان يستعمل الرأي في أوسع من المعنى الذي ذكرناه وذلك أن ما ذكرناه هو استعمال الرأي حيث لا نص من كتاب ولا سنة لكنا نرى الخليفة سار أبعد من ذلك فكان يجتهد في تعرف المصلحة التي لأجلها نزلت الآية أو ورد الحديث ثم يسترشد بتلك المصلحة في أحكامه وهو أقرب شيء إلى ما يعبر عنه الآن بالاسترشاد بروح القانون لا بحرفيته " (٣)

---

(١) أحمد أمين " فجر الإسلام " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٣٧٧

(٢) ابن تيمية " منهاج السنة النبوية ج٣ ص ٢٣١

(٣) أحمد أمين " فجر الإسلام " مرجع سابق ص ٣٧٧، ٣٧٨

هل يعد ما فعله عمر خروجاً على الشريعة وتعطيلاً للنصوص ؟ وللإجابة عن هذا السؤال لا بد أن نفرق بين الحكم والفتوى .

الفرق بين الحكم والفتوى

الحكم هو المنصوص عليه في الكتاب وصحيح السنة وهو مقدس لا يتغير بتغير الزمان ولا المكان { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (الحجر: ٩)

لقد حفظ الله تعالى القرآن الكريم ، واجتهد علماء الإسلام العظام في الحفاظ على السنة الصحيحة التي يقول النبي فيها " ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه" رواه أحمد وأبو داود.

أما الفتوى فهي إنزال المُسْتَفْتَى الحكم على المُسْتَفْتِي مراعياً زمانه ومكانه وحاله، فمثلاً قطع يد السارق حكم { وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا } (المائدة : ٣٨) أما ما فعله عمر بن الخطاب من إيقاف قطع يد السارق في عام المجاعة فهو فتوى.

فالحكم هو حكم الله ورسوله أما الفتوى فهي اجتهاد المُسْتَفْتَى أو الحاكم في فهم هذا الحكم وتطبيقه على المُسْتَفْتِي أو المحكومين . لذا يقول رسول اللّه ﷺ : { وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لا " (رواه الخمسة إلا البخاري)

إن الحاكم المجتهد قد يصيب الحق وقد يخطئه، قد يصيب حكم الله وقد يخطئه، وهو مأجور في صوابه وخطئه يقول النبي ﷺ :

" إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ وَأَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ " (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)

وهذا يدل على أن الحق واحد قد يصيبه بعض المجتهدين ويخطئه البعض، فمن اجتهد وأصاب حصل على أجرين: أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وإن اجتهد وأخطأ حصل أجراً على الاجتهاد، وخطؤه مغفور. فلا ينزلونهم على حكم الله لأنه قد لا يكون حكم الله واضحاً فيحتاج الأمر إلى اجتهاد، ومعلوم أن الصحابة كانوا يجتهدون في زمن الرسول ﷺ مثلما حصل في قصة الذهاب إلى بني قريظة .

وبعض الناس يخلط بين الحكم والفتوى فيجعل الحكم فتوى يتغير بتغير الزمان والمكان والحال وهؤلاء هم العلمانيون اللادينيون فإذا لم يأت حكم الله ، قطعي

الدلالة والثبوت ، على هواهم قالوا إنه لا يوافق زماننا مثل : فرضية الحجاب على المرأة البالغ ، وتحريم الخلوة بالأجنبية .

وهناك من يجعل الفتوى حكماً كالسلفيين اللا أصوليين فإنهم يتخذون من فتوى بعض السلف أحكاماً لا تتغير بتغير الزمان ولا المكان مثل : فرضية النقاب ، وتحريم الغناء. ويقولون لك هذا شرع الله وما عداه باطل غير مفرقين بين الحكم ، واجتهاد المجتهدين فيما يسوغ فيه الاجتهاد ، والآراء الباطلة الخارجة عن المتفق عليه دون مسوغ شرعي .

كان الأمام أبو حنيفة يعمل بالقياس والاستحسان بأشد صورهما في حين كان الإمام الشافعي يعمل بالقياس دون الاستحسان ويرى أن من استحسن فقد ابتدع ، وكان أبو حنيفة يرى فتح باب الذرائع بينما يرى الإمام مالك سدَّه إلى غير ذلك من صور الاختلاف بين المذاهب الفقهية أو العقدية فهل يصح بعد هذا كله الادعاء بأن للسف منهجاً فكرياً موحداً يجب أن نقتفيه ؟!

تنوع الصحابة في المواهب والتخصصات

والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يكونوا رجلاً واحداً في العلم والفهم والإدراك ولا في التقوى والصلاح بل كانوا رجالاً مختلفين اختلاف تنوع بل كان اختلافهم أحياناً اختلاف تضاد .

فالصحابة كان منهم القُرَّاء حفظة كتاب الله تعالى ، وهم حجة فيه على غيرهم كأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى أبي حذيفة ...

عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ " خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ : مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ "

(السلسلة الصحيحة للألباني)

وكان عمر بن الخطاب يقرأ قوله تعالى : { والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان} فيرفع الأنصار ولا يلحق الواو في الذين ، فقال له زيد بن ثابت : والذين اتبعوهم بإحسان ، فقال عمر : الذين اتبعوهم بإحسان ، فقال زيد : أمير المؤمنين أعلم ، فقال عمر : ائتوني بأبي بن كعب ، فسأله عن ذلك فقال أبى : والذين اتبعوهم بإحسان ، فجعل كل واحد منهما يشير إلى أنف صاحبه

بإصبعه ، فقال أبى : والله أقرأنيها رسول الله ﷺ وأنت تتبع الخبط فقال عمر : نعم إذن ، فنعم إذن ، فنعم إذن نتابع أبيّاً (أبو عبيد في فضائله ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه) الخَبَطْ : ما سقط من ورق الشجر بعد خبطها بالعصا .

وكان في الصحابة المتخصصون في تفسير القرآن الكريم وتأويله وفي صدرهم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما فالأول قد حظي بدعوة المصطفى ﷺ : " اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ."

(حديث صحيح رواه أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه)

وروى البخاري رحمه الله أن عمر رضي الله تعالى عنه كان يدني ابن عباس، وكان يدخله في مجلسه، وفيه شيوخ المهاجرين والأنصار، فرأى في وجوههم استنكار ذلك، وقالوا لـ عمر : كيف تدخل هذا الغلام، ولنا غلمان مثله لم نحضرهم؟ فجمعهم ذات يوم وسألهم، عن تفسير سورة النصر: { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا } [النصر:١-٣]، فخاضوا في معانيها من ظواهر لفظها، فسأل عمر ابن عباس ، فقال: إنها نعت لنا رسول الله ﷺ وهو بين أظهرنا، فوافقه عمر على ذلك، وظهر للناس فهمه لكتاب الله، وصاروا يرجعون إليه .

أما عبد الله بن مسعود، فهو الذي قال: وَاللَّه الذي لا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إلا أَنَا أَعْلَمُ ، أَيْنَ أُنْزِلَتْ ؟ وَلا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إلا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ ؟ وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّى بِكِتَابِ اللَّهِ تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ. " (١)

وابن مسعود هو الذي قال : " ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية لله "

وكان من الصحابة أهل الشورى والحكم وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون الأربعة .

عن ابن عباس في قوله: { وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ } نزلت في أبي بكر وعمر، وكانا حَوَاري رسول الله ﷺ ووزيريه وأبَوَي المسلمين. (٢)

أما علي بن أبي طالب فبعد وفاة الرسول ,كان أبو بكر يستشيره في عظائم الأمور وكان يقول له:" أفتنا أبا الحسين" كذلك كانت مكانته عند الفاروق عمر وكان يقول له:" لولا علي لهلك عمر" وأيضاً كان كذلك عثمان .

---

(١) ابن حجر " فتح الباري " ج ٩ ص ٥٠
(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٤٩

وكان من أعلم الصحابة بالفتاوى والأحكام عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن عباس .

فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : " لَقَدْ كَانَ فيما قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ نَاسٌ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ في أُمَّتِي أحدٌ فإنَّهُ عُمَرُ " (متفق عليه) والمحدثون الملهمون الذين يجري الله تعالى على ألسنتهم بعضاً من المغيبات. كأنما حدثوا بها.

وقال البخاري يجري الصواب على ألسنتهم وفيه إثبات كرامات الأولياء قوله .

أما علي بن أبي طالب فقد وصف بأنه كان نابغاً في الأدب والبلاغة والفقه والشريعة بل إنه كان أقضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقه وإخراج الأحكام من القرآن والأحاديث .

وكان من الصحابة قادة الجيوش وأبطال الحروب وفي صدرهم حمزة بن عبد المطلب وخالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص والمقداد بن عمرو وأسامة بن زيد ...

ومن الصحابة من كان مُحدِّثاً مثل أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وأنس بن مالك وابن عباس وعبد الله بن عمر .

عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا أَنْسَاهُ قَالَ ابْسُطْ رِدَاءَكَ فَبَسَطْتُهُ قَالَ فَغَرَفَ بِيَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ ضُمَّهُ فَضَمَمْتُهُ فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدَهُ. (رواه البخاري)

وعن وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ عَنْ أَخِيهِ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي إِلا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلا أَكْتُبُ" (رواه البخاري)

وبعض الصحابة جمع بين مواهب كثيرة ولم تقتصر موهبته على موهبة واحدة .

وكان الناس يعرفون أصحاب المواهب والمتخصصين من الصحابة فإن أرادوا تفسير آية قصدوا ابن عباس أو ابن مسعود أو غيرهما من المفسرين وإن أرادوا ضبط آية ذهبوا إلى أبي بن كعب أو زيد بن ثابت أو غيرهما من القرّاء وإن أرادوا القضاء لجئوا إلى عمر أو علي .

يقول عمر عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : " أَقْرَؤُنَا أُبَيٌّ وَأَقْضَانَا عَلِيٌّ وَإِنَّا لَنَدَعُ مِنْ قَوْلِ أُبَيٍّ وَذَاكَ أَنَّ أُبَيًّا يَقُولُ لا أَدَعُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ " (البخاري)

عمر إمام مدرسة الرأي

وكما أن الصحابة رضوان الله عليهما كانوا مختلفين في المواهب والتخصصات كانوا مختلفين في فهم النصوص كذلك .

فبعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى كثر اختلاف الصحابة في أمور الدين والدنيا؛ فلم يكونوا على منهج واحد في موقفهم من النصوص الدينية فمنهم من عكف عليها ولم يخرج عنها قيد شعرة مثل عبد الله بن عمر .

عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ : أَنَّهُ كَانَ يَتَّبِعُ آثَارَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيُصَلِّى فِيهَا حَتَّى أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ نَزَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَصُبُّ الْمَاءَ تَحْتَهَا حَتَّى لاَ تَيْبَسَ.(سنن البيهقي الكبرى)

وعن نافع أيضاً قال : " لو رأيت بن عمر يتبع آثار رسول الله ﷺ لقلت هذا مجنون . (الحاكم في المستدرك)

ومن الصحابة من تصرف في النصوص وقدَّم على ظاهرها رأيه وقد اشتهر هؤلاء بأصحاب الرأي والقياس ويأتي في مقدمتهم عمر بن الخطاب حيث كان يستعمل الرأي للتوصل إلى الحكم الشرعي من خلال التعرف على المصلحة ووضع الحكم وفق متطلباته . إنَّ استعمال الرأي فيما لا نص فيه ووضع الحكم وفق المصلحة أمر قابل للبحث والنقاش ، وإنما الكلام في استعمال فيما فيه نص فطائفة أصحاب الرأي تستعمل رأيها تجاه النص لا في خصوص ما لا نص فيه من كتاب أو سنة بل حتى فيما كان فيه نص ودلالة .

يقول أحمد أمين في فجر الإسلام : " ظهر لي أن عمر بن الخطاب كان يستعمل الرأي في أوسع من المعنى الذي ذكرناه وذلك أن ما ذكرناه هو استعمال الرأي حيث لا نص من كتاب ولا سنة لكنا نرى الخليفة سار أبعد من ذلك فكان يجتهد في تعرف المصلحة التي لأجلها نزلت الآية أو ورد الحديث ثم يسترشد بتلك المصلحة في أحكامه وهو أقرب شيء إلى ما يعبر عنه الآن بالاسترشاد بروح القانون لا بحرفيته " (١)

---

(١) أحمد أمين " فجر الإسلام " مرجع سابق ص ٢٣٨

ونقل عن كثير من الصحابة قضايا أفتوا فيها برأيهم كأبي بكر وعمر وزيد بن ثابت وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل ، وكان حامل لواء هذه المدرسة أو هذا المذهب فيما نرى عمر بن الخطاب ، وأشهر من سار على طريقته عبد الله بن مسعود الذي يقول في عمر بن الخطاب : " لو أن علم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وضع في كفة الميزان ، ووضع علم أهل الأرض في كفة ، لرجح علم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. (الحاكم في مستدركه) (١)

صلاة التراويح سنة الرسول وبدعة عمر

من السنن التي سنّها رسول الله ﷺ لهذه الأمة في شهر رمضان، صلاة التراويح، التي اتفق أهل العلم على أنها سنة مؤكدة في هذا الشهر الكريم .

وصلى النبي ﷺ بالصحابة صلاة التراويح ثلاث أو أربع ليالي فقط ، ولم يزد فيها عن أحد عشر ركعة قط .

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي الْمَسْجِدِ فَصَلَّى بِصَلَاتِهِ نَاسٌ ثُمَّ صَلَّى مِنْ الْقَابِلَةِ فَكَثُرَ النَّاسُ ثُمَّ اجْتَمَعُوا مِنْ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ قَدْ رَأَيْتُ الَّذِي صَنَعْتُمْ وَلَمْ يَمْنَعْنِي مِنْ الْخُرُوجِ إِلَيْكُمْ إِلا أَنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ وَذَلِكَ فِي رَمَضَانَ " (متفق عليه)

عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اتَّخَذَ حُجْرَةً فِي الْمَسْجِدِ مِنْ حَصِيرٍ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا لَيَالِيَ حَتَّى اجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَاسٌ ثُمَّ فَقَدُوا صَوْتَهُ لَيْلَةً فَظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ نَامَ فَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَتَنَحْنَحُ لِيَخْرُجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ مَا زَالَ بِكُمْ الَّذِي رَأَيْتُ مِنْ صَنِيعِكُمْ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ يُكْتَبَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ مَا قُمْتُمْ بِهِ فَصَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ فَإِنَّ أَفْضَلَ صَلَاةِ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلا الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ ."(متفق عليه)

وإذن الأفضل في النوافل أن تكون في البيت؛ ومنها التراويح، كما جاء في هذا الحديث وفي قوله ﷺ : " اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبوراً "
(متفق عليه)

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها ، قالت : كَانَ النبيُّ ﷺ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ إِحْدَى عَشرَةَ رَكْعَةً ، فَإذا طَلَعَ الفَجْرُ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَن حَتَّى يَجيءَ الْمُؤَذِّنُ فَيُؤذِنَهُ . (متفق عَلَيْهِ)

---

(١) أحمد أمين " فجر الإسلام " مرجع سابق ص ٢٤٠

وعنها ، قالت : مَا كَانَ رسول الله ﷺ يزيدُ في رمضَان ولاَ في غَيْرِهِ عَلَى إحْدَى عَشْرَةَ ركْعَةً : يُصَلِّي أربَعاً فَلاَ تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ ، ثُمَّ يُصَلِّي أربَعاً فَلاَ تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلاثاً. فَقُلْتُ: يَا رسول الله ، أَتَنَامُ قَبْلَ أنْ تُوتِرَ؟ فَقَالَ: " يَا عَائِشَةُ، إنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلاَ يَنَامُ قَلْبِي " (متفقٌ عَلَيْهِ)

ولم يثبت قط أن النبي ﷺ صلى عشرين ركعة في التراويح في الليالي التي أمَّ الصحابة فيها .

قال الأذرعي في المتوسط: وأما ما نقل أنه ﷺ صلى في الليلتين اللتين خرج فيهما عشرين ركعة فهو منكر، وقال الزركشي في الخادم: دعوى أنه ﷺ صلى بهم في تلك الليلة عشرين ركعة لم تصح، بل الثابت في الصحيح الصلاة من غير ذكر بالعداد ولما في رواية جابر: "أنه ﷺ صلى بهم ثمان ركعات والوتر، ثم انتظروه في القابلة فلم يخرج إليهم". (رواه ابن حبان في صحيحه) [١]

ثم استمر الصحابة في خلافة أبي بكر وصدر خلافة عمر يصلون التراويح أَوْزَاعًا متفرقون منهم من يصلي التراويح في بيته ومن يصليها في المسجد منفرداً ومنهم من يصليها في جماعة حتى جمعهم عمر على إمام واحد يصلي بهم التراويح ليس ثلاث ليال أو أربع كما فعل النبي بل الشهر كله ، وكان ذلك أول اجتماع الناس على قارئ واحد في رمضان .

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ : " خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَيْلَةً فِي رَمَضَانَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلَاتِهِ الرَّهْطُ فَقَالَ عُمَرُ إِنِّي أَرَى لَوْ جَمَعْتُ هَؤُلاءِ عَلَى قَارِئٍ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمْثَلَ ثُمَّ عَزَمَ فَجَمَعَهُمْ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلَاةِ قَارِئِهِمْ قَالَ عُمَرُ نِعْمَ الْبِدْعَةُ هَذِهِ " (أخرجه البخاري)

وصلاة التراويح وإن كان النبي ﷺ قد صلاها إلا أنه تركها ولم يحافظ عليها، ولا جمع الناس، عليها، بل وإنه ﷺ جعل صلاتها في البيت أفضل ، لذا يكون ندب عمر الناس لأدائها في المسجد ، وفي جماعة طوال الشهر والمحافظة على ذلك ، يدخل

---

(١) الصنعاني " سبل السلام " ج٢ ص ١٠

في باب البدعة ولقد صرح هو بذلك تصريحاً فقال " نِعْـمَ الْبِدْعَــةُ هَـذِهِ " وأقـره الصحابة رضوان الله تعالى عنهم على كل ذلك .

ولو طبقنا مفهوم البدعة المذمومة عند السلفيين لوجدناها تنطبق على ما فعله عمر في صلاة التراويح بامتياز !!!

كثير من العلماء يذهبون إلى تعريف البدعة بأنها ما قابل السنة ، ويقولـون : إن البدعة هي خلاف السنة ، فما خالف النصوص فهو بدعة ، باتفاق المسلمين . أن البدعة هي كل محدثة في الاعتقادات والعبادات، أما الأمور الدنيوية، فقد تركت لنا الحرية فيها، إلا ما ورد فيه نص .

وبناء علي هذه التعريفات للبدعة المذمومة فإن ما فعله عمر في صلاة التـراويح يكون داخلاً في هذه التعريفات فهو لم يجمع الناس على صلاة التراويح على قـارئ واحد ومحافظته عليها فحسب بل زاد في عدد ركعاتها من إحـدى عـشرة ركعـة طوال إلى ثلاث وعشرين ركعة أقصر وندب إلى صلاتها في المسجد .

ولم يقل له أحد إن ما فعلته بدعة " وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَـلاَلَةٌ " (رواه مسلم) وجمع الناس على قارئ واحد لصلاة التراويح طوال الشهر قياساً على صلاة النبي التراويح بالصحابة ثلاث ليال أو أربع باطل لأن القياس لا يكـون فـي العبادات أصلاً كما حققه الإمام الشاطبي ، وبرهـان ذلـك حـديث عائـشة فـي الصحيحين مرفوعاً : " مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ " أمـا زيـادة عدد ركعات التراويح من أحدى عشرة إلى ثلاث وعشرين فهو مخالفة صـريحة – بالمفهوم السلفي– لا تقبل التأويل للسنة فالعبادة توقيفية لا اجتهاد فيهـا بزيـادة أو نقصان .

وجعلها في المسجد مخالفة صريحة لحديث رسول الله المتفق عليه " صَـلُّوا أَيُّهَـا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ فَإِنَّ أَفْضَلَ صَلاةِ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إلا الصَّلاةَ الْمَكْتُوبَةَ "

وكذلك تقصير صلاة التراويح مخالفة للسنة الصحيحة فقد كان النبي يصلي إحدى عشرة ركعة وكان يطيلها جداً حتى كان يستوعب بها عامة الليل ، بل فـي إحـدى الليالي التي صلى فيها ﷺ صلاة التراويح بأصحابه لم ينصرف من الصلاة إلا قبيل طلوع الفجر حتى خشي الصحابة أن يفوتهم السحور ، وكان الـصحابة رضـي الله عنهم يحبون الصلاة خلف النبي ﷺ ولا يستطيلونها .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ قَالَ سمِعْتُ أَبِي يَقُولُ كُنَّا نَنْصَرِفُ فِي رَمَضَانَ فَنَسْتَعْجِلُ الْخَدَمَ بِالطَّعَامِ مَخَافَةَ الْفَجْرِ (الإمام مالك في الموطأ)

كما قال أبو ذر: " قمنا مع النبي ﷺ حتى خشينا أن يفوتنا الفلاح، يعني السحور .وكان القارئ يقرأ بالمائتين ".

فكم من النصوص الصحيحة الصريحة التي قد تصل إلي قطعية الثبوت والدلالة قد خالفها عمر ببدعة صلاة التراويح ؟! والعجيب أن أحداً من الصحابة لم يعترض عليه ولم يقل له لقد خالفت السنة الصحيحة !!

فترى لماذا فعل عمر هذا ؟ وما المنهج الذي انتهجه في التعامل مع النصوص ؟

الحقيقة أن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه لم يكن مخالفاً للسنة هو والصحابة الكرام لكنهم كانوا يعرفون كيف يتعاملون معها إن المنهج الذي انتهجه معظم الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب في التعامل مع السنة كان فهمها في إطار العدل والرحمة والمصلحة العامة ، وهذا هو المنهج الذي طبقه عمر في صلاة التراويح وغيرها من القضايا التي يبدو فيها أنه خالف النصوص الشرعية .

لقد رأى عمر بن الخطاب تفرق الناس في صلاة التراويح فأراد أن يجمعهم على قارئ في رأيه أنه أقرأهم " " أَقْرَؤُنَا أُبَيٌّ " عملاً بقول النبي ﷺ : " يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ " (رواه مسلم)

وعمر بهذا كأنه يريد أن يعلم الناس أن يَعْرِضُوا ما يحفظون من القرآن الكريم على قراءة أبي بن كعب فمن كان يقرأ بغير ما سمع من كعب صحح قراءته كما صحح عمر نفسه قراءته على قراءة كعب كما سبق وذكرنا .

هذا عن ندب عمر الناس لصلاة التراويح في المسجد على قارئ واحد أما عن تقصير القراءة وزيادة عدد ركعات صلاة التراويح إلى ثلاث وعشرين فيرجع إلى أن الصحابة لم يكونوا يستطيلون الصلاة خلف النبي وإن أطال القراءة فبرغم طول القيام والسهر وشدة النصب إلا أن الصحابة كانوا يجدون في ذلك متعة لا تعدلها متعة ، وأي متعة تعدل صلاتك خلف النبي المصطفى وسماعك القرآن من فمه الشريف ؟!

لكن بعد النبي فإن الإمام إذا أطال الصلاة إلى هذا الحد شق ذلك على المأمومين وربما أدى ذلك إلى تنفيرهم فرأى عمر أن يخفف الإمام من القراءة ويزيد من عدد

الركعات لتصل إلى ثلاث وعشرين ركعة بدلاً من إحدى عشرة حرصاً على تجميع المسلمين في المسجد وسماعهم القرآن من أحد الذي أمر النبي أن يأخذوا القرآن منه وأقرّه سائر الصحابة على ذلك .

قال النووي : وروى مالك أيضاً عن محمد بن يوسف عن السائب بن يزيد قال : أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبي بن كعب وتميماً الداري أن يقوما للناس وكان القارئ يقرأ بالمائتين حتى كنا نعتمد على عصا في طول القيام وما كنا ننصرف إلا في فروع الفجر .

وروى البيهقي بإسناده عن أبي عثمان الهندي قال: دعا عمر بن الخطاب بثلاثة قراء فاستقرأهم فأمر أسرعهم قراءة أن يقرأ للناس ثلاثين آية، وأمر أوسطهم أن يقرأ خمساً وعشرين آية، وأمر أبطأهم أن يقرأ عشرين آية. (أخرجه البيهقى) .

رواه البخاري . ولمالك في الموطأ عن يزيد بن رومان قال : " كان الناس في زمن عمر يقومون في رمضان بثلاث وعشرين ركعة "

والحقيقة أن عمر لم يكن يخالف سنة النبي المصطفى إنما كان يراعي مصلحة الأمة في تعامله مع النصوص وهذا ما لا يدركه السلفيون اللا أصوليون الذين يتمسكون بظاهر النصوص دون فقهها ولا يراعون مصلحة البلاد والعباد .

قال بن حجر " استنبط عمر ذلك من تقرير النبي ﷺ من صلى معه في تلك الليالي وإن كان كره ذلك لهم فإنما كرهه خشية أن يفرض عليهم وكأن هذا هو السر في إيراد البخاري لحديث عائشة عقب حديث عمر فلما مات النبي ﷺ حصل الأمن من ذلك ورجح عند عمر ذلك لما في الاختلاف من افتراق الكلمة ولأن الاجتماع على واحد أنشط لكثير من المصلين وإلى قول عمر جنح الجمهور . "(١)

وحرصاً من عمر ألا يكون ما فعله تشريعاً ملزماً إنما مصلحة رآها فإنه كان أحياناً لا يصلي التراويح مع الجماعة في المسجد بعد العشاء إنما يصليها منفرداً في البيت آخر الليل وكذلك كان يفعل بعض الصحابة مثل ابن عباس .

يقول ابن عباس : دَعَانِي عُمَرُ لأَتَغَدَّى عِنْدَهُ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَعْنِي السَّحُورَ فِي رَمَضَانَ فَسَمِعَ هَيْعَةَ النَّاسِ حِينَ خَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ ، قَالَ : مَا هِيَ ؟ قَالَ : هَيْعَةُ

---

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ٤ ص ٢٥٢

النَّاسِ حَيْثُ خَرجُوا مِنَ الْمسْجدِ ، قال : ما بقـي مـن اللَّيْـلِ خيْـرٌ ممَّـا ذهـب مِنْهُ.(الموطأ ، ومُصنف ابن أبي شيبة)

فهل ما فعله عمر رضي الله عنه كان هدماً للسنة وإحياء للبدعة أم كان فقهاً للسنة ومصلحة للأمة .

يقول ابن حجر : " إن عمر إنما أخذه من فعل النبي ﷺ وإنما تركه النبي ﷺ خشية الافتراض وعند الشافعية في أصل المسألة ثلاثة أوجه ثالثها من كان يحفظ القـرآن ولا يخاف من الكسل ولا تختل الجماعة في المسجد بتخلفه فصلاته فـي الجماعـة والبيت سواء فمن فقد بعض ذلك فصلاته في الجماعة أفضل . [(١)]

أما بالنسبة لزيادة عمر عدد ركعات التراويح عما كان يصليه النبي فيقـول ابـن تيمية : " تَنَازُعَ الْعُلَمَاءِ فِي مِقْدَارِ الْقِيَامِ فِي رَمَضَانَ، فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ أُبَيَّ بْنَ كَعْـبٍ كَانَ يَقُومُ بِالنَّاسِ عِشْرِينَ رَكْعَةً فِي قِيَامِ رَمَضَانَ، وَيُوتِرُ بِثَلَاثٍ.

فَرَأَى كَثِيرٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ السُّنَّةُ ؛ لِأَنَّهُ أَقَامَهُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْـصَارِ، وَلَمْ يُنْكِرْهُ مُنْكِرٌ. وَاسْتَحَبَّ آخَرُونَ: تِسْعَةً وَثَلَاثِينَ رَكْعَةً ؛ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ عَمَلُ أَهْـلِ الْمَدِينَةِ الْقَدِيمُ.

وَقَالَ طَائِفَةٌ: قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُـنْ يَزِيـدُ فِـي رَمَضَانَ وَلَا غَيْرِهِ عَلَى ثَلَاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً ".

وَاضْطَرَبَ قَوْمٌ فِي هَذَا الْأَصْلِ، لَمَّا ظَنُّوهُ مِنْ مُعَارَضَةِ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ لِمَا ثَبَـتَ مِنْ سُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَعَمَلِ الْمُسْلِمِينَ.

وَالصَّوَابُ أَنَّ ذَلِكَ جَمِيعَهُ حَسَنٌ، كَمَا قَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَنَّهُ لا يَتَوَقَّتُ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ عَدَدٌ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُوَقِّتْ فِيهَا عَـدَدًا، وَحِينَئِـذٍ فَيَكُـونُ تَكْثِيـرُ الرَّكَعَاتِ وَتَقْلِيلُهَا، بِحَسَبِ طُولِ الْقِيَامِ وَقِصَرِهِ.

فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُطِيلُ الْقِيَامَ بِاللَّيْلِ، حَتَّى إنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ: " أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَةِ بِالْبَقَرَةِ، وَالنِّسَاءِ، وَآلِ عِمْرَانَ، فَكَانَ طُولُ الْقِيَـامِ يُغْنِي عَنْ تَكْثِيرِ الرَّكَعَاتِ " [(٢)]

---

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ٤ ص ٢٥٢
(٢) ابن تيمية " الفتاوى الكبرى " ج٢ ص ٢٥٠

أما قول عمر : " نعم البدعة هذه " فيقول ابن حجر : " البدعة أصلها ما أحدث على غير مثال سابق وتطلق في الشرع في مقابل السنة فتكون مذمومة ، والتحقيق أنها أن كانت مما تندرج تحت مستحسن في الشرع فهي حسنة وأن كانت مما تندرج تحت مستقبح في الشرع فهي مستقبحة وإلا فهي من قسم المباح وقد تنقسم إلى الأحكام الخمسة ..

قال ابن عبد السلام : " البدعة خمسة أقسام : " فالواجبة " كالاشتغال بالنحو الذي يفهم به كلام الله ورسوله لأن حفظ الشريعة واجب، ولا يتأتى إلا بذلك فيكون من مقدمة الواجب، وكذا شرح الغريب وتدوين أصول الفقه والتوصل إلى تمييز الصحيح والسقيم . " والمحرمة " ما خالف السنة من القدرية والمرجئة والمشبهة . " والمندوبة " كل إحسان لم يعهد عينه في العهد النبوي كالاجتماع عن التراويح وبناء المدارس والربط والكلام في التصوف المحمود وعقد مجالس المناظرة إن أريد بذلك وجه الله . " والمباحة " كالمصافحة عقب صلاة الصبح والعصر، والتوسع في المستلذات من أكل وشرب وملبس ومسكن .

وقد يكون بعض ذلك مكروها أو خلاف الأولى والله أعلم ." (١)

ولم يقتصر اجتهاد عمر في فهم النصوص وعدم والوقوف على ظواهرها وأخذه بمبدأ " حيث وجدت المصلحة فثم شرع الله " على صلاة التراويح بل تجلى في أحكام كثيرة غيرها .

جاء في إعلام الموقعين لابن القيم " إذا ظهرت أمارات الحق وقامت أدلة العقل وأسفر صبحه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته في نوع واحد وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوي منه وأدل وأظهر بل بين بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط فأي طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها والطرق أسباب ووسائل لا تراد لذواتها وإنما المراد غاياتها التي هي المقاصد ولكن نبه بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها ولن تجد طريقاً من الطرق المثبتة للحق إلا وهي شرعة وسبيل للدلالة عليها وهل يظن بالشريعة الكاملة خلاف ذلك " (٢)

---

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ١٣ ص ٢٥٤ .
(٢) ابن القيم " إعلام الموقعين " ج٤ ص ٣٧٢

من أحكام عمر بالرأي

كثيرة تلك الأحكام التي اجتهد فيها عمر بن الخطاب برأيه إما لعدم وجود نصوص ، أو لتحقيق مصلحة عامة مع وجود النصوص ومن أمثلة ذلك :

لم يقطع عمر يد السارق في عام الرمادة وقد نصت الآية على قطع يده {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (المائدة : ٣٨)

فلماذا لم يأخذ عمر بظاهر الآية لأنه أدرك لو سرق اللص طعاماً زمن القحط، والغلاء الشديد، ولم يقدر عليه، لم يقطع يده رحمة بالناس .

حرق عمر بن الخطاب حانوت الخمار بما فيه ، وحرق قرية يباع فيها الخمر،وحرق قصر سعد بن أبي وقاص لما احتجب في قصره عن الرعية ، وحلق عمر رأس نصر بن حجاج ونفاه من المدينة لتشبيب النساء به ، وضرب صبيغ بن عسل التميمي على رأسه لما سأل عما لا يعنيه ، وصادر عماله فأخذ شطر أموالهم لما اكتسبوها بجاه العمل واختلط ما يختصون به بذلك فجعل أموالهم بينهم وبين المسلمين شطرين ، وألزم الصحابة أن يقلوا الحديث عن رسول الله ﷺ لما اشتغلوا به عن القرآن ، إلزامه للمطلق ثلاثا بكلمة واحدة بالطلاق ولم يكن يخفى عليه أن الثلاث كانت في زمن النبي ﷺ وعهد أبي بكر كانت تجعل واحدة بل مضى على ذلك صدر من خلافته حتى أكثر الناس من ذلك وهو اتخاذ لآيات الله هزوا فرأى عقوبتهم بإلزامهم به ، ومنعه بيع أمهات الأولاد وقد سبق بيعهن في حياة رسول الله ﷺ ومدة خلافة الصديق ، واختيار عمر للناس الإفراد بالحج ليعتمروا في غير أشهر الحج .

والمقصود أن هذا وأمثاله سياسة جزئية بحسب المصلحة تختلف باختلاف الأزمنة فظنها من ظنها شرائع عامة لازمة للأمة إلى يوم القيامة ولكل عذر وأجر ومن اجتهد في طاعة الله ورسوله فهو دائر بين الأجر والأجرين وهذه السياسة التي ساسوا بها الأمة وأضعافها هي تأويل القرآن والسنة ولكن هل هي من الشرائع الكلية التي لا تتغير بتغير الأزمنة أو من السياسات الجزئية التابعة للمصالح فتتقيد بها زماناً ومكاناً. [١]

---

(١) ابن القيم " الطرق الحكمية ج١ ص ٢٢- ٢٦ بتصرف

وأخذ عمر بالرأي وإن خالف ظاهر النصوص لتحقيق مصلحة رآها لم يكن مذموماً من الصحابة والتابعين بل رفع قدره وأعلى شأنه .

قال الشعبي من سرَّه أن يأخذ بالوثيقة في القضاء فليأخذ بقول عمر وقال مجاهد إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ما صنع عمر فخذوا به وقال ابن المسيب ما أعلم أحداً بعد رسول الله ﷺ - أعلم من عمر بن الخطاب وقال أيضاً كان عبد الله يقول لو سلك الناس وادياً وشعباً وسلك عمر وادياً وشعباً لسلكت وادي عمر وشعبه وقال بعض التابعين دفعت إلى عمر فإذا الفقهاء عنده مثل الصبيان قد استعلى عليهم في فقهه وعلمه وقال محمد بن جرير لم يكن أحد له أصحاب معروفون حرروا فتياه ومذاهبه في الفقه غير ابن مسعود وكان يترك مذهبه وقوله لقول عمر وكان لا يكاد يخالفه في شيء من مذاهبه ويرجع من قوله إلى قوله وقال الشعبي كان عبد الله لا يقنت وقال ولو قنت عمر لقنت عبد الله . (١)

ولم يكن عمر ينفرد بهذه السياسة في التعامل مع النصوص وتغليب المصلحة إنما وافقه الصحابة عليها .

كانت المؤلفة على عهد رسول الله ﷺ تأخذ من أموال الزكاة فلما ولي أبو بكر رضي الله عنه انقطعت مع أن الآية صريحة في إعطائهم { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } (التوبة : ٦٠)

فهل كان أبو بكر مخالفا للقرآن ؟!

أم أنه فقه أن إعطاء رسول الله للمؤلفة قلوبهم كان خاصاً بقوم كَانُوا عَلَى عَهدِ رَسُولِ الله ﷺ وكَانَ يَتَأَلَّفهُم عَلَى الإسلامِ حتَى أسلَمُوا، فلما انتشر الإسلام وقوى لَمْ يَرَ أَنْ يُعطَى من الزَّكَاةِ عَلَى مثلِ هَذَا المعنَى لأن اللّه تعالى أعز الإسلام وأغنى عنهم .

وكان أذان الجمعة أذاناً واحداً على عهد النبي وأبى بكر وعمر فلما جاء عثمان جعل أذاناً آخر في السوق وأقره على بن أبى طالب واستمر عمل المسلمين عليه فهل كان عثمان وعلى وسائر الصحابة مبتدعين الابتداع المذموم الذي نهي النبي عنه بقوله " شر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة " ؟!

---

(١) ابن القيم " إعلام الموقعين " ج ١ ص ٢٠

أم أن عثمان لما رأى الناس قد كثر عددهم وتباعدت أماكنهم جعل الأذان الثاني في سوقهم حتّى يسمع من لم يسمع ولا تفوته الصلاة .

ومن ذلك جمع عثمان رضي الله عنه الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة التي أطلق لهم رسول الله ﷺ القراءة بها لما كان ذلك مصلحة .

ومن ذلك تحريق علي رضي الله عنه الزنادقة والرافضة وهو يعلم سنة رسول الله ﷺ في قتل الكافر ولكن لما رأى أمراً عظيماً جعل عقوبته من أعظم العقوبات ليزجر الناس عن مثله . (١)

ودوَّن علماء الحديث الأحاديث الشريفة وصنفوا فيها الكتب مع أن النبي ﷺ نهي عن كتابة أحاديثه .

عن النبي ﷺ أنه قال: " لا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ "
(أخرجه مسلم)

وعن أبي سَعِيدِ الخُدرِي قَال : "استَأْذَنَّا النبي ﷺ في الكِتَابَةِ فلم يَأْذَنْ لَنَا"
(رواه الترمذي)

فلما انتشر الإسلام واتسعت البلاد وتفرقت الصحابة في الأقطار ومات معظمهم، وقل الضبط احتاج العلماء إلى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة ، ولعمرى إنها الأصل فإن الخاطر يغفل والقلم يحفظ فانتهي الأمر إلى زمن جماعة من الأئمة مثل عبد الملك بن جريج ومالك بن أنس وغيرهما فدونوا الحديث . (٢)

***

---

(١) ابن القيم " الطرق الحكمية ج١ ص ٢٦، ٢٧
(٢) ابن حجر العسقلاني في مقدمة فتح الباري .

الفصل الثالث

مصادر الشريعة الإسلامية

معنى الشريعة

الشريعة هي النظام الذي ينبثق عن العقيدة ، ويجعلها صورة واقعية متمثلة في حياة البشر فتبين كيفية عمل المُكلَّف في العبادات والمعاملات والأخلاق وسائر شئون حياته .

لقد بعث الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ، لينشره في العالمين .

{ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشركون } (الفتح : ٢٨)

والمراد بالهدى : القرآن الكريم المشتمل على الإرشادات السامية ، والتوجيهات القويمة ، والأخبار الصادقة ، والتشريعات الحكيمة .

ومحتويات القرآن الكريم لا تتجلى في : التوحيد ومتعلقات النبوة، وقصص الأنبياء والأمم السابقة والوعد والوعيد فحسب إنما اشتملت على الشرائع التي تُمكن المُكلَّف من أن يعرف كيف يعبد ربه ويعمر كونه ويزكي نفسه .

{ مَّا فَرَّطْنَا في الكتاب من شيء } (الأنعام : ٣٨)

أي : ما قصرنا في القرآن الكريم من شيء يحتاج إليه المُكلَّف من أمر الدين مفصلاً أو مجملاً .

وقوله سبحانه تعالى : { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ } (النحل : ٨٩)

يقول ابن مسعود: إن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم. (١)

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٩٥

والقرآن الكريم هو المصدر التشريعي الوحيد في الشريعة الإسلامية يقول سبحانه: { إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ } (الأنعام:٥٧)

فالله تعالى هو المشرع الحقيقي ولا مشرع غيره ، ولقد أجمع المسلمون على اختلاف نزعاتهم وآرائهم ومذاهبهم على أن القرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر الشريعة، بل هو المصدر الوحيد فيها، وما عداه من المصادر المعتبرة إنما هو تابع للقرآن أو فرع عنه، لثبوت حجيته بالقرآن نفسه،وعلى ذلك يكون القرآن هو المصدر الأصلي لهذه الشريعة، وما عداه من المصادر المتفق عليها والمختلف فيها إنما هي مصادر تبعية، لأنها في ثبوت حجيتها محتاجة للقرآن الكريم ومتوقفة عليه .

أنواع أحكام القرآن الكريم

أنواع الأحكام التي جاء بها القرآن الكريم ثلاثة :

الأول :أحكام اعتقادية : تتعلق بما يجب على المكلف اعتقاده في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وقد سبق الحديث عنها في الفصل السابق .

والثاني: أحكام خلقية :تتعلق بما يجب على المُكَلَّف أن يتحلَّى به من الفضائل وأن يتخلَّى عنه من الرذائل .

والثالث: أحكام عملية، تتعلق بما يصدر عن المكلف من أقوال وأفعال وعقود وتصرفات. وهذا النوع الثالث هو فقه القرآن، وهو المقصود الوصول إليه بعلم أصول الفقه .

والأحكام العملية في القرآن تنتظم نوعين :

١- أحكام العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج ونذر ويمين ونحوها من العبادات التي يقصد بها تنظيم علاقة الإنسان بربه .

٢- أحكام المعاملات من عقود وتصرفات وعقوبات وجنايات وغيرها مما عدا العبادات، وما يقصد بها تنظيم علاقة المُكَلَّفين بعضهم ببعض، وسواء أكانوا أفراداً أم أُمماً أم جماعات . (١)

---

(١) عبد الوهاب خلاف " علم أصول الفقه " مكتبة الدعوة الإسلامية ص ٣٢

القرآن الكريم قطعي الثبوت

القرآن الكريم حجة على الناس وأن أحكامه قانون واجب عليهم اتِّباعه لأنــه مــن عند الله وأنه نقل إليهم عن الله بطريق قطعي الثبوت لا ريب في صحته .

{ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ }

(القيامة: ١٧-١٩)

ولقد تكفل الله تعالى بحفظه بعكس الكتب السماوية الأخرى التي عهد إلى أتباعهــا حفظها فحرّفوها .

{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (الحجر: ٩)

وفي كل وقت تكفَّل تعالى بحفظ القرآن الكريم ، فلا يعتريه زيــادة ولا نقــصان ، ولا تحريف ولا تبديل ، بخلاف غيره من الكتب المتقدمة ، فإنه تعالى لــم يتكفَّــل حفظها بل قال تعالى : إن الربــانيين والأحبــار اســتحفظوا ولــذلك وقــع فيهــا الاختلاف.[١]

{ فاحكم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ الله وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الحق } أمر مــن الله تعالى لنبيه ﷺ بأن يلتزم في حكمه بين الناس الأحكام التي أنزلها سبحانه .

قطعي الدلالة وظني الدلالة في القرآن الكريم

نصوص القرآن من جهة دلالتها على ما تضمنته من الأحكام فتنقسم إلى قسمين :

نص قطعي الدلالة على حكمه، ونص ظنِّي الدلالة على حكمه .

فالنص القطعي الدلالة هو ما دل على معنى متعين فهمه منه ولا يحتمــل تــأويلاً ولا مجال لفهم معنى غيره منه، مثل قوله تعالى { إِنَّ الله على كُلِّ شَــيْءٍ قَــدِير } وقوله تعالى" فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ " فهذا قطعي الدلالة علــى أن حــد الزنا مائة جلدة لا أكثر ولا أقل .

وأما النص الظنِّي الدلالة : فهو ما دل على معني ولكن يحتمل أن يؤول ويصرف عن هذا المعنى ويراد منه معني غيره مثل قوله تعــالى :{ وَالْمُطَلَّقَــاتُ يَتَرَبَّــصْنَ

---

(١) أبو حيان " تفسير البحر المحيط " ج ٧ ص ١٨٤

بِأنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ } (البقرة: ٢٢٨) فلفظ القرء في اللغة العربية مشترك بين معنيين يطلق لغة على الطهر، ويطلق لغة على الحيض، والنص دل على أن المطلقات يتربصن ثلاثة قروء، فيحتمل أن يراد ثلاثة أطهار ، ويحتمل أن يراد ثلاث حيضات، فهو ليس قطعي الدلالة على معنى واحد من المعنيين، ولهذا اختلف المجتهدون في أن عدة المطلقة ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار.

ومثل قوله تعالى : { حُرِّمَتْ عَلَيكُمُ الْمَيْتَةُ } (المائدة: ٣) ، فلفظ الميتة عام والنص يحتمل الدلالة على تحريم كل ميتة ويحتمل أن يخصص التحريم بما عدا ميتة البحرِ، فالنص الذي فيه نص مشترك أو لفظ عام أو لفظ مطلق أو نحو هذا يكون ظني الدلالة، لأنه يدل على معنى ويحتمل الدلالة على غيره . [١]

نبي الرحمة والأسوة الحسنة

والمنهج الإلهي يحتاج إلى معلم ومربٍ يتحمّل ثقله ويبلغه للناس ويعلمه ويقوم على تطبيقه عمليّاً وفق مراد الله تعالى ويكون أسوة حسنة للناس ، ويا لها من مهام ثقال ثقال : حمَل آخر رسالات السماء وأتمَّها وتبليغها ، وتزكية النفوس من الدنس وإخراج الناس من الظلمات إلى النور لذا اختار الله تعالى أشرف خلقه محمد ﷺ للقيام بهذه المهام الجُسام .

لقد اختار الله تعالى الرحمن الرحيم محمداً رسول الرحمة ليبلغ رسالة الرحمة للعالمين .

{ وَمَا أرسلناك إلاَّ رَحْمَةً للعالمين } [الأنبياء : ١٠٧]

وأمره أن يخفض جناحه للمؤمنين ، وأن يكون بهم رءوفاً رحيماً

{ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } (التوبة : ١٢٨)

فبرحمة من الله تعالى صار محمد الرحمة المهداة والنعمة المسداة للعالمين .

{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ الله لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ }

(آل عمران : ١٥٩)

فالله تعالى طهَّره من الفظاظة والغلظة ، وجعله قريباً رحيماً رءوفاً بالمؤمنين ، وحدد الله تعالى بني الهدى المهام المكلف بها بعد أن علمه وسيلة الدعوة إليها .

---

(١) عبد الوهاب خلاف " علم أصول الفقه " مكتبة الدعوة الإسلامية ص ٣٥

{ كما أَرْسَلْنا فيكُمْ رسُولا منكُمْ يَتْلو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } (البقرة: ١٥١)

يُذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبينات ويُزَكيهم، أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودَنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب -وهو القرآن -والحكمة -وهي السنة -ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فكانوا في الجاهلية الجَهْلاء يُسفَهُون بالقول الفرَى، فانتقلوا ببركة رسالته، ويُمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء فصاروا أعمق الناس علمًا، وأبرهم قلوبًا، وأقلهم تكلفًا، وأصدقهم لهجة. [1]

ومنهج الدين يحتاج إلى من يطبقه عمليّاً وليس فقط يدعو إليه نظريّاً ، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يأمر أصحابه بأمر إلا كان أسبقهم إليه فكان المسلمون يأخذون عنه القدوة قولاً وعملاً . [2]

{ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } (الأحزاب : ٢١)

فيقتدى به في جميع أفعاله ويتعزى به في جميع أحواله .

حكم أفعال النبي في أصول الفقه

يقول ابن حجر : " ما يفعله ﷺ إن كان بياناً لمجمل (القرآن) فحكمه حكم ذلك المجمل وجوباً أو ندباً أو إباحة فان ظهر وجه القربة فللندب وما لم يظهر فيه وجه التقرب فللإباحة وإما تقريره على ما يفعل بحضرته فيدل على الجواز والمسألة مبسوطة في أصول الفقه ويتعلق بها تعارض قوله وفعله" [3]

وليس كل ما فعله النبي ﷺ فريضة وليس كل ما لم يفعله بدعة ضالة ويقسم علماء أصول الفقه أفعال النبي إلى ثلاثة أقسام :

أولها : أفعال النبي ﷺ التي تكون بياناً للشريعة وهي قسمان : أفعال هي بيان لمجملها ، وأفعال فعلها يدل على إباحتها وكلا القسمين يفيد العموم في أحكامه فلا يختص بالنبي .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٦٤
(٢) تفسير الشيخ الشعراوي ج ١ ص ١٦٤
(٣) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري شرح صحيح البخاري " ج ١٣ ص ٢٧٤

ثانياً : أفعاله ﷺ التي قام الدليل على أنها خاصة به ومن ذلك التزوج بأكثر من أربع زوجات .[1]

ثالثاً : ما صدر عنه ﷺ بمقتضى طبيعته الإنسانية : من قيام وقعود ومشى ونوم وأكل وشرب فليس تشريعاً لأن هذا ليس مصدره رسالته ولكن مصدره إنسانيته . وما صدر عنه بمقتضى الخبرة الإنسانية والحذق والتجارب في الشئون الدنيوية من تجارة أو زراعة أو تنظيم للجيش أو تدبير حربي أو وصف دواء لمرض أو أمثال هذا فليس تشريعاً أيضاً لأنه ليس صادراً عن رسالته إنما صادر عن خبرته الدنيوية وتقديره الشخصي .[2]

اجتهاد الأنبياء

والأنبياء اجتهدوا واختلفت اجتهاداتهم ولم يذم أحدهم باجتهاد اجتهده .

فقد اجتهد النبي ﷺ واستخدم القياس فقد " ثبت في صحيح السنة أن رسول الله ﷺ في كثير من الوقائع التي عرضت عليه ولم يوح إليه بحكمها استدل على حكمها بطريق القياس ، وفعل الرسول في هذا الأمر تشريع لأمته ، ولم يقم دليل على اختصاصه به، فالقياس فيم لا نص فيه من سنن الرسول ، وللمسلمين به أسوة ."[3]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة من جهينة، جاءت إلي النبي ﷺ فقالت: " فَقَالَتْ إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّي مَاتَتْ أَفَأَحُجُّ عَنْهَا قَالَ نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَةً اقْضُوا اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ "
(متفق عليه)

وجاء رجل إلي النبيﷺ فقال: " يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ شَهْرٍ أَفَأَقْضِيهِ عَنْهَا فَقَالَ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكَ دَيْنٌ أَكُنْتَ قَاضِيَهُ عَنْهَا قَالَ نَعَمْ قَالَ فَدَيْنُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى . " (متفق عليه)

وعن عمر بن الخطاب قال: هششت يوماً فقبلت وأنا صائم فأتيت النبي ﷺ فقلت صنعت اليوم أمراً عظيماً، قبلت وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ "أرأيت لو تمضمضت بماء وأنت صائم؟" قلت: لا بأس بذلك، فقال ﷺ : "ففيم ؟ "
(رواه أحمد وأبو داود والنسائي)

---

(١) محمد أبو زهرة " أصول الفقه " ص ١٠٦

(٢) عبد الوهاب خلاف " علم أصول الفقه " ص ٤٢

(٣) نفسه ص ٥٧ .

ولقد ذكر لنا الله تعالى أن داود وابنه سليمان قد اجتهدا وحكما بحكمين مختلفين في قضية واحدة يقول تعالى .

{ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ } (الأنبياء : ٧٨- ٧٩)

لقد أثنى اللّه على سليمان لأنها أصاب ولم يذم داود .

وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال، قال رسول اللّه ﷺ : "بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا، فدعاهما سليمان، فقال: هاتوا السكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى: يرحمك اللّه هو ابنها لا تشقه، فقضى به للصغرى" (متفق عليه) .

فالاجتهاد فيما لا نص فيه سنة متبعة عن الأنبياء والمرسلين ولا ينكره إلا متحجر العقل جامد الفكر متنطع .

إن إغلاق باب الاجتهاد ومحاربة العقل والتفكير والتشنيع على العقلاء والمبدعين هو سبب انتكاس هذه الأمة وما عزَّت أمة وقوى سلطانها إلا بعدما تحرر أبناؤها من عبادة القدماء ، وتحررت عقولهم من عقال التقليد ، ما عزَّت أمة ولا قوى سلطانها إلا بعد أن أعطت الفرصة لأبنائها المفكرين المبدعين بأن يقودوا ووقفت وراءهم تحثهم وتشجعهم ، هؤلاء المبدعون الذين أعملوا عقولهم واقتحموا غمار المشاكل وحاولوا إيجاد حلول جديدة واستفادوا ممن سبقهم في ميادين العلم والتكنولوجيا هؤلاء المفكرون الباحثون عن الجديد الراغبون في التجديد والتجريب.

الخصائص العامة للشريعة الإسلامية

إن شريعتنا الإسلامية لها سمات عامة تجعلها صالحة لكل زمان ومكان ، صالحة لحل مشاكل الحياة العصيبة ، وتنظيم العلاقات بين البشر على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وبيئاتهم وعصورهم تنظيماً يوفر العدالة بينهم ، وهذا ما نفتقر إليه اليوم في عصرنا الحاضر ، يؤمن لهم مصالحهم على أحسن وجه، مما يجعل الحياة سعيدة مادام الجميع محتكمين إليها .[١]

---

(١) أحمد أبو وائل أكرم " من خصائص شريعتنا الإسلامية " ص ١١

للشريعة الإسلامية خصائص عامة تميزها عن غيرها من الشرائع، لأنها شريعة الله الخاتمة لكل الشرائع والأديان الباقية ما دامت السموات والأرض ومن هذه الخصائص أهم خصائصها :

أولاً : ربانية المصدر والمنهج

إن المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلى غاياته وأهدافه منهج رباني خالص؛ لأن مصدره وحي الله تعالى إلى خاتم رسله محمد ﷺ .

وقال تعالى: { يأيها الناس قَدْ جَآءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصدور وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } (يوسف: ٥٧)

وربانية المصدر أكسبت الشريعة الإسلامية العصمة من التناقض والتطرف ، والبعد عن التحيز والهوى، وحررت الإنسان من عبوديته لبشر مثله أو مخلوق شبهه . (١)

وكما أن الله تعالى هو مصدر الشريعة فهو جلَّ وعلا الذي حدد الغاية منها وهي توحيد الله تعالى وحسن عبادته ، وتزكية النفس وعمارة الأرض .

وقوله تعالى : { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ } (هود : ٦١)

إنها شريعة مقدسة فهي من عند الله تعالى، وقد تترك هذه القدسية الأثر الكبير في حياة المسلم بحيث تجعله يحرص على تنفيذ أحكام الشريعة بصدق وأخلاق ويحذر كل الحذر من مخالفتها ولو كان في ستر من أعين الناس ولا يطلع عليه أحد ، لأنه يعلم أن الله العليم الخبير يطلع عليه ويراه . (٢)

وليس معنى هذا أن المؤمنين بهذه الشريعة معصومون فقد يقع منهم الخطأ " كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ " (٣) ولكن المؤمن بشريعة الإسلام يسارع بالتوبة " وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ " ويندم على ما فعل ويستغفر الله ويعزم على عدم العودة إن كان قد أخطأ

---

(١) نفسه ص ١٢
(٢) نفسه ص ١٢
(٣) " كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ " حديث صحيح رواه أحمد والترمذي وابن ماجه .

في حق الله تعالى أو حق نفسه ، أما إذا أخطأ في حق الآخرين فـلا يكفـي النـدم والاستغفار بل عليه أن يعيد الحق لأصحابه حتى تتم توبته فيرد ما سرق ويصلح ما أفسد ويعترف بما فعل ويصل من قطع ويعتذر لمن أخطأ في حقه ...

{ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } (الانفطار: ١٠ -١٢)

{ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ }

(ق: ١٧، ١٨)

إن الأحكام الشرعية التي تحكم سلوك الناس وتعاملهم مربوطة بوازع الإيمان بالله واليوم الآخر فللشريعة الإسلامية كغيرها من الشرائع الوضعية لها جهـاز بـشري يتولى المراقبة والمعاقبة على المخالفة لأحكامها، وتمتاز الشريعة الإسلامية برقابـة عليا وهي مراقبة العلي الخبير الذي علم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ثانياً : إنسانية

الله تعالى غني عن العالمين لا تنفعه طاعة الطـائعين كمـا لا ضـره معـصية العاصين .

{ وَقَالَ موسى إِن تكفروا أَنتُمْ وَمَن فِي الأرض جَمِيعـاً فَـإِنَّ الله لَغَنِـيٌّ حَمِيـدٌ } (إبراهيم: ٨)

وعقائد الإسلام وأحكامه وأهدافه إنما جاءت لإسعاد الإنسان في الدنيا والعناية بـه وبحقوقه، بطرق مباشرة تظهر لعامة الناس، وغير مباشرة يدركها العارفون منهم.

فشريعة الإسلام : العبادات ، والمعاملات ، والأخلاق تعود كلهـا بـالنفع علـى الإنسان في الدنيا والآخرة فلا يضل الإنسان بها ولا يشقي بل يسعد في الدارين .

{ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى } (طه: ١٢٣)

ثالثاً : اليسر ورفع الحرج

دين الله يسر لا مشقة فيه، فلا يطلب الله من عباده ما لا يطيقونه .

{ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا } (البقرة : ٢٨٦)

وكقوله تعالى : { نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا } (الأنعام : ١٥٢)

فالله تعالى لم يكلفنا حسب طاقتنا بل خفف عنا فكلفنا حسب وسـعنا والوسـع مـا تسعه قدرة الإنسان أو ما يسهل عليه من المقدور وهو ما دون مدى طاقته أي سنته تعالى أنه لا يكلف نفساً من النفوس إلا ما تطيق وإلا ما هو دون ذلك كما في سائر

ما كلفنا به من الصلاة و الصيام مثلاً فإنه كلفنا خمس صلوات والطاقة تسع ستا وزيادة . وكلفنا صوم رمضان والطاقة تسع شعبان معه وفعل ذلك فضلاً منه ورحمة بالعباد أو كرامة ومنّه على هذه الأمة خاصة . [١]

وحتّى ما فرضه الله تعالى على الإنسان ، وهو سهل ميسور ، إن عجز الإنسان عن فعله أو أوقعه فعله له في حرج ، لعذر شرعي مؤقت أو دائم ، أعفاه الله منه وتجاوز عن تقصيره فيه .

يقول تعالى : { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين مِنْ حرَجٍ } (الحج : ٧٨)

أي : ومن مظاهر رحمته بكم – أيها المؤمنون – أنه سبحانه لم يشرع في هذا الدين الذي تدينون به ما فيه مشقة بكم ، أو ضيق عليكم : وإنما جعل أمر هذا الدين، مبنى على اليسر والتخفيف ورفع الحرج ، ومن قواعده التي تدل على ذلك : أن الضرر يزال . وأن المشقة تجلب التيسير : وأن اليقين لا يرفع بالشك ، وأن الأمور تتبع مقاصدها ، وأن التوبة الصادقة النصوح تجب ما قبلها من ذنوب .

ومن الآيات التي تدل على أن هذا الدين مبنى على التيسير ورفع الحرج قوله تعالى : { لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا } وقوله سبحانه : { يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر } وفى الحديث الشريف : " بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ " .

قال بعض العلماء : وأنت خبير بأن هناك فرقاً كبيراً ، بين المشقة في الأحكام الشرعية ، وبين الحرج والعسر فيها ، فإن الأولى حاصلة وقلما يخلو منها تكليف شرعي ، إذ التكليف هو التزام ما فيه كلفة ومشقة ، أما المشقة الزائدة عن الحد التي تصل إلى حد الحرج ، فهي المرفوعة عن المكلفين .

فقد فرض الله الصلاة على المكلف ، وأوجب عليه أداءها ، وهذا شيء لا حرج فيه . ثم هو إذا لم يستطيع الصلاة من قيام ، فله أن يؤديها وهو قاعد أو بالإيماء وهكذا جميع التكاليف الشرعية .

والخلاصة : أن هذا الدين الذي جاءنا به محمد ﷺ من عند ربه عز وجل مبنى على التخفيف والتيسير ، لا على الضيق والحرج ، والذين يجدون فيه ضيقاً وحرجاً، هم الناكبون عن هديه ، الخارجون على تعالميه . [١]

---

(١) تفسير الألوسي " روح المعاني " ج ٢ ص ٤٠٤

رابعاً : جمع الشريعة بين الثبات والمرونة في أحكامها

قال ابن القيم : " الأحكام نوعان : نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة ولا اجتهاد الأئمة كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم ونحو ذلك فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه .

والنوع الثاني : ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زماناً ومكاناً وحالاً كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها فإن الشارع ينوع فيها بحسب المصلحة فشرع التعزير بالقتل لمدمن الخمر في المرة الرابعة " (٢)

فالأحكام الثابتة هي المعلومة من الدين بالضرورة التي أجمع عليها المسلمون قديماً وحديثاً ، وهي قطعية الثبوت قطعية الدلالة أما الأحكام قطعية الثبوت ظنية الدلالة أو ظنية الثبوت والدلالة فهي مجال الاجتهاد من أهل للاجتهاد لذا تتغير بحسب اقتضاء المصلحة زماناً ومكاناً وحالاً .

وبهذه الخاصية تستوعب الشريعة الإسلامية كل ما جد من وقائع وما تبدل من عرف وعادة صالحين فلا يستطيع أحد أن يصفها بالجمود .

خامساً : الشمول

لقد كان لكل نبي شرعة ومنهاج وشاءت حكمة الله تعالى أن تكون شريعة الإسلام التي جاء بها خير الأنام لكل البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأزمنتهم وأمكنتهم ولغاتهم ؛ فقد وحدت وسائل الاتصال العالم كله وجعلته قرية صغيرة يجمع أهلها خصائص واحدة ، لذلك جعل الله الشريعة الخاتمة ليست قاصرة على قوم بعينهم إنما شاملة لجميع البشر .

ومن مظاهر الشمول التي تميز بها دين الإسلام:

أ- أنه شامل لكل الناس : العربي والأعجمي ، والذكر والأنثى ، والحاكم والمحكوم ، والغني والفقير ، والقوي والضعيف ....

---

(١) محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ص ٢٩٩٦

(٢) ابن القيم " إغاثة اللهفان " ج ١ ص ٣٣١

يقول تعالى : { قُلْ يا أيها النَّاسُ إني رسول اللَّه إِلَيْكُمْ جميعًا } (الأعراف: ١٥٨)

ويقول عز وجل: { وما أرسلْنَاكَ إلا كَافَّةً للنَّاسِ بَشيرًا وَنَذِيرًا ولَكنَّ أَكْثَرَ النَّاس لا يعلَمُون } (سبأ: ٢٨)

ب- شمول شريعة الإسلام لجميع مراحل حياة الإنسان وجميع نواحيها .

فالإسلام وضع نظاماً لحياة الإنسان وهو في بطن أمه حملاً، ثم عندما يكون طفلاً، فبين الذي له من حقوق الحضانة والرضاعة والرعاية، ثم لما يبلغ ويتزوج، ثم عندما يكون أباً أو أماً، ثم لما يكون شيخاً كبيراً، فشريعة الإسلام ترعى الإنسان وتدير شئونه من قبل ولادته حتى وفاته وبعد وفاته وتنظم حياته كلها في نفسه وعلاقاته مع غيره، في بيته وفي عمله وفي كل أحواله .

{ قُلْ إِنَّ صلاتِي ونُسُكِي ومحْيَاي ومماتي للَّه ربِّ الْعَالمين } (الأنعام :١٦٢)

والحياة هبة الله ، وإياك أن تصرف قدرة الحياة ومظاهر الحياة في غير ما يرضي الله . فينبغي أن تكون جميع مراحل حياتك لله لا لشهوتك ، ومماتك لله لا لورثتك . [١]

ج- تشمل كل العصور والأزمنة من يوم مبعثه عليه الصلاة والسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فهي خالدة لا يلحقها تبديل ولا تغيير قال تعالى :{ لا تبْديل لِكَلمَات اللهِ ذَلكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (يونس :٦٤) وقال أيضاً : " وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعقِّبَ لحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } (الرعد: ٤١)

فهي إذا تتماشى مع الواقع البشري المتغير عبر الأزمنة والأمكنة ومسايرة لواقعهم [٢] لجمعها بين ثبات الحكم الشرعي وتغير فتوى العلماء المجتهدين حسب الزمان والمكان والحال .

سادساً : الوسطية

دين الإسلام دين وسط لا غلو فيه ولا تقصير، ولا إفراط فيه ولا تفريط ، والإسلام وسط في الاعتقاد والتصور ، ووسط في التعبد والتنسك ، ووسط في الأخلاق والآداب ، ووسط في التشريع والنظام .

---

(١) تفسير الشعراوي ص ٢٧٩٨

(٢) أحمد أبو وائل أكرم " من خصائص شريعتنا الإسلامية " ص ١٥

فالإسلام وسط في الاعتقاد والتصور بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإلـه قـط ، وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبد الأوثان والأحجار .[١]

فالإسلام يدعو للإيمان بإله واحد لا شريك له لم يلد ولم يولـد ، ولا مماثـل ولا مشابه فليس كمثله شيء سبحانه وتعالى .
{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ }
(سورة الإخلاص)
والله تعالى له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شـيء قـدير ، وهو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، ولا تخفى عليه خافية فـي الأرض ولا في السماء، وهو بكل شيء عليم.

{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْـكُ الـسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُـوَ الأَوَّلُ وَالآخِـرُ وَالظَّـاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } (الحديد : ١- ٣)

وتواترت الأدلة على وجوده سبحانه وتفرده بالعبادة ووجوب الطاعة .

قال تعالى: { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُـمُ الْخَـالِقُونَ * أَمْ خَلَقُـوا الـسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ } (الطور: ٣٥، ٣٦)

{ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) }(النمل : ٦٤)

والإسلام وسط بين العبادات والشعائر بين الأديان والنحـل التـي ألغـت جانـب العبادات الربانية من فلسفتها وواجباتها كالبوذية ، وبين الأديان التـي طلبـت مـن أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والإنتاج كالرهبانية المسيحية .[٢]

{ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ } (الحديد : ٢٧)

والإسلام وسط في فهم طبيعة الإنسان فالإنسان في نظر الإسلام ليس روحاً فقـط كما فهم غلاة المثالية ودعاة الرهبانية ، وليس عقلاً فقط كما فهم الفلاسفة المـاديون الملاحدة ، وليس جسداً فقط كما فهم الإباحيون عبيد غرائز الجسد .

---

(١) د. يوسف القرضاوي " الخصائص العامة للإسلام " مكتبة وهبة ص ١٢٢
(٢) نفسه ص ١٢٤ .

ولكن الإنسان روح وجسد وعقل وقلب .
{ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } (الروم : ٣٠)
" كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ "
(متفق عليه)

والفطرة هي التوازن بين عناصر الإنسان المختلفة في أمثل صورة لها توازن بين الجسد والروح أو بين المادية والرهبنة ، وتوازن بين العقل والقلب أو بين العلمانية والصوفية . (١)

والإسلام وسط في الشريعة بين اليهودية التي أسرفت في التحريم مما حرموه على أنفسهم أو حرمهم الله عليهم جزاء ظلمهم ، وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة حتى أحلت ما نصت التوراة على تحريمه مع أن الإنجيل يعلن أن المسيح لم يجئ لينقض ناموس التوراة .

والإسلام قد أحلَّ وحرَّم ، ولكنه لم يجعل التحليل والتحريم من حق بشر بل من حق الله وحده ، ولم يحرِّم إلا الخبيث الضار ، كما لم يحلَّ إلا الطيب النافع ولهذا كان من أوصاف الرسول عند أهل الكتاب أنه :

{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (الأعراف: ١٥٧)

والتشريع الإسلامي وسط في شئون الأسرة بين ، كما هو وسط في شئونه كلها ، وسط بين الذين شرَّعوا تعدد الزوجات بغير عدد ولا قيد وبين الذين رفضوه وأنكروه .

وهو وسط في الطلاق بين الذين حرَّموا الطلاق لأي سبب ولو استحالت الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق كالكاثوليكية ، وبين الذين أرخوا العنان في أمر الطلاق فلم يقيدوه بقيد أو شرط .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول توازن مكونات الإنسان وكيف تعاملت معها شريعة الإسلام راجع كتابنا " ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية " مكتبة مدبولي .

والإسلام وسط في تشريعه ونظامه الاجتماعي بين " الليبراليين " الذين يدللون الفرد على حساب المجتمع بكثرة ما يعطى له من حقوق يطالب بها ، وقلة ما يفرض عليه من واجبات يسأل عنه ، وبين الماركسيين الذين يضخمون دور المجتمع بالضغط على الفرد والتقليل من حقوقه والحجر على حريته .

لقد أعطى الإسلام للفرد حقوق وحريات كثيرة فحفظ للفرد حق الحياة ، وحق الكرامة ، وحق التملك ، وحق الاستقلال الشخصي ، وحق النقد والمعارضة ، وحرية الرأي والفكر .. ومع هذه الحقوق والحريات التي منحها الإسلام للفرد فقد فرض عليه للمجتمع واجبات تكافئها ، وقيد هذه الحقوق والحريات الفردية بأن تكون في حدود مصلحة الجماعة وألا يكون فيها ضرر للغير ، وليس للفرد أن يستخدم حقه فيما يؤذي الجماعة ويضرها إذ " لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ " في الإسلام أي لا يضر الإنسان نفسه ولا يضر غيره . [1]

فَقَالَ إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِى حَقٍّ حَقَّهُ. فَأَتَيَا النَّبِىَّ –صلى الله عليه وسلم– فَذَكَرَا ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ « صَدَقَ سَلْمَانُ ».

أن من أهم صفاتها ومميزاتها أنها شريعة عادلة لا تميل للحاكم على حساب المحكوم، ولا تميز بين قوي أو ضعيف، بل وتحرم الظلم أيضًا وتحاسب عليه في الدنيا والآخرة، بخلاف القوانين الوضعية، والتي لا بد وأن يكون فيها ظلم وجور وتمييز لمجموعة على حساب الأخرى. [2]

سابعاً : الواقعية

المراد بالواقعية في شريعة الإسلام: أنها تراعي مكونات الإنسان التي فطره الله تعالى بها : الروح والقلب والعقل والجسد والنفس . كما تراعي طبيعة الكون والبيئة التي يعيش الإنسان فيها فشرائع الإسلام ملائمة لفطرة الإنسان وواقعه وحياته، كما هي مناسبة لطبيعة الكون الذي يعيش فيه ويؤثر فيه ويتأثر به ؛ ولهذا فهي الشريعة القادرة على إسعاد البشرية كلها وتعمير الكون .

---

(١) د. يوسف القرضاوي " الخصائص العامة للإسلام " مرجع سابق ص ١٣٧
(٢) د. عمر سليمان " خصائص الشريعة الإسلامية "

فالله تعالى كما خلق الإنسان متوازناً ، والكون متوازنا فإن دينه الذي ارتضاه للناس متوازن كذلك ويعمل على حفظ توازن الإنسان والكون .

لقد أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل بالكتب المقدسة تلك الكتب المتوازنة مع كيان الإنسان كله والتي تجعل نظرته لحقوق الله وحقوق خلقه متوازنة وبهذا يقام ميزان العدل .

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } (الحديد : ٢٥)

وتدبر معي هذه الآيات العجيبة التي جمع الله تعالى فيها بين تعليم القرآن ، وخلق الإنسان ، وخلق الكون، وأمره تعالى الإنسان بالتزام الميزان في كل ذلك وتحذيره تعالى من عدم مراعاة الميزان في فهم القرآن والإنسان والكون .

يقول تعالى : { الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ } (الرحمن : ١- ٩)

فشريعة الله تعالى التي أنزلها في كتابه العزيز { الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ } هي الميزان الإلهي لفهم الإنسان والكون {ووضع الميزان} وحذر الله تعالى من عدم تطبيق شرعه فيختل توازن الإنسان والكون {ألا تطغوا في الميزان } وأمر الله تعالى الإنسان بإقامة شرعة وتطبيقه بالعدل بين الإنسان وخالقه ، وبين الإنسان وأخيه الإنسان ، وبين الإنسان وعناصر الكون {وأقيموا الوزن بالقسط} ثم يعود الله تعالى فيحذر الإنسان من الإخلال بشرعه أو استبدال غيره به مما يترتب عليه سخط الله تعالى ، وفساد الكون ، وتعاسة الإنسان {لا تخسروا الميزان} .

ثامناً : الوضوح والسهولة

مما تميز به الإسلام الوضوح في عقيدته وشريعته وأحكامه، فأصول الدين لا يجهلها مسلم أيّاً كان حظه من التعليم فالمسلم يعتقد بأن إلهه واحد لا شريك له ، وهو الله سبحانه وحده المستحق للعبادة دون سواه، وهو وحده الذي يقصد في الحاجات ، وهو وحده الذي بيده الضر والنفع ، وأنه تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } (الشورى: ١١)

كما يؤمن المسلم بأن الملائكة كائنات نورانية خلقها الله تعالى لعبادته وتنفيذ أوامره .

{لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } (التحريم : ٦)

ويؤمن المسلم بأن الله تعالى اصطفى من البشر رسلاً ليوحي إليهم بدينه ليعلموه للناس ويطبقوه في الحياة وهم معصومون من الخطأ المخل بمهام الرسالة .

{ رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ }

(النساء : ١٦٥)

وأرسل معهم الكتب المقدسة التي تشتمل على العقيدة والشريعة .

{ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (البقرة :٢٨٥)

كما أن المسلم يؤمن بالبعث والنشور والحساب

{ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ } (المؤمنون : ١٥ ، ١٦)

وأن من يفعل مثقال خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ }

(الزلزلة: ٧، ٨)

وتكون النتيجة المنطقية أن الأبرار يدخلون الجنة ، والأشرار يدخلون النار .

{ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ } (الانفطار: ١٣ ،١٤)

أن الجزاء في الشريعة الإسلامية مختلفٌ عن باقي الشرائع، فهو يوجه أنظار الناس الذين يتهربون من العقوبة بأن العقاب قد ينزل على الجميع، على شكل تدمير يأخذ الله فيه الظالمين، أو قحط يمنع الله فيه القطر من السماء، كما أنه يعلِّمهم أن هناك جزاءً أخرويًا بجانب العقاب الدنيوي، وهو أعظم منه، وأشد إيلامًا، مما يدفع الإنسان لأن يتقي ربه، ويخلص في عمله، ويتجنب ما نهى الله عنه. (١)

وكل الغيبيات التي أخبر الله عز وجل بها من أمر الآخرة كالجنة والنار وما فيهما من نعيم أو عذاب. وكذلك وحدانية الله تعالى وخلقه الملائكة وبعثه الأنبياء الرسل

---

(١) د. عمر سليمان " خصائص الشريعة الإسلامية " .

وإنزاله الكتب المقدسة ، تدرك العقول معناها وإن كانت لا تـدرك كيفيتها لأنها غيب، قال عز وجل .

ومن وضوح هذه الشريعة: أن جميع عباداتها سواء البدنية أو المالية كلها معلومة وواضحة؛ فالصلوات خمس في اليوم والليلة والصيام هو شهر واحد في رمضان، والزكاة معلومة مقاديرها وأنصبتها، والحج معلومة أركانه وشروطه وواجباته، يعرفها كل من تعلمها ولا تعجز العقول عن فهمها.

وأخيراً فإن من وضوح هذا الدين: أن قراءة دستور هذه الأمة ومصدر تشريعها وهو القرآن الكريم وحفظه وفهمه ميسر سهل لكل راغب، قال عز وجل: { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } (القمر: ٤٠)

وسنة النبي ﷺ محفوظة بالإسناد، وسيرته مضبوطة محررة. ومن هذه المصادر يؤخذ الإسلام، وإليها يرجع عند الاختلاف. وهذا كله مما لم يتوافر لدين من الأديان.

وبهذه الخصائص يتأكد لدى الجميع صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان، وخلوها من النقائص والعيوب الموجودة في الشرائع الوضعية، وبالتالي أحقيتها في حكم البشر وسيادتهم.

***

الفصل الرابع

دور العقل في فهم الإسلامية

مكانة العقل في الإسلام

إن للعقل مكانةً ساميةً في الإسلام فقد ذكر القرآن العقـل ومـشتقاته نحـو تـسع وأربعين مرة ، أما كلمة العلم ومشتقاتها فقد ذكرت أكثر من سـبعمائة مـرة فـي القرآن الكريم .

وقد وصف الله تعالى من أوتى الحكمة ، وهي إحدى ثمار العقل ، بأنه أوتـي خيراً كثيراً { يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } (البقرة : ٢٦٩)

وجعل الإسلام العقل مناط التكليف فلا إيمان لمن لا عقل وكان النبي ﷺ إذا ذُكـر له عبادة رجل سأل عن عقله وهو القائل " إن لكل شيء دعامة ودعامـة المـؤمن عقله فبقدرِ عقله تكون عبادته ، أما سمعت قول الفجار { وَقَالُوا لَوْ كُنَّـا نَـسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }.(الملك : ١٠) (أخرجه ابن المجبر)

قال الإمام النسفي في تفسير الآية الكريمة : " وقالوا لو كنا نسمع الإنـذار سـماع طالب الحق أو نعقل أي نعقله عقل متأمل ما كنا في أصحاب السعير في جملة أهـل النار وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة الـسمع والعقـل وأنهمـا حجتـان ملزمتان . [١]

ولقد حرم الله تعالى كل ما يفسد العقل مثل : الخمر والمخدرات والمسكرات ..

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّـنْ عَمَـلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (المائدة : ٩٠)

---

(١) تفسير النسفي ج٤ ص ٢٦٤

وعن ابن عمر عن النبيﷺ قال " كل مسكر خمر، وكل خمر حرام "

(رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن)

سُمِّيَتْ الخمر خَمْراً لأنَّها تَخْمُـرُ العَقْل وتَسْتُرُهُ .[١]

وبالعقل عُرِف الله تعالى. وبالعقل قام الدليل على النبوة . والعقل هو المخاطب في آي القرآن والمطالب بالاهتداء إلى الخالق جل وعلا .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ أُولِي الأَلْبَابِ }

(آل عمران : ٩٠)

والعقل هو المكلَّف بتدبر الكون والاهتداء إلى سنن الله في خلقه وهو بحكم طبيعته يحتاج إلى المعرفة ، والعلم ، وكشف المجهول ، والإبداع ، والاهتداء إلى حقائق الأشياء ..

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ} (الزمر : ٢١)

والعقل إن لم يؤمن بدين الله الحق تخبط في مذاهب وفلسفات شتى يقنع بإحداها اليوم ثم ما ليبث أن يتركها لمذهب آخر عندما تظهر له مفاسده ، ويظل ينتقل من مذهب إلى مذهب هكذا دواليك كريشة في مهب الريح أو كزورق تتقاذفه الأمواج العاتية ولا يصل إلى الإيمان واليقين الذي لا يزعزعه شك ولا تخالطه ريبة إلا مع دين الله الصحيح " الإسلام " ، وبدون هذا الدين القويم لا يستقر العقل على مذهب فكلها لها عيوبها ومسالبها التي ذكرها أعداء هذا المذهب أو أثبتته الأيام وكشفها الواقع والأمثلة على ذلك كثيرة ، فكثير من الناس في الشرق والغرب آمنوا بالماركسية وبماركس نبيها ثم ما لبثوا أن تبدت لهم عيوبها : كفقدان الدافع للعمل ، والقضاء على الطموح والرغبة في الترقي ، وافتقار الروح للإيمان بخالقها الكامل الخالد القادر ، وإفقار الأغنياء وعدم إغناء الفقراء ، وديكتاتورية الحزب الشيوعي وتسلطه وقهره للشعوب واغتناه على حساب إفقار جميع الطبقات .

فكفر بعضهم بالماركسية ولجئوا إلى الوجودية ولاذوا بنبيها سارتر الذي هو على النقيض من ماركس ، لكن سرعان ما ظهرت عيوب الوجودية : كالحيرة والقلق

---

(١) انظر القاموس المحيط مادة " خمر " .

الذي أصاب نفوس الوجوديين بالدمار وقد ترك هذا القلق المرضى رواسبه حاليا في المجتمعات الغربية وصاحبه تفكك كثير من جوانب هذه المجتمعات .[1] مما جعل هؤلاء الوجوديين وغيرهم من أصحاب الأفكار الفلسفية المعاصرة يلجئون إلى حركات اللا معقول واللا مبالاة وغيرها من حركات أخرى غريبة وشاذة .[2] وهكذا يظل العقل البعيد عن دين الله القويم يتخبط في ظلمات الجهل والشك ولن يصل إلى الإيمان واليقين مما يجعل صاحبه ينغمس في الشهوات الحسية والملذات الحيوانية والشذوذ ، ثم يدمن المخدرات والمسكرات ليطمس بها على عقله الذي لم يوصله لشيء وأخيراً يلجأ إلى الانتحار ليتخلص من هذه الحياة البائسة الخالية من السعادة إذ لا سعادة إلا في ظل إيمان حقيقي بدين الله تعالى" الإسلام " .

والعجيب أن الإسلام أمرنا باستخدام العقل في فهم كتابي الله تعالى : المقروء (القرآن الكريم) ، والمشهود (الكون) كما أمرنا باستخدام العقل في فهم كتابي الإنسانية : المقروء (التاريخ) ، والمشاهد (الواقع).

وسوف نوضح هذا بشيء من التفصيل حتى نبين دور العقل في فهم الدين ، وفهم الكون ، والتاريخ ، والواقع .. كما أكدت ذلك نصوص الدين : القرآن الكريم ، والسنة المطهرة .

أولا : دور العقل في فهم كتاب الله المقروء (القرآن الكريم)

يقول الله تعالى في واجب الإنسان نحو القرآن المبارك .

{ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ } (ص : ٢٩)

إذن واجب الإنسان نحو القرآن الكريم كما اخبر الله تعالى هو التدبر والفهم .

وأمر الله تعالى بالبحث الدقيق في القرآن الكريم ، ومعرفة توازنه العجيب ، وآياته التي تسير في خط مستقيم لا عوج فيه ولا انحراف . وأحكامه المتوازنة في ذاتها ، والمتوازنة مع كيان الإنسان المخاطب بها فلا تناقض فيها ولا تعارض .

{ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا } (النساء : ٨٢)

---

(١) سماح رافع محمد ، ومحمد مصطفي البسيونى " الفلسفة ومشكلات الإنسان " ص ٧٨

(٢) نفسه ص ٨٧

وقد نعى الله تعالى على أولئك الذين ختم الجهل والهوى على قلوبهم وصرفهم عن تدبر القرآن جهلهم وغباءهم .

{ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } (محمد : ٢٤)

وأخبر الله تعالى أن المؤمنين الذين يرتلون القرآن ويتدبرون معانيه هم الفائزون أما الذين كفروا بالقرآن فأولئك هم الخاسرون .

{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } (البقرة : ١٢١)

إذن الواجب نحو القرآن الكريم ، كما بينت الآيات ، هو التدبر .

معنى التدبر والفرق بينه وبين الحفظ

تدبر الأمر أي فهمه وفكر فيه وعرف ما تؤول إليه عاقبته ،وتدبر القرآن أي تفكر فيه ليعرف معناه فكان في هذا رد على فساد قول من قال : لا يؤخذ من تفسيره إلا ما ثبت عن النبي ﷺ ومنع أن يتأول على ما يسوغه لسان العرب. وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال وإبطال التقليد، وفيه دليل على إثبات القياس. [١]

أما كلمة الحفظ فلها معنيان هما : الاستظهار ، والصيانة والحراسة .

أما عن حفْظ القرآن لاستظهاره فقط دون فهم وتدبر ، ودون أن يمس القلبَ نورُه فليس هو المقصود فقد جاء في تفسير قوله تعالى { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } (فاطر : ٣٢) .

الظالم التالي للقرآن ولا يعمل به، والمقتصد التالي للقرآن ويعمل به، والسابق القارئ للقرآن العامل به والعالم به . [٢]

ولقد وضح لنا النبي كريم الفرق بين الحافظ والفاهم حيال ما جاء من الهدى والعلم فقال ﷺ : "إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللّهُ بِه عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَىَ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً. فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيّبَةٌ. قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ.

---

(١) تفسير القرطبي ج٥ ص ٢٩٠

(٢) تفسير القرطبى ج١٤ ص ٣٤٨

وكَانَ منْهَا أَجَادبُ أَمْسَكَت الْمَاءَ. فَنَفَعَ اللّهُ بهَا النّاسَ. فَشَربُوا منْهَا وَسَقَوْا وَزرَعُوا. وَأَصَابَ طَائفَةً منْهَا أُخْرَىَ. إنّمَا هيَ قيعَانٌ لاَ تُمْسكُ مَاءً وَلاَ تُنْبتُ كَلأً. فَذَلكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دينِ اللّه، وَنَفَعَهُ بمَا بَعَثَني اللّهُ بِه ، فَعَلِمَ وَعَلّمَ. وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلكَ رَأْساً. وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللّهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ " (متفق عليه).

يبين النبي ﷺ أن الذي انتفع بالهدى هو النوع الأول من الناس الذين لهم أفهام ثاقبة ولهم رسوخ في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام وعندهم اجتهاد ، أما النصيون الحرفيون فهم الحافظون لأسانيد الأحاديث ومتونها الجاهلون بعللها وفقهها فهم ، النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة لكن ليست لهم أفهام ثاقبة ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم أهل للنفع والانتفاع فيأخذه منهم فينتفع به فهؤلاء نفعوا بما بلغهم .(١)

ولقد شبَّه الله تعالى اليهود ومن على شاكلتهم ممن آثروا حفظ نصوص الدين على فهمها بالحمار الذي يحمل أسفاراً لا يفقه فيها شيئًا .

{ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } (الجمعة : ٥)

أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدرى ما فيها، فهو يحملها حملاً حسيّاً ولا يدرى ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظاً ولم يتفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، فهم أسوأ حالاً من الحمار، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، كما قال تعالى: { أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } (الأعراف : ١٧٩)(٢)

إن الفقه هو المصحح لجميع العبادات وهي بدونه فاسدة ، فالمتعبد على جهل يتعب نفسه دائماً كالحمار وهو يحسب أنه يحسن صنعاً وفي تشبيهه بالحمار مذمة ظاهرة وتهجين لحاله كما في قوله تعالى : { كمثل الحمار يحمل أسفاراً} وشهادة عليه بالبله وقلة العقل .(٣)

---

(١) الإمام النووي" صحيح مسلم بشرح النووي " ج ١٥ ص ٤٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١١٧ .

(٣) الإمام المناوي " فيض القدير " ج٦ ص ٣٣٩ .

أما حفظ القرآن بمعنى الصيانة والوقاية والحراسة فقد تكفّل الله تعالى به .
{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون } (الحجر : ٩)
{ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } (القيامة : ١٧)

وما طالبنا الله بحفظ القرآن الكريم – بمعنى استظهاره فقط دون الوقوف على معانيه – يقول على رضي الله عنه : " إنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها " [١]

إنما طالبنا الله تعالى بحفظ الفرج عن الزنا ، وحفظ اللسان عن الغيبة والنميمة وكذب ... ، وحفظ البطن عن أكل الحرام ، وحفظ العين عن النظر إلى ما حرم الله تعالى، طالبنا بعامة حفظ الجوارح والقلوب عن معصية الله ...

حتى أن الصحابي الجيل الذي اختاره أبو بكر لجمع القرآن كان أهم مؤهلاته العقل إلى جانب الأمانة قال زيد بن ثابت قال أبو بكر: " إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه "
(رواه البخاري)

المتدبرون والمقلدون

لقد أمرنا الله تعالى بتدبر القرآن الكريم وإعمال العقل في استخراج كنوزه واستكشاف أسراره في آيات كثيرة منها قوله تعالى :
{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا }
(النساء: ٨٢)
{ كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِه وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ } (ص: ٢٩) .
{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } (محمد: ٢٤) .

فالواجب على العلماء والدعاة إلى الله تعالى إعمال عقولهم في الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك في ضوء العلوم الحديثة والواقع المتغير والتطور المستدام وعدم الاكتفاء بترديد ما تركه لهم السابقون .

إن الحق تعالى يريد أن يعطي الإنسان دربة حتى لا يأخذ المسألة برتابة بليدة ويتناولها تناول الخامل ويأخذها من الطريق الأسهل ، بل عليه أن يستقبلها باستقبالٍ واعٍ وبفكر وتدبر . { أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ } (محمد : ٢٤)

---

(٢) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ٣٤٤

كل ذلك حتى يأخذ العقل القدر الكافي من النشاط ليستقبل العقل العقائد بما يريده الله ، ويستقبل الأحكام بما يريده الله ، فيريد منك في العقائد أن تؤمن ، وفي الأحكام أن تفعل .[١]

والاستفهام في الآية الكريمة للإنكار والزجر ، أي : أيعرضون عن كتاب الله تعالى فلا يتدبرونه مع أنه زاخر بالمواعظ والزواجر والأوامر والنواهي .

{ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ } أي : بل على قلوب هؤلاء المنافقين أقفالها التي حالت بينهم وبين التدبر والتفكر .[٢]

لقد نعى الله على أولئك المتخلفين الذين يرفضون الفهم الجديد ويقدسون مواريث القديم البائدة تقليدهم ، أولئك الجهال المقلدون لغيرهم تقليداً أعمى دون بصيرة ، ودون فقه لدين أو لواقع فقال تعالى :

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } (البقرة : ١٧٠)

ويشدد القرآن في الدعوة إلى تدبر كتاب الله وسنة رسوله ويقيم الحجة على أولئك العاكفين على تلاوة ما خلفه القدماء من معارف ذاهلين عن تدبر القرآن الكريم ، والسنة المطهرة .

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } (المائدة : ١٠٤)

والآية وإن كانت قد نزلت في عرب الجاهلية الذين تحكمت فيهم آراؤهم السفيهة في البحيرة والسائبة والوصيلة فهي عامة في كل من قلد غيره دون فهم واتبع أقوال السالفين دون مراعاة للواقع المتغير ولا للعلم المتجدد وأحوال الناس المختلفة .

يقول القرطبي : " قال علماؤنا: وقوة ألفاظ هذه الآية تعطى إبطال التقليد . "[٣]

فلا غرو أن يصف الله تعالى المقلدين تقليداً أعمى بالعمى في الدنيا ، وتوعدهم بالعمى في الآخرة { وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً } (الإسراء : ٧٢)

---

(٢) تفسير الشعراوي ج ١ص ٨٢٣

(٢) محمد سيد طنطاوي " التفسير والوسيط " ج ١ ص ٣٨٩٥

(٢) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٢١١ .

ولا يظن ظان أننا ننهي عن حفظ القرآن الكريم وتلاوته فهذا من العبادات المقررة .

فالنبيّ ﷺ قالَ : " يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ : اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا ، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا " (رواه أبو داود والترمذي)

والمقصود بقارئ القرآن في الحديث: هو الذي كان يتلوه في الدنيا حق تلاوته، ويعمل بأحكامه فيأتمر بأوامره ويزدجر عن نواهيه، فهذا قارئ القرآن الذي يقرؤه رغبة فيه . (١)

إنما ننهي عن الاستماع إلى أولئك الذين عطّلوا عقولهم فلم يتدبروا القرآن الكريم، ولم يديموا النظر فيه إنما اكتفوا بالتمسك بظاهر الآيات وحفظ بعض الآثار ويريدون أن يحملوا الناس قهراً على فهمهم السقيم .

يقول تعالى : { كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ } (الحجر: ١٢، ١٣)

يقول الفخر الرازي : " نقول التأويل الصحيح أن الضمير في قوله تعالى كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ عائد إلى الذكر الذي هو القرآن فإنه تعالى قال قبل هذه الآية إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وقال بعده كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ أي هكذا نسلك القرآن في قلوب المجرمين والمراد من هذا السلك هو أنه تعالى يسمعهم هذا القرآن ويخلق في قلوبهم حفظ هذا القرآن ويخلق فيها العلم بمعانيه وبين أنهم لجهلهم وإصرارهم لا يؤمنون به مع هذه الأحوال عناداً وجهلاً فكان هذا موجباً للحوق الذم الشديد بهم . (٢)

أولو الألباب

ما خاطب الله تعالى أولى الحفظ مرة إنما خاطب أولى الألباب في ست عشرة مرة في كتابه العظيم .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الألْبَابِ }

كما يأمر الله تعالى أولى الألباب بدراسة سير الأنبياء والصالحين واستخلاص العبرة والموعظة من حياتهم ، والإقتداء بهم في حياتهم الزاخرة بالإيمان والعمل الصالح .

---

(١) مركز الفتوى بإشراف د.عبد الله الفقيه

(٢) فخر الدين الرازي " مفاتيح الغيب " ج ١٩ ص ١٢٩

{ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ}

كما يأمر الله تعالى أولى الألباب تدبر دورة المياه في الحياة فكيف يصعد البخار العذب من أسطح المحيطات والبحار المالحة عندما تسقط أشعة الشمس عليها ، ثم يتكاثف في طبقات الجو ، وتحركه الرياح ليسقط على منابع الأنهار ويجرى بالخير والنماء فيشرب والناس والحيوان و وينبت الزرع مختلفا أوانه وطعومه وتنشأ{جَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}(الرعد:٤)

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ } (الحديد : ٢١)

كما يقرر القرآن أن الراسخين في العلم هم الذين يؤمنون بكل ما أنزله الله .

{ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ } (آل عمران : ٧)

كما أن الله تعالى وصف أولى الألباب بأنهم هم أصحاب البصيرة الذين يدركون أن ما جاء به الأنبياء هو الحق بعكس الأغبياء الجهال الذي يصفهم الله تعالى بعمى القلب { أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ } (الرعد : ١٩)

كما يعلمنا الله تعالى أن أولى الألباب هم الذين يعملون بأحسن ما عرفوا من علوم الأقدمين وإبداعات المحدثين فهم غير مقلدين إنما يدرسون ويتعلمون ويعملون بأحسن ما عرفوا ودرسوا .

{ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ } (الزمر : ١٨)

واللب أخص من العقل وهو الخالص من الشوائب ، وقيل هو ما زكى من العقل وكل لب عقل ولا عكس . (١)

---

(١) الإمام المناوى" فيض القدير" ج٢ ص ٧٠

والعقل إن سيطر عليه الهوى فسد ، وإن بعد عن هدى الدين ضل ، وإن دخل فيما لا مجال له فيه شطَّ .

{ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } (الجاثية : ٢٣)

ومما سبق يتبن لنا مدى تقدير الله تعالى للعقل حيث ترك له في مجال العقيدة أن يهتدي إلى أعظم حقيقتين في هذا الوجود : حقيقة وجود الله ووحدانيته ، وحقيقة ثبوت الوحي والنبوة والرسالة .

يلفت الله تعالى الإنسان إلى إدراك وجوده ، سبحانه ، بتدبر بديع خلقه والبحث عن خالق هذا الوجود .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } (آل عمران : ١٩١)

ثم يطلب الله تعالى من الإنسان أن يسأل نفسه بعد تفكره في خلق السموات والأرض وما بينهما .

{ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ } (الطور: ٣٥، ٣٦)

فأتى الله تعالى لمنكري وجود الله تعالى بمسألة الخَلْق الظاهرة التي لم يدَّعها أحد، ولا يجرؤ أحد على إنكارها ، حتى المشركون والملاحدة؛ لأن أتفه الأشياء في صناعاتهم يعرفون صانعها ، ويُقرُّون له بصنعته ، ولو كانت كوباً من زجاج أو حتى قلم رصاص ، لا بُدَّ أن لكل صنعة صانعاً يناسبها .

أليس مَنْ خلق السماوات والأرض والشمس والقمر . . إلخ أوْلَى بأن يعترفوا له سبحانه بالخَلْق؟ وهم أنفسهم مخلوقون ولم يقولوا إنَّا خلقنا أنفسنا ، ولم يقولوا خلقنا غيرنا ، فمَنْ خلقهم إذن؟

إن الدَّعْوى تثبت لصاحبها ما لم يقُم لها معارض ، والحق ، سبحانه وتعالى ، قال علانية ، وعلى لسان رسله ، وفي قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة ، وأسمع الجميع : أنا خالق هذا الكون .

فإنْ قال معاند : فَمَنْ خلق الله؟ نقول : الذي خلقه عليه أن يعلن عن نفسه .

والحق سبحانه شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ } (آل عمران : ١٨) ولم يقُلْ أحد أنا الإله . إذن : الذين ينكرون الخالق لا حَقَّ لهم . هذا في جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الله .

أما الذين يؤمنون بوجود الله ، لكن يتخذون معه سبحانه شركاء ، فنجادلهم على النحو التالي : شركاؤكم مع الله غَيْب أم شهادة؟ إنْ قالوا : غَيْب فإن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية . وقال : أنا واحد لا شريك لي ، فأين كان شركاؤكم؟

لماذا لم يدافعوا عن ألوهيتهم مع الله؟ إما لأنهم ما دروا بهذا الإعلان ، وإما أنهم دَرَوا وعجزوا عن المواجهة ، وفي كلتا الحالتين تنفي عنهم صفة الألوهية ، فأيُّ إله هذا الذي لا يدري بما يدور حوله ، أو يجبن عن مواجهة خَصْمه؟

فإنْ قالوا : شركاؤنا الأصنام والأشجار والكواكب وغيرها ، فهذه من صُنْع أيديهم، فكيف يعبدونها ، ثم هي آلهة لا منهجَ لها ولا تكاليفَ ، وإلا فبماذا أمرتهم وعَمَّ نهتْهم؟ إذن : عبادتهم لها باطلة .

ثم نسأل الذين يتخذون مع الله شركاء : أهؤلاء الذين تشركونهم مع الله يتواردون على الأشياء بقدرة واحدة ، أم يتناوبون عليها ، كل منهم بقدر على شيء معين؟

إنْ كانوا يزاولون بقدرة واحدة ، فواحد منهم يكفي والباقون لا فائدة منهم ، وإنْ كانوا يتناوبون على الأشياء ، فكلٌ منهم قادر على شيء عاجز عن الشيء الآخر ، والإله لا يكون عاجزاً .

وقد رَدَّ الحق سبحانه على هؤلاء بقوله تعالى : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي العرش سَبِيلاً } [الإسراء : ٤٢] أي : لَذهبوا إليه إما ليُعنفوه ويُصفّوا حساباتهم معه ، وكيف أخذ الأمر لنفسه ، وإما ليتوددوا إليه ويعاونوه .
وفي موضع آخر : { إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ }
(المؤمنون : ٩١) . (١)

انظر كيف ترك الله تعالى للعقل أن يهتدي إلى أعظم حقيقة في هذا الوجود وهي: حقيقة وجود الله ووحدانيته .

كما ترك الله تعالى للعقل أن يهتدي إلى حقيقة ثبوت الوحي والنبوة والرسالة .

---

(١) تفسير الشيخ الشعراوي ص ٧٠٢٣ ، ٧٠٢٤

{ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَى عَذَابٍ شَدِيدٍ } (سبأ : ٤٦)

الله تعالى يدعو الناس إلى التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون .

{ أن تقوموا لله . مثنى وفرادى } . . مثنى ليراجع أحدهما الآخر ، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ ، ولا تتلبث لتتبع الحجة في هدوء . . وفرادى مع النفس وجهاً لوجه في تمحيص هادئ عميق .

{ ثم تتفكروا . ما بصاحبكم من جنة } . . فما عرفتم عنه إلا العقل والتدبر والرزانة . وما يقول شيئاً يدعو إلى التظنن بعقله ورشده . إن هو إلا القول المحكم القوي المبين .[١]

وهكذا عهد الله تعالى إلى العقل البشري أن يهتدي إلى أعظم حقيقيتين في مجال العقيدة : حقيقة وجود الله ووحدانيته ، وحقيقة ثبوت الوحي والنبوة والرسالة.

أما في مجال التشريع فقد ترك الحق تبارك وتعالى للعقل أن يصول ويجول في فهم النصوص فيفرع منها على الأصول وقيس على الفروع ويستنبط الأحكام ، ويكيف الوقائع ، ويراعى القواعد في جلب المصالح ، ودرء المفاسد ، ورفع الحرج، وتحقيق اليسر ، وتقدير الضرورات بقدرها، واعتبار العرف، ورعاية ظروف الزمان والمكان . ولا عجب بعد ذلك أن تعددت المذاهب ، وتنوعت الأقوال ، وخلف لنا العقل الإسلامي في ضوء الوحي ثروة فقهية طائلة لها مكانها الرفيع في تراث الفقه العالمي .[٢]

إن العقل الكامل لازم للمجتهد بلا جدال يتدبر به معاني الأحكام : يرجع بالفروع إلى أصولها المقررة ، وبالجزئيات إلى كلياتها الثابتة ، ويفصل المجمل في الكتاب بالمفصل من السُّنة ، ويستظهر الخفي منه بالجلي منها ، والبحث عن علل الأحكام الظاهرة ليقيس غير المقرر على المقرر منها ، وغير ذلك من عمل المجتهد في استنباطه من الكتاب والسنة وأخذه بالقياس وانتظامه في سلك الإجماع التي هي أصول الدين على أنه شرع الله الذي بسطه فيها وحصره في دائرتها . أستغفر الله

---

(١) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٦ ص ١٢٥ ، ١٢٦

(٢) د. يوسف القرضاوى "الخصائص العامة في الإسلام " مكتبة وهبة صـ ٥٨

أن يكون في ديننا ما لا يحتمله العقل ولا يسعه تصوره ، بل نحن قررنا أن العقل السليم مستحسن لكل ما جاء به الدين الحكيم مستهجن لكل ما نهى عنه الشرع القويم" (١)

العقل والغيب

لقد فتح الله تعالى الباب واسعاً أمام العقل ليكتشف سنن الله تعالى في خلقه ، ويسخر القوانين التي تسير الكون في نفعه ، وأراحه من عناء البحث فيما لا مجال للعقل فيه من الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله وحده :

{ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} (الأنعام : ٥٩)

وسد الله تعالى على المؤمن باباً من أبواب الضلال الذي أفني خلق كثير من الفلاسفة أعمارهم في الوصول إلي حقيقة من حقائقه بعيداً عن دين الله فما زادت عقولهم إلا جهلاً وما زادت قلوبهم إلا ضلالاً إنه باب علم الغيب .

{ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا } (الجن : ٢٦- ٢٧)

حتى الأنبياء والمرسلون ، فما بالك بمن دونهم ، لا يعلمون من الغيب شيئاً إلا ما أطلعهم الله تعالى عليه وهذا هو أعظم البشر أجمعين يقول :
{ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }
(الأعراف : ١٨٨)
والغيب ما لا يدرك بالحواس ، والحواس هي منافذ العقل ولقد ضلّ كل من بحث في الغيب بعقله من فلاسفة اليونان ومن نهج نهجهم لذا وجه القرآن الكريم المسلم إلى ما تدركه حواسه في الكون ليبحث فيه فهو مجال علمه ، وأن يؤمن بما أخبره الله تعالى به من الغيب .

ثانيا : دور العقل في فهم كتاب الله المشهود (الكون)

القرآن حافل بالآيات الداعية للبحث في الكون اللافتة إلى بديع صنع الله .

---

(١) طه البشري " مجلة المنار " ج ٩ ص ٧٧١ .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (البقرة : ١٦٤)

{ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً * وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً} (نوح : ١٦ – ٢٠)

فالله تعالى يأمرنا بدراسة القمر ، وهناك سورة باسمه ، فهل صعدنا للقمر ودرسناه ؟!

ويأمرنا أن ندرس الشمس ونستفيد من نورها وحرارتها فهل استفدنا من أشعتها وطاقتها ؟!

ويلفتنا إلى أنه سبحانه خلق الإنسان من طين الأرض ، فهل حللنا عناصر التربة وعناصر الإنسان وقارنا بين هذه العناصر وتلك ليزداد يقيننا بالله تعالى ؟!

هل درسنا الأرض وكيف { قدر فيها أقواتها } وما فوقها من أحياء { وما تحت الثرى } من كنوز .

من المؤسف أن كثيراً من المسلمين تركوا كل هذا لأعدائنا لكي يستطيلوا به علينا، وشغلوا أنفسهم بأمور غيبية نهانا رسول الله عن بالبحث فيها ، لقد اشتغل كثير من المسلمين قديماً وحديثا بقضية ذات الله تعالى وصفاته وأقحموها على أصول الدين وشغلوا الناس بها عن البحث في الكون وتدبر آيات الله فيه ، وأصبحت هذه القضية المنهي عن البحث فيها من أهم مباحث العقيدة ، ومن أهم أسباب تمزيق المسلمين شيعاً وأحزاباً وكان الأولى السكوت عنها فلقد نهانا النبي عن التكلم فيها بل عن نهانا عن مجرد التفكير فيها ، وسكت الصحابة عنها فلم يؤثر عن الصحابة ولا عن التابعين لهم بإحسان فيها شيء .

وكثيرة هي الآيات التي يأمرنا جلَّ وعلا فيها بالبحث في الكون وكشف سننه ومن المؤسف أننا تركنا البحث في الكون وسننه لأعدائنا ؛ فتقدموا وتخلفنا ، واحتلوا أرضنا واكتفينا نحن بالدعاء عليهم !!

إن آيات الله في الكون لا يدركها كليل البصر ، ولا يتدبرها ضعيف العقل ، ولا يؤمن بها أعمى القلب وهم للأسف كثيرون في قومنا !!

{ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (الجاثية : ٣-٥)

والمحجوبون عن رؤية آيات الله في الأنفس وفي الآفاق نماذج رديئة للإسلام وفتنة عنه ولو أطالوا القراءة وتحريك الشفاه .

ولو درسنا آيات الله في الآفاق لزاد إيماننا به تعالى ولا نصلح حالنا في الدنيا .

{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } (فصلت : ٥٣)

ويلفتنا الله تعالى إلى ما في الأرض من كنوز ، وما في أنفسنا من إعجاز ، لكننا أهملنا علوم الزراعة والري ، والهندسة ، والجيولوجيا ، والبترول والتعدين ،... كما أهملنا علوم الطب والطبيعة ، وعلوم الإنسان حتى جاء علماء الغرب فاستولوا على خيرات أرضنا ،وأجهزوا على ثرواتها ، وعشنا نحن عالة على علومهم الغث منها والسمين .

{ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ } (الزاريات: ٢٠ – ٢١)

إن الذاكرين لله حقاً ليس أولئك الذين يرددون أوراداً لا تتجاوز حناجرهم إنما أولئك الذين يتدبرون هذا الكون العظيم ويستنبطون أسراره التي أودعها الله تعالى فيه ويسخرونها لنفع الناس وتردد ألسنتهم أمام إبداع الخالق جل وعلا ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك .

{ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } (آل عمران : ١٩١)

ومن هدى الآيات يتضح لنا أن الكون هو ميدان الإبداع والاكتشاف ، والاختراع، وأن بحث المؤمن في الكون عبادة ، وتدبره فيه خشية .

تأمل هذه الآية العجيبة التي تجعل خشية الله تعالى محصورة في العلماء وفي مقدمتهم علماء الكون من المؤمنين بالطبع .

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ }
(فاطر: ٢٧ – ٢٨)

<u>إذا كان ذلك كذلك فأين علماء المسلمين في علوم الكون المختلفة ؟!</u>

<u>ماذا بعد هذه الآيات من دعوة لكي يغزو المسلم الفضاء ويكشف أسرار السماء ؟!</u>

<u>ماذا بعد هذه الدعوة لكي يركب المسلم الماء ، ويدرس ما فيه من أحياء ؟!</u>

ماذا بعد هذه الدعوة لكي يضرب في الأرض و يدرس الحيوان والتربة والنبات ، ويخترق الأرض و يخرج ما فيها من معادن وثروات ؟!

إنه إن عمّرَ الكونَ وعَبَدَ الله ، فاز بنعيم الدنيا وأرضى مولاه ، أي فاز بحسنتي الدنيا والآخرة .

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } (البقرة : ٢٠١)

فجمعتْ هذه الدعوةُ كلَّ خير في الدنيا، وصرفَت كلَّ شر فإن الحسنةَ في الدنيا تشملُ كلَّ مطلوب دنيوي، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عباراتُ المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا. وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العَرَصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا، من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام [1] .

وهذا الدعاء من أجمع الأدعية، ولهذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ كما ثبت في الصحيحين.

عن أَنَس، قَالَ: " كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَبِيِّ ﷺ : اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" (متفق عليه)

فبالإيمان الصادق والعلم النافع والعمل الصالح يجمع الإنسان بين ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة كما فعل سلفنا الصالح الذين آمنوا وعملوا الصالحات فدانت لهم الدنيا : شرقاً وغرباً ، وانتشر دين الله في سائر البقاع ، وانتفع بعلمهم سائر الأصقاع .

{ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } (آل عمران : ١٤٨)

كما يرفع الله تعالى درجات العلماء في الدنيا والآخرة .

{ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } (المجادلة : ١١)

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٥٨

وجاء " في الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة، فكلموه في ذلك فدعاهم ودعاه، وسألهم عن تفسير { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } (النصر : ١) فسكتوا، فقال ابن عباس: هو أجل رسول ﷺ أعلمه الله إياه. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم "(١)

إن دراسة الكون نهج قرآني واضح ، لبناء الإيمان : أولاً : ولدعمه وحراسته . ثانياً: ولمنافع البشر ومتاعهم . ثالثا : ومع ذلك فإن أجيالا كثيفة غلقت مشاعرها دون هذه الدارسة . (٢)

مفهوم البدعة في الإسلام

إن من دعاة الإسلام من يعدُّ كل إبداع بدعة وكل مستحدث ضلالة ، وكل مجتهد مُبْتَدِع خارج من الملَّة !

يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } (البقرة : ١١٧) كل بدعة صدرت من مخلوق فلا يجوز أن يكون لها أصل في الشرع أولاً ، فإن كان لها أصل كانت واقعة تحت عموم ما ندب الله إليه وخص رسول عليه، فهي في حيز المدح. وإن لم يكن مثاله موجودا كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف، فهذا فعله من الأفعال المحمودة، وإن لم يكن الفاعل قد سبق إليه. ويعضد هذا قول عمر رضي الله عنه: نعمت البدعة هذه، لما كانت من أفعال الخير وداخلة في حيز المدح، وهي وإن كان النبي ﷺ قد صلاها إلا أنه تركها ولم يحافظ عليها، ولا جمع الناس، عليها، فمحافظة عمر رضي الله عنه عليها، وجمع الناس لها، وندبهم إليها، بدعة لكنها بدعة محمودة ممدوحة. وإن كانت في خلاف ما أمر الله به ورسول فهي في حيز الذم والإنكار" (٣)

إن من أكبر ما ابتليت به الأمة فهمها الخاطئ للبدعة فليس كل بدعة ضلالة وليس كل جديد مستنكر بل المُبْدِع رجل مجتهد مفكر متدبر أعمل عقله وسخر علمه في إنشاء ما لم يسبق إليه بشرط أن يكون هذا الإبداع لا يخالف القرآن الكريم ولا صحيح السنة وعلى هذا يكون الخلفاء الراشدون مبدعين ، وابن عباس مبدع ، وأبو

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٧ ص ٣٠٠ .

(٢) محمد الغزالى " المحاور الخمسة للقرآن الكريم " دار الصحوة للنشر والتوزيع ص ٧٠

(٣) تفسير القرطبي ج٢ ص ٨٧

حنيفة مبدع، والقرطبي مبدع ، وابن حزم مبدع ، والنووي مبدع ، والغزالي مبدع، وابن حجر مبدع، وغيرهم من كبار العلماء المجتهدين وكل علماء الطبيعة والفلك والرياضيات مبدعون وإن أخطأ أحدهم ، وكل ابن آدم خطاء ، فله أجر كما بين ذلك الرسول ." إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد . " (متفق عليه)

وينطبق هذا القول على من له أهلية الاجتهاد من العلماء .

وقال جمهور أهل السنة وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه رضي الله عنهم: إن الحق في مسائل الفروع في الطرفين، وكل مجتهد مصيب، والمطلوب إنما هو الأفضل في ظنه، وكل مجتهد قد أداه نظره إلى الأفضل في ظنه؛ والدليل على هذه المقالة أن الصحابة ومن بعدهم قرر بعضهم خلاف بعض، ولم ير أحد منهم أن يقع الانحمال على قوله دون قول مخالفه .(١)

قال ابن عبد السلام: في أواخر " القواعد " البدعة خمسة أقسام :

" فالواجبة " كالاشتغال بالنحو الذي يفهم به كلام الله ورسوله لأن حفظ الشريعة واجب، ولا يتأتى إلا بذلك فيكون من مقدمة الواجب، وكذا شرح الغريب وتدوين أصول الفقه والتوصل إلى تمييز الصحيح والسقيم .

" والمحرمة " ما خالف السنة من القدرية والمرجئة والمشبهة .

" والمندوبة " كل إحسان لم يعهد عينه في العهد النبوي كالاجتماع عن التراويح وبناء المدارس والربط والكلام في التصوف المحمود وعقد مجالس المناظرة إن أريد بذلك وجه الله .

" والمباحة " كالمصافحة عقب صلاة الصبح والعصر، والتوسع في المستلذات من أكل وشرب وملبس ومسكن .

وقد يكون بعض ذلك مكروهاً أو خلاف الأولى والله أعلم .(٢)

إن حجة النصيين الحرفيين ومن سار علي نهجهم من المسلمين أن كل ما لم يفعله السلف الصالح يعد بدعة ضالة ، ولعمري إن هذا الفهم السقيم لهو البدعة الضالة .

---

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٣١٠ .

(٢) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ١٣ ص ٢٥٤ .

وقد نبّه الشاطبى إلى هذه الحقيقة بوضوح ؛ فقد جعل أول أسباب الابتداع والاختلاف المذموم المؤدى إلى تفرق الأمم شيعاً وجعل بأسها بينها شديد : " أن يعتقد الإنسان في نفسه ، أو يُعْتَقد فيه ، أنه من أهل العلم والاجتهاد في الدين وهو لم يبلغ تلك الدرجة فيعمل على ذلك ويعد رأيه رأيا ، وخلافه خلافاً ، ولكن تارة يكون ذلك في جزئي وفرع من الفروع ، يعنى فروع الدين ، وتارة في كلى وأصل من أصول ، من الأصول الاعتقادية أو من الأصول العملية ، فتراه آخذا ببعض جزئيات الشريعة في هدم كلياتها ، حتى يصير منها ما ظهر له بادي رأيه من غير إحاطة بمعانيها ولا رسوخ في فهم مقاصدها ، وهذا هو المبتدع وعليه نبّه الحديث الصحيح أنه قال : لا يقبض الله العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا " [(١)] ونحن نقول ما ابتدع عالم قط ولكنه استفتى من ليس بعالم .

قال مالك بن أنس بكى ربيعة بكاءً شديداً فقيل له : مصيبة نزلت بك ؟ فقال : لا... ولكن استفتى من لا علم عنده) .

والحق أن نصف العلم ، مع العجب والغرور ، يضر أكثر من الجهل الكلى مع الاعتراف ؛ لأن الجهل بسيط ، وذلك جهل مركب وهو جهل من لا يدرى ، ولا يدرى أنه لا يدرى . [(٢)]

الفرق بين العالم والمقلد

وقال الشاطبي : " إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع"

العلم: على الداعية أن يتحلى بالعلم في دعوته لن الدعوة عبادة، والعبادة لابد لها من دليل شرعي، والعلم كما قال ابن عبد البر وغيره من العلماء: أجمع المسلمون على أن المقلد ليس معدودًا من أهل العلم، وأن العلم معرفة القول بدليله، فالعلم إذًا هو المعرفة الحاصلة عن الدليل وأما بدون الدليل فإنما هو تقليد فالمتعبد بالهوى، والمقلد الأعمى ليس من زمرة العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، فالأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر.

---

(١) أبو اسحاق الشاطبى " الاعتصام " ج ٢ص ١٧٣ .

(٢) د. يوسف القرضاوى " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف " ص ٦٣

أما المقلد الذي يجهد ويكدح في رد ما جاء به رسول الله ﷺ إلى قول مقلده ويضيع ساعات عمره في التعقب والهوى ولا يشعر بتضييعه، تالله إنها فتنة عمت فأعمت، ورمت القلوب فأصمت، ربا عليها الصغير وهرم فيها الكبير، واتخذ لأجلها القرآن مهجورًا وكان ذلك بقضاء الله وقدره في الكتاب مسطورًا، ولما عمت بها البلية وعظمت بسببها الرزية بحيث لا يعرف أكثر الناس سواها ولا يعدون العلم إلا إياها فطالب الحق من مظانه لديهم مفتون ومؤثره على ما سواه عندهم مغبون نصبوا لمن خالفهم في طريقتهم الحبائل وبغوا له الغوائل، ورموه عن قوس الجهل والبغي والعناد وقالوا لإخوانهم: { إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ } (غافر: ٢٦)

***

الفصل الخامس

بناء الشريعة على مصالح العباد في المعاش والمعاد

جلب المصلحة ودفع المفسدة

إن الله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها فقاعدة : " جلب المصلحة ودفع المفسدة " إذن هي مدار الشريعة كلها، فمن لم يفقه هذه القاعدة فلا علم له بالشريعة ؛ لأن الشريعة إنما جاءت لجلب المصالح للناس ولدفع المفاسد عنهم، فما أمَرَتْ بشيء أو أباحته إلا وفيه مصلحة محققة، ولا نَهَتْ عن شيءٍ ومنعته إلا وفيه مفسدة مُحققة، وقد يكون في الشيء مصالح ومفاسد، ولكنها تمنعه لرجحان المفسدة ، أو تبيحه لرجحان المصلحة .

ونصوص الكتاب والسنة حافلة بما يبين ذلك، فشريعتنا الإسلامية والحمد لله ليست جامدة، وأحكامها ليست طلاسم لا يعقل معانيها أحد، ولا يعلم عللها فقيه ؛ ولذلك كان معظم الأحكام إنما ثبت بالقياس، ويثبت بالقياس في كل عصر حيثما تتجدد الحوادث، ولو كنّا مأمورين بالتوقف عند ظواهر النصوص فلا نتجاوزها بالاستنباط إلى عللها ومعانيها إذن لوقع الناس في الحرج ؛ لأن النصوص محدودة، والحوادث غير محدودة .

قال تعالى : { وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ } (الأعراف : ١٥٧)

فها هنا علَّلَ ، جلَّ وعلا ، لتحليل الحلال بأنه من الطيبات ؛ أي الأشياء النافعة، وعلَّلَ ، تعالى ، لتحريم الحرام بأنه من الخبائث، والخبيث هو الضار .

وهكذا كل شيء أو فعلٍ أو قولٍ فيه مصالح وفيه مفاسد ينبغي فيه الموازنة بينهما، والحكم بناءً على نتيجة هذه الموازنة .

وهذا أمر لا يعقله إلا العالِمُون ؛ فيحتاج إلى فقهاء عقلاء حكماء، وإلا فكم من مصلحةٍ توهَّمَهَا أناسٌ وهي مفسدة ؛ فلا ينبغي أن يتصدى للحكم في ذلك من لا بضاعة عنده من فقه الشريعة، ولا من لا قريحة عنده من الفقهاء .

أنواع الفقه

والفقه أنواع : منه فقه الأحكام، ومنه فقه التطبيق، ومنه فقه السياسة الشرعيَّة . وليس كل من فقِه الأحكام يفقه كيف يُنزّلها في مواقعها، فهذا فقهٌ برع فيه بعض الفقهاء، وليس كل فقيه في الأحكام وفي التطبيق يتقن الفقه السياسيّ، وليس كل من يتقن الفقه السياسيّ نظرياً يتقنه عملياً .[1]

فالفقيه العالم بالسياسة الشرعية الصالحة يفقه النصوص الشرعية : الكتاب وصحيح السنة في ضوء اجتهادات علماء المسلمين السابقين وفهم أحوال المسلمين : اجتماعية ، واقتصادية ، ونفسية ... ، فهماً دقيقاً ، وفهم الواقع الخارجيّ: سياسيّاً ، واقتصادياً ، وعسكريّاً ، وعلمياً ..، وفهم أهم الأفكار والمذاهب العالمية الكبرى .

وهؤلاء العلماء المجتهدون من الندرة بحيث يرسل الله أحدهم على رأس كل مائة سنة كما جاء في الحديث الشريف .

قال رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : " إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا " (حديث صحيح رواه البيهقي وأبو داود والحاكم وغيرهم)[2]

إن من أعظم ميزات هذا الفقيه السياسي أنه ذكي، ذو بصر نافذ وبصيرة وقّادة، الفقيه الساذج لا يتعدى بصرُه أرنبةَ أنفه، والفقيه السياسيُّ يقرأ ما وراء السطور، ويتعدى بصره الحاضر إلى المستقبل، ويُقدِّر العواقب، ويعرف أحوال الناس، ويواكب التطورات، ويحسب حساب المتغيرات .[3]

وللأسف الشديد فإن أغلب العلماء والوعاظ يتوقفون عند ما أبدعه السابقون يرددونه دون فهم للزمان والمكان الذي أُبدع فيه ، ويحاولون تطبيقه دون فقه للواقع المتغير الذين يعيشون فيه ، وليتهم يكتفون بجمع تراث الأمة ويحسنون نشره وتيسير الانتفاع به كما فعل المحدِّثون قديماً دون التعرض للفتوى وإصدار الأحكام وهم غير مؤهلين لذلك ، وترك مهمة الفتوى للعلماء المجتهدين .

ومثل هؤلاء المقلدين ، والعلماء المجتهدين كمثل النمل ، والنحل[4] فإذا كان الأول وظيفته بالنسبة للغذاء تتوقف عند الجمع والتخزين دون إبداع أو تطوير ،

---

(١) من مقال د. عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ " فقه المصالح والمفاسد " نقلا عن موقع نوافذ
(٢) محمد يونس هاشم " ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية " ص ١٠
(٣) من مقال د. عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ " فقه المصالح والمفاسد " نقلا عن موقع نوافذ
(٤) للدكتور زكي نجيب محمود مقال باسم " نمل ونحل " شبَّه فيه المقلدين بالنمل ، والمبدعين بالنحل .

فإن الثاني لا يتوقف عند جمع الرحيق من كل الثمرات بل يجتهد في تحويل ما جمع إلى منتج جديد مبتكر { يخرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (النحل : ٦٩)

في هذه الآية الكريمة عَدَل الله تعالى من خطاب النحل إلى خطاب الناس ، تعديداً للنعم ، وتعجيباً لكل سامع ، وتنبيهاً على مواطن العظات والعبر الدالة .

فينبه الله تعالى الإنسان أن يسالك سلوك النحل وأن يكون مبدعاً مبتكراً لا مقلداً مكرراً لذا لا عجب أن يختم الله تعالى الآية بقوله : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}

والتفكُّر : أنْ تُفكِّر فيما أنت بصدده لتستنبطَ منه شيئاً لستَ بصدده ، وبذلك تُثْري المعلومات؛ لأن المعلومات إذا لم تتلاقح ، إذا لم يحدث فيها توالد تقف وتتجمّد ، ويُصاب الإنسان بالجمود الطموحي ، وإذا أصيب الإنسان بهذا الجمود توقّف الارتقاء؛ لأن الارتقاءات التي نراها في الكون هي نتيجة التفكُّر وإعمال العقل .

لذلك فالحق سبحانه يُنبِّهنا حينما نمرُّ على ظاهرة من ظواهر الكون ، ألا نمر عليها غافلين مُعرضين ، بل نفكر فيها ونأخذها بعين الاعتبار يقول تعالى :
{وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ }
(يوسف : ١٠٥)
ففي الآية حَثٌّ على التفكّر في ظواهر الكون ، وفيها تحذير من الإعراض والغفلة عن آيات الله ، فبالفكر نستنبط من الكون ما نستفيد به .(١)

إن العلماء المجتهدين لا الوعاظ المقلدين هم المنوط به فهم الشريعة الإسلامية بما يحقق مصالح العباد في المعاش والمعاد ، ويرفع عنهم الحرج والمشقة ، وبسبب الوعاظ المقلدين الذين يريدون إن ينزلوا آراء بعض العلماء القدماء على واقع لم تجعل له مما يسبب الحرجِ والمشقة للناس وربما فتنتهم عن دينهم ، فهؤلاء لا يجيزون الخروج على حكام الجور والاستبداد حتى بالطرق السلمية المعروفة في العالم كله ، ويريدون أن ينزلوا بسن زواج الفتاة إلى تسع سنوات ، ويحرمون الغناء حتي وإن كان نشيداً وطنيّاً ، ويلزمون الفتيات بالنقاب حتى إن كانت تعمل عملاً عاماً في العواصم العالمية الكبرى ، ويحرِّمون الصور وإن كان في بطاقة

---

(١) تفسير الشعراوي ص ٤٩٦٢

الهوية ... التزاماً بظواهر بعض النصوص أو عمل بعض السلف دون فقه أو تأويل .

يقول ابن القيم : " هذا فصل عظيم النفع جداً وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسولهﷺ أتم دلالة وأصدقها وهي نوره الذي به أبصر المبصرون وهداه الذي به اهتدى المهتدون " (١)

فينبغي من يتصدى لإفتاء الناس أن تتوفر فيه شروط المجتهدين وألا يفتي إلا بما يعلم حكمه يقيناً وألا يستنكف أن يقول الله أعلم فيما لا علم به .

قال ابن عباس : " إن كل من أفتى الناس في كل ما يسألونه عنه لمجنون " قال مالك وبلغني عن ابن مسعود مثل ذلك .

وقال سحنون بن سعيد أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله فيه . (٢)

يقول ابن القيم " من أفتى الناس وليس بأهل للفتوى فهو آثم عاص ومن أقره من ولاة الأمور على ذلك فهو آثم أيضاً " (٣)

وهناك نوعان من الفقه يجب أن يتوفرا في القاضي الذي يحكم بين الناس : فقه بأحكام الشريعة ، وفقه بأحوال الناس وواقعهم .

يقول ابن القيم: " فههنا نوعان من الفقه لابد للحاكم (القاضي) منهما فقه في أحكام الحوادث الكلية ، وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس يميز به بين الصادق والكاذب والمحق والمبطل ثم يطابق بين هذا وهذا فيعطى الواقع حكمه من الواجب ولا يجعل الواجب مخالفاً للواقع " (٤)

---

(١) ابن القيم " إعلام الموقعين " ج ٣ ص ٣ .
(٢) نفسه ج ١ ص ٣٤ .
(٣) نفسه ج ٤ ص ٢١٧ .
(٤) ابن القيم في " الطرق الحكمية " ج١ ص ٥ .

ويزيد ابن القيم هذا الأمر تبياناً فيقول : " ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم أحدهما فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً .

والنوع الثاني فهم الواجب في الواقع وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع ثم يطبق أحدهما على الآخر فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجر فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله كما توصل شاهد يوسف بشق القميص من دبر إلى معرفة براءته وصدقه وكما توصل سليمان عليه السلام بقوله ائتوني بالسكين حتى أشق الولد بينكما إلى معرفة عين الأم " (١)

ولما كان هذا الواقع متغيراً متطوراً كانت الفتاوى والأحكام متغيرة متطورة هي الأخرى ، لأن تغير الواقع يستلزم تغير المصالح ، وهي التي عليها مبنى الشريعة الإسلامية .. ولقد ضرب العلماء العديد من الأمثلة على أمور تغيرت فيها الفتوى والأحكام بتغير الأزمنة والأمكنة واختلاف المصالح .

فالقرآن الكريم والسنة قررا الحد على السارق ... لكن عام الرمادة جعل عمر بن الخطاب يرى إسقاط القطع عن السارق .

والقرآن الكريم والسنة النبوية ، القولية والعملية جعلت الطلاق بلفظ الثلاث طلقة واحدة ، وجاء الإجماع فصدق على هذه النصوص من أبي بكر وسنتين من خلافة عمر .. ثم رأى عمر بن الخطاب أن يغير الفتوى والحكم فجعله ثلاثاً ... أي أننا بإزاء حكم " قد دل عليه الكتاب والسنة والقياس والإجماع القديم ولم يأت بعده إجماع يبطله ولكن رأى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن الناس قد استهانوا بأمر الطلاق وكثر منهم إيقاعه جملة واحدة فرأى من المصلحة عقوبتهم بإمضائه عليهم ليعلموا أن أحدهم إذا أوقعه جملة بانت منه المرأة وحرمت عليه حتى تنكح زوجا غيره نكاح رغبة يراد للدوام لا نكاح تحليل فإنه كان من أشد الناس فيه فإذا علموا ذلك كفوا عن الطرق المحرم فرأى عمر أن هذا مصلحة لهم في زمانه ورأى أن ما كانوا عليه في عهد النبي ﷺ وعهد الصديق وصدراً من خلافته كان الأليق بهم لأنهم لم يتتابعوا فيه وكانوا يتقون الله في الطلاق وقد جعل الله لكل من اتقاه

---

(١) ابن القيم " إعلام الموقعين " ج ١ ص ٨٧، ٨٨

مخرجاً فلما تركوا تقوى الله وتلاعبوا بكتاب الله وطلقوا على غير ما شرعه الله ألزمهم بما التزموه عقوبة لهم فإن الله تعالى إنما شرع الطلاق مرة بعد مرة ولم يشرعه كله مرة واحدة فمن جمع الثلاث في مرة واحدة فقد تعدى حدود الله وظلم نفسه ولعب بكتاب الله فهو حقيق أن يعاقب ويلزم بما التزمه ولا يقر على رخصة الله وسعته وقد صعبها على نفسه ولم يتق الله ولم يطلق كما أمره الله وشرعه له بل استعجل فيما جعل الله له الأناة فيه رحمة منه وإحساناً ولبس على نفسه واختار الأغلظ والأشد فهذا مما تغيرت به الفتوى لتغير الزمان وعلم الصحابة رضي الله عنهم حسن سياسة عمر وتأديبه لرعيته في ذلك فوافقوه . " (١)

أرأيتم إلى أي مدى مصلحة العباد تجعل الحاكم الفقيه الورع يخرج على ما دل عليه الكتاب والسنة والقياس والإجماع القديم ولم يأت بعده إجماع يبطله ، ليت وعاظنا يدركون هذا ويتأسون بعمر بن الخطاب وابن عباس وابن مسعود وغيرهم من علماء الصحابة وفقهائهم ويضعون مصلحة الأمة نصب أعينهم قبل أن يصدروا فتاويهم المثيرة للجدل ، والموقعة في الحرج والمشقة بل وفي فتنة الناس عن دين الله أحياناً .

السياسة الشرعية

كثير من الوعاظ يجهل السياسة الشرعية ويفتي الناس بحسب ظاهر بعض النصوص دون فقه حقيقي لهذه النصوص ، ودون فقه حقيقي لواقع الناس ومعاشهم فإذا رأى ولي الأمر أن من حسن السياسة إنشاء أحزاب سياسية تتنافس في خدمة الناس ، والناس تختار من برامج هذه الأحزاب ورموزها من يمثلهم في المجالس النيابية ، وهي وسيلة حديثة لاختيار الأفضل لتولي السلطات التشريعية والتنفيذية فيخرج علينا بعض الوعاظ ليقولوا هذا مخالف للشرع فليس في شرع الله إلا حزبان : حزب الله ، وحزب الشيطان !! وعليه فلا ينبغي ألا يكون هناك إلا حزب واحد هو حزب الله أما سائر الأحزاب والتيارات الأخرى فهي أحزاب للشيطان يجب القضاء عليها لا منافستها . كما أن هذا النظام نظام غربي جاء من بلاد الكفر والإلحاد فكيف تطبقه البلاد الإسلامية !!

إنهم لا يقرون اختيار الحكام بالطريق الديمقراطية ورضا الناس ولا يرون بأساً في توريث الحكم وفرض الحاكم بالقوة على الناس .

---

(١) ابن القيم " إعلام الموقعين " ج ٣ ص ٣٥

قام يزيد بن المقنع العذري فقال: هذا أمير المؤمنين، وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا، وأشار إلى يزيد، ومن أبى فهذا، وأشار إلى سيفه. فقال معاوية: اجلس فأنت سيد الخطباء .[١]

وهذه الطريقة في اختيار الحاكم صارت سنة متبعة والبند الأول في دستور الخلافة الأموية والعباسية والعثمانية ولا يجوز الخروج عليها وإن جلد الحاكم بالظلم ظهرك وأخذ بالغصب مالك ، هذه هي شريعة الله ، بزعمهم ، في اختيار الحاكم أما اختيار الناس حكامهم بمحض إرادتهم وإسقاطهم عندما يخونوا الأمانة فهذه بدعة ضالة لم يعرفها تاريخ الإسلام المجيد بعد الخفاء الراشدين إلا في عهد عمر ابنِ عبد العزيز الذي لم تطل مدة خلافته سوى عامين وخمسه أشهر فقط .

عَنِ النعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكُفُّ حَدِيثَهُ، فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ فَقَالَ: يَا بَشِيرُ بْنَ سَعْدٍ أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِﷺ فِي الْأُمَرَاءِ؟ فَقَالَ :حُذَيْفَةُ أَنَا أَحْفَظُ خُطْبَتَهُ فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ فَقَالَ حُذَيْفَةُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " :- تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ." ثُمَّ سَكَتَ قَالَ حَبِيبٌ: فَلَمَّا قَامَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ فِي صَحَابَتِهِ فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ بِهَذَا الْحَدِيثِ أُذَكِّرُهُ إِيَّاهُ فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَعْنِي عُمَرَ بَعْدَ الْمُلْكِ الْعَضِّ وَالْجَبْرِيَّةِ فَأُدْخِلَ كِتَابِي عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَسُرَّ "

(حديث صحيح رواه أحمد والبيهقي)

والعجيب بعد أن تسوَّد آلاف الصفحات وتعبأ مئات الأشرطة والاسطوانات بمثل هذه المقولات ينشئ بعض من ينتمون إلى هذه التيارات أحزاباً سياسية ، ويرشحون منهم من ينافس على تولي حكم البلاد وفقاً للنظام الديمقراطي الآتي من بلاد الكفر والإلحاد !!

إن جهل كثير من الوعاظ بالسياسة الشرعية لم تضر بالمسلمين فقط إنما صدت عن دين الله وألصقت التهم الباطلة بالشرع الإلهي الحكيم .

---

(١) ابن الأثير " الكامل في التاريخ " ج٢ ص ١٤٢

ويورد ابن القيم حواراً يلقن فيه أبي الوفاء ابن عقيل [١] عالماً مقلدا درساً عظيماً في السياسة الشرعية .

قال ابن عقيل : في الفنون جرى في جواز العمل في السلطنة بالسياسة الشرعية أنه هو الحزم ولا يخلو من القول به إمام .

فقال شافعي : لا سياسة إلا ما وافق الشرع .

فقال ابن عقيل السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يضعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحي فإن أردت بقولك إلا ما وافق الشرع أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح وإن أردت لا سياسة إلا ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والتمثيل ما لا يجحده عالم بالسنن ولو لم يكن إلا تحريق عثمان المصاحف فإنه كان رأياً اعتمدوا فيه على مصلحة الأمة .

وتحريق علي رضي الله عنه الزنادقة في الأخاديد ، وحلق عمر رأس نصر بن حجاج ونفاه من المدينة لتشبيب النساء به .

وهذا موضع مزلة أقدام ومضلة أفهام وهو مقام ضنك ومعترك صعب فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود وضيعوا الحقوق وجرءوا أهل الفجور على الفساد وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد محتاجة إلى غيرها وسدوا على نفوسهم طرقاً صحيحة من طرق معرفة الحق والتنفيذ له وعطلوها مع علمهم وعلم غيرهم قطعاً أنها حق مطابق للواقع ظناً منهم منافاتها لقواعد الشرع ولعمر الله إنها لم تناف ما جاء به الرسول وإن نافت ما فهموه من شريعته باجتهادهم والذي أوجب لهم ذلك نوع قصير في معرفة الشريعة وتقصير في معرفة الواقع وتنزيل أحدهما على الآخر .

فلما رأى ولاة الأمور ذلك وأن الناس لا يستقيم لهم أمرهم إلا بأمر وراء ما فهمه هؤلاء من الشريعة أحدثوا من أوضاع سياساتهم شراً طويلاً وفساداً عريضاً فتفاقم الأمر وتعذر استدراكه وعز على العالمين بحقائق الشرع تخليص النفوس من ذلك واستنقاذها من تلك المهالك وأفرطت طائفة أخرى قابلت هذه الطائفة فسوغت من ذلك ما ينافي حكم الله ورسوله .

وكلتا الطائفتين أتيت من تقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه فإن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق

---

(١) من أبرز رواد المدرسة السلفية الإصلاحية التي يعد ابن تيمية وابن القيم أشهر علمائها .

كان فثم شرع الله ودينه والله سبحانه أعلم وأحكم وأعدل أن يخص طرق العدل وأماراته وأعلامه بشيء ثم ينفي ما هو أظهر منها وأقوى دلالة وأبين أمارة فلا يجعله منها ولا يحكم عند وجودها وقيامها بموجبها .

بل قد بين سبحانه بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل بين عباده وقيام الناس بالقسط فأي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين وليست مخالفة له فلا يقال إن السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع بل هي موافقة لما جاء به بل هي جزء من أجزائه ونحن نسميها سياسة تبعاً لمصطلحهم وإنما هي عدل الله ورسوله ظهر بهذه الأمارات والعلامات .

فقد حبس رسول الله ﷺ في تهمة وعاقب في تهمة لما ظهرت أمارات الريبة على المتهم فمن أطلق كل منهم وحلفه وخلى سبيله مع علمه باشتهاره بالفساد في الأرض وكثرة سرقاته وقال لا آخذه إلا بشاهدي عدل فقوله مخالف للسياسة الشرعية .

وقد منع النبي ﷺ الغال من الغنيمة سهمه وحرق متاعه هو وخلفاؤه من بعده ومنع القاتل من السلب لما أساء شافعه على أمير السرية فعاقب المشفوع له عقوبة للشفيع وعزم على تحريق بيوت تاركي الجمعة والجماعة وأضعف الغرم على سارق مالاً قطع فيه وشرع فيه جلدات نكالاً وتأديباً وأضعف الغرم على كاتم الضالة عن صاحبها وقال في تارك الزكاة إنا آخذوها منه وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا وأمر بكسر دنان الخمر وأمر بكسر القدور التي طبخ فيها اللحم الحرام ثم نسخ عنهم الكسر وأمرهم بالغسل وأمر عبد الله بن عمرو بتحريق الثوبين المعصفرين فسجرهما في التنور وأمر المرأة التي لعنت ناقتها أن تخلي سبيلها وأمر بقتل شارب الخمر بعد الثالثة والرابعة ولم ينسخ ذلك ولم يجعله حداً لابد منه بل هو بحسب المصلحة إلى رأي الإمام وكذلك زاد عمر رضي الله عنه في الحد عن الأربعين ونفى فيها وأمر ﷺ بقتل الذي كان يتهم بأم ولده فلما تبين أنه خصي تركه وأمر بإمساك اليهودي الذي أومأت الجارية برأسها أنه رضخه بين حجرين فأخذ فأقر فرضخ رأسه وهذا يدل على جواز أخذ المتهم إذا قامت قرينة التهمة والظاهر أنه لم تقم عليه بينة ولا أقر اختيارا منه بالقتل وإنما هدد أو ضرب فأقر وكذلك العرنيون فعل بهم ما فعل بناء على شاهد المال ولم يطلب بينة بما فعلوا ولا وقف الأمر على إقرارهم .

وسلك أصحابه وخلفاؤه من بعده ما هو معروف لمن طلبه فمن ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه حرق اللوطية وأذاقهم حر النار في الدنيا قبل الآخرة وكذلك قال

أصحابنا إذا رأى الإمام تحريق اللوطي فله ذلك فإن خالد بن الوليد رضي الله عنه كتب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه إنه وجد في بعض نواحي العرب رجلاً ينكح كما تنكح المرأة فاستشار الصديق أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان أشدهم قولاً فقال إن هذا الذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا واحدة فصنع الله بهم ما صنع كما قد علمتم أرى أن يحرقوا بالنار فأجمع رأي أصحاب رسل الله ﷺ على لا أن يحرقوا بالنار فكتب أبو بكر إلى خالد أن يحرقوا فحرقهم ثم حرقهم عبد الله بن الزبير ثم حرقهم هشام بن عبد الملك .

وحرق عمر بن الخطاب رضي الله عنه حانوت الخمار بما فيه وحرق قرية يباع فيها الخمر وحرق قصر سعد بن أبي وقاص لما احتجب في قصره عن الرعية فذكر الإمام أحمد رحمه الله في مسائل ابنه صالح أنه دعا محمد بن مسلمة فقال اذهب إلى سعد بالكوفة فحرق عليه قصره ولا تحدثن حدثا حتى تأتيني فذهب محمد إلى الكوفة فاشترى من نبطي حزمة حطب وشرط عليه حملها إلى قصر سعد فلما وصل إليه ألقى الحزمة فيه وأضرم فيها النار فخرج سعد فقال ما هذا قال عزمة أمير المؤمنين فتركه حتى احترق ثم انصرف إلى المدينة فعرض عليه سعد نفقة فأبى أن يقبلها فلما قدم على عمر قال له هلا قبلت نفقته فقال إنك قلت لا تحدثن حدثا حتى تأتيني .

والمقصود أن هذا وأمثاله سياسة جزئية بحسب المصلحة تختلف باختلاف الأزمنة فظنها من ظنها شرائع عامة لازمة للأمة إلى يوم القيامة ولكل عذر وأجر ومن اجتهد في طاعة الله ورسوله فهو دائر بين الأجر والأجرين وهذه السياسة التي ساسوا بها الأمة وأضعافها هي تأويل القرآن والسنة ولكن هل هي من الشرائع الكلية التي لا تتغير بتغير الأزمنة أو من السياسات الجزئية التابعة للمصالح فتتقيد بها زمانا ومكاناً جمع عثمان الناس على حرف واحد ومن ذلك جمع عثمان رضي الله عنه الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة التي أطلق لهم رسول الله ﷺ القراءة بها لما كان ذلك مصلحة فلما خاف الصحابة رضي الله عنهم على الأمة أن يختلفوا في القرآن ورأوا أن جمعهم على حرف واحد أسلم وأبعد من وقوع الاختلاف فعلوا ذلك الناس من القراءة بغيره .

وهذا كما لو كان للناس عدة طرق إلى البيت وكان سلوكهم في تلك الطرق يوقعهم في التفرق والتشتت ويطمع فيهم العدو فرأى الإمام جمعهم على طريق واحد

وترك بقية الطرق جاز ذلك ولم يكن فيه إبطال لكون تلك الطرق موصلة إلى المقصود وإن كان فيه نهي عن سلوكها لمصلحة الأمة .[١]

أمثلة على عدم مراعاة بعض الوعاظ مصلحة البلاد والعباد

إن نصّت الدساتير وصدرت القوانين بأن أبناء الوطن الواحد من المسلمين وغيرهم مواطنون و" المواطنون لدي القانون سواء وهم متساوون في الحقوق والواجبات العامة لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة " كما صدرت القوانين تجرم ازدراء الأديان وتعكير صفو السلم الاجتماعي ، وتعارف الناس على أن التهادي وتبادل التهاني وتقديم التعازي والمشاطرة في الأفراح والأحزان مما ينبغي الحرص عليه بين المواطنين على اختلاف عقائدهم .

ولكن بعض الوعاظ يصرحون في أحاديث عامة أن المسيحيين ليسوا أهل كتاب ولا أصحاب ديانة سماوية إنما كفار مثلثون وعبدة للصليب ، كما أن اليهود ملاعين وأحفاد القردة والخنازير ، ويسمع العامة هذا الكلام ويعتدون على الكنائس والأفراد، وما تكاد تخمد فتنة حتى تشتعل غيرها بسبب فتاوى وعاظ السوء الذين يفتون بحرمة السلام على الكفار ، اليهود والمسيحيون ، وحرمة تبادل التهاني والتهادي ومشاطرتهم الأفراح والأحزان ، وحرمة وقوف دقيقة حداد على البابا شنودة الثالث راعي الكنيسة القبطية الأرثوذكسية الراحل .

بل وصل الأمر ببعضهم أن استباح أموالهم !!

مع أن شريعة الإسلام أباحت طعام أهل الكتاب والزواج منهم وبرهم وصلتهم والوقوف لجنائزهم وحرمت ظلمهم إيذائهم وأخذ أي شيء منهم بغير طيب نفس .

يقول تعالى : { وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ } (المائدة : ٥)

وقد جاءت الروايات بأن بعض الصحابة قد تزوج بكتابيات . فعثمان بن عفان تزوج نصرانية ثم أسلمت ، وطلحة بن عبيد الله وحذيفة بن اليمان تزوجا يهوديتين[٢]

---

(١) لمزيد من التفصيل راجع ابن القيم " كتاب الطرق الحكمية في السياسة الشرعية " باب الشريعة والسياسة .

(٢) محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ج ١ ص ٣٨٩

وأمر الإسلام بالبر بأهل الكتاب وصلتهم .

يقول تعالى : { لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُم } (الممتحنة:٨)

ويحرم النبي ظلم أهل الكتاب المعاهدين وانتقاصهم حقوقهم .

يقول النبي ﷺ " أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا وَانْتَقَصَهُ وَكَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "

(حديث صحيح رواه البيهقي وأبو داود)

وثبت وقوف النبي والصحابة لجنائز أهل الكتاب .

كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالْقَادِسِيَّةِ فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ فَقَامَا فَقِيلَ لَهُمَا :إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ أَوْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ فَقَالاَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ فَقَامَ فَقِيلَ لَهُ إِنَّهَا جَنَازَةُ يَهُودِيٍّ فَقَالَ :« أَلَيْسَتْ نَفْسًا " (متفق عليه)

ولا يتوقف أمر وعاظ السوء عن إيذاء أهل الكتاب ، وهو خطير ، إنما يخرجون على أوامر أولياء أمور المسلمين ويجاهرون بمخالفتها فإذا دعا الحاكم إلى تنظيم الأسرة من أجل الدولة من توفير ما يحتاج إليه الأطفال من صحة وتعليم ورعاية متكاملة قال وعاظ السوء إن الشرع حرَّم ذلك ، وإذا كان من تقاليد الدولة ومراسمها الوقوف عند تحية العلم شعار الدولة ورمزها قال الوعاظ إنها وثنية وحرموا ذلك .

العجيب أن هؤلاء الوعاظ يجهرون بأن ما يفعلونه هو شرع الله ، وما عاداه مما تعارف الناس عليه مخالف للشريعة ، غير مفرقين بين أنواع الشريعة الثلاث .

الشرع المنَزّل والمتأوّل والمبدّل

في عصر الوحي والبعثة كان مصطلح " الشرع " يعني الكتاب والسنة أي الشرع المُنزّل ، وكانت أحكام هذا الشرع قد نمت وتكاملت كاستجابة لما طرحته حياة ذلك العصر من حوادث ومشكلات ، لكن الحوادث لا تتناهى ، وتطور الحياة واختلاف الأماكن يطرح منها الجديد والمزيد ، الأمر الذي جعل الفقهاء والعلماء والمجتهدين ومنهم الولاة والحكام " يشرعون " أحكاماً لما يستجد من الأحداث فنشأ إلى جوار "الشرع المُنزّل " .. " الشرع المُتأوّل " وهذا " الشرع المُتأوّل " الشامل لاجتهادات المجتهدين وفقه الفقهاء وتشريعات الحكام والولاة الذي يمكن أن نسميه " تراث الأمة القانوني والسياسي " قد أصبح مما يندرج تحت مصطلح " الشرع والشريعة " وإن لم تكن له قدسية الدين وإلزام " الشرع المُنزّل " لجميع المؤمنين فهنا نمو في

"الشريعة والشرع " ولكنه نمو يتكون منه " بناء قانوني " ذو " طبيعة مدنية " وليس دينية إذا استخدمنا هذا المصطلح الحديث ، وابن تيمية وابن القيم يدافعان عن اندراج هذا " البناء القانوني – السياسي " تحت مصطلح " الشرع والشريعة " ويقرران تجاوز مضمون هذا المصطلح لما نص عليه القرآن الكريم والحديث : فلقد صار لفظ " الشرع " غير مطابق لمعناه الأصلي ، بل لفظ " الشرع " في هذه الأزمنة ثلاثة أقسام . [١]

الشرع المُنزَّل : وهو الكتاب والسنة ، واتباع النصوص قطعية الثبوت والدلالة فيهما واجب ، ويدخل في ذلك سياسة الحاكم الشرعيَّة التي يستهدف بها مصلحة الأمة ، وأقوال أئمة الفقه المجمع عليها .

الشرع المُتَأوَّل : فهو اجتهادات أئمة الفقه والعلماء المجتهدون في فهم النصوص قطعية الثبوت ظنية الدلالة أو ظنية الثبوت والدلالة وهذه الاجتهادات يختار منها المرء ما يطمئن له قلبه ويقتنع بها عقله .

يقول الأصوليون : " إنما ينكر المتفق عليه ولا ينكر المختلف فيه "

والشرع المُبَدَّل : الذي هو افتراء على الشريعة وإضافة إليها ما ليس منها ، والخروج به عن مصلحة العباد في المعاش والمعاد ، كأمر الحاكم رعيته بعدم صوم شهر رمضان بزعم زيادة الإنتاج ، أو الأمر بخلع نساء المسلمين حجابهن حتى لا يتمايزن عن غيرهن من المواطنات غير المسلمات ...

يقول ابن القيم : " من أهدر الأمارات والعلامات في الشرع بالكلية فقد عطَّل كثيراً من الأحكام وضيَّع كثيراً من الحقوق والناس في هذا الباب طرفان ووسط قال شيخنا رحمه الله وقد وقع فيه من التفريط من بعض ولاة الأمور والعدوان من بعضهم ما أوجب الجهل بالحق والظلم للخلق وصار لفظ الشرع غير مطابق لمعناه الأصلي بل لفظ الشرع في هذه الأزمنة ثلاثة أقسام :

الشرع المُنَزَّل : وهو الكتاب والسنة واتباع هذا الشرع واجب ومن خرج عنه وجب قتاله وتدخل فيه أصول الدين وفروعه وسياسة الأمراء وولاة المال وحكم الحاكم ومشيخة الشيوخ وولاة الحسبة وغير ذلك فكل هؤلاء عليهم أن يحكموا بالشرع المُنَزَّل ولا يخرجوا عنه .

---

(١) د. محمد عمارة " السلفية " دار المعارف للطباعة والنشر ص ٤٠

الثاني الشرع المُتَأَوَّل : وهو مورد النزاع والاجتهاد بين الأئمة فمن أخذ بما يسوغ فيه الاجتهاد أُقِرَّ عليه ولم يجب على جميع الناس موافقته إلا بحجة لا مرد لها من كتاب الله وسنة رسوله .

والثالث الشرع المُبَدَّل : مثل ما يثبت بشهادات الزور ويحكم فيه بالجهل والظلم أو يؤمر فيه بإقرار باطل لإضاعة حق مثل تعليم المريض أن يقر لوارث بما ليس له ليبطل به حق بقية الورثة والأمر بذلك حرام والشهادة عليه محرمة والحاكم إذا عرف باطن الأمر وأنه غير مطابق للحق فحكم به كان جائراً آثما وإن لم يعرف باطن الأمر لم يأثم فقد قال سيد الحكام صلوات الله وسلامه عليه في الحديث المتفق عليه " إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِه مِنْ بَعْضٍ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا " (متفق عليه) [١]

وللأسف فإن بعض الوعاظ المقلدون يقف بهم جمودهم عند حدود المضامين التي كانت لمصطلح " الشريعة " في عصر الوحي والبعثة ، فسموا " تراث الأمة القانوني " الذي نما استجابة لمحدثات الأمور وتطورات الحياة " سياسية " ورفضوا إدراجها تحت مصطلح " الشريعة " ولقد أدى تضييقهم هذا لنطاق مضمون "الشريعة" إلى جعل الولاة والحكام يقننون لأحداث الحياة ومشكلاتها وفق أهوائهم ، الأمر الذي قطع الصلات بين السياسة والشريعة ..

لكن أعلام السلفية اتخذوا لأنفسهم موقفاً عبقرياً بالغ العمق في هذا الموضوع فقرروا أن مقاصد الشريعة : هي إقامة العدل ، وتحقيق المصالح ، ودفع المضار ـ ومن ثم فإن كل ما يحقق هذه المقاصد فهو " شرع وشريعة " أو جزء من " الشرع والشريعة " حتى ولو لم ينزل به الوحي ولم ينطق به الرسول ، وهكذا جعلوا المعيار في الشريعة هو " المصلحة وتحقيق العدل " وليس ما كان " شرعاً شريعة " في عصر النبوة والتنزيل ، ويزيد من روعة هذا الموقف المتقدم أن أصحابه هم السلفيون أصحاب المنهج النصوصي ، الذي يميل أصحابه – بداهة – إلى المحافظة والجمود . ونحن لا نستطيع أن ندع الحديث عن هذه الصفحة من صفحات الفكر السياسي للحركة السلفية . [٢]

أهم القواعد الكلية في المذاهب الفقهية الإسلامية

معنى قاعدة في الاصطلاح الشريعي : هي أصول فقهية كلية في نصوص موجزة تتضمن أحكاماً تشريعية عامة في الحوادث التي تندرج تحت موضوعها.

---

(١) ابن القيم " الطرق الحكمية " جـ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦

(٢) د. محمد عمارة " السلفية " مرجع سابق ص ٤١

للقواعد الكلية في الفقه الإسلامي والتشريع أهمية كبرى فلا ينبغي أن يجهلها من يتصدى للفتوى والتشريع ، كما لا ينبغي أن يجهل فقه الواقع وإلا تعرضت فتواه إلى تحويل الشريعة من العدل إلى الظلم ومن الرحمة إلى القسوة ومن المصلحة إلى المفسدة .

يقول ابن تيمية : " لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَعَ الإِنْسَانِ أُصُولٌ كُلِّيَّةٌ تُرَدُّ إِلَيْهَا الْجُزْئِيَّاتُ لِيَتَكَلَّمَ بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ ثُمَّ يَعْرِفُ الْجُزْئِيَّاتِ كَيْفَ وَقَعَتْ ؟ وَإِلا فَيَبْقَى فِي كَذِبٍ وَجَهْلٍ فِي الْجُزْئِيَّاتِ وَجَهْلٍ وَظُلْمٍ فِي الْكُلِّيَّاتِ فَيَتَوَلَّدُ فَسَادٌ عَظِيمٌ " (١)

وقال السعدى " من محاسن الشريعة وكمالها وجلالها أن أحكامها الأصولية والفروعية،والعبادات والمعاملات،وأمورها كلها لها أصول وقواعد تضبط أحكامها وتجمع متفرقاتها،وتنشر فروعها،وتردها إلى أصولها، فهي مبنية على الحكمة والصلاح، والهدى والرحمة،والخير والعدل،ونفى أضداد ذلك." (٢)

إن هذه القواعد الفقهية نشأت بالتدرج شأنها شأن كل العلوم ، وقد صيغت مفاهيمها وتكونت نصوصها في عصور ازدهار الفقه ونهضته على أيدي كبار فقهاء المذاهب من أهل التخريج والترجيح بعد استقرار المذاهب الفقهية .. وانصراف كبار فقهائها إلى تحريرها وترتيب أصولها وأدلتها. وقد قاموا باستنباط هذه القواعد العامة من دلالات النصوص التشريعية العامة، ومبادئ أصول الفقه وعلل الأحكام والمقررات العقلية.

والآن سوف نعرض للقواعد الخمس الكبرى في إيجاز وتيسير .

القاعدة الأولى: قاعدة الأمور بمقاصدها.

معنى القاعدة في الاصطلاح الفقهي أن أعمال المُكَلَّف وتصرفاته من قولية أو فعلية تختلف نتائجها وأحكامها الشرعية التي تترتب عليها باختلاف مقصود الشخص وغايته وهدفه من وراء تلك الأعمال والتصرفات .

دليلها قوله ﷺ : " إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لامْرِئٍ مَا نَوَى" (متفق عليه)

أمثلة على القاعدة :

١- من قتل غيره بلا مسوغ شرعي. إذا كان عامداً فلفعله حكم وإذا كان مخطئاً فلفعله حكم آخر .

---

(١) ابن تيمية " مجموع الفتاوى " ج ١٩ ص ٢٠٣

(٢) ابن السعدي " الرياض الناضرة " ج ١ ص ٥٢٢

القواعد المندرجة تحت هذه القاعدة :

١- العبرة في العقود بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني.

فإذا تراضى المتعاقدان على أن يؤجر أحدهما للآخر عيناً، ولكن المؤجر نطق بلفظ البيع بدل الإيجار فإن العقد يكون على حسب المقصد الذي قصده المتعاقدان لا على حسب اللفظ الذي صدر ؛ وبذلك يكون العقد إيجاراً لا بيعاً .

٢- النيَّة تعمم الخاص، وتخصص العام.

كأن يقول شخص : والله لا أكلم أحداً ، وينوي زيداً فلا يحنث في يمينه إن كلَّم أي إنسان غير زيد .

٣. اليمين على نية الحالف.

مثل أن يحلف لا يأكل لحماً ولا فاكهة . ويريد لحماً بعينه ، وفاكهة بعينها.

القاعدة الثانية : اليقين لا يزول بالشك :

معنى القاعدة : أن الأمر المتيقن ثبوته لا يرتفع إلا بدليل قاطع، ولا يحكم بزواله لمجرد الشك، كذلك الأمر الذي تيقنا عدم ثبوته لا يحكم بثبوته بمجرد الشك، لأن الشك أضعف من اليقين، فلا يعارضه ثبوتاً وعدماً.

ودليلها قوله ﷺ : " إِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ فِي بَطْنِه شَيْئًا فَأَشْكَلَ عَلَيْه أَخَرَجَ مِنْهُ شَيْءٌ أَمْ لَا فَلَا يَخْرُجَنَّ مِنْ الْمَسْجِدِ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا " (رواه مسلم)

أمثلة للقاعدة :

١- المستيقن للطهارة إذا شك في الحدث فهو متطهر .

٢ - إذا ثبت دين على شخص وشككنا في وفائه، فالدين باق.

القواعد الفرعية المندرجة تحت هذه القاعدة:

١- الأصل بقاء ما كان على ما كان.

فإذا حُكِم بإسلام شخص فلا يُنتقل منه إلى الكفر إلا ببيّنة إذ الأصل بقاء ما كان وهو الإسلام.

٢- الأصل براءة الذمة.

فإذا ادَّعى شخص حقاً على آخر كان عليه أن يأتي بالبينة ليثبت ذلك الحق ؛لأن الأصل براءة الذمة.

٣. ما ثبت بيقين لا يرتفع إلا بيقين.

فمنا شك في أثناء الوضوء أو الصلاة أو غيرهما من العبادات في ترك ركن وجبت إعادته . فإن أتم الوضوء أو الصلاة ثم شك في ترك ركن لا يجب عليه

إعادته لأنه عندما أتم الوضوء أو الصلاة كان متيقناً من تمام أي منهما واليقين لا يزال بالشك .

٤- الأصل في الصفات والأمور العارضة عدمها.

لو اختلف البائع والمشتري في قبض المبيع أو الثمن ، أو اختلف المؤجر والمستأجر في قبض المأجور أو بدل الإجارة ، فالقول لمنكر القبض في جميع ذلك؛ لأن الأصل عدمه .

٥- الأصل إضافة الحادث إلى أقرب أوقاته.

فمن فتح قفصاً عن طائر فطار في الحال ضمنه ، وإن وقف ثم طار فلا يضمن إحالة على اختيار الطائر .

٦- الأصل في الأشياء الإباحة .

فما ورد الدليل بالنهي عنه فهو الممنوع وماعدا ذلك بقي على أصل الحل .

أي أن الأصل في الأمور المعتادة هو أنها حلال إلا ما ورد تحريمه في الكتاب أو السنة أو ما قيس عليهما .

ولكن الأصل في العبادات التحريم أي أن أي كل عبادة حرام لا تصح إلا ما أمرنا الله به كالصلاة والدعاء والصوم والحج وغيرهم ..

٧- الأصل في الأبضاع التحريم.

إذا اختلطت مَحَرَّمة بنسب أو رضاع بنسوة محصورات ، حُرِّم عليه نكاح إحداهن ما دام لم يتيقن أيتهن هي المُحَرَّمة.

٨- لا عبرة للدلالة في مقابلة التصريح.

فمن أخذ سلعة من تاجر، وقال له : آخذها بعشرين قرشاً، وقال التاجر : لا أبيعها إلا بخمسة وعشرين ، وأخذها المشتري وانصرف ؛ لزمه أن يدفع خمسة وعشرين قرشاً. فإن قال المشتري : إن تركه إياي أنصرف بالسلعة دليل على أنه رضي أن يبيعنيها بعشرين قلنا : لا عبرة بالدلالة في مقابلة التصريح.

٩- لا ينسب إلى ساكت قول.

أنه لا يصح نسبة قول إلى ساكت لم يتكلم به، إلا أن القاعدة ذاتها استثنت من ذلك حالة يمكن أن ينسب إلى الساكت فيها قول، وهي في حالة احتياج الحال إلى قبوله ورفضه، فطالما أنه سكت في محل كان يجب فيه أن يتكلم كان هذا السكوت دلالة على الموافقة.

١٠- لا عبرة بالتوهم.

لو اشتبهت عليه القِبْلة ، فصلى إلى جهة بدون تحرٍ واجتهاد ، لا تصح صلاته ، لابتنائها على مجرد الوهم ، بخلاف ما لو تحرى وصلى مع غلبة الظن فإنه تصح صلاته وإن أخطأ القبلة.

١١- لا عبرة بالظن البين خطؤه.

ولو ظن صائم بقاء الليل أو ظن غروب الشمس فأكل ثم بان خلافه بطل صومه

١٢- الممتنع عادة كالممتنع حقيقة.

الامتناع إما حقيقي وإما عادي ، فالأول امتناع الشيء ضرورة لمخالفته للعقل كإقراره لمن هو أكبر منه سناً أنه ابنه ، أما الثاني فهو امتناع الشيء عادة فقط ، وكلاهما سواء لا تسمع الدعوى به ولا تقام البينة عليه .

١٣- لا حجة مع الاحتمال الناشئ عن الدليل.

إذا لم يكن الاحتمال ناشئ عن دليل فلا أثر له، كمن أقر في حال صحته بمال لولده أو زوجه، فلا يقال إنه يحتمل أنه أراد حرمان الورثة؛ لأنه وإن كان ممكناً لكنه موهوم لا دليل عليه، والقاعدة تنص على أنه: " لا عبرة بالتوهم "

القاعدة الثالثة المشقة تجلب التيسير:

معنى القاعدة: أن الأحكام التي ينشأ عن تطبيقها حرج على المكلف ومشقة في نفسه، أو ماله، فالشريعة تخففها بما يقع تحت قدرة المكلف دون عسر أو إحراج.

دليلها قول الله عز وجل: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ }

(البقرة: ١٨٥)

ومن أمثلة هذه القاعدة: قصر الصلاة والفطر للمسافر، وقوله ﷺ في حق المريض: " صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً " (رواه البخاري)

القواعد الفرعية المندرجة تحت هذه القاعدة:

١- كلما ضاق الأمر اتسع، وكلما اتسع ضاق .

فالمريض وسع الله عليه بأن يصلي حسب حاله قاعداً، أو على جنب، أو إيماءً، فإذا شفاه الله صلاها قائماً كاملة كغيره.

٢- الضرورات تبيح المحظورات.

فيجوز للمضطر أن يأكل من الميتة أو يشرب الخمر إذا خشي الهلاك حفظاً لنفسه.

٣- ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها.

فالطبيب يجوز له النظر إلى عورة المريض بقدر الحاجة فقط، والمضطر يجوز له الأكل من الميتة والخنزير بقدر ما يدفع عنه الموت فقط، فإن زاد فهو آثم.

٥- ما جاز لعذر بطل بزواله.

عند عدم وجود الماء جاز التيمم ولكن إذا وجد الماء زال العذر فبطل التيمم.

٦- الحاجة العامة تنزل منزلة الضرورة.

أن الحاجة إذا عمت أكثر الناس فإنها تنزل منزلة الضرورة التي تكون لأحد الأفراد أو عمومهم

٧- الاضطرار لا يبطل حق الغير.

إذا أجازت الضرورة الاعتداء على أموال الغير، فإنه لا تسقط الحق المالي الواجب فيه، فإن الاضطرار يسقط إثم الفعل فقط، والعقوبة البدنية المترتبة على الفعل، دون الحق المالي .

٨- إذا تعذر الأصل يصار إلى البدل.

الماء هو الأصل والتيمم هو البدل فإذا تعذر وجود الماء يصار إلى البدل.

القاعدة الكلية الرابعة :قاعدة لا ضر ولا ضرار:

معنى القاعدة: أن الفعل الضار محرم، وتترتب عليه نتائجه في التعويض المالي والعقوبة عند حصوله. كما أنها تعني تحريمه مطلقاً بأي نوع من أنواع الضرر، ويشمل ذلك دفعه قبل وقوعه، كما يشمل ذلك رفعه بعد وقوعه.

كما أنها تلغي فكرة الثأر المحرم والانتقام، وإنما يأخذ الإنسان حقه بالطرق الشرعية بدون زيادة.

دليلها قوله ﷺ : " لا ضرر ولا ضرار " رواه بن ماجه، وصححه الألباني.

القواعد الفرعية المندرجة تحتها:

١- الضرر يدفع بقدر الإمكان.

شخص أصيب بضرر كالجوع والفقر فإنه إذا أمكن إزالة هذا الضرر كلية كان بها أما إذا لم يمكن ذلك أزيل بقدر الإمكان.

٢- الضرر يزال.

الضرر يزال بقدر الإمكان، ومن أجل هذا شرع الإسلام إغاثة المضطر، وإسعاف الجريح، وإطعام الجائع، وفك الأسير، ومداواة المريض، وإنقاذ كل مشرف على هلاك في النفس أو ما دونها.

٣. الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف.

شخص سبب الشقاء لزوجته بعدم النفقة عليها وإيذائها يجوز تطليقه من زوجته لأن الضرر الذي ينتج من التطليق أخف من إيذاء الزوجة وعدم النفقة عليها ويسمى الطلاق للضرر.

٤- يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام.

تقطع يد السارق ويقتل القاتل وهو ضرر خاص دفعا للضرر العام الذي قد ينتج من إباحة هذه الأفعال وأيضا قيل أنه يجوز التسعير للسلع وهو ضرر خاص درءا للضرر العام وهو حاجة الناس.

٥- درء المفاسد أولى من جلب المصالح.

إذا اجتمعت في الشيء المنافع والمضار وتساوت المنافع والمضار، فإنه يكون ممنوعاً من أجل درء المفسدة

القاعدة الكلية الخامسة : العادة محكمة:

معنى القاعدة: ومعناها أن العادة تعتبر مرجعاً في الأمور الشرعية المطلقة التي لم تحدد، مثل ضابط نفقة الزوجة والأولاد ونحو ذلك. ولا يعني هذا أنها دليل شرعي مستقل يؤسس الأحكام، بل تدور في فلك النصوص الشرعية المطلقة التي لم تقيد ولم تحدد، وبناءً عليه فإذا خالفت نصاً شرعيًا فلا عبرة بها .

ودليلها قول الله عز وجل: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ } (البقرة: ٢٢٨)

وقوله ﷺ : " خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف " (متفق عليه)

أمثلة للقاعدة:

١- نفقة الزوجة واجبة، لكن تحديد مقدارها يرد إلى عرف الناس، فما جرى به العرف في العادة عمل به.

٢- وكذلك نفقة الأبناء والمماليك والبهائم.

القواعد الفرعية المندرجة تحتها:

١- استعمال الناس حجة يجب العمل بها.

لو حلف إنسان ألاَّ يضع قدمه في دار فلان ، فينصرف إلى الدخول بأي وجه كان، راكباً ، أو ماشياً ، أو حافياً أو منتعلاً ؛ لأنه هو المتعارف لا المعنى الحقيقي، وهو مباشرة القدم .

٢- إنما تعتبر العادة إذا اضطردت وغلبت.

لو تعامل إنسان مع آخر في السعودية بألف ريال ولم يبين نوع الريال فإن لفظ الريال ينصرف إلى الريال السعودي الورقي لأن التعامل به يعتبر عادة مضطردة في السعودية .

٣- العبرة للغالب الشائع لا النادر .

ذلك فيما لو كان في بلد ما عملتان مختلفتان، وكان أحدهما أكثر استعمالا والآخر أقل، فإن لم ينص على أحد العملتين، فالعبرة بما كان الغالب استعماله منهما.

٤- الحقيقة تترك بدلالة العادة.

فمن حلف لا يتكلم ثم قرأ القرآن، لا يحنث؛ لأن العرف لا يطلق الكلام إلا على كلام الآدميين .

٥- الكتاب كالخطاب.

من أراد أن يخطب امرأة ويتزوجها فكتب إليها بالخطبة والزواج ، فإذا بلغ المرأة الكتاب ، وأحضرت الشهود ، وقرأته عليهم ، وقالت : زوجت نفسي منه ، انعقد النكاح وصح.

٦- المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً.

إذا استأجر أجيراً لعمل دون تحديد الثمن، فيستحق ما جرت العادة بمثله.

***

الفصل الأول

السلفية الحنبلية

نشأة الفرق الإسلامية

استمر فهم الدين في عهد النبوة والصحابة على نفس النهج الذي بيناً وهو عدم الاختلاف فيما هو معلوم من الدين بالضرورة وهو ما كان ظاهرًا متواترًا من أحكام الدِّين، معلومًا عند الخاصِّ والعامِّ دون نظر ولا تأمل وجوباً أو تحريماً ، مثل: توحيد الله تعالى ووصفه بكل كمال وتنزيهه عن كل نقص أو عيب ، وأن الملائكة خلق الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأن رسل الله تعالى مبعوثون لهداية البشر وآخرهم سيدنا محمد ﷺ ، وأن القرآن الكريم هو كتاب الله المنزل على سيدنا محمد ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وأن هناك بعثاً وحساباً بعد الموت وأن الأبرار في نعيم وأن الفجار في جحيم ، كذلك من المعلوم من الدين بالضرورة أركان الإسلام الخمس وتحريم الزنا وشرب الخمر وعقوق الوالدين والسحر والقتل والسرقة والغش والسرقة والكذب ... إلى غير ذلك من المسائل التي ينتشر بين المسلمين وجوبها أو تحريمها في العقيدة والشريعة .

أما الاختلافات فقد حدثت في بعض الأمور الجزئية ظنية الدلالة واجتهد فقهاء الصحابة في فهمها ، ولم يترتب على اختلافهم فيها فُرقة أو خلاف إنما وقعت الفرقة والخلاف بسبب السياسة وليس الدين .

واختلف صحابة رسول الله كثيراً في غير المعلوم من الدين بالضرورة إما بسبب عدم علمهم بالنص أو بسبب اجتهادهم في فهمه .

قال ابن القيم :" إن أهل الإيمان قد يتنازعون في بعض الأحكام ولا يخرجون بذلك عن الإيمان وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً " [١]

---

(١) ابن القيم إعلام الموقعين " ج ١ ص ٤٩

وكان الصحابة وتابعيهم بإحسان يتقبلون هذه الآراء المختلفة بالقبول الحسن لما فيها من سعة ورحمة ، ويتخيرون منها ما ترتاح إليه قلوبهم وتطيقه نفوسهم أو يجتهد علماؤهم فينشئون آراءً جديدة .

ولم يعرف الصحابة وتابعيهم بإحسان المعارك الكلامية حول الآراء الفقهية ؛ فقد كان يشغلهم الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام وإعلاء رايته ، والسعي على الرزق، ولكن مع الفتنة الكبرى بين عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما ظهرت الفرق السياسية مثل : الشيعة والخوارج ثم ما لبثتا أن تحولتا إلى فرق دينية تستمد من القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة أو الموضوعة حجيتها.

يقول رشيد رضا : " تلقى العرب الأميون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في بيانه بالقبول ؛ إذ لم يكن لديهم فلسفة دينية يحكمونها في دين التوحيد الفضيلة ، بعد أن اجتث الله به شجرة الشرك الخبيثة ، ولا كان لديهم تقاليد تشريعية يعقدون بها شريعته العادلة النقية ، فسهل فهم الشعوب والأمم له منهم ، وتلقوه بالقبول عنهم ، فلم يلبث الألوف من مواليهم الأعاجم منذ العصر الأول والثاني أن حذقوا لغة هذا الدين ففهموا كتابه المنزل ، وشاركوا أساتذتهم العرب في نشر الدعوة وتدوين اللغة والسنة ، ثم فيما استلزم ذلك من فتح الأمصار ، ونشر دين الله في الأقطار ، انتشر الإسلام في الشرق والغرب بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ ، فبلغ ملكه في جيل واحد ما لم يبلغ ملك الروم (الرومان) في ثمانية قرون ، فكانوا أعظم دول الفتح والاستعمار في الأرض ، وأشدها مراعاة للرحمة والعدل " (١)

نشأة علم الكلام

لما اتسعت رقعة الإسلام وفتح المسلمون بلاد فارس والروم البيزنطيين حتى امتد ملكهم من غربي الصين إلى جنوب فرنسا واختلط المسلمون بسكان هذه البلاد . وكما انتشر الإسلام بين أهل البلاد المفتوحة انتشر بين المسلمين علومهم ومعارفهم وفلسفتهم ، وبدأت المعارك الكلامية حول الإسلام والأديان القديمة السماوية مثل : اليهودية أو المسيحية أو الوضعية مثل : المانوية والزرادشتية والمزدكية وغيرها ، وظهر علم الكلام الذي يهتم ببحث العقائد الإسلامية وإثباتها بالأدلة العقلية والنقلية والتصدي للتحديات التي فرضها اختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم الأخرى .

---

(١) محمد رشيد رضا " مقدمة كتاب يسر الإسلام وأصول التشريع العام " مجلة المنار ج ٢٩ ص ٦٣

فالقرآن الكريم العربي المبين وأحاديث الرسول الذي أوتي جوامع الكلم تلك النصوص التي أقنعت عرب مجتمع شبه الجزيرة البسيط والواضح فدخلوا في دين الله أفواجاً قد أصبحت تحتاج إلى وسائل جديدة وبراهين معقدة وأدلة مركبة ، كي تقنع أقواماً ألفوا وسائل أخرى في الجدل والمناظرة والبرهنة والحِجاج ، وزاد هذه الحاجة الجديدة ضرورة وإلحاحاً أن الشرائع والعقائد والمذاهب غير الإسلامية التي كان يدين ويتمذهب بها أبناء البلاد المفتوحة ، قد استفادت من رفض الإسلام وأهله طريق الإكراه في الدين ؛ فشنّت على الإسلام حرباً فكرية ضروساً ، مستخدمةً فيها الأسلحة التي لم تعرفها شبه الجزيرة العربية ولم يحذقها ، من قبل ، العرب المسلمون .

وعندما وجد العرب المسلمون أنهم يدافعون عن إسلامهم بمنطق بسيط في مواجهة مؤسسات فكرية لاهوتية قد تسلحت في صراعها ضده بمنطق أرسطو،وأنهم يبشرون بإسلامهم مستخدمين النصوص بين أقوام قد امتلكوا حكمة الهند وفلسفة اليونان .. رأوا أن الاحتكام إلى النصوص لا يجدي مع الذين لا يؤمنون بحجية وقدسية هذه النصوص ، وأن الجدل بالمأثورات لا يقنع الذين يرفضون هذه المأثورات ورأوا ، كذلك ، أن هذا الواقع الفكري الجديد يتطلب أدوات صراع جديدة لذلك النزال الفكري الجديد ، وأن هذه الأدوات لا بد أن تكون إنسانية الطابع عالمية النمط ، أي عقلانية ، تصلح لكل ألوان الجدل والبرهنة بصرف النظر عن لون الحضارة أو النمط الفكري أو اختلاف الأمة أو تغير الزمان والتنوع في المكان.

وأمام هذه الضرورات الجديدة أفرزت الجماعة العربية الإسلامية طليعة فلاسفتها الإلهيين – المتكلمين من علمائها – أولئك الذين امتدت بصيرتهم إلى ما وراء النصوص ، مستخدمين العقل والقياس والتأويل ناظرين في المواريث الفكرية – وخاصة الفلسفة – لأبناء البلاد المفتوحة ومحصلين لمقولاتها ثم مستخدمين لأسلحتها الفكرية وأدواتها في الجدل والمناظرات للدفاع عن عقائد الإسلام ، وللتبشير بهذه العقائد في البيئات التي ما كان للنصوص والنصوصيين أن يحرزوا فيها نصراً لهذا الدين الجديد . (١)

وظهرت فرق عديدة مثل : المعتزلة والجهمية والماتدرية وغيرها بالإضافة إلى الخوارج والشيعة وما تفرع منها من مذاهب لتصل هذه الفرق إلى ثلاث وسبعين

(١) محمد عمارة " السلفية " دار المعارف للطباعة والنشر تونس ص ١٠، ١١

فرقة تتبعها البغدادي جميعاً في كتابه " الفرق بين الفرق " كما عرّف بهذه الفرق غيره .

ونظراً لانتشار البدع في المسلمين ، وتفشي فلسفة الأمم وتقاليد المِلَل من أقطارها لذا احتاجوا إلى التوسع في التشريع المدني والقضائي والسياسي ، فوضعوا علم الفقه بداعية حاجة الحكام ، وعلم الكلام لحراسة العقائد من البدع ونظريات الفلسفة المختلفة ، فاختلط بعقائد الإسلام وأحكامه العملية ما ليس منها ، وخرجت تعاليمه من فضاء السهولة والبساطة واليسر ، إلى مضايق الحزونة والتعقيد والعسر ؛ إذ كان الأعرابي في عهد النبي ﷺ يتعلم من عباداته الشخصية في مجلس واحد ما يكون به مسلمًا ، فصار يتعذر على المسلم الناشئ بين المسلمين أن يتعلم مذهبه الديني الموروث في عدة سنين ؛ لأن الأحكام كثرت بأقيسة المذاهب وتفريعاتها ، وعسر فهمها بضعف لغة المصنفين لكتبها ، فضاق ذرع الأمة بها ، وانحصر الطالبون لتحصيلها في عدد قليل من أهل الأمصار ، يطلبها أكثرهم لأجل الدنيا لا لأجل الدين . (١)

وهكذا كانت نشأة علم الكلام في التاريخ الإسلامي نتيجة ما اعتبره المسلمون ضرورة للرد على ما اعتبروه بدعة من قِبَل هذه الطوائف وكان الهدف الرئيسي هو إقامة الأدلة وإزالة الشُّبَه .

يقول أبو حامد الغزالي في نشأة علم الكلام : " اعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها فالقرآن والأخبار مشتملة عليه وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع ، وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها تُرَّهات وهذيانات تزدريها الطباع وتمجها الأسماع وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأول وكان الخوض فيه بالكلية من البدع ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ونبعت جماعة لفَّقوا لها شبهاً ورتبوا فيها كلاماً مؤلفاً فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه بل صار من فروض الكفايات وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة . " (٢)

---

(١) محمد رشيد رضا " مقدمة كتاب يسر الإسلام وأصول التشريع العام " مجلة المنار ج ٢٩ ص ٦٣
(٢) أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " ج١ ص ٢٢ .

أسباب وضع الحديث الشريف

نشأ من عدم تدوين الحديث في كتب خاصة في العصور الأولى واكتفائهم بالاعتماد على الذاكرة وصعوبة حصر ما قال رسول الله أو فعله مدة ثلاثة وعشرين عاماً أن استباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ونسبته كذباً إلى الرسول .

عن ابن عباس أنه قال : " إِنَّا كُنَّا نُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ لَمْ يَكُنْ يُكْذَبُ عَلَيْهِ فَلَمَّا رَكِبَ النَّاسُ الصَّعْبَ وَالذَّلُولَ تَرَكْنَا الْحَدِيثَ عَنْهُ " (رواه مسلم)

فلما فتحت الفتوح ودخل الإسلام من لا يحصى من الأمم المفتوحة ، من فارسي، ورمي ، وبربري ، ومصري ، وسوري ، وكان من هؤلاء من لم يتجاوز إيمانهم حناجرهم كثر الوضع كثرة مزعجة .

قال بن عدي : لما أخذ عبد الكريم بن أبي العوجاء الوضّاع ليضرب عنقه قال : لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أُحرِّم فيها وأُحلل .

وحسبك دليلاً على مقدار الوضع أن أحاديث التفسير – التي ذكر عن أحمد بن حنبل أنه قال لم يصح عنده منها شيء – وأن البخاري وكتابه يشتمل على نحو سبعة آلاف حديث ، منها ثلاثة آلاف مكررة ، قالوا إنه اختارها وصحت عنده من ستمائة ألف حديث كانت متداولة في عصره .(١)

على كل حال كان الوضع كثيراً ، ولم يقتصر وضع الحديث على الزنادقة والفاسقين وأصحاب الهوى إنما شمل أيضاً بعض الصالحين .

قيل لابن أبي مريم(٢) : لماذا تكذب على الرسول ﷺ ؟ قال: الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: " مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ " فأجاب وقال: أنا أكذب له لا أكذب عليه، وقد وضع في فضل كل سورة حديثاً، حتى أتى بمائة وأربعة عشر حديثاً، كلها موضوعة في فضائل السور، فهذا مذموم وقصده أن يدفع الناس لقراءة القرآن وقد أخطأ، وضل سبيله، وكذب على رسول الله ﷺ. (٣)

إذن بعض الوضّاعين لم يكونوا يرون الوضع عن رسول الله نقيصة خلقية ولا معرة دينية .

---

(١) أحمد أمين " فجر الإسلام " دار الكتاب العربي – بيروت ص ٢١١ .
(٢) الذي يقول صاحب كتاب سير أعلام النبلاء عن ابن أبي مريم: " الإمام ، المحدث ، القدوة ، الرباني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم ،حدث عنه خلق كثير" (ج ٧ ص :٦٥)
(٣) عائض القرني " حسن المقصد " دروس صوتية .

يقول يحيى بن سعيد :" لم نر الصالحين في شيء أكذب منهم في الحديث معناه ما قاله مسلم يجرى الكذب على ألسنتهم من غير تعمد وذلك لأنهم لا يعرفون صناعة هذا الفن فيخبرون بكل ما سمعوه وفيه الكذب فيكونون كاذبين فان الكذب الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو سهواً كان الإخبار أو عمدا " (١)

وقال خالد بن يزيد سمعت محمد بن سعيد الدمشقي يقول إذا كان كلام حسن لم أر بأساً أن أجعل له إسناداً (٢)

كان للاختلاف المذهبي أثر في التعديل والتجريح ، فأهل السنة يجرِّحون كثيراً من الشيعة ؛ حتى إنهم نصُّوا على أنه لا يصح أن يُرْوى عن عليٍّ ما رواه عنه أصحابه وشيعته إنما يصح أن يُرْوى ما رواه عنه أصحاب عبد الله بن مسعود ؛ وكذلك كان الشيعة مع أهل السنة ، فكثير منهم لا يثق إلا بما رواه الشيعة عن أهل البيت وهكذا .

ونشأ عن هذا أن من يعدِّله قوم قد يجرحه آخرون ، قال الذهبي : " لم يجتمع اثنان من علماء هذا الشأن على توثيق ضعيف ، ولا على تضعيف ثقة " (٣)

ومع ما في قول الذهبي من مبالغة فهو يدلنا على مقدار اختلاف وجهات النظر في التجريح والتعديل .

ولنضرب لك مثلاً محمد بن إسحق – أكبر مؤرخ في حوادث الإسلام الأولى – قال قتادة : لا يزال في الناس علم ما عاش محمد بن إسحاق ، وقال فيه النسائي : ليس بالقوي ، وقال سفيان : ما سمعت أحداً يتهم محمد بن إسحاق ، وقال الدارقطني : لا يحتج به وبأبيه ، وقال مالك : أشهد إنه كاذب .. الخ

وقد وضع العلماء للجرح والتعديل قواعد ليس هنا محل ذكرها ، ولكنهم – والحق يقال – عنوا بنقد الإسناد أكثر مما عنوا بنقد المتن ، فقلَّ أن تظفر بنقد من ناحية أن ما نسب إلى النبي ﷺ لا يتفق والظروف التي قيلت فيه ، أو أن الحوادث التاريخية الثابتة تناقضه ، أو أن عبارة الحديث نوع من التعبير الفلسفي يخالف المألوف في تعبير النبي ، أو أن الحديث أشبه في شروطه وقيوده بمتون الفقه وهكذا .

---

(١) الإمام النووي شرح صحيح مسلم ج ١ ص ١١١

(٢) ابن حجر العسقلاني " تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير " ج ١ ص ٣٤

(٣) الإمام النووي شرح صحيح مسلم ج ١ ص ٥٦

ولم نظفر منهم في هذا الباب بعشر معشار ما عنوا به من جرح الرجال وتعديلهم[1]

وهذه الروايات وغيرها لم تجعل المسلمين يشكون في كل أحاديث رسول الله ويبطلون العمل بها إنما جعلتهم يفرقون بين السنة العملية التي وصلتهم بالتواتر والتي يجب العمل بها ككيفية الصلاة وعدد ركعات كل صلاة وكذلك الحج والزكاة وغيرها مما اتفقت عليه الأمة وأصبحت معلوماً من الدين بالضرورة ، ومنها الأحاديث القولية المتواترة - وهي قليلة جداً - أما أحاديث الآحاد - وإن كانت صحيحة السند - فلا يمكن القطع بصحة سندها كالقطع بصحة القرآن الكريم الذي حفظه الله تعالى ولم يهمل علماء المسلمين أحاديث الآحاد إنما جعلوها مجال اجتهاد ممن توفرت فيهم شروطه .

نشأة السلفية

إن طبيعة اللون الفلسفي من ألوان التفكير وطبيعة البراهين التي استخدمها المتكلمون قد جعلت هذا الفكر فكر " صفوة " لا فكر عامة وجمهور بل وذلك أن العامة والجمهور قد وقفت بها مداركها عند النصوص بل وعند ظواهر النصوص في أغلب الأحيان .. بل لقد ارتابت العامة في جدوى هذا المسلك الذي سلكه المتكلمون ، بل وفي عقائد هؤلاء المتكلمين ! وزاد من هذه الريبة غلو اللاهوتيين من غير المسلمين في رفض النصوص قد جعل نفراً من المتكلمين يهملون النصوص الإسلامية أو يغضون من شان بعض المأثورات أو يؤولونها تأويلاً لا يبرأ من العسر والاعتساف . حتى جاء الوقت الذي خيل فيه إلى العامة والجمهور أن إسلام عرب شبه الجزيرة الأول إسلام النصوص الواضحة البسيطة الغنية عن التأويل ، والذي عرفه الناس زمن البعثة والصحابة والتابعين ، قد أصبح غريباً في هذا الواقع الفكري الجديد .[2]

إن بعض هؤلاء المتكلمين غالى في استخدام عقله فتعدى فروع الدين الجزئية التي يجوز الاختلاف فيها - من أهل الاجتهاد - إلى المعلوم من الدين بالضرورة الذي لا ينبغي الاختلاف فيه من أهل الاجتهاد فضلاً عن غيرهم فتجرءوا على ثوابت الدين في العقيدة والعبادة والشريعة كما يفعل بعض العلمانيين اللا دينيين في زمننا فهم لا يقبلون من الدين إلا ما وافق هواهم واستساغته عقولهم .

---

(١) أحمد أمين " فجر الإسلام " دار الكتاب العربي - بيروت ص ٢١٧ .
(٢) محمد عمارة " السلفية " مرجع سابق ص ١٢

ولم تكتف الفرق الكلامية بالدعوة إلى مذاهبهم بالحكمة والموعظة الحسنة بل وصل الأمر بها إلى استخدام القوة لفرض مذاهبها وأفكارها كما حدث في فتنة خلق القرآن .

فقد اعتقد المأمون برأي المعتزلة في مسألة خلق القرآن، وطلب من ولاته في الأمصار عزل القضاة الذين لا يقولون برأيهم . وقد رأى أحمد بن حنبل أن رأي المعتزلة يحوّل الله سبحانه وتعالى إلى فكرة مجرّدة لا يمكن تعقُّلها فدافع ابن حنبل عن الذات الإلهية ورفض قبول رأي المعتزلة ، وعندما دعا المأمون الناس إلى القول بخلق القرآن ، أجابه أكثر العلماء والقضاة مُكْرهين ، وثبت أحمد ، ونفرٌ قليل،على قوله : " القرآن كلام الله تكلم به ليس بمخلوق ومن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر ومن زعم أن القرآن كلام الله ووقف ولم يقل ليس بمخلوق فهو أخبث من قول الأول ومن زعم أن ألفاظنا به وتلاوتنا له مخلوقة والقرآن كلام الله فهو جهمي ومن لم يكفر هؤلاء القوم كلهم فهو مثلهم وكلم الله موسى تكليماً من فيه وناوله التوراة من يده " (١)

استدعى المأمون ابن حنبل فسار إلى المأمون فبلغه توعد الخليفة له بالقتل إنْ لم يُجبه إلى القول بخلقِ القرآن ، فتوجه أحمد بالدعاء إلى الله تعالى أنْ لا يجمع بينه وبين الخليفة ، فبينما هو في الطريق قبل وصوله إلى الخليفة إذ جاءه الخبر بموت المأمون ، فَرُدَّ أحمد إلى بغداد وحُبِس .

ثم تولَّى الخلافة المعتصم الذي أمر بإحضار ابن حنبل فلمَّا جِيء به وقف بين يديه والسيوف قد جُردت ، والرماح قد ركزت ، والأتراس قد نُصبت ، والسياط قد طرحت ، فسأله المعتصم عمَّا يقول في القرآن ؟ قال : أقول : غير مخلوق.

فأحضر المعتصم له الفقهاء والقضاة فناظروه بحضرته في مدة ثلاثة أيام ، وهو يناظرهم ويظهر عليهم بالحُجج القاطعة ، ويقول : أنا رجل علِمتُ علماً ولم أعلم فيه بهذا ، أعطوني شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى أقول به.

وكلما ناظروه وألزموه القول بخلق القرآن يقول لهم : كيف أقول ما لم يُقل ؟ فقال المعتصم: قَهَرَنا أحمدُ وانتهت فتنة خلق القرآن ، لكن تياراً إسلامياً ظهر وهو التيار السلفي ، الذي لم يكتف بالالتزام بسنة النبي وأقوال الصحابة في العقيدة

---

(١) أحمد بن حنبل "العقيدة رواية أبي بكر الخلال " دار قتيبة – دمشق ص ٧٩ .

والمعلوم من الدين بالضرورة بل أيضاً في المسائل الاجتهادية المختلف فيها التي تتغير بتغير الزمان والمكان والحال .

الإمام أحمد ومدرسة أصحاب الحديث

الإمام أحمد بن حنبل أحد الأئمة المشهورين الذي زاد عن الإسلام في عصر انتشرت فيه الآراء الفاسدة في الدين ككثير من آراء الخوارج والمعتزلة والشيعة والجهمية والماتدرية ... الذين تأولوا نصوص الدين وحرّفوا الكلم عن مواضعه انتصاراً لمذاهبهم من غير دليل شرعي على صحة آرائهم بل ربما وصل بهم الشطط إلى حد التقوُّل على الرسول وإسناد إليه ما لم يقله من أحاديث ، وفي هذه الظروف ومع تلك المذاهب رأى الإمام أحمد أن يغلق على المسلمين أبواب الفتن وأن يعتصم بالحديث النبوي الشريف وآراء الصحابة بلا تأويل لتلك النصوص يصرفها عن ظاهرها ذلك التأويل الذي كان في ذلك العصر سلاح المذاهب الفاسدة فأراد أن يجردهم من أهم أسلحتهم ألا وهو سلاح القول في الدين بالرأي وتأويل النصوص على حسب الهوى ؛ فعمد إلى أحاديث النبي فجمع أكبر قدر منها – وإن كان ضعيفاً – كما جمع ما بلغه من آراء الصحابة وفتاويهم ليكون هناك مرجعية نصية لهذا الدين يحتكم إليها بدلاً من فوضى الآراء الفاسدة التي تستمد مرجعيتها من نفس أمارة بالسوء أو هوى متبع أو عقل مأفون أو فلسفة وثنية أو أديان سماوية منسوخة أو ديانات بشرية باطلة مزهوقة كتلك الآراء التي تسللت للمتصوفة ، والخوارج ، والشيعة ، والجهمية ، والقدرية ، والمعتزلة ، والماتدرية ... لقد كان أحمد بن حنبل أشبه ما يكون بِمُحَدِّثي عصر الصحابة لا فقهائهم أقرب لعبد الله بن عمر بن الخطاب لا لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

وكان عصر الإمام أحمد قريب عهد بعصر النبوة فلم يكن هناك اختلاف كبير بين العصرين في طبيعة الحياة فلم تكن آراؤه تصدم واقعه أو تشق على الناس أو توقعهم في الحرج ، ومن لم يعجبه مذهب الإمام أحمد النصي فأمامه مذاهب فقهية أخرى كمذاهب الأئمة الفقهاء (أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، والليث بن سعد ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، والجعفري ، وعبد الله بن المبارك ...)[١]

---

(١) تضمنت المبادرات التي وقع عليها ١٧٧ عالماً في المؤتمر الإسلامي الدولي الذي انعقد في عمان يونيو ٢٠٠٦ ونحو ١٠٠ عالم من ٤٤ دولة إسلامية شاركوا في الدورة السابعة عشرة للمجمع تحقيق وحدة الأمة في إطار صحة إسلام مذاهبه الثمانية وحرمة الاعتداء علي أتباعها وعصمة دمائهم وأموالهم والتأكيد علي حرمة تكفير أي منهم ما دام يلتزم باركان الإيمان والإسلام والتنديد بالجرأة علي الفتوى من الذين يتصدون لذلك بطريقة لا تستند علي أدني دليل وإنما هي نوع من العنف والإرهاب والخروج علي قواعد الشريعة =

فالإسلام هو الذي صاغ أولئك الرجال كلهم وهم لم يصوغوه . وإن مصادر الإسلام معصومة لأنها من عند الله ولكن التفكير فيها غير معصوم لأنه من عند الناس . وإن وجوب الانتفاع بكل فقيه ذكي يدعم مسيرتنا العلمية ولا يغيرها أبداً ، ويجب أن تنتفي الحساسية والكراهية للأشخاص . وإن وجود هنات في رأى هذا أو سيرة ذلك لا تهدم عبقريته أو تخدش تفوقه إن كان صاحب عبقرية وتفوق . (١)

الأصول التي بنى عليها أحمد بن حنبل فتاويه

بنى أحمد بن حنبل فتاويه على خمسة أصول هي :

الأصل الأول : النصوص فإذا وجد النص أفتى بموجبه ولم يلتفت إلى ما خالفه ولا من خالفه كائناً من كان ولهذا لم يلتفت إلى خلاف عمر في التيمم للجنب لحديث عمار بن ياسر (٢) وكذلك لم يلتفت إلى قول علي وعثمان وطلحة وأبي أيوب وأبيّ بن كعب في ترك الغسل من الإكسال (٣) لصحة حديث عائشة أنها فعلته هي ورسول ﷺ .

وهذا كثير جداً ولم يكن يقدم على الحديث الصحيح عملاً ولا رأياً ولا قياساً ولا قول صاحب ولا عدم علمه بالمخالف الذي يسميه كثير من الناس إجماعاً .

الأصل الثاني : الصحابة فإنه إذا وجد لبعضهم فتوى لا يعرف لها مخالف منهم فيها لم يعدها إلى غيرها ، ولم يقدِّم عليها عملاً ولا رأياً ولا قياساً .

الأصل الثالث : إذا اختلف الصحابة تخيَّر من أقوالهم ما كان أقربها إلى الكتاب والسنة ولم يخرج عن أقوالهم فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكي الخلاف فيها ولم يجزم بقول .

= فليختر من المذاهب ما يشاء وما يتناسب مع طبيعته ولا بأس عليه فكلهم أئمة شهدت لهم الأمة على مدى تاريخ الإسلام بالتقوى والصلاح ، وعدم الخروج على شرع الله .

وقرر المجتمعون إن البحوث التي أعدت في هذا الموضوع تتفق كلها علي القواعد الأساسية العامة للإسلام وتعتبر المذاهب العقدية والفقهية والتربوية اجتهادات لعلماء الإسلام تتجه كلها إلي بناء وحدة الأمة وإثرائها فكراً .

(١) محمد الغزالي " دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين " ص ٩٣

(٢) جَاءَ رَجُلٌ إِلَي عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ : " إِنِي أَجْنَبْتُ فَلَمْ أَجِدِ الْمَاءَ. فَقَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ : أَمَا تَذْكُرُ إِنَا كُنا فِي سَفَرٍ فَأَجْنَبْتُ أَنَا وَأَنْتَ ، فَأَمَّا أَنْتَ فَلَمْ تُصَلِّ ، وَأَمَّا أَنَا فَتَمَعَّكْتُ فَصَلَّيْتُ ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:« إِنَمَا كَانَ يَكْفِيكَ هَكَذَا ». فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَفَّيْهِ الأَرْضَ فَنَفَخَ فِيهِمَا ، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ. " (متفق عليه)

(٣) أكسَلَ الرجل إذا جامع ثم لحقه فتور فلم يُنزِل .

الأصل الرابع : الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه وهو الذي رجّحه على القياس .

الأصل الخامس : القياس فإذا لم يكن عند الإمام أحمد في المسألة نص ولا قول الصحابة أو واحد منهم ولا أثر مرسل أو ضعيف عدل إلى القياس فاستعمله للضرورة .

فهذه الأصول الخمسة من أصول فتاويه وعليها مدارها وقد يتوقف في الفتوى لتعارض الأدلة عنده أو لاختلاف الصحابة فيها أو لعدم اطلاعه فيها على أثر أو قول أحد من الصحابة والتابعين .

وكان شديد الكراهة والمنع للإفتاء بمسألة ليس فيها أثر عن السلف كما قال لبعض أصحابه إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام وكان يمنع من استفتاء من يعرض عن الحديث ولا يبني مذهبه عليه ولا يسوغ العمل بفتواه . (١)

وهكذا .. وعلى هذا النحو أضفت الحركة السلفية الحنبلية القداسة على النصوص والمأثورات ووقف منهجها النصوصي عند هذه النصوص والمأثورات ، بل لقد وقف عند ظواهرها عندما رفض أن يعمل فيها الرأي أو الاجتهاد أو التأويل ، حتى عندما كانت تتعارض وتتناقض نصوص هذه المأثورات ومضامينها.

في أمور الدين – لا الدنيا – يكاد يتفق علماء الإسلام على أنه لا مجال للرأي أو الاجتهاد إذا وجدت النصوص ، لكن العلماء المجتهدين ، من غير أتباع السلفية الحنبلية ، يشترطون في النصوص التي لا اجتهاد معها أن تكون " قطعية الدلالة وقطعية الثبوت " بمعنى أن تكون دلالتها واضحة وقاطعة ، لا تقبل الاحتمالات وأن يكون ثبوتها قطعياً من حيث الرواية ، والأكثرون يشترطون في النصوص الدالة على الأمور اعتقادية أن تكون " متواترة " ولا يقبلون الإلزام في هذا الباب بأحاديث الآحاد .

أما إذا لم تكن النصوص قطعية الدلالة وقطعية الثبوت فإنهم – غير السلفية الحنبلية – لا يرون وجودها مانعاً من إعمال الرأي فيها والاجتهاد معها .

فالاجتهاد مع النصوص ، في هذه الحالات ، أمر وارد ، بل ومقرر عند غير السلفيين (الحنابلة) من العلماء . (١)

---

(١) ابن القيم " إعلام الموقعين " ج١ ص ٢٩ -٣٣ بتصرف .

الموقف الذي وقفه السلفيون الحنابلة من الرأي وقفوه من القياس أيضا فقد رأوا أن النصوص والمأثورات قد أحاطت بحكم جميع الحوادث ، الماضي منها والحاضر والمستقبل ، ومن ثمَّ فلا حاجة للقياس كما أنه لا حاجة للرأي ؛ لأن النص إذا وجد – وهو دائماً موجود – فلا قياس .

واتساقاً مع منهج السلفية النصوصي رفضوا " التأويل " الذي هو : صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله بل ذهبوا إلى أن التأويل هو الذي أفسد سائر الأديان ، وحولها عن الاستقامة والسداد .[٢]

وينبغي فهم آراء الإمام أحمد الداعية في الاعتماد على النصوص والمأثورات لا على الرأي والقياس والاستحسان في إطار ظروف عصره الذي لم يكن الحديث الشريف قد تم جمعه جمعاً كاملاً ولم يكن قد تم بيان الصحيح منه وغير الصحيح ، ويكفي أن نقول أن الكتب الستة أصح الكتب في الأحاديث لم تكن قد جمعت بعد ؛ ولم يكن قد تم شرحها وبيانها ، ولم يكن علم أصول الفقه قد انتشر بالشكل الكافي ؛ ولم يكن قد تم انتشار كتب علوم العربية من نحو وصرف ولغة وبلاغة ولا غيرها من العلوم التي تعين على فهم الدين الفهم الصحيح إنما ما كان قد تم منها فهو مجهودات فردية لم يكتب لها الذيوع والانتشار ولم تقم لها المدارس التي تقوم على تعليمها ، ومما أفسد الحياة العلمية آنذاك كثرة المذاهب الدينية والسياسية واستخدم الدين لتحقيق مصالح دنيا وكثرة علماء السوء وانتشار قالة الباطل ووضع الأحاديث.

أحمد بن حنبل فقيه أم محدث ؟

يقول الإمام أحمد عن مسنده : " إن هذا الكتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث فيما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله ﷺ فارجعوا إليه فإن كان فيه وإلا ليس بحجة "[٣] ويقول أيضاً عن مسنده : " عملت هذا الكتاب إماماً إذا اختلف الناس في سنة عن رسول الله ﷺ رُجع إليه "[٤] والإمام أحمد في عمله هذا يعد أقرب للمحدِّثين مثل : البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود

---

(١) محمد عمارة " السلفية " مرجع سابق ص ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) محمد عمارة " السلفية " مرجع سابق ص ٣١ .
(٣) " إسلام بلا مذاهب " د. مصطفي الشكعة ص ٤٩١
(٤) نفسه ص ٤٩١

منه إلى الفقهاء المجتهدين : مالك وأبو حنيفة والشافعي والليث بن سعد ... والذي يؤكد ذلك :

١- حرص الإمام أحمد الشديد على جمع الحديث في كتاب " المسند " الذي يعد موسوعة كبيرة تشتمل على ما يزيد على ثلاثين ألف حديث " بإسناد أبى بكر وعمر وعثمان وعليّ وأئمة الصحابة وينتهي بأسانيد الأنصار والمكيين والمدنيين وأهل الكوفة والبصرة والشاميين وقد ذكر العلماء أن الإمام لم يكن يقتصر في روايته على الحديث القوى ولذلك لم تبلغ أحاديثه في صحتها مبلغ أحاديث البخاري ومسلم التي يضعها المحدثون في الدرجة الأولى من الصحة بل أن فيها كثيراً من الأحاديث الضعيفة وفي عبارة ابن حنبل نفسه ما قد يشير إلى ذلك حيث يقول " قصدت في المسند الحديث المشهور وتركت الناس تحت ستر الله تعالى ولو أردت أن أقصد ما صح عندي لم أرو من هذا المسند إلا الشيء بعد الشيء . " [١]

٢- عدم ترتيب مسنده بحسب الموضوعات الفقهية كما فعل الفقهاء السابقين عليه أو اللاحقين به فقد " رتب مسنده حسب الصحابي الذي روى الحديث فيجمع في موضع واحد كل الأحاديث التي رواها ذلك الصحابي ثم تتبع بالأحاديث التي رواها صحابي آخر وهكذا ، والكتاب بهذا يخالف في منهجه ما سارت عليه كتب الحديث من قبله مثل " الموطأ " ومن بعده مثل " الجوامع الصحاح " فكلها مرتبة بحسب الموضوعات الفقهية وغير الفقهية ولذلك لاحظ العلماء أن الكتاب تصعب مراجعته للاستشهاد به في المسائل الفقهية . "[٢] .

٣- لم يفرد الإمام أحمد كتاباً مستقلاً للفقه كغيره من الفقهاء ككتاب " الموطأ " الإمام مالك وكتاب " الأم " للإمام الشافعي وكتاب " الفقه الأكبر " الذي ينسب للإمام أبى حنيفة . " ولم يضع ابن حنبل كتباً في الفقه على نمط خاص به وكل ما روى له في الفقه مسائل سئل عنها فأفتى فيها وإنما رتب المذهب وبوبه ودونه أتباعه فإن نحن نظرنا من ناحية النظريات القانونية ونظمها ورقيها ، وجدنا ابن حنبل أكبر أثرا في الحديث منه في الفقه . " [٣]

٤- تحذير الإمام أحمد تلامذته من تدوين آرائه الفقهية " ولم يذكر المؤرخون أن ابن حنبل وضع كتاباً في الفقه على نمط خاص به وإنما كل ما يروى عنه فيه

---

(١) " معجم أعلام الفكر الإنساني " إعداد نخبة من الأساتذة المصريين الهيئة العامة للكتاب ص ١٠٩
(٢) " معجم أعلام الفكر الإنساني " إعداد نخبة من الأساتذة المصريين ص ١٠٩
(٣) أحمد أمين " ضحى الإسلام " ص ٢٣٦ الهيئة المصرية للكتاب .

مسائل سئل عنها فأفتى فيها وهناك نصوص تؤكد أنه حذر تلاميذه من تدوين آرائه الفقهية خشية أن تحل محل القواعد العامة التي يجب أن يكــون مرجعهــا الكتــاب والسنة فحسب . " [١]

٥- تصريح بعض العلماء بأن ابن حنبل لم يكن فقيهاً بل كان محدِّثاً مثل الإمــام الطبري وابن قتيبة وابن عبد البر والمقدسي وابن خلدون وغيــرهم مــن القــدماء وأحمد أمين وغيره من المحدثين " فقد كان هناك من يصفه بأنه رجــل حــديث لا رجل فقه كما فعل ابن جرير الطبري الذي ثارت عليه الحنابلة وكما فعــل بعــض العلماء الذين اقتصروا في دراستهم للفقهاء على الأئمة الثلاثة : أبى حنيفة ومالــك والشافعي . "[٢]

يقول د. برهام محمد : " والكثيرون يعتبرون أن ابن حنبل محدث أكثر منه فقيهاً، بمعنى أنه يعتبر جامعاً لأحاديث رسول الله أكثر مما يعتبر مفسراً لها ."[٣]

ويقول د. أحمد أمين : " ولا خلاف في عدِّ أحمد بن حنبل من كبــار المحــدثين ولكن الخلاف في عده من الفقهاء فابن جرير الطبري ..كان يقول هو رجل حــديث لا رجل فقه .. ولم يذكره ابن قتيبة في كتابه " المعارف " بــين الفقهــاء ، وذكــره المقدسي بين المحدثين لا في الفقهاء ، واقتصر ابن عبد البر في كتابه الانتقاء علــى الأئمة الثلاثة ، أبى حنيفة ومالك والشافعي . " [٤]

٦- أنه لم يأخذ في أغلب ما أُثِر عنه من فتوى بعلم أصول الفقــه الــذي يجعــل القياس ، والعرف ، والاستحسان ، والمصلحة المرسلة ، وشرع من كان قبلنا إن لم يخالف شرعنا .. من الأدلة الشرعية التي يجب على الفقيه المجتهد أن يأخذ بهــا أو على الأقل يأخذ بمعظمها لكن لا ينبغي له أن يستغنى عنها جميعاً .

يقول ابن خلدون : " أحمد بن حنبل رحمه الله كان من عليــة المحــدثين.. وقــد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة. فأما أحمــد بــن حنبــل، فمقلدوه قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضــدة الروايــة، وللاخبــارِ بعضها ببعض. وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث وميلاً بالاستنباط إليه عن القياس ما أمكن . " [٥]

---

(١) " معجم أعلام الفكر الإنساني " إعداد نخبة من الأساتذة المصريين ص ١١١
(٢) نفسه ص ١١٠
(٣) د. برهام محمد " شجرة المذاهب الإسلامية " ص ٧٠
(٤) أحمد أمين " ضحى الإسلام " ص ٢٥٣ ط مكتبة الأسرة .
(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٧

الفرق بين المحدّث والأصولي والفقيه

وفرق كبير بين المحدث والفقيه ليس في الفضل بالطبع فكلاهما خادم للدين بل الفرق في المنهج ، فالمحدث همه جمع الحديث وتتبع رواياته ، ورواته وتمييز الصحيح منه وغير الصحيح ، ولابد أن يتسلح بعلم مصطلح الحديث الذي يشتمل على نحو تسعين علما منها " علوم الرجال والطبقات والتواريخ ، للثقات والمقبولين ، وللضعفاء والمجروحين ... وكانت – هذه العلوم – هي للحديث بمثابة " الأصول " للفقه " [١]

ويبدأ الفقيه من حيث ينتهي المحدث " فالفقيه يبحث في بيع المكلَّف وإجارته ورهنه وتوكيله وصلاته وصومه وحجه وقتله وقذفه وسرقته وإقراره ووقفه لمعرفة الحكم الشرعي في كل فعل من هذه الأفعال " [٢] ولابد أن يتسلح الفقيه بعدة علوم تعينه على استنباط الحكم الشرعي الصحيح ومن أهم هذه العلوم علم أصول الفقه فهو بالنسبة " للفقيه كمثل علم المنطق بالنسبة لسائر العلوم الفلسفية فهو ميزان يضبط العقل ويمنعه من الخطأ في الفكر كذلك علم أصول الفقه بالنسبة للفقيه يضبط الفقيه ويمنعه من الخطأ في الاستنباط .. فهو الذي يبين حجية القرآن وتقديمه على السنة ، وأنه أصل الشريعة ، ويبين الظني والقطعي ، والمنهاج الذي يرسم عند تعارض ظواهر النصوص ثم يبين تفاوت دلالة العبارة المختلفة فيبين مرتبة الخاص من العام ثم يتجاوز ذات الأدلة إلى المكلفين فيبين من الذي ينطبق عليه الأحكام الشرعية فيطالب بواجبها ويمنع من محرمها ، ويجازى على الطلب والمنع ثم يبين أثر الأحوال العارضة كالجهل بالشرع أو الغلط أو النسيان ونحو ذلك من الأحوال التي تعرض للشخص فتفقده المسئولية أو تخفف منها . "[٣]

ودونك هذا المثال الذي يبين عمل الأصولي وكيف يستنبط الأحكام " القرآن هو الدليل الشرعي الأول على الأحكام ونصوصه التشريعية لم ترد على حال واحدة بل منها ما ورد بصيغة الأمر ومنها ما ورد بصيغة النهي ومنها ما ورد بصيغة العموم أو بصيغة الإطلاق . فصيغة الأمر ، وصيغة النهي ، وصيغة العموم ، وصيغة الإطلاق ، كأنواع كلية من أنواع الدليل الشرعي العام وهو القرآن فالأصولي يبحث

---

(١) د . يوسف القرضاوى " المرجعية العليا في لإسلام للقرآن والسنة ". ص ٨٦
(٢) عبد الوهاب خلاف "علم أصول الفقه " ص ١٢
(٣) أصول الفقه " الإمام محمد أبو زهرة ص ٦

في كل نوع من هذه الأنواع ليتوصل إلى نوع من الحكم الكلي الذي يدل عليه مستعيناً في بحثه باستقراء الأساليب العربية والاستعمالات الشرعية فإذا وصل ببحثه إلى أن صيغة الأمر تدل على الإيجاب وصيغة النهي تدل على التحريم وصيغة العموم تدل على شمول جميع أفراد العام قطعاً وصيغة الإطلاق تدل على ثبوت الحكم مطلقاً وضع القواعد الآتية : الأمر للإيجاب ، والنهي للتحريم ، والعام ينتظم جميع أفراده قطعاً ، والمطلق يدل على الفرد الشائع بغير قيد وهذه القواعد الكلية وغيرها مما يتوصل الأصولي ببحثه إلى وضعها يأخذها الفقيه قواعد مسلمة ويطبقها على جزئيات الدليل الكلي ليتوصل بها إلى الحكم الشرعي العملي التفصيلي . "[١]

وكذلك بالنسبة للسنة النبوية فليس كل أمر للنبي ﷺ فريضة كما أنه ليس كل نهي له ﷺ تحريماً ؛ " فالواجب شرعاً هو ما طلب الشارع فعله من المكلَّف طلباً حتميّا بأن اقترن بما يدل على تحتيم فعله كما إذا كانت صيغته نفسها تدل على التحتيم أو دل على تحتيم فعله ترتيب عقوبة على تركه أو أية قرينة شرعية أخرى "[٢] كالصلاة ، والصيام ، وبر الوالدين ، والصدق ، وأداء الأمانة ....

أما المحرم فهو " ما طلب الشارع الكف عن فعله حتماً بأن تكون صيغة الكف نفسها دالة على أنه حتم كقوله تعالى { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ } (النساء : ٣) وقوله تعالى { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ } (الأنعام : ١٥١) أو { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ } (النساء : ١٩) أو يكون النهي عن فعله مقترناً بما يدل على أنه حتم مثل { وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً } (الإسراء : ٣٢)[٣]

وواضح مما سبق أن هناك فرقاً كبيراً بين علماء الحديث وعلماء الأصول والفقهاء ، وأنهم جميعاً لا غنى لأحدهم عن الآخر ، فالمحدث يجمع الأحاديث ويصنفها : صحيح ، مشهور ، ضعيف ، موضوع .. والأصولي يضع القواعد العامة لكيفية استنباط الأحكام من مصادر التشريع القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والإجماع ، والقياس ، والاستحسان ، المصلحة المرسلة ، والعرف ،

(١) عبد الوهاب خلاف " علم أصول الفقه " ص ١٣
(٢) نفسه ص ١٠٥
(٣) نفسه ص ١١٣

الاستصحاب ، ومذهب الصحابي . ثم يأتي دور الفقيه ليطبق هذه القواعد العامة على فروع الشرع وجزئياته ليقول مثلاً : أن صوم رمضان فريضة ، وصوم يوم الشك حرام ، وصوم ست من شوال سنة ، وأن السحور مستحب ، وأن اغتسال الصائم مباح ... ويدلل على كل حكم بالأدلة الشرعية .

الواقع أن عمل الفقيه متمم لعمل المحدثين وحارس للسنة من أي خلل قد يتسلل إليها عن ذهول أو تساهل . إن في السنة متواتراً له حكم القرآن الكريم وفيها الصحيح المشهور الذي يفسر العموم والمطلق في كتاب الله وفيها حشد كبير من أحكام الفروع التي اشتغلت بها المذاهب الفقهية وقد يصح الحديث سنداً ويضعف متناً بعد اكتشاف الفقهاء لعلة كامنة فيه وفي عصرنا ظهر فتيان سوء يتطاولون على أئمة الفقه باسم الدفاع عن الحديث النبوي مع أن الفقهاء ما حادوا عن السنة ولا استهانوا بحديث صحت نسبته وسَلِمَ متنه وكل ما فعلوه أنهم اكتشفوا عللاً في بعض المرويات فردوها – وفق المنهج العلمي المدروس – وأرشدوا الأمة إلى ما هو أصدق قيلاً وأهدى سبيلاً وهم بهذا يتأسون بالصحابة والتابعين ... من أجل ذلك فإن أئمة الفقه الإسلامي يقررون الأحكام وفق اجتهاد رحب يعتمد على القرآن الكريم أولاً فإذا وجدوا في ركام المرويات ما يتسق معه قبلوه وإلا فالقرآن الكريم أولى بالاتباع وحديث الآحاد يفقد صحته بالشذوذ والعلة القادحة وإن صح سنده .[1]

ولابد للفقيه أن يكون أصولياً – عالماً بعلم أصول الفقه – وليس شرطاً أن يكون الفقيه محدثاً ما دام يعتمد على كتب الصحاح التي صنفها علماء الحديث .

وليس كل محدِّث فقيهاً فغالباً ما يقتصر المحدِّث على جمع الأحاديث الصحاح وتصنيفها في أبواب ليسهل رجوع الفقهاء إليها كما فعل أئمة الحديث كالبخاري ومسلم والترمذي ... وإن أثر عنهم بعض الفتوى أو آراء في قضايا دينية فهي من قبيل الاجتهاد الشخصي الذي لا يرقى إلى أن يكون مذهباً فقهيّاً متبعاً .

وهذا لا يمنع أن يكون الفقيه مُحَدِّثاً فقد كان الإمام مالك فقيهاً ومحدِّثاً .

كيف انتشر مذهب أهل الحديث

عندما تولى الخليفة المتوكل الخلافة (٢٣٢ – ٢٤٧ هـ) استبدل بمذهب المعتزلة مذهب أهل الحديث وأكرم الإمام أحمد بن حنبل وخلع عليه خِلْعَةً عظيمة من ملابسه ، وأمر بإظهار السنة، والقضاء على مظاهر الفتنة التي نشأت عن القول

---

(١) محمد الغزالي " السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث " ص ١٦،١٧

بخلق القرآن وكتب إلى كل أقاليم الدولة بهذا المعنى، ولم يكتف بهذا، بل استقدم المحدِّثين والعلماء إلى مدينة "سامرا" وطلب منهم أن يحدثوا بحديث أهل السنة لمحو كل أثر للقول بخَلْق القرآن ، ليس ذلك فحسب بل إنه أقصى المعتزلة عن القضاء والمناصب التي كانوا يشغلونها إبان المأمون واستشار أحمد بن حنبل فكتب له قائمة بالقضاة والمستشارين ، وقدم أحمد بن حنبل قليل العلم من أهل الحديث على علماء الكلام لأن الأول – في معتقده– سني ذو دين ، أما الثاني فإنه مع علمه يضر الناس في الدين ؟! وهكذا انتعشت الحركة السلفية ، وساد نهجها النصوصي في البحث والتفكير فشهدت تلك الحقبة الزمنية الذيوع والانتشار لأعمال " أصحاب الحديث " الذين هم أعلام الحركة السلفية . (١)

لم يكتف بعض الخلفاء في حقبة ذيوع وانتشار المدرسة السلفية الحنبلية بالدعوة إلى هذه المدرسة ، وتعيين أعلامها في مناصب الدولة ، وإقصاء المخالفين لهم عنها بل وصل الأمر إلى إلزام المسلمين بعقيدة هذه المدرسة وفقهها ورمي المخالفين لها بالفسق والكفر ، وإباحة الدم .

ذكر ابن الجوزي في المنتظم : " أن الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين أبو جعفر ابن القادر بالله أخرج في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة الاعتقاد القادري الذي ذكره القادر فقرئ في الديوان وحضر الزهاد والعلماء وممن حضر الشيخ أبو الحسن علي بن عمر القزويني فكتب خطه تحته قبل أن يكتب الفقهاء وكتب الفقهاء خطوطهم فيه إن هذا اعتقاد المسلمين ومن خالفه فقد فسق وكفر وهو " يجب على الإنسان أن يعلم أن الله عز وجل وحده لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد لم يتخذ صاحبه ولا ولداً ... ولا مكان يحويه فخلق كل شيء بقدرته وخلق العرش لا لحاجته إليه فاستوى عليه كيف شاء وأراد لا استقرار راحة كما يستريح الخلق ... وهو السميع بسمع والمبصر ببصر يعرف صفتهما من نفسه لا يبلغ كنههما أحد من خلقه متكلم بكلام لا بآلة مخلوقة كآلة المخلوقين لا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به نبيه عليه السلام وكل صفة وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله فهي صفة حقيقة لا مجازية ويعلم أن كلام الله تعالى غير مخلوق تكلم به تكليماً .. ومن قال إنه مخلوق على حال من الأحوال فهو كافر حلال الدم بعد الاستتابة منه ... ثم قال هذا قول أهل السنة والجماعة الذي من تمسك به كان على

(١) محمد عمارة " السلفية " مرجع سابق ص ١٨

الحق المبين وعلى منهاج الدين والطريق الواضح ورجا به النجاة من النار ودخول الجنة إن شاء الله . "[١]

وهذا المرسوم الملكي يطرح قضايا عقدية ودعوية مهمة جداً يجب مناقشتها لأن هذه القضايا تبنتها معظم المدارس السلفية المتعاقبة ، وأول هذه القضايا وأخطرها تفسيق وتكفير المخالفين فيما يجوز فيه الخلاف بل واستباحة دمهم !!

أتباع السلفية الحنبلية وتكفير المخالفين فيما يجوز فيه الخلاف

جاء في المرسوم الملكي الذي يمثل العقيدة القادرية الحنبلية " ومن قال إنه (القرآن الكريم) مخلوق على حال من الأحوال فهو كافر حلال الدم بعد الاستتابة منه"

إذا كان الله تعالى قد خيَّر الإنسان في الإيمان والكفر ولم يأمر بقتال الكافر بكفره إن كان مسالماً فكيف يحكم هذا الخليفة ومن وافقه من علماء عصره على استباحة دم المسلم الموحِّد المنزِّه لله عن كل صفات النقص ؟!

يقول تعالى معلماً نبيه ﷺ { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } (الشعراء : ٣ ، ٤)

أي: لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكنّا لا نفعل ذلك؛ لأنّا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري .[٢]

ويقول جل وعلا :

{ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }(البقرة : ٢٥٦)

أي: لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورًا. [٣]

وفي القضايا الجدلية خاصة الفلسفية فيها لا ينبغي تسليط السيف على رقاب المخالفين وإكراههم على رأي كما فعل الخليفة المأمون الذي أكره الناس ، بحد

---

(١) ابن الجوزي " المنتظم في تاريخ الملوك والأمم " ج ٨ ص ١٠٩- ١١١ بتصرف
(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٣٥
(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٦٨٢

السيف ، على الاعتقاد بأن القرآن الكريم مخلوق ، وكما فعل الخليفة ابن القادر في استخدام نفس السلاح في إكراه الناس بعكس اعتقاد المأمون والقول بأن القرآن الكريم غير مخلوق رغم أن هذه القضية ليست من أركان العقيدة ولم يتحدث فيها أحد من السلف الصالح ولم تظهر إلا مع ظهور علم الكلام فشغلت الناس زمناً ثم تلاشت ولم يعد أحد يثيرها !!

القضية الثانية التي يثيرها مرسوم الخليفة ابن القادر بالله ويريد أن يلزم الناس بها وهي " إنه تعالى سميع بسمع وبصير ببصر " .

وهذا مما لم يصف الله تعالى به نفسه ولم يصفه به نبيه أو أحد من السلف الصالح وهناك طوائف من أهل السنة رفضت هذا القول فهل يعد هؤلاء جميعاً كفاراً ؟!

يقول ابن حزم في الملل والأهواء والنحل " : " ذهبت طوائف من أهل السنة منهم الشافعي وداود بن علي وعبد العزيز بن مسلم الكناني رضي الله عنهم وغيرهم إلى أن الله تعالى سميع بصير ولا نقول بسمع ولا ببصر لأن الله تعالى لم يقله " [١]

لقد حكم الخليفة القادر بالله بالكفر على من خالف ما جاء في الوثيقة مع وجود الأحاديث الصحيحة التي تحذر من رمي المسلم بالكفر .

فعن عبد الله بن عمر أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: " مَن قال لأخيه يا كافر ، فقد باء بها أحدُهما" وفي رواية : " إذا كفَّر الرجلُ أخاه ، فقد باء بها أحدُهما" وفي أخرى :"أيما امرئ قال لأخيه : كافر ، فقد باء بها أحدُهما ، إن كان كما قال ، وإلا رجعت عليه" (أخرجه الجماعة إلا النسائي)

ولقد جزم الخليفة القادر بالله أن كل ما جاء في مرسومه هو " قول أهل السنة والجماعة الذي من تمسك به كان على الحق المبين وعلى منهاج الدين والطريق الواضح ورجا به النجاة من النار ودخول الجنة إن شاء الله " وأهل السنة والجماعة لم يجمعوا على كل ما ذكر وقد ذكرنا مخالفة طوائف منها لما ذهب إليه وسيأتى أقوال المتأولين من أهل السنة والجماعة .

هل كان الصحابة يعتقدون اعتقاد السلفيين في صفات الله تعالى ؟

لقد ادعت السلفية الحنبلية أن مذهبها في الاعتقاد هو ما أجمع عليه السلف ، فيصدرون كلامهم في العقيدة بقولهم : " هذا اعتقاد السلف الصالح " أو " جميع

---

(١) ابن حزم " الملل والأهواء والنحل " ج ٢ ص ١٠٩

السلف يعتقدون هذا " أو " " هذا مذهب أهل السنة والجماعة " ، أو " هـذا اعتقـاد المسلمين ومن خالفه فقد فسق وكفر كما جاء في وثيقة الخليفة القادر .

أولاً : ادعاء إجماع السلف أو غيرهم ، في غير المعلوم من الدين بالـضرورة ، ادعاء كاذب صرح بهذا مؤسس السلفية وإمامها .

يقول ابن القيم " قال عبد الله بن أحمد بن حنبل سمعت أبي يقول ما يـدعي فيـه الرجل الإجماع فهو كذب من ادعي الإجماع فهو كاذب لعل الناس اختلفوا ما يدريه ولم ينته إليه " [١]

وهذا كلام نفيس في هذا المقام وبناء عليه نقول لمن ادعوا أن السلف الصالح لـم يتأولوا آيات صفات الله تعالى بما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه كيف عـرفتم ذلك على الرغم من أنهم لم يصرحوا بهذا قط ؟ فمن أين قطعتم بهذا ؟ هل شـققتم عن قلوبهم جميعاً حتى عرفتم اعتقادهم في آيات وأحاديث الصفات !!!

لقد نزل القرآن الكريم بلسان العرب ومن بين الأساليب العربية مـا هـو ظـاهر يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره .

يقول الشافعي في لرسالة : " إن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهـه وجمـاع معانيه وتفرقها ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها " [٢]

قال الشافعي فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف مـن معانيهـا وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاماً ظاهراً يراد به العام الظاهر ويستغني بأول هذا منه عن آخره وعاماً ظاهراً يراد به العام ويدخله الخاص فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه وعاما ظاهرا يـراد به الخاص وظاهر يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره فكل هذا موجود علمـه في أول الكلام أو وسطه أو آخره " [٣]

---

(١) ابن القيم في " إعلام الموقعين" ج ١ ص ٣٠
(٢) الإمام الشافعي " الرسالة " ص ٥٠
(٣) الإمام الشافعي " الرسالة " ص ٥٢

وجميع مدارس السلفية تُقرُّ أن السلف الصالح لم يتكلموا في نصوص الذات والصفات ، كما أن من خصائص اللغة العربية التي شرفها الله تعالى بأن أنزل القرآن الكريم بها اشتمالها على المجاز والبيان ، ولم يعرف العرب بشيء كما عرفوا بالبلاغة والفصاحة ، وعلم البيان أحد فروع علم البلاغة الثلاثة (علم البيان، وعلم المعاني ، وعلم البديع) .

والسلفيون يقولون إن ما ذهبوا له من رأي في صفات الله تعالى عقيدة من ينكرها كافر وليس هناك نص واحد من قرآن كريم أو حديث صحيح ولا حتى ضعيف يقول إن نصوص صفات الله على الحقيقة وليست على المجاز وأن من قال بأنها على المجاز فقد كفر .

والعجيب أن حجة السلفيين في إثبات مذهبهم هذا هي أن معاني صفات الله الواردة في الكتاب والسنّة معلومة المعنى، وأن هذا المعنى هو ما دلّ عليه ظاهر اللفظ من غير تأويل .

واستدلوا على ذلك بأدلة منها قوله تعالى: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاته} (ص:٢٩)

وقوله تعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} (النساء:٨٢)

وهذه الأدلة حجة عليهم فالقرآن الكريم لا يؤخذ بظاهرة إنما يجب تدبره وفهمه وإعمال العقل فيه في ضوء الحديث الشريف الصحيح وعلوم اللغة العربية ، ولا نعرف أحداً من العلماء قال إن القرآن الكريم معلوم المعنى واللفظ – للعرب فضلاً عن سواهم – ولا يحتاج إلى علماء تفسير يفسرون ما استشكل على الناس من ألفاظه وظاهر نصه ، وكيف يقول عالم هذا والصحابة أنفسهم كانوا يسألون العالمين بتفسيره وتأويله فيما استشكل عليهم فهمه .

ولمَ دعا سيدنا محمد إذن لابن عباس بأن يعلمه الكتاب إذا كان القرآن الكريم كله واضح المعنى للعربي ؟!

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ ضَمَّنِي النَّبِيُّ ﷺ إِلَى صَدْرِهِ وَقَالَ " اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ " وفي رواية وهيب "عَلِّمْهُ الْكِتَابَ " (رواه البخاري)

ولمَ ذكر النبي كلمة تأويل في دعوته لابن عباس إن كان القرآن كله على ظاهره ولا يحتاج لتأويل ؟!

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ وَضَعَ كَفَّيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، فَقَالَ : " اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ." (ذكره الألباني في السلسلة الصحيحة)

يقول ابن الأثير في شرح كلمة "تأويل" المذكورة في الحديث " المراد بالتأويل نقْل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلي ما يحتاج إلي دليلٍ لولاه ما تُرك ظاهر اللفظ .

ومنه حديث عائشة رضي اللّه عنها " كان النبي ﷺ يُكْثِر أن يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم وبحمدك يتأوّل القرآن " تعني أنه مأخوذ من قول اللّه تعالى { فسبّح بحمد ربك واستغفِره }

ومنه حديث الزهري " قال قلت لعُروة : ما بال عائشة رضي اللّه عنها تُـتِمُّ في السفر – يعني الصلاة – قال : تأوّلتْ كما تأوّل عثمان " أراد بتأويل عثمان ما رُوِي عنه أتَمَّ الصلاة بمكة في الحج وذلك أنه نوى الإقامة بها . " [1]

إن تأويل بعض العلماء لنصوص الصفات لا يقدح في توحيدهم الخالص وتنزيههم لله تعالى .

فإذا طالعنا آراء المعتزلة والأشاعرة والسلفية الحنبلية في ذات الله تعالى وصفاته، نجد أن الفرق الثلاثة متفقة على ما يلي:

أولاً: إثبات الذات لله تعالى، وأنها لا تشبه الذوات، بل ذاتٌ لائقة به سبحانه وتعالى.

ثانياً: إثبات صفة العلم والقدرة والحياة لله تعالى، وأنها لا تماثل صفة المخلوق، مع اختلافهم في كيفية استحقاق الله تعالى لهذه الصفات.

ثالثاً: تنزيه الله تعالى عن مماثلة المخلوقين، وأن كل ما اتصف الله تعالى به، بحسب اختلافهم في ذلك، فإنه لائق بالله تعالى لا يماثل صفة المخلوق.

---

(١) ابن الأثير النهاية في غريب الحديث والأثر " ج١ ص ١٩٢

٢- اتفاق الأشاعرة والمعتزلة على تأويل ما يلي:

أولاً: الصفات الخبرية لله تعالى كصفة الوجه واليد والقدم ونحو ذلك.

ثانياً: الصفات الاختيارية، كصفة النزول والإتيان والفرح والضحك ونحو ذلك.

٣- أن السلفيَّة تثبت جميع الصفات الواردة لله تعالى في الكتاب والسنَّة، على الوجه اللائق بالله تعالى من قطع مماثلتها لصفة المخلوق ومن غير تكييف لهذه الصفات، وكذلك من غير تعطيل ولا تأويل لها. فيثبتون جميع الصفات الخبرية والاختيارية والذاتية، لا يفرقون بينها في الإثبات. (١)

فهل هذا الخلاف بين هذه الفرق تستحق التكفير والتفسيق والتبديع .. اللهم لا .

***

---

(١) " الذات والصفات بين السلفية والأشاعرة والمعتزلة " بحث تمهيدي لنيل درجة الماجستير نقلا عن الموقع الرسمي للشيخ فيصل قزار الجاسم .

الفصل الثاني
السلفية الإصلاحية

أحوال المسلمين إبان التتار والصليبيين

استمرت مدرسة أصحاب الحديث التي أنشاها الإمام أحمد منتشرة نحو ثلاثة قرون من الزمان حتى ضعفت الخلافة العباسية الداعمة لها وبدأ زحف المماليك لوراثتها . والمماليك جند مرتزقة غرباء عن العرب المسلمين حضارياً وقومياً وبسيطرتهم على مقاليد الحكم ومقدرات الأمة فشت البدع والمظالم ، وغالبت عقائد السلفية حتى غلبتها . (١)

وبضعف الخلافة العباسية لم تَبْتَلِ الأمة الإسلامية بتفشي البدع والمظالم في الداخل فحسب بل بدأ تهديد المعتدين لها من الخارج .

يقول ابن أثير واصفاً حال الأمة الإسلامية آنذاك : " ولقد بُلِيَ الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم تَبْتَلِ بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر، قبحهم الله، أقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها ... ومنها خروج الفرنج، لعنهم الله، من المغرب إلى الشام ... ومنها الذي سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول، والفتنة قائمة على ساق فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فإن الناصر، والمعين، والذاب عن الإسلام معدوم . " (٢)

وفي هذا العصر قلَّ الإنتاج العلمي، وركدت الأذهان، وأقفل باب الاجتهاد وسيطرت نزعة التقليد والجمود، وأصبح قصارى جهد كثير من العلماء هو جمع

(١) محمد عمارة " السلفية " مرجع سابق ص ٢٠
(٢) ابن الأثير " الكامل في التاريخ " ج ٥ ص ٣٠٥

وفهم الأقوال من غير بحث ولا مناقشة، فأُلِّفَتْ الكتب المطولة والمختصرة، ولكن لا أثر فيها للابتكار والتجديد، وهكذا عصور الضعف تمتاز بكثـرة الجمـع وغـزارة المادة مع نضوب في البحث والاستنتاج .

ويحيل بعض الباحثين ذلك الضعف إلى : سيادة الأتراك والمماليـك ممـا سـبب استعجام الأنفس والعقول والألسن، إضافة إلى اجتماع المصائب على المسلمين، فلم يكن لديهم من الاستقرار ما يمكنهم من الاشتغال بالبحث والتفكير .[1]

وفي تلك الأثناء التي انعدم فيها المدافع عن تعاليم الإسلام من المبتدعة والمـدافع عن بلاد الإسلام من المعتدين بدأت صحوة الحركة السلفية وكان من أبرز أعلامها

أبو الوفاء ابن عقيل (٤٣١- ٥١٣ هـ) وشيخ الإسـلام ابـن تيميـة (٦٦١- ٧٢٨ هـ) وابن قيم الجوزية (٦٩١- ٧٥١ هـ) .

ولقد واصلت الحركة السلفية في صحوتها هذه السير على منـوال العقائـد التـي صاغها ابن حنبل ومعاصروه ونهجت النهج النصوصي الذي بلوروه مع إضـافات عديدة طرحتها مواجهتهم لما استجد من بدع وخرافات ومع مرونة ملحوظـة فـي الموقف من القياس والتأويل فرضتها التعقيدات التي طرأت على المجتمعـات التـي عاشوا فيها والأبنية الفكرية التي تصارعت في هذه المجتمعات .[2]

ولقد تحمّل ابن تيمية الجهد الأكبر في حمل راية الجهاد بمراتبه الأربعة :

١- جهاد النفس بحملها على : تعلم العلم الصحيح ، والعمل به ، والـدعوة إليـه ببصيرة ، وتعليمه من لا يعلمه ، والصبر على مشاق العلم والعمل والدعوة .

٢- جهاد الشيطان بما يلقى في النفوس من الـشبهات والـشكوك القادحـة فـي الإيمان، وما يزين لهم من المعاصي ، والتنفير من الطاعات .

٣- جهاد أهل المعاصي والبدع ، وأصحاب الظلم والعدوان .

٤- جهاد المعتدين على أرض الإسلام الطامعين في خيراته وثرواته .

مشروع ابن تيمية الإصلاحي

رائد السلفية الإصلاحية وإمامها الحقيقي هو ابن تيميه الـذي جـاء فـي عـصر انحطاط شامل : ديني ، وسياسي ، وعلمي ، وأخلاقي، وبدأ مشروعه الإصـلاحي منذ سنين مبكرة ، وعلى الرغم من بدايته الحنبلية إلا انه تجاوز الإطار الحنبلي إلى

---

(١) د. عبد الله بن صالح بن عبد العزيز " ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية " موقع صيد الفوائد .

(٢) محمد عمارة " السلفية " مرجع سابق ص ٢٠

رحابة الاجتهاد والاختيار بين المذاهب أو تبني أراء جديدة أقدر على تنزيل النص على الواقع .

كانت المهام التي تنتظر ابن تيمية كبيرة وخطيرة، وتستدعي مشروعاً إصلاحيّاً متكاملاً يتناول جوانب التصورات النظرية والجوانب الثقافية والمعرفية، كما يتناول الجوانب السلوكية والعملية، في المحصلة نشأت مدرسة ابن تيمية الإصلاحية التجديدية في ميادين متعددة وتنقّل الشيخ بين ميادين متنوعة من الجهاد الديني ، والثقافي ، والسياسي ، والعسكري .

ففي الجانب العقدي : قام مشروع ابن تيميه الإصلاحي على تنقية التوحيد مما علق به من الشوائب وإعادة الفعالية التأثيرية له من خلال إعادة طرحه وفق منهج القرآن والسنة، بعيداً عن التباسات الفلسفة والإرجاء .

وفي الجانب العلمي والفقهي: قام بإنزال النص الفقهي منزلته الاجتهادية الطبيعية بعيداً عن أي رتبه مقدسة، وبالتالي محاربة التعصب المذهبي الفقهي، وفتح مجال الاجتهاد والإبداع للعقل، وضرب القطائع التي مزقت السلم الاجتماعي بالتعصب المذهبي وذلك من خلال تقديم رؤية معرفية / فكرية عميقة لأسباب الخلاف الفقهي وتبريره وبإلغاء أسباب ومسببات التشنج للمذهب .

أمّا في الجانب المعرفي فقد عمل ابن تيمية على إعادة بناء الثقافة والمعرفة الإسلامية بناءً يعيد الفعالية والإنتاجية لها، بترتيب العلاقة وتوضيحها بين العقل والنص ويتضح ذلك في كتابه المشهور "درء تعارض العقل مع النقل" والذي أسس فيه لمعادلة " النص " و" العقل " من خلال عنصر الإدراك والفهم في تكامل ومؤازرة كل منهما (العقل والنقل) للآخر ، بدلاً من التناقض والنفي، في حين ذكر ابن تيميه أن : " أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ الصَّحِيحُ هُوَ الَّذِي يُوَافِقُهُ الْعَقْلُ الصَّرِيحُ " (١) إلاّ أنّه في حالة عدم القدرة على إزالة التناقض، يقدم النقل .

ساهم ابن تيميه في ترتيب وتأصيل الثقافة الإسلامية من خلال نقده لمذهب الباطنية المغرق في مجافاة العقل والتقليل من دور الإنسان في تحديد خياراته الفقهية والسياسية والاجتماعية وذلك من خلال كتابه "منهاج السنّة " بالإضافة إلى ذلك قدَّم

---

(١) ابن تيمية " إقامة الدليل على إبطال التحليل " ج ٤ ص ٢٣٠ .

ابن تيميه نقدا معرفيّا للمنطق الصوري لفلسفة أرسطو، والذي سيطر على المعرفة الإنسانية أمداً بعيداً من الدهر .

لقد أفاد ابن تيميه من نتاج وتراث شوامخ العلم في التاريخ الإسلامي، لكنه استطاع توظيف كل ذلك في تقديم خطاب إصلاحي ينتشل الأمة من النوازل التي وقعت فيها، ولعلّ هذا هو سرُّ تميز ابن تيميه والأمر الذي أدى إلى اعتباره مؤسس المشروع السلفي الإصلاحي، وفي المحصلة اعتبار كتاباته وآرائه ومواقفه مرشداً أساسياً للعمل السلفي الإصلاحي . (١)

جهاد ابن تيمية المبتدعين

كان هجوم ابن تيمية شديداً على أهل البدع من الفلاسفة والمتصوفة والمعتزلة والجهمية والقدرية ... ولم يكن تغييره لهذه المنكرات يتوقف عند التغيير باللسان بل أحياناً يقوم بالتغيير باليد ففي رجب سنة ٧٠٤ هـ أُحْضِر إلى ابن تيمية شيخ كان يلبس دلقاً كبيراً متسعاً جداً يسمى المجاهد إبراهيم القطان، فأمر الشيخ بتقطيع ذلك الدلق فتناهبه الناس من كل جانب وقطّعوه حتى لم يدعوا فيه شيئاً وأمر بحلق رأسه، وكان ذا شعر، وقلّم أظافره وكانوا طوالاً جداً، وحفّ شاربه المسبل على فمه المخالف للسنة، واستتابه من كلام الفحش وأكل ما يغير العقل من الحشيشة وما لا يجوز من المحرمات وغيرها .

وبعده استحضر الشيخ محمد الخباز البلاسي فاستتابه أيضاً عن أكل المحرمات ومخالطة أهل الذمة، وكتب عليه مكتوباً ألا يتكلم في تعبير المنامات ولا في غيرها بما لا علم له به .

وفي هذا الشهر بعينه راح ابن تيمية إلى مسجد النارنج وأمر أصحابه ومعهم حجّارون بقطع صخرة كانت هناك بنهر قلوط تُـزَار ويُنْـذَر لهـا، فقطعها وأرح المسلمين منها ومن الشرك بها، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً، وبهذا وأمثالها حسدوه وأبرزوا له العداوة، وكذلك كلامه بابن عربي وأتباعه، فحسد على ذلك وعودي، ومع هذا لم تأخذه في الله لومة لائم، ولا بالى، ولم يصلوا إليه بمكروه، وأكثر ما نالوا منه الحبس مع أنه لم ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام، ولم يتوجه لهم عليه ما يشين وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه . (٢)

---

(١) محمد سليمان " مراجعات متأملة في المشروع السلفي الإصلاحي " مجلة العصر .
(٢) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ١٤ ص ٣٩

وفي مستهل ذي الحجة سنة ٧٠٤ هـ ركب الشيخ تقي الدين بن تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجرد والكسروانيين ومعه نقيب الأشراف زين الدين بن عدنان فاستتابوا خلقاً منهم وألزموهم بشرائع الإسلام ورجع مؤيداً منصوراً. (١)

وقد كان تقدم بين يديه طائفة من الجيش مع ابن تيمية في ثاني المحرم سنة ٧٠٥هـ ، فساروا إلى بلاد الجرد والرفض والتيامنة فخرج نائب السلطنة الافرم بنفسه بعد خروج الشيخ لغزوهم، فنصرهم الله عليهم وأبادوا خلقاً كثيراً منهم ومن فرقتهم الضالة، ووطئوا أراضي كثيرة من صنع بلادهم، وعاد نائب السلطنة إلى دمشق في صحبته الشيخ ابن تيمية والجيش، وقد حصل بسبب شهود الشيخ هذه الغزوة خير كثير، وأبان الشيخ علماً وشجاعة في هذه الغزوة، وقد امتلأت قلوب أعدائه حسداً له وغماً... وفي يوم السبت تاسع جمادى الأولى حضر جماعة كثيرة من الفقراء الأحمدية إلى نائب السلطنة بالقصر الأبلق وحضر الشيخ تقي الدين بن تيمية فسألوا من نائب السلطنة بحضرة الأمراء أن يكف الشيخ تقي الدين إمارته عنهم، وأن يسلم لهم حالهم، فقال لهم الشيخ: هذا ما يمكن.

ولا بد لكل أحد أن يدخل تحت الكتاب والسنة، قولاً وفعلاً، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه.

فأرادوا أن يفعلوا شيئاً من أحوالهم الشيطانية التي يتعاطونها في سماعاتهم، فقال الشيخ تلك أحوال شيطانية باطلة، وأكثر أحوالهم من باب الحيل والبهتان، ومن أراد منهم أن يدخل النار فليدخل أولا إلى الحمام وليغسل جسده غسلاً جيداً ويدلكه بالخل والاشنان ثم يدخل بعد ذلك إلى النار إن كان صادقاً، ولو فرض أن أحداً من أهل البدع دخل النار بعد أن يغتسل فإن ذلك لا يدل على صلاحه ولا على كرامته، بل حاله من أحوال الدجاجلة المخالفة للشريعة إذا كان صاحبها على السنة، فما الظن بخلاف ذلك، فابتدر شيخ المنيبع الشيخ الصالح وقال: نحن أحوالنا إنما تنفق عند التتر ليست تنفق عند الشرع، فضبط الحاضرون عليه تلك الكلمة، وكثر الإنكار عليهم من كل أحد، ثم اتفق الحال على أنهم يخلعون الأطواق الحديد من رقابهم، وأن من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه.

وصنف الشيخ جزءاً في طريقة الأحمدية، وبين فيه أحوالهم ومسالكهم وتخيلاتهم، وما في طريقتهم من مقبول ومردود بالكتاب، وأظهر الله السنة على يديه وأخمد بدعتهم ولله الحمد والمنة. (٢)

---

(١) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ١٤ ص ٤٠

(٢) نفسه ج ١٤ ص ٤١

وهكذا لم يكن ابن تيمية يكتفي بنصح أهل المعاصي والبدع وتفنيد آرائهم في فتاويه وكتبه بل كان يغير منكرهم باليد مستنداً لتأييد نائب السلطنة ابن الافرم له ولدعوته وهذا مما أكثر من حساده ولائميه وخصومه الذين أغروا الحكام بمعاداته وحبسه .

أسباب دخول ابن تيمية السجن

سجن ابن تيمية نحو ست مرات لمدد متفاوتة بلغت جملتها حوالي خمس سنوات، نتيجة حسد، ووشاية من خصومه الذين عاداهم وأنكر عليهم ، ولقد أفاد ابن تيمية من فترات حبسه في التأليف والكتابة وهذا سر كثرة مؤلفاته حيث استغلً تفرغه من مشاغل الدنيا فشغل وقته في تأليف الكتب والرسائل .

حبس ابن تيمية بسبب كلامه في ذات الله وصفاته

وكان حبسه ، غالباً ، بسبب آرائه في مسائل ذات الله وصفاته أو فتاويه في الطلاق ؛ فحبس ، هو وأخواه ، في القاهرة لمدة سنة ونصف بسبب كلامه في مسائل : العرش، والكلام، والنزول" ورأي ابن تيمية في هذه المسائل ، كما سنوضح بعد ذلك ، أن الله تعالى في السماء مستو على عرشه ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة ولا يخلو منه العرش ويزعم ابن تيمية أن هذا ما أجمع عليه سلف الأمة وينكر على من يتأول أي شيء من هذا .

وهذه المسائل مما اختلف العلماء فيه وليست مما يوجب الإنكار فضلاً عن الحبس إلا أن يكون من وراء ذلك شيئاً غير الحق ، ولا ينبغي أن يستعان بالحاكم في الانحياز إلى أحد الآراء المختلف عليها وحثه على معاقبة المخالف ، ولكن هذا كان شائعاً في زمان ابن تيمية ، وبدلاً من تعاون العلماء في القيام بما اتفقوا عليه من المعلوم من الدين بالضرورة ودعوة الناس للالتزام به والتماس الأعذار فيما اختلفوا فيه من فروع ، تفرق العلماء بسبب ما اختلفوا فيه من الفروع وتناظروا وتبادلوا التهم بالتفيسق والتبديع بل والكفر أحياناً ومما زاد الطين بلة والداء علة الاستعانة بالحكّام في حسم الأمور الخلافية بالقوة وشغل الناس بهذه الأمور عن الأجدى والأنفع وتمزيق الشمل في وقت كان الناس أحوج ما يكونون إلى وحدة الصف بسبب تكالب التتار والصليبيين عليهم .

وحُبِسَ ابن تيمية مرة أخرى لمدة أسبوعين بسبب كتاب ألَّفه في الاستغاثة بالأنبياء والصالحين المعروف بالرد على البكري ، ومجمل ما جاء في هذا الكتاب " لا

يجوز سؤال الله بالأنبياء والصالحين فكيف بالاستغاثة بهم مع أن الاستغاثة بالميت والغائب مما لا يعلم بين أئمة المسلمين نزاع في أن ذلك من أعظم المنكرات "[١]

وبسبب هذا استعدى الصوفية السلطة بالقاهرة على ابن تيمية فَكُوِّن له مجلس، فمنهم من برَّأه ومنهم من أدانه، وفي النهاية تمَّ حبسه .

وحبس ابن تيمية مرة ثالثة بمصر بسبب أنه تكلمَّ في الشيخ نصر المنجبي ونسبه إلى اعتقاد ابن عربي ، وأغرى الشيخُ نصر المنجبي سلطانَ مصر بيبرس الجاشنكير بابن تيمية وادعى عليه أنه يقول : " إن الله فوق العرش حقيقة، وأن الله يتكلم بحرف وصوت " وكان الشيخ المنجبي شيخاً للسلطان فأمر السلطان أن يعقد لابن تيمية مجلس لمناقشته وانتدب له أحد خصومه ليحكم فيه ، ورفض ابن تيمية وقال للقاضي : " كيف تحكم فيَّ وأنت خصمي، فغضب غضباً شديداً وانزعج وأقيم مرسماً عليه وحبس في برج أياماً ثم نقل منه ليلة العيد إلى الحبس المعروف بالجب، هو وأخوه شرف الدين عبد الله وزين الدين عبد الرحمن ، وأما ابن صصرى (القاضي وكان من أعداء ابن تيمية) فإنه جدد له توقيع بالقضاء بإشارة المنبجي شيخ الجاشنكير حاكم مصر "[٢]

وحبس ابن تيمية بدمشق لمدة ستة أشهر تقريباً بسبب فتواه في الطلاق، ومخالفته رأي الجمهور في مثل : الطلاق ثلاثاً بكلمة واحدة يعتبر ، عنده ، طلقة واحدة ، وعدم وقوع طلاق الحائض بخلاف المذاهب الأربعة التي تقول بوقوعه ، ومن حَلَفَ بالطلاق بغير قصد التطليق فلا يقع وعليه كفَّارة يمين ، بخلاف جمهور أهل العلم في ذلك .

فكان ابن تيمية يفتي بأن الإنسان إذا حلف بالطلاق بالثلاث وحنث في يمينه ينظر في قصده ، فإن كان قصده التأكيد وليس قصده إيقاع الطلاق فهذا يكون حكمه اليمين فيه كفارة اليمين ، أما إن كان قصده إيقاع الطلاق فإنه يقع طلقة واحدة على الصحيح ، ويراجع زوجته إذا لم يكن طلقها قبل هذه طلقتين .

ومن أكثر ما أُنْكِر على ابن تيمية قوله بعدم وقوع طلاق الحائض خلافاً لجمهور أهل العلم ومنهم الأئمة الأربعة : أحمد والشافعي ومالك وأبو حنيفة ، يقول ابن

---

(١) ابن تيمية " الرد على البكري " ج ١ ص ٢٦٠

(٢) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ١٤ ص ٤٣

تيمية : " وَتَنَازَعُوا فِي عِلَّةِ مَنْعِ طَلَاقِ الْحَائِضِ ... لَا رَيْبَ أَنَّ الْأَصْلَ بَقَاءُ النِّكَاحِ وَلَا يَقُومُ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ عَلَى زَوَالِهِ بِالطَّلَاقِ الْمُحَرَّمِ : بَلْ النُّصُوصُ وَالْأُصُولُ تَقْتَضِي خِلَافَ ذَلِكَ " (١)

واجتهاد ابن تيمية في الطلاق وغيره لا ينكر عليه ولا يحبس به فقد ذكر العلماء أن ابن تيمية بلغ مرتبة المجتهد المطلق وله أن يفتي بما يعتقد أنه صحيح في إطار الزمان والمكان والحال التي أفتى فيها وله أجران إن أصاب وأجر إن أخطأ .

والعجيب أن معظم ما أفتى به ابن تيمية في مسائل الطلاق وأُنكِر عليه وحبس بسببه قد أخذت به معظم المحاكم الشرعية في البلاد الإسلامية ففي مصر مثلاً نص القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩م الخاص ببعض أحكام الأحوال الشخصية في المادة الثالثة منه على" أن الطلاق المقترن بعدد لفظاً أو إشارة لا يقع إلا طلقة واحدة ".(٢)

ويقول د. يوسف القرضاوي في فتاوي ابن تيمية في مسائل الطلاق : " وفي التاريخ رأينا أقوالاً تعتبر في زمانها شاذة؛ لأنها سبقت عصرها، ثم جاء زمن آخر فأقرها ومن أشهر الفتاوى التي اعتبرت شاذة في عصرها، ثم تم ترجيحها بعد ذلك فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم، حول قضايا الأسرة والطلاق، مثل الطلاق الذي يراد به الحمل على شيء أو المنع منه، والطلاق الذي يراد به اليمين، والطلاق المعلق، والطلاق الثلاث بلفظة واحدة، والطلاق البدعي ، وطلاق المرأة الحائض، أو المرأة التي مسها زوجها في هذا الطهر.

وهذه الفتاوى حوكم من أجلها ابن تيمية، وخالفه علماء عصره، واعتبروا أنه خرق الإجماع، ودخل من أجلها السجن، ومات ابن تيمية في السجن من أجل هذا، لكن هذا القول الذي اعتبر شاذا تبناه أكثر العلماء في عصرنا، وتبنته لجان الفتوى، وتبنته قوانين الأحوال الشخصية في أكثر من بلد، واعتبر هو سبيل الإنقاذ، أو سفينة الإنقاذ للأسرة المسلمة؛ لأن أحيانًا شخصًا يعيش مع أسرته في انسجام ومودة، لكنه غضب من واحد في السوق أو في مكان العمل، وحصلت ثورة وهياج وحلف بالطلاق بالثلاثة أنه يعمل كذا أو يعمل كذا، فهل يرجع بيته ليجد امرأته طلقت بالثلاث، أي طلاقًا بائنًا بينونة كبرى، فلا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره، فجاء ابن تيمية ورفض هذا. (٣)

---

(١) ابن تيمية الفتاوى الكبرى ج ٣ ص ٢٦٤
(٢) فتاوى الأزهر .
(٣) د. يوسف القرضاوي برنامج " الشريعة والحياة " قناة الجزيرة أذيع في تاريخ ٢١ يونيو ٢٠٠٩

ولقد اضطر ابن تيمية إلى الكفّ عن الإفتاء في مسائل الطلاق لدرء الفتنة واستجابة لرأي قاضي القضاة شمس الدين بن مسلم .

يقول ابن كثير " في يوم الخميس منتصف ربيع الأول اجتمع قاضي القضاة شمس الدين بن مسلم بالشيخ الإمام العلامة تقي الدين بن تيمية وأشار عليه في ترك الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق، فقبل الشيخ نصيحته وأجاب إلى ما أشار به، رعاية لخاطره وخواطر الجماعة المفتيين، ثم ورد البريد في مستهل جمادى الأولى بكتاب من السلطان فيه منع الشيخ تقي الدين من الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق وانعقد بذلك مجلس، وانفصل الحال على ما رسم به السلطان، ونودي به في البلد، وكان قبل قدوم المرسوم قد اجتمع بالقاضي ابن مسلم الحنبلي جماعة من المفتيين الكبار، وقالوا له أن ينصح الشيخ في ترك الإفتاء في مسألة الطلاق، فعلم الشيخ نصيحته، وأنه إنما قصد بذلك ترك ثوران فتنة وشر. (١)

وفي كفّ ابن تيمية عن الإفتاء في مسائل الطلاق منعاً لثوران الفتنة والشر درس عظيم للعلماء والدعاة في وجوب الكف عن ذكر الفتاوى التي تثير الفتن وتفتح أبواب الشر ، كما أن من حق ولي الأمر منع أي كلام في الدين يثير الفتن كما من حق المحاكم الشرعية أن تختار من أقوال العلماء ما يناسب الزمان والمكان والحال وعلى الجميع أن يلتزم بحكم هذه المحاكم ولا يخرج عليها ، وإن اختلف معها في الرأي .

وكثير من العلماء المعتبرين عندما يسأله سائل في أمور خلافية يترتب عليها أعمال ومصالح عباد ينصح برفع الأمر إلى المحاكم الشرعية الخاصة ببلده في هذه المسائل .

وأحياناً يرى أولياء الأمور الكف عن الحديث في بعض المسائل مثار الخلاف والنزاع بين الناس كما فعل ابن الأفرم نائب السلطان الجاشنكير عندما " نادى في البلد أن لا يتكلم أحد في العقائد، ومن عاد إلى تلك الحال ماله ودمه ورتبت داره وحانوته، فسكنت الأمور. (٢)

وحبس ابن تيمية بسبب إغراء بعض الصوفية به السلطان بسبب كلامه في ابن عربي وتحريمه الاستغاثة بالأنبياء والصالحين من دون الله .

---

(١) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ١٤ ص ٩٩
(٢) نفسه ج ١٤ ص ٤٢

وهكذا صارت حياة ابن تيمية مع من خالفه الرأي من الفلاسفة والمتصوفة والمبتدعة لم يتوقف الأمر على مقارعة الحجة بالحجة بل تعداها إلى التعزير والحبس ، وهذا مما ينبغي ألا يتدخل فيه أولياء الأمور ولا العامة إنما يترك للعلماء المتخصصين يتجادلون في شأنه في مجالس خاصة وبالتي هي أحسن .

وآخر مرة سجن فيها ابن تيمية كانت بدمشق لمدة عامين وثلاثة أشهر ونصف تقريباً، من يوم الاثنين السادس من شعبان عام ٧٢٦ هـ إلى أن توفي ليلة الاثنين العشرين من ذي العقدة ٧٢٨هـ، وخرجت جنازته من سجن القلعة إلى مثواه الأخير؛ وكانت بسبب مسألة الزيارة .

يقول المقريزي في سبب حبسه : " وفي يوم الاثنين سادس شعبان: حبس تقي الدين أحمد بن تيمية، ومعه أخوه زين الدين عبد الرحمن بقلعة دمشق. وضرب شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، وشهر على حمار بدمشق. وسبب ذلك أن ابن قيم الجوزية تكلم بالقدس في مسألة الشفاعة والتوسل بالأنبياء، وأنكر مجرد القصد للقبر الشريف دون قصد المسجد النبوي فأنكر المقادسة مسألة الزيارة، وكتبوا فيه إلى قاضي جلال الدين محمد القزويني وغيره من قضاة دمشق. وكان قد وقع من ابن تيمية كلام في مسألة الطلاق بالثلاث أنه لا يقع بلفظ واحد، فقام عليه فقهاء دمشق. فلما وصلت كتب المقادسة في ابن القيم، كتبوا في ابن تيمية وصاحبه ابن القيم إلى السلطان، فعرف شمس الدين الحريري قاضي القضاة الحنفية بديار مصر ذلك، فشنع على ابن تيمية تشنيعاً فاحشاً حتى كتب بحبسه، وضرب ابن القيم.(١)

ورأي ابن تيمية في مسألة زيارة قبر النبي ﷺ التي حبس بسببها هو وتلميذه ابن القيم تتلخص في تحريمه شد الرحال لزيارة قبر النبي ﷺ فقط وليس بنية الصلاة في المسجد النبوي .

فالله تعالى أمر نبيه ﷺ أن تكون صلاته ونسكه لله فمن سافر إلى بقعة غير بيوت الله التي يشرع السفر إليها ودعا غير الله فقد جعل نسكه وصلاته لغير الله عز وجل والنبي ﷺ نهى عن السفر إلى مسجد غير المساجد الثلاثة وإن كان بيتاً من بيوت الله إذ لم تكن له خاصية تستحق السفر إليه ولا شرع هو ومن قبله من الأنبياء

---

(١) المقريزي " السلوك لمعرفة دول الملوك " ج ١ ص ٤٤٩

السفر إليه بخلاف الثلاثة فإن كل مسجد منها بناه نبى من الأنبياء ودعا الناس إلى السفر إليه فلها خصائص ليست لغيرها فإذا كان السفر إلى بيوت الله غير الثلاثة ليس بمشروع باتفاق الأئمة الأربعة بل قد نهى عنه الرسول فكيف بالسفر إلى بيوت المخلوقين الذين تتخذ قبورهم مساجد . (١)

وهذا مما اختلف فيه العلماء فمنهم من أجازة ومنهم من منعه ، ولا ينكر على من أخذ بأحد الرأيين فضلاً عن أن يؤمر بحبسه كما حدث مع ابن تيمية وابن القيم .

يقول ابن حجر العسقلاني : " واختلف في شد الرحال إلى غيرها (غير المساجد الثلاثة) كالذهاب إلى زيارة الصالحين أحياء وأمواتاً وإلى المواضع الفاضلة لقصد التبرك بها والصلاة فيها فقال الشيخ أبو محمد الجويني يحرم شد الرحال إلى غيرها عملاً بظاهر هذا الحديث .. والصحيح عند إمام الحرمين وغيره من الشافعية أنه لا يحرم وأجابوا عن الحديث بأجوبة منها أن المراد أن الفضيلة التامة إنما هي في شد الرحال إلى هذه المساجد بخلاف غيرها فإنه جائز وقد وقع في رواية لأحمد بلفظ "لا يَنْبَغِي لِلْمَطِيِّ أَنْ تُشَدَّ رِحَالُهُ إِلَى مَسْجِدٍ يُبْتَغَى فِيهِ الصَّلَاةُ غَيْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَسْجِدِ الأَقْصَى وَمَسْجِدِي هَذَا " وهو لفظ ظاهر في غير التحريم ومنها أن النهي مخصوص بمن نذر على نفسه الصلاة في مسجد من سائر المساجد غير الثلاثة فإنه لا يجب الوفاء به ." (٢)

ويقول ابن كثير في وفاة ابن تيمية : " وفي ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة توفي الشيخ الإمام العالم العلم العلامة الفقيه الحافظ الزاهد العابد القدوة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني ثم الدمشقي، بقلعة دمشق بالقاعة التي كان محبوسا بها " (٣)

جهاد ابن تيمية المعتدين

لم يقتصر جهاد ابن تيمية على جهاد نفسه على التعلم والعمل والتعليم والصبر ، ولا على جهاد أهل البدع والظلم بل ساهم في جهاد المعتدين وتفنيد آراء المتخاذلين والمتقاعسين عن الجهاد في سبيل الله .

---

(١) ابن تيمية " الفتوى الكبرى " ج ٢٧ ص ٢٦٠
(٢) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري شرح صحيح البخاري " ج ٣ ص ٦٥
(٣) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ١٤ ص ١٥٦

ففي شهر رجب سنة ٧٠٢ هـ قويت الأخبار بعزم التتار على دخول بلاد الشام، فانزعج الناس لذلك واشتد خوفهم جداً ، وقنت الخطيب في الصلوات وقرئ البخاري، وشرع الناس إلى الهروب إلى الديار المصرية والكرك والحصون المنيعة، وتأخر مجيء العساكر المصرية عن موعده فاشتد لذلك الخوف.

يوم الأحد خامس شعبان، وصل التتار إلى حمص وبعلبك وعاثوا في تلك الأراضي فساداً، وقلق الناس قلقاً عظيماً، وخافوا خوفاً شديداً، ووقعت في البلاد الفتن والاضطرابات ؛ لتأخر قدوم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ببقية الجيش، وقال الناس لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لكثرتهم، وإنما سبيلهم أن يتأخروا عنهم مرحلة مرحلة، وتحدث الناس بالأراجيف (الأخبار الكاذبة) فاجتمع الأمراء يوم الأحد المذكور بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو، وشجعوا أنفسهم، ونودي بالبلد ألا يرحل أحد منه، فسكن الناس وجلس القضاة بالجامع وحلفوا جماعة من الفقهاء والعامة على القتال، وتوجه الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم في القطيعة فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم، وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يحلف للأمراء والناس إنكم في هذه الكرة منصورون، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً.

وكان يتأول في ذلك أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ }(الحج: ٦٠)

وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتر من أي قبيل هو، فإنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه .

فقال الشيخ تقي الدين بن تيمية: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على عليٍّ ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فتفطن العلماء والناس لذلك، وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم ونياتهم ولله الحمد . (١)

---

(١) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ١٤ ص ٢٧ ، ٢٨ بتصرف

لابن تيمية فتاوى وأحكام تتسم بالتيسير على المسلمين وترفع عنهم الحرج ومن أشهر هذه الفتاوى غير فتاوى الطلاق التي سبق الحديث عنها .

جواز التيمم خشية فوات الوقت في حق غير المعذور كمن أخر الصلاة عمداً حتى تضايق وقتها وكذا من خشي فوات الجمعة والعيدين وهو محدث .

يقول ابن تيمية " إذا خاف فوات الجنازة أو العيد أو الجمعة ففي التيمم نزاع والأظهر أنه يصليها بالتيمم ولا يفوتها وكذلك إذا لم يمكنه صلاة الجماعة الواجبة إلا بالتيمم فإنه يصليها بالتيمم . "(١)

وكذلك جواز الصلاة في الحمام مخافة فوات الوقت .

يقول ابن تيمية : " إذَا لَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يَغْتَسِلَ وَيَخْرُجَ وَيُصَلِّيَ حَتَّى يَخْرُجَ الْوَقْتُ، فَإِنَّهُ يَغْتَسِلُ، وَيُصَلِّي بِالْحَمَّامِ ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ فِي الْأَمَاكِنِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا فِي الْوَقْتِ أَوْلَى مِنْ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْوَقْتِ فِي غَيْرِهَا وَلِهَذَا لَوْ حُبِسَ فِي الْحُشِّ صَلَّى فِيهِ "(٢)

وإذَا كَانَ الْبَرْدُ شَدِيدًا ، وَيَضُرُّهُ الْمَاءُ الْبَارِدُ ، وَلَا يُمْكِنُهُ الذَّهَابُ إلَى الْحَمَّامِ ، أَوْ تَسْخِينُ الْمَاءِ حَتَّى يَخْرُجَ الْوَقْتُ ، فَإِنَّهُ يُصَلِّي فِي الْوَقْتِ بِالتَّيَمُّمِ . وَالْمَرْأَةُ وَالرَّجُلُ فِي ذَلِكَ سَوَاءٌ ، فَإِذَا كَانَا جُنُبَيْنِ وَلَمْ يُمْكِنْهُمَا الِاغْتِسَالُ حَتَّى يَخْرُجَ الْوَقْتُ ، فَإِنَّهُمَا يُصَلِّيَانِ فِي الْوَقْتِ بِالتَّيَمُّمِ .

وَالْمَرْأَةُ الْحَائِضُ إذَا انْقَطَعَ دَمُهَا فِي الْوَقْتِ ، وَلَمْ يُمْكِنْهَا الِاغْتِسَالُ إلا بَعْدَ خُرُوجِ الْوَقْتِ تَيَمَّمَتْ وَصَلَّتْ فِي الْوَقْتِ "(٣)

المسح على الخفين لا يتوقت مع الحاجة كالمسافر على البريد ونحوه وفعل ذلك في ذهابه إلى الديار المصرية على خيل البريد ويتوقت مع إمكان النزع وتيسره .

يقول ابن تيمية : " لَمَّا ذَهَبْت عَلَى الْبَرِيدِ وَجَدَّ بِنَا السَّيْرُ وَقَدْ انْقَضَتْ مُدَّةُ الْمَسْحِ فَلَمْ يُمْكِنْ النَّزْعُ وَالْوُضُوءُ إلا بِانْقِطَاعٍ عَنْ الرُّفْقَةِ أَوْ حَبْسِهِمْ عَلَى وَجْهٍ يَتَضَرَّرُونَ بِالْوُقُوفِ فَغَلَبَ عَلَى ظَنِّي عَدَمُ التَّوْقِيتِ عِنْدَ الْحَاجَةِ كَمَا قُلْنَا فِي الْجَبِيرَةِ "(١)

---

(١) مجموع الفتاوى ج ٢٧ ص ٤٥٦
(٢) الفتاوى الكبرى ج٢ ص ٥٧
(٣) ابن تيمية " إقامة الدليل على إبطال التحليل " ج ٢ ص ٣٦٦

وَلا حَدَّ لأَقَلِّ الْحَيْضِ وَأَكْثَرِهِ مَا لَمْ تَصِرْ مُسْتَحَاضَةً، وَلا لأَقَلِّ سِنِّهِ، وَأَكْثَرِهِ، وَلا لأَقَلِّ السَّفَرِ . " (٢)

قال إن لا حد لأقل الحيض ولا لأكثره ولا لأقل الطهر بين الحيضتين ولا لسن الإياس وأن ذلك يرجع إلى ما تعرفه كل امرأة من نفسها .

فأما المسافر فيتيمم في قصير السفر وطويله في المشهور من المذهب ولا إعادة عليه.(٣) وأن القصر يجوز في قصير السفر وطويله . (٤)

وقال أن تارك الصلاة عمداً لا يجب عليه القضاء ولا يشرع له بل يكثر من النوافل : " وَتَارِكُ الصَّلاةِ عَمْدًا لا يُشْرَعُ لَهُ قَضَاؤُهَا وَلا تَصِحُّ مِنْهُ، بَلْ يُكْثِرُ مِنْ التَّطَوُّعِ، وَكَذَا الصَّوْمُ وَهُوَ قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْ السَّلَفِ ." (٥)

المسائل التي انفرد بها ابن تيميّة عن الأئمّة الأربعة

الْقَوْلُ بِقَصْرِ الصَّلاةِ: تُقْصَرُ الصَّلاةُ فِي كُلِّ مَا يُسَمَّى سَفَرًا طَوِيلا كَانَ أَوْ قَصِيرًا كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الظَّاهِرِيَّةِ، وَقَوْلُ بَعْضِ الصَّحَابَةِ.

وَالْقَوْلُ بِأَنَّ الْبِكْرَ لا تُسْتَبْرَأُ وَإِنْ كَانَتْ كَبِيرَةً، كَمَا هُوَ قَوْلُ ابْنِ عُمَرَ وَاخْتَارَهُ الْبُخَارِيُّ صَاحِبُ الصَّحِيحِ.

وَالْقَوْلُ بِأَنَّ سُجُودَ التِّلاوَةِ لا يُشْتَرَطُ لَهَا وُضُوءٌ كَمَا يُشْتَرَطُ لِلصَّلاةِ وَهُوَ مَذْهَبُ ابْنِ عُمَرَ وَاخْتَارَهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا.

وَالْقَوْلُ بِأَنَّ مَنْ أَكَلَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مُعْتَقِدًا أَنَّهُ لَيْلٌ فَبَانَ نَهَارًا لا قَضَاءَ عَلَيْهِ، كَمَا هُوَ الصَّحِيحُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ بَعْضُ التَّابِعِينَ وَبَعْضُ الْفُقَهَاءِ.

وَالْقَوْلُ بِأَنَّ الْمُتَمَتِّعَ يَكْفِيهِ سَعْيٌ وَاحِدٌ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، كَمَا فِي حَقِّ الْقَارِنِ وَالْمُفْرِدِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَرِوَايَةٌ عَنْ الإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَوَاهَا عَنْهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ الإِمَامِ أَحْمَدَ لا يَعْرِفُونَهَا.

---

(١) ابن تيمية مجموع الفتاوى ج ٢٧ ص ٢١٥
(٢) الفتاوى الكبرى ج ٢ص ٣٥٠
(٣) ابن تيمية " شرح العمدة في الفقه " ج ١ص ٤٢٤
(٤) ابن تيمية الفتاوى الكبرى ج ٢ ص ٣٤٠
(٥) ابن تيمية الفتاوى الكبرى ج٥ ص ٣٢٠

وَالْقَوْلُ بِجَوَازِ الْمُسَابَقَةِ بِلا مُحَلِّلٍ وَإِنْ أَخْرَجَ الْمُتَسَابِقَانِ.

وَالْقَوْلُ بِاسْتِبْرَاءِ الْمُخْتَلِعَةِ بِحَيْضَةٍ. وَكَذَلِكَ الْمَوْطُوءَةُ بِشُبْهَةٍ. وَالْمُطَلَّقَةُ آخِرَ ثَلاثِ تَطْلِيقَاتٍ.

وَالْقَوْلُ بِإِبَاحَةِ وَطْءِ الْوَثَنِيَّاتِ بِمِلْكِ الْيَمِينِ.

وَالْقَوْلُ بِجَوَازِ عَقْدِ الرِّدَاءِ فِي الإِحْرَامِ. وَجَوَازُ طَوَافِ الْحَائِضِ وَلا شَيْءَ عَلَيْهَا إِذَا لَمْ يُمْكِنْهَا أَنْ تَطُوفَ طَاهِرًا.

وَالْقَوْلُ بِجَوَازِ بَيْعِ الأَصْلِ بِالْعَصِيرِ كَالزَّيْتُونِ بِالزَّيْتِ. وَالسِّمْسِمِ بِالشَّيْرَجِ.

وَالْقَوْلُ بِجَوَازِ الْوُضُوءِ بِكُلِّ مَا يُسَمَّى مَاءً. مُطْلَقًا كَانَ أَوْ مُقَيَّدًا.

وَالْقَوْلُ بِجَوَازِ بَيْعِ مَا يُتَّخَذُ مِنْ الْفِضَّةِ لِلتَّحَلِّي وَغَيْرِهِ كَالْخَاتَمِ وَنَحْوِهِ بِالْفِضَّةِ مُتَفَاضِلاً وَجَعْلِ الزِّيَادَةِ فِي الثَّمَنِ فِي مُقَابَلَةِ الصَّنْعَةِ.

وَالْقَوْلُ بِأَنَّ الْمَائِعَ لا يَنْجُسُ بِوُقُوعِ النَّجَاسَةِ فِيهِ إلا أَنْ يَتَغَيَّرَ، قَلِيلا كَانَ أَوْ كَثِيرًا.

وَالْقَوْلُ بِجَوَازِ التَّيَمُّمِ لِمَنْ خَافَ فَوَاتَ الْعِيدِ أَوْ الْجُمُعَةِ بِاسْتِعْمَالِهِ الْمَاءَ.

وَالْقَوْلُ بِجَوَازِ التَّيَمُّمِ فِي مَوَاضِعَ مَعْرُوفَةٍ.

وَالْجَمْعُ بَيْنَ الصَّلاتَيْنِ فِي أَمَاكِنَ مَشْهُورَةٍ. وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الأَحْكَامِ الْمَعْرُوفَةِ مِنْ أَقْوَالِهِ.

وَكَانَ يَمِيلُ أَخِيرًا إِلَى الْقَوْلِ بِتَوْرِيثِ الْمُسْلِمِ مِنْ الْكَافِرِ الذِّمِّيِّ. وَلَهُ فِي ذَلِكَ مُصَنَّفٌ وَبَحْثٌ طَوِيلٌ .

وَمِنْ أَقْوَالِهِ الْمَعْرُوفَةِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي جَرَى بِسَبَبِ الإِفْتَاءِ بِهَا مِحَنٌ وَقَلاقِلُ قَوْلُهُ: بِالتَّكْفِيرِ فِي الْحَلِفِ بِالطَّلاقِ، وَأَنَّ الطَّلاقَ الثَّلاثَ لا يَقَعُ إلا وَاحِدَةً، وَأَنَّ الطَّلاقَ الْمُحَرَّمَ لا يَقَعُ وَلَهُ فِي ذَلِكَ مُصَنَّفَاتٌ وَمُؤَلَّفَاتٌ.

مِنْهَا قَاعِدَةٌ كَبِيرَةٌ سَمَّاهَا: " تَحْقِيقُ الْفُرْقَانِ بَيْنَ التَّطْلِيقِ وَالأَيْمَانِ ". نَحْوَ أَرْبَعِينَ كُرَّاسَةً.

وَقَاعِدَةٌ سَمَّاهَا: " الْفَرْقُ بَيْنَ الطَّلاقِ وَالْيَمِينِ ". بِقَدْرِ نِصْفِ ذَلِكَ. (١)

---

(١) محمد عبد القادر عطا " الفتاوى الكبرى " دار الكتب العلمية ج ٤ ص ١٦٠ ، ١٦١

ومن أشهر أقوال ابن تيمية أنه لا يصح الاستغاثة بأحد من الخلق ولا بمحمد سيد الخلق وإنما يُستغاث بالله وحده .

ومعظم فتاوى ابن تيمية هذه اجتهد فيها اجتهادا مطلقا خرج بها عن المذاهب الأربعة الشهيرة ، وقد واجه ابن تيمية كثيراً من الاعتراضات بل وصل الأمر إلى السجن بسبب هذه الفتاوى كما مر بنا .

رأي شمس الدين الذهبي في ابن تيمية

ومن أدق ما قيل في ابن تيمية من شهادة حق كانت للإمام شمس الدين الذهبي وجاء فيها عن ابن تيمية : " كان قوَّالاً بالحق نهَّاءً عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم ذا سطوة وإقدام وعدم مداراة الأغيار ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير في وصفه ومن نابذه وخالفه ينسبني إلى التغالي فيه وليس الأمر كذلك مع أنني لا أعتقد فيه العصمة كلا فإنه مع سعة عمله وفرط شجاعته وسيلان ذهنه وتعظيمه لحرمات الدين بشر من البشر تعتريه حدة في البحث وغضب وشظف للخصم يزرع له عداوة في النفوس ونفوراً عنه وإلا والله فلو لاطف الخصوم ورفق بهم ولزم المجاملة وحسن المكالمة لكان كلمة إجماع فإن كبارهم وأئمتهم خاضعون لعلومه وفقهه معترفون بشفوفه وذكائه مقرون بندور خطئه لست أعني بعض العلماء الذين شعارهم وهجيراهم الاستخفاف به والازدراء بفضله والمقت له حتى استجهلوه وكفَّروه ونالوا منه من غير أن ينظروا في تصانيفه ولا فهموا كلامه ولا لهم حظ تام من التوسع في المعارف والعالم منهم قد ينصفه ويرد عليه بعلم وطريق العقل السكوت عما شجر بين الأقران رحم الله الجميع وأنا أقل من أن ينبه على قدره كلمي أو أن يوضح نبأه قلمي فأصحابه وأعداؤه خاضعون لعلمه مقرون بسرعة فهمه وأنه بحر لا ساحل له وكنز لا نظير له وأن جوده حاتمي وشجاعته خالدية ولكن قد ينقمون عليه أخلاقاً وأفعالاً منصفهم فيها مأجور ومقتصدهم فيها معذور وظالمهم فيها مأزور وغاليهم مغرور وإلى الله ترجع الأمور وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك والكمال للرسل والحجة في الإجماع فرحم الله امرءاً تكلم في العلماء بعلم أو صمت بحلم وأمعن في مضايق أقاويلهم بتؤدة وفهم ثم استغفر لهم ووسع نطاق المعذرة وإلا فهو لا يدري ولا يدري أنه لا يدري وإن أنت عذرت كبار الأئمة في معضلاتهم ولا تعذر ابن تيمية في مفرداته فقد أقررت على نفسك بالهوى وعدم الإنصاف وإن قلت لا أعذره لأنه كافر عدو الله تعالى ورسوله قال

لك خلق من أهل العلم والدين ما علمناه والله إلا مؤمناً محافظاً على الصلاة والوضوء وصوم رمضان معظماً للشريعة ظاهراً وباطناً لا يؤتى من سوء فهم بل له الذكاء المفرط ولا من قلة علم فإنه بحر زخَّار بصير بالكتاب والسنة عديم النظير في ذلك ولا هو بمتلاعب بالدين فلو كان كذلك لكان أسرع شيء إلى مداهنة خصومه وموافقتهم ومنافقتهم ولا هو يتفرد بمسائل بالتشهي ولا يفتي بما اتفق بل مسائله المفردة يحتج لها بالقرآن وبالحديث أو بالقياس ويبرهنها ويناظر عليها وينقل فيها الخلاف ويطيل البحث أسوة من تقدمه من الأئمة فإن كان قد أخطأ فيها فله أجر المجتهد من العلماء وإن كان قد أصاب فله أجران وإنما الذم والمقت لأحد رجلين رجل أفتى في مسألة بالهوى ولم يبد حجة ورجل تكلم في مسألة بلا خميرة من علم ولا توسع في نقل فنعوذ بالله من الهوى والجهل ولا ريب أنه لا اعتبار بذم أعداء العالم فإن الهوى والغضب يحملهم على عدم الإنصاف والقيام عليه ولا اعتبار بمدح خواصه والغلاة فيه فإن الحب يحملهم على تغطية هناته بل قد يعدوها له محاسن وإنما العبرة بأهل الورع والتقوى من الطرفين الذين يتكلمون بالقسط ويقومون لله ولو على أنفسهم وآبائهم فهذا الرجل لا أرجوا على ما قلته فيه دنيا ولا مالا ولا جاها بوجه أصلا مع خبرتي التامة به ولكن لا يسعني في ديني ولا عقلي أن أكتم محاسنه وأدفن فضائله وأبرز ذنوباً له مغفورة في سعة كرم الله تعالى وصفحة مغمورة في بحر علمه وجوده فالله يغفر له ويرضى عنه ويرحمنا إذا صرنا إلى ما صار إليه مع أني مخالف له في مسائل أصلية وفرعية قد أبديت آنفاً أن خطأه فيها مغفور بل قد يثيبه الله تعالى فيها على حسن قصده وبذل وسعه والله الموعد مع أني قد أوذيت لكلامي فيه من أصحابه وأضداده فحسبي الله . [1]

ابن القيم ومحاربة التقليد والتعصب

قام عدد من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيميه بإكمال مجهوداته المعرفية والفكرية والإصلاحية في ميادين شتى، وكان أبرز هؤلاء التلاميذ العلامة ابن قيم الجوزية الذي أصَّل لمدرسة ابن تيمية وقعدَّ لها وهذَّب كتبها ونشر علمها .

ومن أهم ما ألَّف : إعلام الموقعين ، والطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، ومدارج السالكين ، والوابل الصيب من الكلم الطيب ، وطريق الهجرتين وباب السعادتين ، والصواعق المرسلة .. وغيرها .

---

(١) شمس الدين الذهبي " ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام " ص ٢٢- ٢٦

قال تلميذه ابن رجب : تفقّه في المذهب ، وبرع وأفتى ، ولازم ابن تيمية ، وتفنن في علوم الإسلام ، وكان عارفاً في التفسير لا يُجارى فيه ، وبأصول الدين وإليه فيها المنتهى ، والحديث ومعانيه وفقهه ، ودقائق الاستنباط منه لا يُلحق في ذلك . ولا رأيتُ أوسع منه علماً ، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنّة وحقائق الإيمان أعلم منه ، وليس هو المعصوم ولكن لم أرَ في معناه مثله .

قال عنه تلميذه ابن كثير : وكان حسنُ القراءة والخُلُق ، كثير التّودد ، لا يحسد أحداً ولا يؤذيه ، ولا يستعيبه ، ولا يحقد على أحد ، وبالجملة كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله ، والغالب عليه الخير والأخلاق الفاضلة.

ولقد صبر ابن القيّم في محاربته للتقليد والتعصب على كل ما ناله من الأذى، وكان ثابتاً كالجبلِ الرَّاسي، لم تُؤَثِّر فيه مؤامرات الحاقدين، ولا نالت من ثَبَاتِهِ سِهَامُ المُقَلِّدة المتعصبين، حتى آتت جهوده أطيب الثمار، " فذابت العصبية المذهبية في الطريقة الأَثَرِيَّة، فَصُحِّحَت المفاهيم، وأخذ يدبُّ في الناس روح الأخذ بِالدليل مع احترام الأئمة السالفين، بل هو مَسْلَكُهُم ومنهجهم، وما زال هذا يدب في كل عهدٍ ومَهْد حتى أيامنا هذه . "[١]

لكن هذه الصحوة السلفية الإصلاحية لم تنجح فيما نجح فيه أحمد بن حنبل فلم تصبح مذهباً للدولة ، وإنما ظلت حركة معارضة يلقى أعلامها السجن والعنت والاضطهاد وشهدت القرون اللاحقة جموداً كبيراً في العلمٍ الشرعي، وانتشر "التقليد" والتعصب الذي حاربهما ابن القيم، وغاب الاجتهاد، وتعلقَ العلماء والمفتون في متون المذاهب الأربعة عرضاً وشرحاً وحاشية بما سمي في الأدبيات الإسلامية بالمتون المخدومة.

منهج السلفية الإصلاحية في ذات الله وصفاته

ومن أشهر ما عرفت به السلفية الإصلاحية وعوديت بسببه ودخل روادها السجون من جراء حديثهم عنه هو كلامهم في ذات الله وصفاته .

ومنهج السلفية الإصلاحية في الأسماء والصفات هو الأخذ بظاهر الآيات والأحاديث بلا تكييف أو تشبيه أو تأويل .

---

(١) موقع ابن قيم الجوزية على شبكة والمعلومات .

يقول ابن تيمية : " مَذْهَبُ السَّلَفِ إِجْرَاءُ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَأَحَادِيثِ الصِّفَاتِ عَلَى ظَاهِرِهَا مع نَفْيِ الْكَيْفِيَّةِ وَالتَّشْبِيهِ عَنْهَا " (١)

وفسَّر ابن تيمية – وتابعه تلميذه ابن القيم في ذلك – جميع آيات وأحاديث الذات والصفات على هذا النحو وأنكر على كل من تأول هذه الآيات والأحاديث بل رماهم بالزيغ والتضليل .

يقول ابن تيمية : " وَدَفَعُوا أَنْ يَكُونَ لِلَّه وَجْهٌ مَعَ قَوْله: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّك ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} وَأَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ لِلَّه يَدَانِ مَعَ قَوْله: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} وَأَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ لِلَّه عَيْنَانِ مَعَ قَوْله {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}، وَقَوْله: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}، وَنَفَوْا مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّه مِنْ قَوْله: {إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا}.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَدْ أَنْكَرْتُمْ قَوْلَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَالْحَرُورِيَّةِ وَالرَّافِضَةِ وَالْمُرْجِئَةِ، فَعَرِّفُونَا قَوْلَكُمْ الَّذِي بِه تَقُولُونَ، وَدِيَانَتَكُمْ الَّتِي بِهَا تَدِينُونَ. قِيلَ لَهُ: قَوْلُنَا الَّذِي بِه نَقُولُ، وَدِيَانَتُنَا الَّتِي بِهَا نَدِينُ التَّمَسُّكُ بِكِتَاب اللَّه وَسُنَّة نَبِيِّه. وَمَا رُوِيَ عَنْ الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ وَأَئِمَّةِ الْحَدِيث وَنَحْنُ بِذَلِكَ مُعْتَصِمُونَ ... وَأَنَّ اللَّهَ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِه كَمَا قَالَ: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} وَأَنَّ لَهُ وَجْهًا كَمَا قَالَ: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّك ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} وَأَنَّ لَهُ يَدَيْنِ كَمَا قَالَ: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} وَقَالَ: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} وَأَنَّ لَهُ عَيْنَيْنِ بِلا كَيْفٍ كَمَا قَالَ: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} وَأَنَّ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اسْمَ اللَّه غَيْرُهُ كَانَ ضَالاً.

وَأَنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعه وَأَنَّهُ يَضَعُ السَّمَوَاتِ عَلَى أُصْبُعٍ وَالأَرْضِينَ عَلَى أُصْبُعٍ كَمَا جَاءَتْ الرِّوَايَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّه.

وَنُصَدِّقُ بِجَمِيعِ الرِّوَايَاتِ الَّتِي يُثْبِتُهَا أَهْلُ النَّقْلِ مِنْ النُّزُولِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا وَأَنَّ الرَّبَّ يَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ، وَسَائِرِ مَا نَقَلُوهُ وَأَثْبَتُوهُ خِلافًا لِمَا قَالَهُ أَهْلُ الزَّيْغِ وَالتَّضْلِيلِ، وَنَقُولُ فِيمَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ عَلَى كِتَابِ اللَّه وَسُنَّةِ رَسُولِه وَإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَمَا كَانَ فِي مَعْنَاهُ، وَلا نَبْتَدِعُ فِي دِينِ اللَّه بِدْعَةً لَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ بِهَا، وَلا نَقُولُ عَلَى اللَّه مَا لا نَعْلَمُ. وَنَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ: {وَجَاءَ رَبُّك وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} وَإِنَّ اللَّهَ يَقْرُبُ مِنْ عِبَادِه كَيْفَ شَاءَ كَمَا قَالَ: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} وَكَمَا قَالَ: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} " (٢)

---

(١) مجموع الفتاوى ج٦ ص ٤٧٣

(٢) مجموع الفتاوى ج٦ ص ٦٥٥- ٦٥٨ بتصرف

مما يؤخذ على السلفية الإصلاحية إفراطها في الحديث عن ذات الله وصفاته، والرد على من خالفهم من المتأولين ، ولم يعرف من توسع في الحديث عن هذا الموضع قبلهم ، ولا من تكلم فيه بعدهم إلا اقتداء بهم .

ويمكن التماس العذر للسلفية الإصلاحية بالتوسع في هذا الموضوع بسبب كثرة حديث المتكلمين في عصرهم فيه مما تطلب الرد عليهم ، لكن ما عذر السلفية المعاصرة في حديثها عن هذا الموضوع الذي نهى النبي عن الحديث فيه ، وانتفاء الداعي إليه في هذا العصر إلا تقليداً للمدرسة السلفية الإصلاحية ليس غير .

ومن المزاعم التي ادعتها المدرسة السلفية الإصلاحية ادعاءها ، دون دليل حقيقي، إجماع السلف الصالح على إجراء نصوص الذات والصفات على ظاهر النص دون كيفية أو تشبيه ، وجعل ذلك من أصول العقيدة المتفق عليها، وتكفيرهم للمتأولين لهذه الصفات بما يليق بجلال الله سبحانه ويوافق علوم اللغة .

يقول ابن تيمية : " وَاَللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنِّي قَدْ بَالَغْتُ فِي الْبَحْثِ عَنْ مَذَاهِبِ السَّلَفِ فَمَا عَلِمْتُ أَحَدًا مِنْهُمْ خَالَفَ ذَلِكَ. وَمَنْ قَالَ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ إنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ أَنَّ الظَّاهِرَ غَيْرُ مُرَادٍ، فَيَجِبُ لِمَنْ أَحْسَنَ بِهِ الظَّنَّ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ الظَّاهِرُ الَّذِي يَلِيقُ بِالْمَخْلُوقِ لا بِالْخَالِقِ وَلا شَكَّ أَنَّ هَذَا غَيْرُ مُرَادٍ، وَمَنْ قَالَ إنَّهُ مُرَادٌ فَهُوَ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ كَافِرٌ ." (١)

وهكذا يجزم ابن تيمية أن السلف مجمعين على عدم تأويل نصوص الذات والصفات ، ورغم أن هذا الموضوع من مباحث علم الكلام وليس من أصول الإيمان إلا أن ابن تيمية يجعل الكلام في الصفات من أصول الإيمان !

يقول ابن تيمية في " العقيدة الواسطية ": ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل " (٢)

فجعل ابن تيمية إجراء نصوص الصفات على ظاهر النص دون كيفية أو تشبيه من الإيمان ، وبناء على ذلك من تأولها أو تأول بعضها ليس بمؤمن !! والحقيقة إن السلفية الإصلاحية لم تكن أول من جعل عدم تأويل نصوص الذات والصفات من

---

(١) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٢٧٣
(٢) ابن تيمية " العقيدة الواسطية " ص ٨

أصول الاعتقاد ومتأولها غير مؤمن إنما سبقهم من قال بهذا بل جعل هذا الاعتقاد ديناً وأصدر به مرسوماً ملكيّاً ألزم المسلمين جميعاً به وحكم بالكفر والفسق على من خالفه بل أباح دمه كذلك وهو أمير المؤمنين أبو جعفر ابن القادر كما ذكرنا في الفصل السابق !!

والعجيب أن ابن تيمية يحذر من اتهام المخالفين بالكفر والتفسيق والتبديع في الأمور الخلافية الاجتهادية يقول ابن تيمية : " وَمِمَّا يَنْبَغِي أَيْضًا أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الطَّوَائِفَ الْمُنْتَسِبَةَ إلَى مَتْبُوعِينَ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَالْكَلَامِ : عَلَى دَرَجَاتٍ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ قَدْ خَالَفَ السُّنَّةَ فِي أُصُولٍ عَظِيمَةٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إنَّمَا خَالَفَ السُّنَّةَ فِي أُمُورٍ دَقِيقَةٍ . وَمَنْ يَكُونُ قَدْ رَدَّ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ الطَّوَائِفِ الَّذِينَ هُمْ أَبْعَدُ عَنْ السُّنَّةِ مِنْهُ ؛ فَيَكُونُ مَحْمُودًا فِيمَا رَدَّهُ مِنْ الْبَاطِلِ وَقَالَهُ مِنْ الْحَقِّ ؛ لَكِنْ يَكُونُ قَدْ جَاوَزَ الْعَدْلَ فِي رَدِّهِ بِحَيْثُ جحدَ بَعْضَ الْحَقِّ وَقَالَ بَعْضَ الْبَاطِلِ فَيَكُونُ قَدْ رَدَّ بِدْعَةً كَبِيرَةً بِبِدْعَةٍ أَخَفَّ مِنْهَا ؛ وَرَدَّ بِالْبَاطِلِ بَاطِلًا بِبَاطِلٍ أَخَفَّ مِنْهُ وَهَذِهِ حَالُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ . وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ إذَا لَمْ يَجْعَلُوا مَا ابْتَدَعُوهُ قَوْلًا يُفَارِقُونَ بِهِ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ ؛ يُوَالُونَ عَلَيْهِ وَيُعَادُونَ ؛ كَانَ مِنْ نَوْعِ الْخَطَأِ . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَغْفِرُ لِلْمُؤْمِنِينَ خَطَأَهُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ . وَلِهَذَا وَقَعَ فِي مِثْلِ هَذَا كَثِيرٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا : لَهُمْ مَقَالَاتٌ قَالُوهَا بِاجْتِهَادِ وَهِيَ تُخَالِفُ مَا ثَبَتَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ؛ بِخِلَافِ مَنْ وَالَى مُوَافِقَهُ وَعَادَى مُخَالِفَهُ وَفَرَّقَ بَيْنَ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَكَفَّرَ وَفَسَّقَ مُخَالِفَهُ دُونَ مُوَافِقِهِ فِي مَسَائِلِ الْآرَاءِ وَالِاجْتِهَادَاتِ ؛ وَاسْتَحَلَّ قِتَالَ مُخَالِفِهِ دُونَ مُوَافِقِهِ فَهَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافَاتِ . وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلَ مَنْ فَارَقَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ " الْخَوَارِجُ " الْمَارِقُونَ . (١)

رد الغزالي على منكري المجاز

والعجيب أن المدرسة السلفية الإصلاحية ومن نحا نحوها قد وضعوا أنفسهم في حرج كبير بعدم قبولهم رأي من تأول بل معاداتهم وتكفيرهم مما جعل أعداءها يتهمونهم بالتجسيم ويحكمون عليهم بالكفر !!

وهذا ما أخذه الذهبي على ابن تيمية : " فإنه مع سعة علمه وفرط شجاعته وسيلان ذهنه وتعظيمه لحرمات الدين بشر من البشر تعتريه حدة في البحث

---

(١) ابن تيمية " الفتاوى الكبرى " ج ٣ ص ٣٤٩

وغضب وشظف للخصم يزرع له عداوة في النفوس ونفوراً عنه وإلا والله فلو لاطف الخصوم ورفق بهم ولزم المجاملة وحسن المكالمة لكان كلمة إجماع فإن كبارهم وأئمتهم خاضعون لعلومه وفقهه معترفون بشفوفه وذكائه " (١)

فإصرار ابن تيمية وتلامذته على عدم قبول رأي متأولي ذات الله وصفاته بما يليق بذات الله تعالى ومناصبتهم العداء من الأمور التي تؤخذ عليهم وكان الأولى ترك الحديث عن هذا الموضوع بالكلية كما فعل السلف الصالح .

والحقيقة أن هناك من آيات وأحاديث ذات الله تعالى وصفاته يستحيل أخذها على ظاهرها ، ولقد اضطر الإمام أحمد نفسه إلى التأويل .

يقول أبو حام الغزالي : " وكيف يلزم الكفر بالتأويل وما من فريق من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إليه فأبعد الناس عن التأويل أحمد بن حنبل رحمة الله عليه وأبعد التأويلات عن الحقيقة وأغربها أن تجعل الكلام مجازًا أو استعارة هو الوجود العقلي والوجود الشبهي ، والحنبلي مضطر إليه وقائل به فقد سمعت الثقاة من أئمة الحنابلة ببغداد يقولون : إن أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى صرح بتأويل ثلاثة أحاديث فقط : أحدها قوله ﷺ : " الحجر الأسود يمين الله في الأرض " والثاني : قوله ﷺ : " قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن " والثالث : قوله ﷺ : " إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمين " فانظر الآن كيف أوّل هذا حيث قام البرهان عنده على استحالة ظاهره ؛ فيقول اليمين تقبل في العادة تقربًا إلى صاحبها، والحجر الأسود يُقَبَّل أيضًا تقربًا إلى الله تعالى فهو مثل اليمين لا في ذاته ولا في صفات ذاته ولكن في عارض من عوارضه ؛ فسمي لذلك يمينًا . وهذا الوجود هو الذي سميناه الوجود الشبهي وهو أبعد وجوه التأويل .
فانظر كيف اضطر إليه أبعد الناس عن التأويل وكذلك كما استحال عنده وجود الأصبعين لله تعالى حسًّا ؛ إذ من فتش عن صدره لم يشاهد فيه أصبعين فتأوله على روح الأصبعين ، وهي الأصبع العقلية الروحانية ، أعني أن روح الأصبع ما به يتيسر تقليب الأشياء ، وقلب الإنسان بين لمة الملك ولمة الشيطان وبهما يقلب الله تعالى القلوب فكنى بالأصبعين عنهما ، وإنما اقتصر أحمد بن حنبل رضي الله عنه على تأويل هذه الأحاديث الثلاثة لأنه لم تظهر عنده الاستحالة إلا في هذا القدر ؛

---

(١) شمس الدين الذهبي " ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام " ص ٢٢- ٢٦

لأنه لم يكن ممعنا في النظر العقلي ، ولو أمعن لظهر له ذلك في الاختصاص بجهة فوق وغيره مما لم يتأوله .

والأشعري والمعتزلي لزيادة بحثهما تجاوزا إلى تأويل ظواهر كثيرة ، وأقرب الناس إلى الحنابلة في أمور الآخرة الأشعرية وفقهم الله فإنهم قرروا فيها أكثر الظواهر إلا يسيرًا ، والمعتزلة أشد منهم توغلاً في التأويلات ، وهم مع هذا – أعني الأشعرية – يضطرون أيضًا إلى تأويل أمور كما ذكرناه من قوله : إنه يؤتى بالموت في صورة كبش أملح وكما ورد من وزن الأعمال بالميزان فإن الأشعري أوّل وزن الأعمال فقال : توزن صحائف الأعمال ويخلق الله فيها أوزانا بقدر درجات الأعمال ، وهذا رد إلى الوجود الشبهي البعيد فإن الصحائف أجسام كتبت فيها رقوم تدل بالاصطلاح على أعمال هي أعراض فليس الموزون إذًا العمل ، بل محل نقش يدل بالاصطلاح على العمل ، والمعتزلي تأول نفس الميزان وجعله كناية عن سبب به ينكشف لكل واحد مقدار عمله وهو أبعد عن التعسف في التأويل بوزن الصحائف .

وليس الغرض تصحيح أحد التأولين بل أن تعلم أن كل فريق وإن بالغ في ملازمة الظواهر فهو مضطر إلى التأويل إلا أن يجاوز الحد في الغباوة والتجاهل فيقول : الحجر الأسود يمين تحقيقيًا ، والموت وإن كان عرضًا فيستحيل فينتقل كبشا بطريق الانقلاب ، والأعمال وإن كانت أعراضًا وقد عدمت فتنتقل إلى الميزان ويكون فيها أعراض هي الثقل . ومن ينتهي إلى هذا الحد من الجهل فقد انخلع من ربقة العقل"(١)

المتأولون من السلف الصالح

زعمت السلفية الإصلاحية أن مذهب السلف عدم تأويل نصوص الذات والصفات ومن تأولها فهو من أهل الزيغ والتضليل ، وقد رأينا كيف لجأ ابن حنبل نفسه إلى التأويل والأمر لا يتوقف على ابن حنبل فقط إنما يتعداه إلى كثير من السلف الذين تأولوا نصوص الذات والصفات ولم يجروها على ظاهرها .

زعم أبو حيان الأندلسي (٢) صحاب " البحر المحيط " إجماع الأمة على التأويل فيقول : " { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } (الحديد : ٤)

---

(١) أبو حامد الغزالي " فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة " ص ٨٣ ، ٨٤)

(٢) يقول منتدى "كل السلفيين " وموقع " ابن تيمية " عن أبي حيان الأندلسي (٦٥٤ – ٧٤٥هـ) الذي كان معاصرا لابن تيمية أنه : نحويّ عصره ولغويّه ومفسّره ومحدّثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه، من تصانيفه: البحر المحيط في التفسير، ومختصره النهر؛ التذييل والتكميل في شرح التسهيل ؛ ارتشاف الضرَب، وتعدّ هذه الكتب من أجمع الكتب وأحصاها في موضوعاتها

أي بالعلم والقدرة .

قال الثوري : المعني علمه معكم ، وهذه آية أجمعت الأمّة على هذا التأويل فيها، وأنها لا تحمل على ظاهرها من المعية بالذات ، وهي حجة على من منع التأويل في غيرها مما يجري مجراها من استحالة الحمل على ظاهرها." (١)

ويقول فخر الرازي : " قال المتكلمون : هذه المعية إما بالعلم وإما بالحفظ والحراسة ، وعلى التقديرين فقد انعقد الإجماع على أنه سبحانه ليس معنا بالمكان والجهة والحيز ، فإذن قوله : { وَهُوَ مَعَكُمْ } لا بد فيه من التأويل وإذا جوزنا التأويل في موضع وجب تجويزه في سائر المواضع . " (٢)

ويقول ابن عطية (٣) : " اختلف العلماء فيما ينبغي أن يعتقد في قوله تعالى " بل يداه " وفي قوله " بيدي " و " عملت أيدينا " و " يد الله فوق أيديهم " و " لتصنع على عيني " و " تجري بأعيننا " و " اصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا " و " وكل شيء هالك إلا وجهه " ونحو هذا فقال فريق من العلماء منهم الشعبي وابن المسيب وسفيان يؤمن بهذه الأشياء وتقرأ كما نصها الله ولا يعن لتفسيرها ولا يشقق النظر فيها قال القاضي أبو محمد وهذا قول يضطرب لأن القائلين به يجمعون على أنها ليست على ظاهرها في كلام العرب فإذا فعلوا هذا فقد نظروا وصار السكوت عن الأمر بعد هذا مما يوهم العوام ويتيه الجهلة وقال جمهور الأمة بل تفسر هذه الأمور على قوانين اللغة ومجاز الاستعارة وغير ذلك من أفانين كلام العرب فقالوا في العين والأعين إنها عبارة عن العلم والإدراك كما يقال فلان من فلان بمرأى ومسمع إذا كان يعنى بأموره وإن كان غائباً عنه وقالوا في الوجه إنه عبارة عن الذات وصفاتها وقالوا في اليد واليدين والأيدي إنها تأتي مرة بمعنى القدرة كما تقول

---

(١) أبو حيان " البحر المحيط " ج ١٠ ،ص ٢١٩

(٢) تفسير فخر الدين الرازي " مفاتيح الغيب " ج ١٥ ص ٢١١

(٣) ابن عطية نابغة بمقاييس النبوغ في عصره؛ لأنه أحاط بكل العلوم المعروفة في زمانه، وكان على جانب كبير من الثقافة، والتنوع المعرفي والعلمي. وكان من أفاضل أهل السنة والجماعة، وتولى القضاء لفترة، وكان صاحب جهاد بالسيف كما كان صاحب جهاد بالقلم، فجمع بين كلا الفضيلتين ، وأجل آثاره العلمية كتابه "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" الذي أجمع أهل العلم على أنه غاية في الصحة والدقة والتحرير؛ وقد وصفه أبو حيان فقال: " أجلّ مَن صنف في التفسير، وأفضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير " نقلا عن موقع إسلام ويب .

العرب لا يد لي بكذا ومرة بمعنى النعمة كما يقال لفلان عند فلان يد وتكون بمعنى الملك كما يقال يد فلان على أرضه وهذه المعاني إذا وردت عن الله تبارك وتعالى عبر عنها باليد أو الأيدي أو اليدين استعمالا لفصاحة العرب ولما في ذلك من الإيجاز وهذا مذهب أبي المعالي والحذاق وقال قوم من العلماء منهم القاضي ابن الطيب هذه كلها صفات زائدة على الذات ثابتة لله دون أن يكون في ذلك تشبيه ولا تحديد وذكر هذا الطبري وغيره وقال ابن عباس في هذه الآية " يداه " نعمتاه ثم اختلفت عبارة الناس في تعيين النعمتين فقيل نعمة الدنيا ونعمة الآخرة وقيل النعمة الظاهرة والنعمة الباطنة وقيل نعمة المطر ونعمة النبات قال القاضي أبو محمد والظاهر أن قوله تعالى " بل يداه مبسوطتان " عبارة عن إنعامه على الجملة وعبر عنه بيدين جريا على طريقة العرب في قولهم فلان ينفق بكلتا يديه ومنه قول الشاعر وهو الأعشى :

يداك يدا مجد فكف مفيدة   وكف إذا ما ضن بالمال تنفق

ويؤيد أن اليدين هنا بمعنى الإنعام قرينة الإنفاق قال أبو عمرو الداني وقرأ أبو عبد الله بل يداه بسطتان يقال يد بسطة أي مطلقة . [١]

يقول ابن كثير " قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً: { إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ } كقوله { مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ } (النساء: ٨٠)، { يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ } أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله " [٢]

ويقول ابن كثير أيضاً : في تفسير قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهذه معية خاصة، كقوله: { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا } (الأنفال : ١٢)، وقوله لموسى وهارون: { لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } (طه : ٤٦)، وقول النبي ﷺ للصديق وهما في الغار: { لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } (التوبة : ٤٠) وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } (الحديد : ٤) وكقوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

---

(١) ابن عطية الأندلسي " المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " ج٢ ص ٢٥١- ٢٥٢
(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٢٩

الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا } [المجادلة : ٧]، وكما قال تعالى: { وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } (يونس : ٦١) (١)

ولم يجرِ ابن كثير وهو من أئمة أهل السنة والجماعة وتلميذ ابن القيم الآيات الذات على ظاهرها كما فعل أستاذاه ابن تيمية وابن القيم بل تأول الآيات .

والخلاصة نحن لم نُرِد من سرد رأي المتأولين بقصد ترجيح رأيهم على رأي غيرهم إنما بغرض إثبات وجود الرأيين وللإنسان حرية الاختيار بينهما دون تكفير أو تفسيق أو تبديع .

والأسلم عدم التعرض للموضوع ابتداء لنهي النبي عن الحديث فيه ولسكوت الصحابة والتابعين عنه .

لماذا أنكر ابن تيمية المجاز في اللغة والقرآن ؟

المجاز كما يعرفه علماء البلاغة هو ما استُعْمل في غير ما وُضع له أصلاً مع وجود قرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقيّ ، وعلاقة بين المعنى الأصليّ والمعنى المراد ، ولنوضح الأمر بمثال تعليمي إذا قلت : " رأيت أسداً يضرب بالسيف في المعركة " فكلمة أسد لها معنيان : معنى حقيقي وهو الحيوان المعروف ، ومعنى مجازي وهو الفارس الشجاع . والمقصود في هذه العبارة المعنى المجازي لوجود قرينة تمنع إرادة المعنى الحقيقي وهي أن الأسد الحقيقي لا يقاتل بالسيف ، ووجود علاقة بين الأسد الحقيقي والفارس الشجاع وهي الشجاعة .

وابن تيمية ينكر المجاز ليس في القرآن الكريم والحديث الشريف فقط بل في اللغة كذلك .

يقول ابن تيمية :

" لَيْسَ لِمَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ فَرْقٌ مَعْقُولٌ يُمْكِنُ بِهِ التَّمْيِيزُ بَيْنَ نَوْعَيْنِ ؛ فَعُلِمَ أَنَّ هَذَا التَّقْسِيمَ بَاطِلٌ وَحِينَئِذٍ فَكُلُّ لَفْظٍ مَوْجُودٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّهُ مُقَيَّدٌ بِمَا يُبَيِّنُ مَعْنَاهُ فَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مَجَازٌ بَلْ كُلُّهُ حَقِيقَةٌ . " (٢)

---

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٦١٥

(٢) مجموع الفتاوى ج ٧ ص ١٠٧

فابن تيمية يفترض كما سبق وذكر أبو إسحاق الإسفرائيني قبله " أن العرب نطقت بالحقيقة والمجاز على وجه واحد ، فجَعْل هذا حقيقة وهذا مجاز ضرب من التحكم، فإن اسم السبع وضع للأسد كما وضع للرجل الشجاع " .

ويُفنِّد السيوطي هذا الرأي فيقول : " وأما قوله : إنَّ العربَ وضعت الحقيقة والمجاز وضعاً واحداً فباطل بل العربُ ما وَضعت الأسد اسماً لعين الرجل الشجاع بل اسم العَين في حقِّ الرجل هو الإنسانُ ولكن العربَ سمَّت الإنسانَ أسداً لمشابهته الأسد في معنى الشجاعة فإذن ثبت أن الأسامي في لغة العرب انقسمت انقساماً معقولاً إلى هذين النوعين فسمَّيْنا أحدَهما حقيقة والآخر مجازاً فإن أنكرَ المعنى فقد جحد الضرورة وإن اعترف به ونازع في التسمية فلا مشاحّة في الأسامي بعد الاعتراف بالمعاني ولهذا لا يفهَم من مُطْلَق اسم الحمار إلا البهيمة وإنما ينصرف إلى الرجل بقرينة ولو كان حقيقة فيهما لتناولهما تناولاً واحداً . " (١)

إن إفادة المعنى من الفظ إنما يكون مع قرينة التركيب كلام غير صحيح وإلا لما فهمت أزواج النبي ﷺ المعنى الحقيقي لليد من قوله ﷺ : " أسرعكن لحوقاً أطولكن يداً " حتى أن بعضهن جعلت تقيس يدها لفهمها ذاك ، ولا شك في أنهن كن عربيات فصيحات ولكن النبي ﷺ كان يريد المعنى المجازي ويتبين ذلك عندما توفيت أم المؤمنين زينب ، رضي الله عنها ،أول أزواجه لحاقاً به، وكانت كثيرة الصدقة.

أما إنكار المجاز في القرآن الكريم قبل عصر ابن تيمية فمعزو إلى جماعة لا يكادون يتعدون عدد أصابع اليدين فالأصوليون يعزون هذا القول إلى داود الظاهري وابنه ، ومن غير الظاهرية ينسب هذا القول إلى : أبي حسن الجزري ، وأبي عبد الله بن حامد ، وأبي الفضل التميمي من الحنابلة ، ومحمد بن خويز منداد من المالكية ، ومنذر بن سعيد البلوطي ، وأبو علي الفارسي ، ، وابن القاص ، وأبو مسلم الأصبهاني ، ويعزى كذلك للرافضة .

هؤلاء هم كل ما يعزى إليهم إنكار المجاز في القرآن وفي الحديث النبوي . (٢)

وحين يذكر الإمام ابن تيمية بين منكري المجاز مطلقاً وفي القرآن الكريم فإنه يمثل في هذا المقام قطب الدائرة ؛ لأن من أنكر المجاز قبله لم يتحمسوا لإنكاره

---

(١) السيوطي " المزهر في علوم اللغة وأنواعها " ج ١ص ٢٩٠
(٢) د. عبد العظيم المطعني " المجاز في اللغة والقرآن الكريم" مكتبة وهبة ج ٢ ص ٧١٤

حماسته ، ولم يثوروا ثورته ، ولم يكن بين أيديهم من أسباب الإنكار ما كان بين يديه .

والذين أنكروا المجاز من بعده في فلكه داروا ، وعلى أوتاره عزفوا [١] وسبب الأسباب وراء تلك الحملة الضارية التي شنها ابن تيمية على القول بالمجاز والقائلين به من سلف الأمة .

ذلك السبب هو دخول المجاز – قبله وفي عصره – في مباحث العقيدة والتوحيد ، وتعلقه بصفات الله عز وجل . وقد تطرف قوم من علماء الكلام فأوسعوا دائرة التأول في كتاب الله ، وادَّعوا أن لكل لفظ في القرآن الكريم له ظاهراً وباطناً ، وحمَّلوا الألفاظ ما لم تحمل ، وتعسَّفوا في التأويل ودخول المجاز في هذا المجال الخطير – مجال العقيدة والتوحيد – بعد أن كان قضية أدبية نقدية ، أو لغوية جمالية، هو الذي ألهب نار الحماسة عند ابن تيمية لأنه رأى في هذا مثل تأويل " يد الله " وبالقدرة تعطيلاً لصفة من صفاته ، وهكذا كل ما أضيف إلى الله مما يوهم ظاهره التشبيه والتجسيم ، كالجهات والمعية والفوقية والاستواء والمجيء والنزول . ومصطلح التعطيل هذا ما أظنه إلا من توليدات ابن تيمية فإن لم يكن من توليداته فإنه لم يشتهر ولا يعرف إلا عنه . والدليل على هذا – ثورة ابن تيمية على فوضى التأويل – أنه لم يتعرض للحملة على المجاز إلا في مواطن الحديث عن العقيدة [٢] ومما يؤكد هذا الفهم صنيع تلميذه ابن القيم الذي وضع كتاباً سمَّاه " الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة " تصدى فيه لثلاثة طواغيت على حد تعبيره ، إحداها طاغوت المجاز لأنه كان سبباً – عند ابن تيمية – في التعطيل الذي رأيا أنه مناف لصحة الاعتقاد في الله تعالى ومخالف لطريقة السلف . [٣]

ولقد نحا ابن تيمية منحى إمامه أحمد حين لجأ ابن حنبل إلى الأخذ بظاهر القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الصحابة في فهم الدين لسحب البساط من تحت من تكلموا في الدين بالرأي وحده وإن خالف ظاهر النصوص الشرعية وأقوال الصحابة والتابعين .

يقول ابن تيمية:" وَكَذَلِكَ مَا ادَّعَوْا أَنَّهُ مَجَازٌ فِي الْقُرْآنِ كَلَفْظِ " الْمَكْرِ " وَ "الاسْتِهْزَاءِ" وَ " السُّخْرِيَةِ " الْمُضَافِ إلَى اللَّهِ وَزَعَمُوا أَنَّهُ مُسَمًّى بِاسْمِ مَا يُقَابِلُهُ عَلَى

---

(١) نفسه ص ٦٤١
(٢) نفسه ص ٦٤٢
(٣) نفسه ص ٦٤٣

طَرِيقِ الْمَجَازِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ مُسَمَّيَاتُ هَذِهِ الأَسْمَاءِ إِذَا فُعِلَتْ بِمَنْ لا يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ كَانَتْ ظُلْمًا لَهُ وَأَمَّا إِذَا فُعِلَتْ بِمَنْ فَعَلَهَا بِالْمَجْنِيِّ عَلَيْهِ عُقُوبَةً لَهُ بِمِثْلِ فِعْلِهِ كَانَتْ عَدْلا كَمَا قَالَ تَعَالَى : { كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ } . فَكَادَ لَهُ كَمَا كَادَتْ إِخْوَتُهُ لَمَّا قَالَ لَهُ أَبُوهُ : { لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا } [١]

وهذه الأمثلة كما يقول د. المطعني من باب المشاكلة وهي تسمية الشيء باسم غيره لوقوعه في صحبته لفظاً أو تقديراً، ولا يتوقف تحقيقها على المجاز، وإن وقع فيها مجاز فذلك ليس من شرطها .

وهناك نصوص أخرى من المشاكلة لا يستطيع نفي المجاز فيها، من هذه النصوص ما يتعلق بالله سبحانه مثل: {وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا } (الجاثية:٣٤) ، { فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم } (السجدة :١٤) {نسوا الله فنسيهم} (التوبة :٦٧) ونحن لا نناقش هل الكفار يستحقون ذلك أم لا، أو أن نسيان الله سبحانه وتعالى لهم عدل أم لا ؟

لكننا نسأل هل يجوز إسناد النسيان إلى الله سبحانه وتعالى على وجه الحقيقة التي يعلمها الناطقون باللغة العربية وهي صفة نقص في المسندة إليه أم أن ذلك تعبير عن حرمانهم من فضله وإحسانه في ذلك اليوم فهو بذلك مجاز؟

وهناك نصوص أخرى من المشاكلة فيها المجاز جاءت في غير الله سبحانه فمنها قوله تعالى { فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم } (البقرة : ١٩٤) ، { وجزاء سيئة سيئة مثلها ...} (الشورى : ٤٠) { وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ } (المائدة : ٦١) وقد شرح د. المطعني وجه المجاز في كل آية.

ولقد أثبت د. عبد العظيم المطعني بالأدلة والنصوص القاطعة أن المجاز عرف بلفظه ومعناه في القرنين الثاني والثالث . وقد أثبت وروده إما بلفظه وإما بمعناه عن صحابة رسول الله وتابعيهم ، وعن اللغويين والأدباء والمفسرين ممن غلب التقيد بالمأثور كابن جرير الطبري . [٢]

اعتراف ابن تيمية بوجود المجاز

ومن الطريف أن نجد ابن تيمية نفسه يعترف في بعض كتاباته بالمجاز .

---

(١) مجموع الفتاوى ج ٧ ص ١١١

(٢) راجع د. عبد العظيم المطعني " المجاز في اللغة والقرآن الكريم " مكتبة وهبة ج ٢ ص ٦٦٢

يقول ابن تيمية " الرَّابِعُ هُمْ " سَلَفُ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا " أَئِمَّةُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ مِنْ شُيُوخِ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ ؛ فَإِنَّهُمْ أَثْبَتُوا وَآمَنُوا بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ لِلْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ ؛ أَثْبَتُوا أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ ؛ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ وَهُمْ بَائِنُونَ مِنْهُ . وَهُوَ أَيْضًا مَعَ الْعِبَادِ عُمُومًا بِعِلْمِهِ وَمَعَ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ بِالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ وَالْكِفَايَةِ وَهُوَ أَيْضًا قَرِيبٌ مُجِيبٌ ؛ فَفِي آيَةِ النَّجْوَى دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ عَالِمٌ بِهِمْ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : " اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ؛ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ " فَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ فِي سَفَرِهِ وَمَعَ أَهْلِهِ فِي وَطَنِهِ ؛ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنْ تَكُونَ ذَاتُهُ مُخْتَلِطَةً بِذَوَاتِهِمْ كَمَا قَالَ : { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ } أَيْ عَلَى الْإِيمَانِ . لَا أَنَّ ذَاتَهُ فِي ذَاتِهِمْ ؛ بَلْ هُمْ مُصَاحِبُونَ لَهُ . وَقَوْلُهُ : { فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } يَدُلُّ عَلَى مُوَافَقَتِهِمْ فِي الْإِيمَانِ وَمُوَالَاتِهِمْ ؛ فَاللَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِعِبَادِهِ وَهُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا وَعِلْمُهُ بِهِمْ مِنْ لَوَازِمِ الْمَعِيَّةِ . " (١)

إذن فلفظا المعية والقرب هنا مصروفان عن ظاهرهما والسر في هذا الصرف هو نفي المماسة الحسية وهذا ما يقوله مجوّزو المجاز في مثل هذه المواضيع القرب والمعية .

ويقول ابن تيمية : " وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ : " اقْرَءُوا الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا يَجِيئَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ غَمَامَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ يُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا " وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحِ : فَلَمَّا أَمَرَ بِقِرَاءَتِهِمَا وَذَكَرَ مَجِيئَهُمَا يُحَاجَّانِ عَنْ الْقَارِئِ : عُلِمَ أَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ قِرَاءَةَ الْقَارِئِ لَهُمَا وَهُوَ عَمَلُهُ وَأَخْبَرَ بِمَجِيءِ عَمَلِهِ الَّذِي هُوَ التِّلَاوَةُ لَهُمَا فِي الصُّورَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا كَمَا أَخْبَرَ بِمَجِيءِ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَعْمَالِ ." (٢)

فهذا تأويل آخر ، وهو عند البلاغيين مجاز مرسل علاقته السببية حيث ذكر فيه السبب وهو السورتان المقروءان وأراد المسبب وهو الثواب . (٣)

" يقول ابن تيمية " إنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَثَلَ إيمَانِ الْمُؤْمِنِينَ بِالنُّورِ وَمَثَلَ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ بِالظُّلْمَةِ ." (٤)

---

(١) مجموع الفتاوى ج ٥ ص ١٢٦ ، ١٢٧

(٢) مجموع الفتاوى ج ١٥ ص ٣٨٩ ، ٣٩٠

(٣) د. عبد العظيم المطيعي " الإيجاز عند ابن تيمية وتلاميذه " مكتبة وهبة ص ١٢

(٤) مجموع الفتاوى ج ١٥ ص ٢٨٢

وهذا التحليل الذي ذكره ابن تيمية يتضمن استعارتين : استعارة النور للإيمان ، واستعارة الظلمة للكفر .

ويقول ابن تيمية :

" اعتقاده – يعني الفقيه – أن تلك الدلالة قد عارضها ما دل على أنها ليست مرادة مثل معارضة العام بخاص أو المطلق بمقيد أو الأمر المطلق بما ينفي الوجوب أو الحقيقة بما يدل على المجاز إلى أنواع المعارضات . وهو باب واسع أيضاً، فإن تعارض دلالات الأقوال وترجيح بعضها على بعض بحر خضم . " (١)

وهذا يعتبر رجوعاً من ابن تيمية عما كتبه في الإيمان ، فقد أقرَّ فيما نقلناه بكل ما أنكره هناك ، ومن يتمسك بعد ذلك بأن ابن تيمية لم يقر بالمجاز في حر كلامه فعليه أن يتصرف في هذه الأقوال القاطعة التي وردت عنه في مواضع متعددة من مؤلفاته ، وفي حر كلامه عليه أن يتصرف فيها إما بإنكار ورودها عنه وليس إلى ذلك سبيل أو تجريدها مما تدل عليه ، وليس إلى ذلك سبيل كذلك .

فلم يبق إذن إلا التسليم بأن لابن تيمية مذهبين في المجاز هما :

مذهب جدلي نظري أنكر فيه المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم ، وقد دعاه إلى ذلك فوضى التأويل في عصره وقبل عصره ، عملاً بالأصل لدى علماء أصول الفقه وهو : سد الذرائع .

ومذهب عملي سلوكي طبقه على آيات من الذكر الحكيم كما تقدم .

أما النصوص الدالة على اعتراف ابن القيم بالمجاز فكثيرة جداً .

بعد عصر ابن تيمية وابن القيم بنهاية النصف الأولِ من القرن الثامن الهجري توقف الجدلِ حول إنكار المجاز ، فلمِ يعد أحد متحمساً لإنكاره ، ولا أحد كتب في إنكاره مصنفاً منفرداً ، ولا أعلن رأياً ولو مختصراً فيه – يفيد إنكاره للمجاز (٢)

ولقد جرَّ استمساك ابن تيمية بظاهر النص وعدم تأويله إلى أخطاء وقعِ فيها ليس في العقيدة فحسب ، كما بينا ، إنما في فهم بعض نصوص الشريعة أيضاً .

يقول ابن تيمية : " وَقَوْلُنَا فِي أَطْفَالِ الْمُشْرِكِينَ: إنَّ اللَّهَ يُـؤَجِّجُ لَهُمْ نَارًا فِي الآخِرَةِ، ثُمَّ يَقُولُ اقْتَحِمُوهَا كَمَا جَاءَتْ الرِّوَايَةُ بِذَلِكَ؛ وَنَدِينُ بِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا الْعِبَادُ عَامِلُونَ وَإِلَى مَا هُمْ صَائِرُونَ ." (١)

---

(١) ابن تيمية " رفع الملام عن الأئمة الأعلام " ص ٢٩

(٢) د. عبد العظيم المطيعي " الإيجاز عند ابن تيمية وتلاميذه " مرجع سابق ص ٥١

أما إيمان ابن تيمية بدخول أطفال النار ففيه نظر فقد أخذ ابن تيمية بظاهر النص وهو قول النبي : " أولاد المشركين خدم أهلَ الجنة " رغم تضعيف بعض علماء الحديث له ، وإن صح سنده فلا يصح متنه بحال لعلة قادحة فيه وهو مخالفة نصوص القرآن الكريم قطعية الثبوت والدلالة يقوله تعلى :{ لا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى } [الأنعام : ١٦٤] ويقول تعالي : { وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا } (الأنعام : ١٦٤) وقال : { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبت } (البقرة : ٢٨٦) وقال : { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ } وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد ، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب .

ويقول النبي : " رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاثَةٍ عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ " (رواه أبو داود وابن خزيمة وابن حبان والحاكم)

فكيف يدخل أطفال المشركين النار والقلم مرفوع عنهم ولم يكلفوا بعد !!

جاء في فتاوى الأزهر : " أطفال المشركين فلا يلحقون بآبائهم فى النار، لأنهم لم يكلفوا حتى يعاقبوا، فهم ماتوا على الفطرة لهم الجنة إن شاء الله ، ويدل عليه حديث البخارى عن سمرة بن جندب فى رؤيا رآها النبى ﷺ حيث جاء فيها أنه رأى روضة فيها رجل حوله ولدان كثيرون ، وهو إبراهيم عليه السلام ، يرعى كل مولود يولد على الفطرة، فقال بعض المسلمين : يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ فقال "وأولاد المشركين "فهم سيدخلون الجنة ، لا يعلم حالهم فيها إلا اللّه ."

***

(١) مجموع الفتاوى ج ٦ ص ٦٥٩

الفصل الثالث

السلفية الوهابية

عصور الإسلام المظلمة

لم يخدم الحكم المملوكي المتأخر، كما هو الحال في الحكم العثماني فيما بعد، الحالة العلمية والفكرية في العالم الإسلامي فعلى الرغم من مجهودات العثمانيين، الهائلة في الجهاد والفتوحات والدفاع عن البلاد الإسلامية إلا أن فترتهم تميزت بما يمكن أن نطلق عليه - بمعنى الكلمة- (عصر الظلمات) خاصة القرون الثلاثة الأخيرة وقد تبنت المؤسسات الدينية الرسمية في الدولة العثمانية المذهب الأشعري والصوفية والحنفية وانتشرت مرة أخرى صنوف متعددة من الانحرافات في التوحيد، وألوان من الشرك، مثل: الطواف حول القبور، الطرق الصوفية، الاستغاثة بالأموات، التقليد، البدع .. الخ.[1]

الأمر الذي فتح في جدار الشرق الإسلامي العديد من الثغرات التي بدأ الغرب الاستعماري يسعى من خلالها .. لما حدث ذلك ، وأصبح الإسلام غريباً مرة أخرى، كما كان في البدء ، اتحدت حركة اليقظة والتجديد في عصر أمتنا الحديثة سبيل السلفية تدفع بعقائدها البدع والخرافات عن الفكر إسلامي ، ساعية إلى إعادة قيادة الإسلام إلى العرب بعد أن تأكد عجز الأتراك العثمانيين عن القيادة أمام الخطر الاستعماري الزاحف على بلاد الإسلام ، هكذا عرفت الأمة أعلام الحركة السلفية الحديثة .[2]

الوهابية والعودة إلى المدرسة الحنبلية

ويعتبر محمد بن عبد الوهاب رائد السلفية الحديثة وإمامها بلا منازع ، وقد كان أهل نجد قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على حالة لا يرضاها مؤمن، كان

---

(١) محمد سليمان " مراجعات متأملة في المشروع السلفي الإصلاحي " مجلة العصر .

(٢) محمد عمارة " السلفية " دار المعارف للطباعة والنشر تونس ص ٢٠ .

الشرك الأكبر قد نشأ وانتشر، حتى عبدت القباب وعبدت الأشجار، والأحجار، وعبد من يدعي الولاية وهو من المعتوهين، واشتهر في نجد السحرة والكهنة، وسؤالهم وتصديقهم وليس هناك منكر إلا من شاء الله، وغلب على الناس الإقبال على الدنيا وشهواتها، وقل القائم لله والناصر لدين الله، وهكذا في الحرمين الشريفين. [1]

فلما رأى الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٠- ١٧٩٢ م) هذا وانتشاره بين الناس وعدم وجود مُنْكِرٍ له ، بدأ دعوته بالدفاع عن التوحيد الخالص لله ومحاربة البدع ، وتركزت دعوته حول ثلاث قضايا رئيسة هي :

١- القضاء على البدع والخرافات التي فشت في عقيدة الناس وعلى رأسها التوسل بالأضرحة وبناء المساجد عليها . فأجلى لهم حقيقة التوحيد الخالص لله عز وجل؛ إذ لا يُدعى إلاَّ الله وحده لا شريك له، ولا يُذبح ولا يُنذر إلاَّ له، ولم يكتف بالدعوة بل أخذ مجموعة من الإجراءات العملية المهمة في سبيل نشر الدعوة؛ إذ قطع الأشجار التي عظَّمَها الناس، وهدم قبة زيد بن الخطاب ، وقد كانت مقصدًا للعامة يستشفعون بها .

٢- القضاء على التصوف البدعي المنافي للشرع المغيب للعقل ، وطرق العبادة التي أحدثتها طوائف المتصوفة في الذكر والدعاء والعبادة وإقامة الموالد .

٣- الإيمان بأسماء الله وصفاته على الوجه اللائق بالله سبحانه، لا يعطل صفات الله، ولا يشبه الله بخلقه .

أجاب دعوة ابن عبد الوهاب كثيرون من علماء نجد وعلماء الحرمين، وعلماء اليمن، وغيرهم وكتبوا إليه بالموافقة، وخالف آخرون وعابوا ما دعا إليه وذموه، ونفرُّوا عنه .

وتسامع الناس بأخبار الشيخ، ودروسه في الدرعية ودعوته فتوافد الناس عليه من كل مكان، واستمر على الدعوة وكاتب الناس إلى الدخول في هذا الميدان، وإزالة الشرك الذي في بلادهم، وبدأ بأهل نجد فكاتب أمراءها وعلماءها، وكاتب علماء وأمراء الرياض، والخرج ، وبلاد الجنوب والقصيم، وحائل، والوشم، وسدير،

---

(١) عبد العزيز بن باز " الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته" الموقع الرسمي لابن باز .

والأحساء وعلماء الحرمين الشريفين، وهكذا علماء الخارج في مصر، والشام والعراق، والهند، واليمن، وغير ذلك، ولم يزل يكاتب الناس ويقيم الحجج، ويذكر الناس ما وقع فيه أكثر الخلق من الشرك والبدع . (١)

لقد تبنى ابن عبد الوهاب مذهب ابن تيمية في الكلام عن ذات الله وصفاته والتوسل ؛ فأثبت آيات وأحاديث الذات والصفات على ظاهرها دون تعطيل ولا تأويل .

واختلف الناس حول دعوة ابن عبد الوهاب ما بين مؤيد ومناصر ممن رأوا في دعوته انتصاراً للسنة وهدماً للبدع ، وبين معارضين يقولون: إنه من الخوارج، وتارة يقولون: يخرق الإجماع ويدعي الاجتهاد المطلق، ولا يبالي بمن قبله من العلماء والفقهاء وتارة يرمونه بأشياء أخرى .

منهج ابن عبد الوهاب في العقيدة والشريعة

لم يكتف ابن عبد الوهاب بمحاولة تغيير المنكر الذي رآه باللسان إنما استخدم السيف أيضاً بعدما تحالف مع محمد بن سعود أمير الدرعية مما ساهم في تقوية الدعوة وتثبيتها في جزيرة العرب، وفرض المدرسة " الوهابية " هناك ، وبدأ الجهاد من عام ١١٥٨هـ، بالسيف وبالكلام، وبالحجة والبرهان، فقد استمرت الدعوة باللسان مع الجهاد بالسيف ، فالحديد لمن لم تنفع فيه الحجة، وتؤثر فيه البينة هو القامع . (٢)

لقد حاول ابن عبد الوهاب أن ينهج نهج ابن تيمية في محاربة البدع وأهلها وتنقية التوحيد وإن كان لم ينهج نهجه في مجال التشريع فالمسائل التي تعكسها المبادئ الكبرى التي وضعها ابن عبد الوهاب هي في المقام الأول ذات طبيعة عقدية وتستهدف تنقية العقيدة ، التي ليست في النهاية سوى التوحيد النقي ، لقد قدَّر ابن عبد الوهاب فعلاً أن إيمان معاصريه ابتعد إلى درجة كبيرة عن الأصول التي كان عليها السلف الصالح ، وأن المجتمع الذي يحيط به دخل مجدداً في حالة الجاهلية شبيهة بتلك التي سبقت ظهور الإسلام .

ولا يكفي المرء بحسب ما يراه ابن عبد الوهاب أن يعلن الوحدانية لله ليكون مسلماً بل لابد أيضاً أن ينعكس هذا الإعلان في العبادات . وهنا يكمن الخلاف الذي

---

(١) نفسه .
(٢) نفسه .

يقيمه ابن عبد الوهاب بين مبدأ الاعتراف بوحدانية الله أو توحيد الربوبية من جهة ومبدأ توحيد الإلوهية من جهة ثانية . هذا المبدأ الأخير كانت تخالفه الممارسات الدينية المختلفة التي كانت منتشرة في الجزيرة على نحو تقديس الأولياء (وفيها يقع التوسل والتشفع) وكذا التشيع ، تأسست الوهابية على هذا النحو إذن ضد الممارسات أساساً وهي الممارسات التي أنكرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب بوصفها أشكالاً من الشرك .

لكن الوضوح الذي يبدو في مواقف ابن عبد الوهاب في ميدان العقيدة لا يضاهيه وضوح بنفس الحجم في مواقفه في مجال الفقه ذلك لأنه أولاً وقبل أي شيء يحتل مكانة أقل مركزية في مشروعه ، ويعتبر موقفه المبدئي أن المعايير الوحيدة لصحة الفتوى يجب أن تعتمد على القرآن الكريم والسنة وإجماع السلف الصالح .

ويرتكز هذا المسعى من الناحية النظرية إلى نفي سلطان التقليد الذي تمثله المذاهب الفقهية الأربعة وتحويل الاجتهاد إلى عمود العملية الفقهية ، بيد أن ابن عبد الوهاب استمر من ناحية الممارسة العملية في الاعتماد على المذهب الحنبلي في مسائل الفروع ، وكان هذا بالضبط ما ذكره عندما وصف نفسه في رسالة وجهها إلى علماء المدينة المنورة بأنه " متبع غير مبتدع " للمذهب الفقهي الحنبلي وهو بذلك سعى إلى إثبات الطابع السلفي الحنبلي لدعوته .

في الواقع لقد ثبت أنه لم تصدر لابن عبد الوهاب أية فتوى جديدة وأنه كان غالباً ما يكتفي باجتهاد نسبي لا يخرج عن المذهب الحنبلي . [١]

معارضو الدعوة الوهابية

تعرّضت الوهابية منذ ظهور حركتها للنقد من قبل كثير من علماء السنة ومن هؤلاء الأعلام الذين انتقدوا الوهابية سليمان بن عبد الوهاب الحنبلي أخو محمد بن عبد الوهاب في كتابه إلى حسن بن عيدان وكان الكتاب بدون عنوان إلا أنه طبع فيما بعد تحت مسميات كثيرة منها "الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية" وذكر بعضهم الكتاب باسم "فصل الخطاب في الردّ على محمد بن عبد الوهاب"، وبهذا سمّاه محمد بن حميد الحنبلي في كتابه "السّحب الوابلة على ضرائح الحنابلة". وهو موجودٌ بهذا الاسم على بعض المخطوطات، لكنها متأخرة نسبياً.

---

(١) ستيفان لاكوروا " سلطة الحديث في السلفية المعاصرة " ترجمة عومرية سلطاني وحدة الدراسات المستقبلية بمكتبة الإسكندرية ص ٦

وفي المكتبة الأزهرية نسخة مخطوطة من الكتاب تحت عنوان "الردّ على منْ كفَّر المسلمين بسبب النذر لغير الله والاستغاثة بغيره ونحو ذلك"، وهناك نسخة أخرى بالعنوان ذاته في مكتبة الأوقاف العامة في بغداد. والذي يترجَّح أنَّ سليمان لم يسمِّ كتابه، لاسيما وهو في الأصل رسالة موجَّهة لحسن بن عيدان .وإنَّ المتتبع للمؤلفين النجديين في تلك الفترة يجد أنهم نادراً ما يسمُّون كتبهم، وغالباً ما تكون تسمية الكتب من قبل النسَّاخ، أو التلاميذ، ولذا تجد كثيراً من كتب أهل نجد لها أكثر من عنوان وأحمد زيني دحلان مفتي الشافعية في مكة في كتابيه "فتنة الوهابية" و"الدرر السنية في الرد على الوهابية"، وابن عابدين الحنفي والصاوي المالكي صاحب الحاشية على تفسير الجلالين ، ويوسف الرافعي في كتابه "نصيحة لإخواننا علماء نجد "والبوطي في كتابه "السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي"، ومحمود سعيد ممدوح في مقدمة كتابه "كشف الستور عما أشكل من أحكام القبور"، وكذا الصنعاني، وأبو الهدى الصيادي، ومصطفى صبري، ومحمد زاهد الكوثري، بالإضافة إلى علماء آخرين من الأزهر والزيتونة والقرويين، وفيما يلي مختصر هذه الانتقادات في عدة نقاط :

١- نقل مسائل الفروع المختلف عليها إلى الأصول التي يجب الإيمان بها ، مثل مسائل البناء على القبور، والتوسل بالأنبياء والأولياء .

٢- الإفراط في تكفير وتضليل كل من هو على اختلاف معهم وتكفير أئمة الشيعة الإمامية وأكثر الصوفية.

٣- تعرضهم لبعض علماء السنة وأئمتهم بالتخطئة في العقيدة والتبديع في بعض الأحيان والإخراج من دائرة السنة في أحيان أخر، مثل ما قالوه عن:وابن حجر الهيتمي، والشاطبي ، وابن حجر العسقلاني ، والنووي ، والسيوطي ، وتاج الدين السبكي، وتقي الدين السبكي، وابن بطال ، وأبو جمرة وابن التين ، وابن الجوزي ، والرازي وأبو حامد الغزالي ، والباقلاني، والذهبي ومن المتأخرين : الشعراوي ، ومحمد علي الصابوني، ومحمد الغزالي.

٤- قتال من يقولون عنهم أنهم "معادون لأهل التوحيد" وأخذ أموالهم وأمتعتهم بدعوى أنهم مشركون حيث يقول المؤرخ ابن بشر: وكان قد أقام هذا الحرب نحو سبع وعشرين سنة. وذكر أن القتلى بينهم في هذه المدة نحو أربعة آلاف رجل وهذا القتل وأخذ الأموال قد امتلأت به كتب التاريخ لابن غنام وابن بشر المؤرخ السعودي النجدي الحنبلي

٥- الخروج على الخلافة الإسلامية العثمانية، حيث سعى محمد بن عبد الوهاب لإقامة مذهبه بالقوة والسيف، فاستولى على قسم كبير من الجزيرة العربية، وهاجم الكويت وساحل عمان ودمشق وكربلاء والنجف .

٦- هدم الشواهد والآثار النبوية المتبقية مثل ما فعلوا بمكان ولادة النبي محمد بن عبد الله، ومكان عيشه في مكة، وبستان الصحابي سلمان الفارسي حيث كانت هناك نخلة غرسها النبي محمد بن عبد الله، وبيت الصحابي أبو أيوب الأنصاري، وردم بئر العين الزرقاء، وبئر أريس (بئر الخاتم)، وبئر حاء، وغيرها وكذا هدم الأضرحة والقباب وقبور الصحابة وآل البيت التي يقام عليهم نوع من أنواع العبادة لأنها حسب اعتقادهم والتي تعتبر من وسائل الشرك والغلو في الأنبياء والصالحين، مستندين إلى حديث أخرجه مسلم في صحيحه يقول بنهى النبي محمد عن تجصيص القبور والقعود عليها والبناء عليها . رغم أنها قد تحمل قيمة تاريخية أو أثرية أو فنية أو حتى دينية لغيرهم من المسلمين أو غير المسلمين. وتمثل ذلك في هدم العديد من الشواهد في السعودية . وكذلك هدم مرقد الزبير بن العوام في البصرة .

٧- تحريمهم الاحتفال بالأعياد والمناسبات من ذكرى مولد ونحوه باعتبار ذلك عبادة لمن يحتفل بمناسبته وتعظيم له .[١]

لقد كان نتيجة الهجوم الشديد الذي شنته الوهابية على المخالفين لها أن كثر معارضوها بل أعداؤها .

ما يؤخذ على السلفية الوهابية

على الرغم من تمسك محمد بن عبد الوهاب بمدرسة ابن تيميه في التوحيد ومحاربة البدع والطرق الصوفية، وما إلى ذلك إلا أنه سلك نهج المدرسة الحنبلية في مجال الفقه ولتشريع .

وألزم الناس بهذا المنهج وحارب من خرج عليه ؛ مما ولَّدَ للشيخ ودعوته أعداء كثر داخل بلاد الحجاز وخارجها وإلى يوم الناس هذا .

ويمكن القول أنَّ الدعوة الوهابية بقيت أسيرة لقضايا معيّنة ..

أولاً : تراث الشيخ محمد بن عبد الوهاب نفسه والتركيز على جانب التوحيد ومحاربة البدع مع إغفال الجوانب الأخرى في المشروع السلفي الإصلاحي الذي

---

(١) ويكيبيديا الموسوعة الحرة " الوهابية " .

أسسّه ابن تيميه مثل: محاربة التقليد، تحرير العقل من سلطة المذهب، الاجتهاد المعرفي في نقد الفلسفات الحضارية الأخرى، فهذا الانغلاق على تراث ابن عبد الوهّاب عزَّز جوانب على حساب جوانب أخرى، فاتسمت " السلفية الوهابية " ذاتها بالجمود الفقهي، وورثت عن مدرسة الحديث موقفاً سلبيّاً ضد العقل والاجتهاد، وورثت موقفاً متخوفاً رافضاً بشكل مبدئي لثقافة الحضارات الأخرى أيضاً بتأثرها بمدرسة الحديث الحنبلية ؛ والتي رفضت الآخر الحضاري رفضاً مطلقاً، على خلاف ابن تيميه الذي فكك الثقافة الأخرى وميَّزَ خيرها من شرها .

ثانيا : أثرت الطبيعة القبلية والبيئة الصحراوية بشكل كبير في محدودية المشروع الإصلاحي للدعوة الوهابية، والتي لم تحتك مباشرة بالاستعمار الغربي، ولم تدرك الفارق الحضاري الشاسع الذي ظهر بين الغرب والمسلمين في ميادين الحياة المختلفة.هذه – العزلة– الثقافية والحضارية أبعدت السلفية عن فرص الإفادة من الفتوحات المعرفية الحضارية ومسائل التقدم العلمي والتكنولوجي، وتطور العلوم الطبيعية والحكمية .. الخ. وبالتالي لم تعش هذه الدعوة جدالات وتساؤلات النهضة والتحديث ، فبقيت محصورة في تراث محمد بن عبد الوهاب .

ثالثا : إذا كان من الصعب إنكار دور التحالف السياسي بين آل سعود والدعوة الوهابية في فرض وسيادة هذا الفكر في أجزاء كبيرة من الجزيرة العربية، فإنَّ هذا التحالف في جانب آخر أثَّر بشكل كبير على الفكر السياسي لدى علماء الدعوة الوهابية، حيث ركزت أدبيات الدعوة الوهابية على الطاعة للسلطان ومناصرته، وعدم جواز الخروج عليه بصفته إماماً للمسلمين، وجمدت – الوهابية– عند حدود المواقف السياسية السابقة، وبالتالي لم نشهد أية محاولة لتجديد الفكر السياسي وتطويره حتى تعاملهم مع الميراثِ الفقهيِ الإسلاميِ – ومِن ذلك ميراث ابن تيميه – في الجانب السياسي كان تعاملاً مجتزءاً متحيزاً سطحيّاً .

رابعاً : استخدامهم القوة في فرض الدعوة وإلزام الناس بها ، وعدم التسامح مع المخالفين لهم مع أن نصوص الدين قطعية الثبوت والدلالة تدعو إلى عدم إكراه الناس في الدين والدعوة يجب أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وأن الغلظة في مجال الدعوة منفرة .

{ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ }(البقرة : ٢٥٦)

فالإسلام يمنع إكراه غير المسلم على الدخول في الإسلام فما بالك بمن يُكْرِه بالقوة أصحاب المذاهب الإسلامية الأخرى على الدخول في مذهبه !!

{ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جمِيعا أفأنْت تُكْرِهُ النّاسَ حتَّى يكُونُــوا مُؤمِنِينَ } (يونس :٩٩)

فالداعية عليه البيان والتذكير وعلى الله تعالى الحساب والتقدير .

قال تعالى: { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ * إِلا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ }

(الغاشية: ٢١ -٢٦)

ولقد بين الله تعالى كيفية الدعوة إلى دين الله تعالى فقال جلَّ وعلا :

{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }

(النحل : ١٢٥)

ولم يطلب واحد من الأئمة أن يلزم الخليفة في عصره الناس بمذهبه بــالقوة بــل إنهم نهوا الخلفاء عن فعل ذلك عندما أرادوا .

روى أبو نعيم في " حلية الأولياء " عن مالك أنه قال : شاورني هــارون الرشــيد في أن يعلق الموطأ على الكعبة ويحمل الناس على ما فيه فقلــت : لا تفعــل فــإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلدان وكل مصيب فقــال : وفقك الله يا أبا عبد الله .

وروى ابن سعد في " الطبقات " عن مالك أنه لما حج المنصور قال لي : عزمت على أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها فتنسخ ثم أبعث إلى كل مصر مــن أمــصار المسلمين منها نسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوا إلى غيرها فقلت لا تفعل هذا فإن الناس قد سبقت إليهم الأقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخــذ كــل قوم بما سبق إليهم ودانوا به فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم . كــذا في عقود الجمان .[١]

لكن ابن عبد الوهاب ألزم الناس بالقوة بمذهبه ولم يسمح لهم بالاختلاف معه .

يقول الشيخ ابن باز في بينان منهج ابن عبد الوهاب في الدعوة : " إنه يأمر الناس بالمعروف، ويلزمهم به بالقوة فمن أبى المعروف الذي أوجبه الله عليه، أُلْــزِمَ بــه وعُزِّرَ عليه إذا تركه، وينهى الناس عن المنكرات، ويزجرهم عنها، ويقيم حدودها، ويلزم الناس بالحق، ويزجرهم عن الباطل." [٢]

---

(١) موطأ مالك – رواية محمد بن الحسن ص ٣٣ .

(٢) ابن باز " لإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته" الموقع الرسمي لابن باز .

وربما قال أحد إن ابن عبد الوهاب كان قاضياً وكان ثاني اثنين في الحكم ومن سلطته استخدام القوة في تغيير المنكر ، وهذا حق فالضرب على يد السراق وقطاع الطرق والمفسدين في الأرض ومرتكبي الجرائم التي توجب الحد أو التعذير هذا من حق ولي الأمر لكن الأمر لم يكن قاصراً على هؤلاء وأمثالهم من المفسدين في الأرض إنما تعدَّى ليشمل المخالفين في الرأي والمذهب .

لقد ساوى ابن عبد الوهاب بين المسلمين الموحدين الذين يتوسلون في دعائهم بالنبي فقط بمشركي مكة الذين يعبدون الأصنام !! فيقول في كتابه كشف الشبهات : " إذا قال لك بعض المشركين :{ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } (يونس:٦٢) أو استدل بالشفاعة أنها حق، وأن الأنبياء لهم جاه عند الله أو ذكر كلاماً للنبي ﷺ يستدل به على شيء من باطله، وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره، فجاوبه بقولك: إن الله ذكر أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه، وما ذكرته لك من أن الله ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية، وأن كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم :{ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ } (يونس:١٨) هذا أمر محكم بين، لا يقدر أحد أن يغير معناه، وما ذكرته لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه، ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله عز وجل، وهذا جواب سديد . "

وهكذا حكم ابن عبد الوهاب بالشرك على من خالف مذهبه في التوسل بجاه النبي، وأن الأدلة التي ساقها له من خالفه رغم أنها من كتاب الله وسنة رسوله لا يعرف معناها وأن نصوص كتاب الله والسنة غير متناقضة وعليه فإن النصوص التي ساقها انتصاراً لمذهبه هي الحق ، والنصوص المخالفة له يجب ألا تذكر وإن ذكرت تؤول لتتماشى مع مذهبه !!

وهنا يجد ابن عبد الوهاب مبرراً لنفسه في استخدام القوة لجهاد المسلمين المتوسلين بجاه النبي رغم أن هذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم .

وإليك فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية :

" التوسل بذوات المخلوقين أو جاههم أو حقهم سواء أكانوا أنبياء أو صالحين **فيه خلاف بين أهل العلم** والذي عليه جمهور أهل العلم عدم الجواز وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ محمد بن عبد الوهاب . " (١)

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة – المجموعة الأولى جمع وترتيب : أحمد بن عبد الرزاق الدويش موقع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء .

وجاء في فتاوى الأزهر الشريف في الرد على سؤال هل يجوز التوسل بجاه النبي أو أحد الصالحين ؟ : " من يدعو ويقول : اللهم إني أسألك بجاه نبيك أو بجاه أحد من الصالحين قال العلماء : إن عبارته تحتمل القسم ، أي الحلف بجاه النبي، والقسم بغير الله ممنوع ، وتحتمل أن تكون الباء للسببية، أي بسبب نبيك ، فإن كان المراد بسبب حبي لنبيك والإيمان به فلا غبار عليه ، لأن حب النبي والإيمان به عمل صالح تقرب به الداعي إلى الله ، فهو وسيلة لثوابه ورضاه ، قال تعالى { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة} (المائدة :٣٥) كما دعا المحبوسون في الغار ربهم بصالح أعمالهم فاستجاب دعاءهم ونجاهم ، وإن كان المراد بسبب ذات النبي أو منزلته من الله ووجاهته عنده فقد احتدم الخلاف بين العلماء في جوازه ومنعه .

ففريق ينكره لأن مجرد الجاه لا يعطي الشفاعة، وعلى رأس هؤلاء ابن تيمية، وفريق يجيزه بالنسبة للنبي دون غيره ، ومنهم العز بن عبد السلام ، واستدلوا بحديث الأعمى الضرير الذي أمره النبي ﷺ أن يدعو الله بقوله :"اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة" فرد الله عليه بصره ، رواه الترمذي والنسائي والبيهقي والطبراني بأسانيد صحيحة . " (١)

فمعلوم عند العلماء إنما ينكر المتفق عليه ولا ينكر المختلف فيه ، فلا ينبغي تفسيق المختلف في الأمور الاجتهادية ولا تبديعه فضلاً عن تكفيره وقتاله ومن فعل ذلك فإن ابن تيمية نفسه يشبهه بالخوارج الذي شقوا عصا الجماعة .

يقول ابن تيمية : " وَفَرَّقَ بَيْنَ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَكَفَّرَ وَفَسَّقَ مُخَالِفَهُ دُونَ مُوَافِقِهِ فِي مَسَائِلِ الآرَاءِ وَالاجْتِهَادَاتِ ؛ وَاسْتَحَلَّ قِتَالَ مُخَالِفِهِ دُونَ مُوَافِقِهِ فَهَؤُلاءِ مِنْ أَهْلِ التَّفَرُّقِ وَالاخْتِلافَاتِ . وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلَ مَنْ فَارَقَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ " الْخَوَارِجُ " الْمَارِقُونَ . (٢)

ورغم الانتقادات الكثيرة التي وجهت إلى دعوة ابن عبد الوهاب في نجد وخارجها إلا أنها استمرت في المملكة العربية السعودية من عام ١٢٤٠ هـ إلى يومنا هذا وكما ظل آل سعود يخلف بعضهم بعضاً في حكم البلاد ظل آل الشيخ (ابن عبد

---

(١) فتاوى الأزهر الشريف موقع وزارة الأوقاف المصرية .
(٢) ابن تيمية " الفتاوى الكبرى " ج ٣ ص ٣٤٩

الوهاب) وعلماء نجد يخلف بعضهم بعضاً يقول الشيخ ابن باز : " آل سعود يخلف بعضهم بعضاً في الإمامة والدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله وهكذا العلماء (من آل الشيخ) يخلف بعضهم بعضاً في الدعوة إلى الله والإرشاد إليه، والتوجيه إلى الحق. "(١)

وكما أن الحكم أصبح وراثيّاً في المملكة العربية السعودية وقاصراً على آل سعود فإن العلم الديني (الرسمي) أصبح وراثيّاً وقاصراً على آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب !

الوهابية في التاريخ المعاصر

إذا كان يمكن التماس بعض العذر لابن عبد الوهاب في بعض ما أفتى به وحكم بسبب الظروف التي كانت عليها بلاد نجد والبيئة البدوية المنغلقة التي عاش فيها فما عذر أتباعه الذين أخذوا بمذهبه وقلدّوه دون مراعاة لاختلاف الزمان والمكان والحال وما أُخذَ على الشيخ من آراء وأفعال بل زادوا ولم يكتفوا بمعاداة مخالفيهم في العقيدة بل أخذوا الناس بالفروع المختلف فيها وألزموهم برأي واحد ومذهب واحد وضيقوا ما وسع الله تعالى عليهم .

فأفتوا بفرضية النقاب واللحية وتقصير الثياب ولزوم المرأة بيتها وحرّموا كشف وجه المرأة وقيادتها السيارة فضلاً عن توليها أي منصب سياسي ، كما حرموا الخروج على الحاكم المستبد وإن جلد ظهرك وأخذ مالك ، وحرموا تحية العلم واعتبروها وثنية ، كذلك الوقوف دقيقة حداداً لقراءة الفاتحة على المتوفى ، وبدء غير المسلم بالسلام وتهنئته في فرح وتعزيته في حزن أو كرب ، كما حرموا حلق اللحية والتصوير وفوائد البنوك والقيمة النقدية لزكاة الفطر وإسبال الإزار ولو في غير كبر والغناء ولو كان النشيد الوطني ، كما حرّموا الاحتفال بأي عيد ما عدا عيدي : الأضحى والفطر حتى وإن كان فيه تذكير بسيرة المصطفى الهادي كالاحتفال بالمولد النبوي ، أو بهجرته المباركة كعيد الهجرة ، أو فيها برٌّ بالوالدين كعيد الأم ، أو حب للوطن وأمجاده كالاحتفال بالأعياد الوطنية ... ولم يقبلوا رأياً مخالفاً ولو كان صادراً من مجمع بحوث إسلامية ، ولو عاش ابن تيمية الذي يتأسون به عصرنا ربما أباح ذلك جميعاً تيسراً على الناس ومراعاة للمصلحة وإدخالاً للسرور على القلوب المتعبة .

---

(١) ابن باز " لإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته" الموقع الرسمي لابن باز .

وقد يسأل سائل إن هذه القضايا يقول بها كثير من سلفية مصر فلماذا ترمي بها الوهابيين وحدهم ؟

والحقيقة إن السلفيين اللا أصوليين الموجودين في مصر وفي غيرها من البلاد العالم إنما هم مقلدون لشيوخهم من الوهابيين وهم يصرحون بذلك ويعتبرون أئمة الوهابية هم سادتهم وعلماؤهم الذين أخذوا عنهم العلم والمنهج إما بالتلقي المباشر بالجلوس إليهم وإما عن طريق كتبهم وأحاديثهم الصوتية أو المصورة .

لقد شغل أتباع الوهابية الناس بإحياء قضايا عفا عليها الزمن وتجاوزها التاريخ أو قضايا خلافية فرعية حاربوا المخالفين لها بكل سلاح وشقوا وحدة الأمة ، وانشغلوا بهذه القضايا عن فقه الواقع ومصلحة العباد وتخلف الأمة عن ركب الحضارة وتردي أحوالها ، واستبداد حكامها ، وانتشار الفساد في أرجائها .

والأعجب من ذلك هو محاولة صبغ آرائهم التي تخالف الواقع الناس ومصلحتهم بالصبغة الشرعية وجعل أهوائهم ديناً وذلك بالتنقيب عن الآراء التي وافق هواهم وإن كانت المصلحة في غيره .

مثل الشيخ الذي كتب عام ٢٠٠٣ م عدة رسائل بعنوان " الدين النصيحة " جعل إحداها عن حكام المسلمين ، وفي الوقت الذي استقر الأمر في سائر بلاد العلم المتقدم على وجوب اختيار الناس لمن يحكمهم ، ومراقبة ما يقوم به ومحاسبته إن أخطأ وعزله إن خرج عما التزم به – في هذا الزمان كتب هذا الشيخ رسالة بعنوان " "التقريع مع التنكيل لمن اعتبر ولاة أمور المسلمين ولاة غير شرعيين " ذكر فيها إجماع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه وثبوت ولايته دون الاستشهاد بأي نص من القرآن الكريم ، ولا من صحيح ، أو حتى ضعيف ، السنة المطهرة ودون مراعاة لاختلاف الزمان والمكان والحال والمصلحة التي صدرت فيها بعض أقوال العالم .

ألم يقرأ هذا الشيخ وشيوخه شيئاً عن الرجل الذي سأل النَّبيّ ﷺ وقد وضع رجله في الغَرْزِ (الرّكاب) : أيُّ الجهادِ أفضلُ ؟ قَالَ : " كَلِمَةُ حَق عِنْدَ سُلْطَانِ جَائِرٍ " رواه النسائي بإسناد صحيح .

وقوله ﷺ " وَالله لَتَأمُرُنَّ بالمَعْرُوف ، ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ ، ولَتَأخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، ولَتَأطِرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ أطْراً ، ولَتَقْصُرُنَّه عَلَى الحَق قَصْراً ، أوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ بقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ " (رواه أَبُو داود والترمذي)

لقد جعل كثير من أتباع الوهابية في العصر الحديث العلماء المجتهدين المخالفين لمذهبهم غرضاً سيلقونهم بألسنة حداد ويشوّهون سيرتهم بل يرمونهم بالابتداع وربما بالكفر أيضاً .

وفي ذلك يقول الشيخ الغزالي : طرق بابي شاب وكان في عينيه بريق يدل على الذكاء، والحماس معاً!

قال: قرأت بعض كتبك،ورأيت أن استكمل معرفتك من أسئلة أوجهها إليك!

قلت له :حسبك سؤال واحد فلدى ما يشغلني..

قال: ما رأيك في "الفوقية" بالنسبة على الله تعالى؟!

ومع تعودي لقاء شباب كثير من هذا الصنف إلا أن السؤال فاجأني .. تريثت قليلا ثم شرعت أتكلم: لا أدرى كيف أجيبك ؟

أنا مع أهل الإسلام كلهم أسبح باسم ربى الأعلى! وبين الحين والحين يطوف بي من إجلال وإعظامه ما أظنني به واحداً من الذين قيل فيهم{ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } (النمل:٥٠)

تسألني عن هذه الفوقية ؟ لا أدري ! .. وعلى أية حال فالخالق الأعلى له فوقية تقهر الخلائق جميعاً، وتستعلي وتستعلن على الجن والإنس والملائكة وسائر الموجودات ...

ذاك ما أعرف،ولا أحب إفساد النظم القرآني الكريم بتعاريف ما أنزل الله بها من سلطان.

قال الشاب: ألم تقرأ العقيدة الطحاوية ؟ قلت: أوصى المسلمين أن يقرءوا القرآن،وألا يعملوا عقولهم في اكتناه المغيبات التي يستحيل أدراك كنهها ، كذلك فعل سلفهم الصالح فأفلح..

قال الشاب : وكتابك عقيدة المسلم ؟ قلت قررت فيه ما سمعت الآن!..

قال : إنه يتجه مع مذهب السلف ولكنك تبعت في ترتيب العقائد منهج أبى الحسن الأشعري وهو مؤول منحرف..قلت :رحم الله أبا الحسن وابن تيمية! كلاهما خدم الإسلام جهده،وغفر الله لهما ما يمكن أن يكون قد وقع في كلامهم من خطأ.

اسمع يا بني لماذا تحيون الخصومات العلمية القديمة ؟ كانت هذه الخصومات- ودولة الإسلام ممدودة السلطة –خفيفة الضرر،إنكم اليوم تجددونها ودولة الإسلام ضعيفة،بل لا دولة له،فلم تعيدونها جذعة،وتسكبون عليها من النفط ما يزيدها ضراما ؟

وجهوا الأمة إلى كتاب ربها وسنة نبيها واشغلوهم بما اشتغل به سلفنا الأول،اشتغل بالجهاد في سبيل الله فاعتز وساد ! مع ملاحظة أنهم كانوا يحررون غيرهم أما نحن فمكلفون بتحرير أنفسنا.

قال الشاب وهو يتململ حسبناك من السلف !! قلت : أن الانتماء إلى السلف شرف أتقاصر دونه وفي الوقت نفسه أحرص عليه لقد جئت تسألني عن قضية لو سُئِل عنها الأصحاب رضي الله عنهم لسكتوا.... وأغلب الظن أنك تود لو تعثرت في الإجابة حتى تتخذني غرضاً ،أنت ومن وراءك ،فلتعلم أن طهر النفس أرجح عند الله من إدراك الصواب!...

ليس سلفيّاً من يجهل دعائم الإصلاح الخلقي والاجتماعي والسياسي كما جاء بها الإسلام وأعلى رايتها السلف،ثم يجرى هنا وهناك مذكياً الخلاف في قضايا تجاوزها العصر الحاضر،ورأى الخوض فيها مضيعة للوقت فيها....

أما كان حسبنا منهج القرآن العزيز في تعليم العقائد؟

في تعريف الناس بربهم نسمع قوله تعالى:{ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} والاستجابة الفطرية لدى سماع هذه الآية أن نقول: عرفنا ربنا وما ينبغي له من نعوت الكمال.

ويقول تعالى{ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. } والاستجابة الطبيعية لدى تلقى هذا الأمر أن نقول سمعاً وطاعةً، علمنا أن الله واحد، ونستغفره من تقصيرنا في الوفاء بحقوقه..

ثم تتجه بعد ذلك جهود المربين والموجهين إلى تنمية الإيمان النابت في مغارسه الصحيحة حتى يتحول من معرفة نظرية إلى خشية وتقوى وحياء وخشوع ، ولا نزال ننميه كما فعل سلفنا الصالح حتى يفعم المؤمن بمشاعر التمجيد فيقول كما علمه الرسول الكريم: " يا ربى لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك!" فإذا واجه الموت في سلام أو حرب لم يجزع بل قال "غدا ألقى الأحبة محمد وحزبه "كما هتف بذلك بلال رضي الله عنه.

أما جعل الإيمان قضايا جدلية فهذا هو الموت الأدبي والمادي . ولو أن سلفنا مضى مع تيار الجدل ما فتح الإسلام بلدا ، ولا شرح بالإيمان صدراً .

إن منهج القرآن الكريم في إنشاء العقائد وإنضاجها خفيف رقيق أخف من الهواء وأرق من الماء،أما بعض الكتب التي تعرض العقائد في كثير من الإعصار والأقطار فعلى نقيض ذلك ، وقد ألفت كتابي "عقيدة المسلم " وأنا متشبع بهذه

الأفكار،وأحسب أن الله نفع به كثيراً .. على أن هناك أموراً يقحم فيها السلف إقحاماً،ولا علاقة لهم بها،فما دخل السلف في فقه الفروع واختلاف الأئمة فيه؟

ومن الذي يزعم أن ابن حنبل هو ممثل السلفية في ذلكم الميدان،وأن أبا حنيفة ومالكاً والشافعي ،جاروا على الطريق ،وأمسوا من الخلف لا من السلف؟

إن هذا تفكير صبياني..وبعض من سموا بالحنابلة الذين حكى تاريخ بغداد أنهم كانوا يطاردون الشافعية لحرصهم على صلاة القنوت في صلاة الفجر هم فريق من الهمل لا وزن لهم..

وأنا موقن بأن الإمام أحمد نفسه لو رآهم لأنكر عليهم وذم عملهم.... التبعة ليست على رعاع يمزقون شمل الأمة بتعصبهم ،وإنما تقع التبعة على علماء يعرفون أن الرسول ﷺ حكم بأن للمجتهد أجرين إذا أصاب، وأجرا إذا أخطأ.

ولو فرضنا جدلاً أن الحق مع الحنابلة والأحناف في أنه لا قنوت في الفجر فمن الذي يحرم مالكاً والشافعي أجر المجتهد المخطئ.

وإذا كان من يخالفنا في الأجر مأجورا فلم نسبه ونحرجه ونضيق عليه الخناق؟

المشكلة التي نطلب من أولى الألباب حلها هي معالجة نفر من الناس يرون الحق حكراً عليهم وحدهم، وينظرون إلى الآخرين نظرة انتقاص واستباحة! الواقع أن الأمراض النفسية عند هؤلاء المتعصبين للفرعيات تسيطر على مسالكهم وهم-باسم الدين-ينفسون عن دنايا خفية! وعندما يشتغل بالفتوى جزار فلن تراه أبداً إلا باحثا عن ضحية!!

وقريب من ذلك ما أقصه على ضيق وتردد! إن البعض ينكر المجاز،أو يستهجن القول به ويغمز إيمان الجانحين إليه .

أن العلماء يفهمون النصوص على ضوء اللغة العربية،وما نقل النصوص على ضوء اللغة العربية ، وما نقل إلينا من تراكيبها ،وقدرة الله فوق الظن والتهم ! أن العرب الأقدمين أجروا على ألسنة الجماد والحيوان كلاما ما نعلم نحن أنه ليس على ظاهره، وقد ذكرت في مكان آخر المثل العربي" قال الجدار للوتد لم تشقني ،قال: سل من يدقني" وجاء مثل آخر على لسان الثور المخدوع :"أكلت يوم أكل الثور الأبيض" والجدار ما تكلم! والثور ما نطق.. ثم قلت يائساً: ومع ذلك فإذا كنت ترى

أن الجدار نطق والثور تكلم فلك مذهبك، ولا دخل للسلف أو الخلف في الموضوع كله.

وعاد الشاب يقول: هل في القرآن مجاز؟

وكتمت الغيظ الذي يغلي في دمي ،وقلت: ما لاكه بعض العلماء في القرون الوسطى، ثم انتهوا منه وانتهى أهله، تريدون اليوم إحياءه وشغل الناس به؟ مرة حديث الفوقية،ومرة حديث المجاز؟

حدثني عن هذه الآيات { إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالا فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا } (يس: ٨ ، ٩)

ترى هذه السدود هي السد العالي أو سد الفرات؟ وهل الأغلال هنا هي القيود والتي توضع في أيدي المجاهدين..أم هناك مجازاً في القرآن الكريم..؟

إن هذا الشاب وأمثاله معذورون،والوزر يقع على من يوجههم،لأنه لا يفقه أزمات الحياة المعاصرة،ولا يرتفع إلى مستوى الأحداث،ولا يحس آلام أمته ،ولا يخطر بباله ما يبيت للأمة الإسلامية ودينها العظيم من مؤامرات.

إننا نريد ثقافة تجمع ولا تفرق،وترحم المخطئ ولا تتربص به المهالك، وتقصد إلى الموضوع ولا تتهارش على الشكل .

لا أدري لماذا لا نؤثر العمل الصامت المنتج بدل ذلك الجدل العقيم .. [١]

جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

في كل بلاد العالم الشرطة هي المسئولة عن الأمن الداخلي وهي المنوط بها الحفاظ على أرواح الناس وممتلكاتهم العامة والخاصة ، وضبط المتهمين وتقديمهم للمحكمة لأخذ جزائهم ومن أهم واجبات جهاز الشرطة :

١- منع الجريمة قبل وقوعها.
٢- إجراء التحقيقات اللازمة للكشف عن مرتكبي الجرائم في حال وقوعها.
٣- إحالة المجرمين بعد انتهاء التحقيق إلى النيابة العامة.
٤- ملاحقة تجار المخدرات ومتعاطيها والمروجين لها.
٥- تسهيل حركة السير في الشوارع والمفترقات التي لا يوجد بها إشارات ضوئية.

---

(١) محمد الغزالي " هموم داعية " دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع ص ١٤- ٢٠ بتصرف

٦- الإشراف على مراكز التأهيل والإصلاح (السجون) .

٧- فض الشغب والمشاجرات.

لكن في السعودية ، دون سائر بلاد العالم ، هناك هيئة تسمى " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " وهي هيئة رسمية مكلفة بتطبيق نظام الحسبة المستوحى من الشريعة الإسلامية. كما توصف من قبل بعض وسائل الإعلام بـ " الشرطة الدينية " أو "رجال الهيئة" وأحياناً "الهيئة" فقط للاختصار.

يبلغ تعداد أفراد الهيئة في المملكة العربية السعودية حوالي ٤٠٠٠ رجل وأسست عام١٩٤٠ م.

تنص هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أن مهمتها "تطبيق الشريعة الإسلامية في الأسواق العامة وغير ذلك من الأماكن العامة ، ومكافحة آفة السحر والشعوذة عن المجتمع فقد قامت الرئاسة بعدة أعمال للقضاء على هذه الآفة الخطيرة التي تهدم الدين والعقيدة كما يقوم الأعضاء الميدانيون في الهيئة بجهود نافعة في المجتمع ومحققة للطمأنينة العامة والاستقرار وتتمثل تلك الجهود في عدة مجالات، حيث يقوم الأعضاء بالتواجد في أماكن التجمعات العامة وحث الناس على المسارعة إلى تلبية النداء، والصلاة جماعة بالمسجد، والتأكد من غلق المحلات، ومغادرة الناس لها، وتوقف البيع والشراء أثناء إقامة الصلاة، وأمر الناس بالحكمة والحسنى ودعوتهم إلى الخير والمساهمة في المحافظة على الأخلاق والقيم الإسلامية والآداب . (١)

وفي تاريخ ١٦-٩-١٤٠٠هـ صدر مرسوم ملكي من الملك خالد باعتماد نظام هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الانتقادات التي توجه للهيئة

تنتقد الهيئة بأنها تنتهك حقوق الإنسان كما اتهمت الهيئة بالتسبب في زيادة عدد الوفيات في حادثة حريق مدرسة البنات في مكة ٢٠٠٢م عندما قاموا بطرد أولياء الأمور والحريق مشتعل في المدرسة وإغلاق الباب على البنات أثناء الحريق وذلك لأنهنّ "لا يرتدين الحجاب" !! و اتهم أفراد الهيئة بمنع رجال الإطفاء والإسعاف من الدخول إلى المدرسة لأنه "لا يجوز للفتيات أن ينكشفن أمام غرباء" كونهم ليسوا من المحارم !! و كانت النتيجة زيادة الضحايا مما زاد الانتقاد ضدهم .

---

(١) الصحيفة الالكترونية " الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر "

وفي وثيقة أمريكية سربت من قبل الويكيليكس أظهرت أنه تقام حفلات في مدينة جدة في بيوت أمراء من آل سعود ويتمتع الحاضرون بها بالخمور والمخدرات والزنا وان أتباع الهيئة يخشون التدخل لأن حضور هذه الحفلات هم من أو لهم علاقة بالعائلة المالكة . (١)

وتلقى هذه الهيئة كامل الرعاية من ملوك المملكة لأنها إلى جانب عملها المعلن وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعمل على استتباب الحكم لملك البلاد مهما كان بالقبض على المعارضين ومعاقبتهم .

يقول الرئيس العام لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الشيخ عبد العزيز بن حمّين الحميّن: " لقد تتابع قادة هذه البلاد من لدن جلالة الملك المؤسس –طيب الله ثراه– وحتى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز على خدمة شعائر الدين باذلين في ذلك كل الوسع والطاقة استجابة لأمر الله وابتغاءً لما عنده ، وأضاف: لقد حظيت شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالعناية والرعاية اللازمين من لدن القيادة الرشيدة بما لم يشهد له مماثل ونحن اليوم في الرئاسة العامة نلقى كامل الدعم والتأييد من لدن ولاة الأمر ونسعى لخدمة ديننا ووطننا وتحقيق تطلعات خادم الحرمين الشريفين وفقه الله في هذا الجهاز المبارك ولتحقيق خيرية المجتمع السعودي . (٢)

وهكذا يقول المسئول عن هذه الهيئة أنهم ينعمون بالدعم الكمال والتأييد من لدن خادم الحرمين لتحقيق تطلعاته !!

ويصرح المسئولون عن هذه الهيئة عن مهامها فيقولون إنها مسئولة عن حماية العقيدة ، وإلزام الناس بإغلاق محالهم والصلاة في المسجد والمساهمة في المحافظة على الأخلاق والقيم الإسلامية والآداب "

ونحن لم نسمع في عهد السلف الصالح حاكماً يلزم الناس بمذهبه الديني حتى عصر المأمون الذي ابتدع هذا البدعة السيئة وحمل الناس بالقوة على اعتناق مذهب المعتزلة ، وتحت مسمى حماية العقيدة يمكن أن يفعل بالمواطنين أو العمال الأجانب أو المسافرين لأداء الحج أو العمرة أي شيء فضلاً عن المعارضين والتهمة جاهزة

---

(١) ويكيبيديا الموسوعة الحرة " هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "

(٢) الصحيفة الالكترونية " الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر "

لا تحتاج لدليل وهو المخالفة للعقيدة أو الأخلاق والقيم الإسلامية والمدعي في القضية هو الخصم والحكم في آنٍ واحد ، وكم من الحرمات انتهكت من جراء بعض أفراد هذه الهيئة .

وهيئة الأمر بالمعروف تجمع بين أمرين يجب الفصل بينهما ، تجمع بين عمل الشرطة ، وعمل الدعاة ، ولكلٍ له قانونه الذي يحكمه وينبغي عدم الخلط بين الأمرين في الدول الحديثة .

فالشرطة لها قانون يحكمها وتسير وفقه وإن خالفت حوكمت ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له قانون يضبطه .

أما أن يترك الأمر بلا ضابط ولا قانونٍ إلا هوى الشخص فهذا مما يترتب عليه مفاسد كثيرة كما حدث في مصر مؤخراً من قيام بعض السلفيين بهدم بعض الأضرحة ، وقتل شاب كان بصحبة خطيبته

من المكلف بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟

إن جميع المسلمين مكلفون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفى هذا يقول تعالى { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ } (آل عمران : ١١٠) لكن الناس متفاوتون في معرفتهم بأمور الدين فكيف يطالب بالقيام به كل الناس ؟

إن هناك أموراً في الدين لا يجهلها مسلم تسمى معلوم من الدين بالضرورة كمعرفة أن الصلاة فريضة وأن الخمر محرمة وأن الحج يكون إلى بيت الله الحرام في أشهر معلومات وهذه الأمور يمكن أن يدعو الناس جميعاً إليها فإذا كان هناك إنسان لا يصلى بغير عذر فهل يحتاج هذا الإنسان إلى عالم من علماء الدين ليقول له صل ؟ بالطبع لا ، إنما هذا واجب على كل مسلم له به علاقة ، وإذا كان إنسان يكذب فهل يحتاج إلى عالم دين ليقول له أن الكذب الحرام ؟ بالطبع لا ، إنما يمكن أن ينصحه بترك الكذب أي مسلم ، أما الأمور الخلافية والمباحث العلمية فلا يجب أن يتصدى للإفتاء فيها إلا العلماء وإذا اختلفوا فعلى الإنسان أن يستفتي قبله ويأخذ بما يهديه إليه من آراء العلماء كما علمنا النبي ﷺ .

" اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ " (رواه أحمد والدارمي)

لكن يجب أن يراعى المسلم أموراً مهمة حال دعوته غيره منها :

١- أن تكون هذه الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .
٢- أن يتخير المكان والزمان المناسبين للدعوة .
٣- أن يكون من الملتزمين بما يدعو غيره له .
٤- ألا يتعدى حدود علمه فيتكلم في الدين بغير علم .

لكن الذي يحدث أن الواعظ يبدأ بالأمور العامة ثم ينسى قدره ويغتر بعلمه فيخوض في الحديث فيما لا علم له به ويفتى الناس ويترك مجال المعلوم من الدين بالضرورة إلى الإفتاء فى دقائق الأمور والذي يغريه بذلك إقبال الناس عليه وتجمعهم حوله فيتوهم فى نفسه العلم ومن كثرة ثناء الناس عليه يسيطر عليه إحساس بأنه أصبح عالما ويقول للناس استفتوني أفتكم وهنا يكون البلاء وتحدث الكارثة ، ويدلى بدلوه في أمور الدين والدنيا والسياسة والحرب والسلام والاقتصاد وهذه آفة كل الوعاظ والدعاة ولم يسلم منهم إلا القليل النادر الذي اكتفى بالأمر بما هو معلوم من الدين بالضرورة .

وعامة الناس لا تستطيع التفرقة بين الواعظ والعالم فكلاهما يتكلم في الدين وكلاهما يستشهد بالقرآن والحديث الشريف وربما يكون الواعظ أكثر مصداقية من العالم بما يلتزم به من مظاهر الدين كإرسال اللحية ولبس الجلباب الأبيض ، كما أن الناس – ويا للعجب – يؤثر فيهم من يخرج على الحاكم وينتقد المسئولين فيظنون أنه لا يخشى في الله لومة لائم حبذا لو قبض عليه رجال أمن الدولة عدة مرات فإنه يصبح – في نظر العامة – من العلماء الكبار المشهورين الذين تخشى الدولة على نفسها من أقوالهم !!

أما الدعوة الخاصة والإفتاء في المسائل الدقيقة فتكون لعلماء الدين الكبار الذين شهد لهم العلماء بالعلم إذ ليس من قال الناس أنه عالم صار عالما إذ أن العامة لا يحكمون على العلماء إنما الذي يحكم على العلماء أكابرهم لكن الآفة أن من تجمع حوله بعض العامة يظن نفسه عالما بغض النظر عن قول العلماء فيه ، وهذا لا يحدث إلا فى مجال الدعوة – وهو أخطر مجال – فإن من يحصل على أي شهادة علمية إنما الذي يمنحه إياها هم أساتذته ومعلموه وليس طلابه ومريدوه . ومع تعدد أمور الحياة وكثرة المستحدثات فإن أمر الفتوى لا يجب أن يترك حتى لآحاد العلماء إنما يجب ألا يناط بالأمور الدقيقة المؤثرة في حياة الناس إلا المجالس العلمية المتخصصة فقضايا مثل : إيداع الأموال في البنوك ، والتأمين على الحياة ،

والتبرع بأعضاء الجسم ، والعمليات الفدائية في البلاد المحتلة ضد المدنيين ، وغيرها من الأمور التي يجب أن تدرس من كافة جوانبها ويناقشها كبار العلماء في مجامع للبحوث الإسلامية كالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ودار الإفتاء ، ويجب أن يتم الاتفاق على ما يفتى به الناس خاصة في مواضيع ذات تأثير بالغ على حياة الفرد والمجتمع وأن يلتزم العلماء بقرار اللجان المختصة ، وخيرا فعل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بجمع فتاوى الأزهر الشريف في مائة عام على اسطوانة ليزر ، وبسر طريقة البحث فيها ، وأنا شخصياً أراحتني هذه الفتاوى من الجدل العقيم فما يكاد يبدأ جدل حول قضية من القضايا الخلافية حتى أسارع بطبع نص فتوى الأزهر الشريف في هذه القضية لحسم الخلاف .

كيفية تغيير المنكر

وللأسف أنه شاع بين العالمين اليوم أن الإسلام دين الإرهاب وأن كلمة الإرهابيين مرادفة لكلمة مسلمين ويرجع ذلك لأمرين هما :

أولا : فهم بعض المسلمين الخاطئ للإسلام وأنه يجب استخدام القوة مع المخالفين لهم في الرأي من المسلمين وغيرهم وأن تغيير المنكر باليد على أية حالة هو أسمى درجات الإيمان . وهذا فهم منكر مردود على صاحبه وهاك الحديث الذين يحتج به المتطرفون ليبرروا أعمالهم التخريبية وأفعالهم الآثمة .

روى الأئمة عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) (رواه وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة)

والحديث حجة على هؤلاء المتطرفين وإليك بيان المقصود بالحديث الشريف " من رأى " ومعناه وجوب التثبت من حقيقة المراد تغيره وعدم أخذ الناس بالظن واتهامهم بغير دليل مصداقا لقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } (الحجرات : ٦) لذا استخدم النبي الفعل " رأى " الذي يدل على تمام اليقين ولم يقل سمع أو قيل له أو ظن ، وكثير من أولئك المتطرفين لا يتحرون الدقة فيما يقومون به من عنف وإرهاب فقد حاول رجل ، يعمل سماكاً ، أن يقتل الروائي نجيب محفوظ ولما سئل لماذا أردت قتله ؟

- قال لأنه كافر وكتاباته كلها كفر .

- وهل قرأت لنجيب محفوظ ما جعلك تحكم بكفره ؟

- لا .. لم أقرأ !!

وأكتُشِف أنه جاهل لا يقرأ وإنما أفتى له أمير الجماعة بقتل محفوظ لأنه كافر فقام هو بتنفيذ الحكم دون تثبت من التهمة !! والذين قتلوا السياح الأجانب في الأقصر ، والمواطنين المسيحيين قيل لهم - دون بينة - إنهم كفار مستباحو الدم والمال فقاموا بتنفيذ جرائمهم المنكرة !!

إذن لا بد من التيقن بالدليل القاطع من وقوع المنكر ، ومواجهة صاحب المنكر بتهمته وبيان وجه الحق له - بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن - فربما كان جاهلاً بحقيقة الشرع وأن ما عمله كان عن جهل وليس عن قصد .

نأتي الآن لبيان المقصود بكلمة " منكر " التي وردت في الحديث المنكر هو ما أنكره الشرع بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة وأجمع العلماء على حرمته فإن كان النص ظني الثبوت والدلالة واختلف العلماء فيه فلا يعد منكراً إن صح عن بعض العلماء إباحته .

كما يقو علماء الأصول : " إنما ينكر المتفق عليه ، ولا ينكر المختلف فيه "

ففي اختلاف العلماء رحمة لكن المتطرفين يفهمون المنكر على غير هذا ، فالمنكر عندهم هو ما يراه هو منكراً ، وإن خالف رأيه رأى العلماء - أو بعضهم - كتحريمهم حلق اللحية وفرضية النقاب ...

نأتي إلى قوله ﷺ " فليغيره بيده " يظن المتطرفون أن التغير باليد حق لكل إنسان ومقياس قوة الإيمان فعلى قدر إيمانك يكون تغيرك للمنكر فإن كان إيمانك كبير - أمثالهم !! - فعليك أن تغير ما تراه منكرا بالقوة و إلا كنت ضعيف الإيمان وبهذا الفهم المغلوط راحوا يسفكون دماء الأبرياء من المسلمين وغير المسلمين !! مع أن المطالب بتغير المنكر باليد - بعد التحقق من كونه منكرا شرعا و إقامة الدليل عليه ومراجعة صاحبه واستتابته - هم أولياء الأمور وليس العامة بل وليس علماء الدين أيضا و إلا عمت الفوضى وانتشر الفساد وكثرت الفتن كما حدث فيما خلا من سنوات لا أعادها الله علينا ثانية .

فإن كان الإنسان الذي رأى المنكر من غير أولى الأمر فليس من حقه تغير المنكر بالقوة إنما عليه تبليغ أولى الأمر بما رأى ليأخذوا تدابيرهم فإن تقاعسوا عن

أداء واجبهم فهم المسئولون أمام الله يوم القيامة ، فإن استطاع أن يقدم لمن ارتكب المنكر نصيحة تبين له خطأ ما يفعل فعل ، وإلا فعليه أن يستنكر هذا المنكر ويبرأ لله منه .

ولنضرب لذلك مثالا لتوضيح الأمر .

إذا رأى رجل ابنته البالغ تلبس ما يكشف عورتها أو يجسمها أو يشف عنها فإن عليه والحالة هذه أن يمنعها بالقوة[1] من الخروج على الناس بهذه الملابس الفاضحة فهو والحالة هذه ولى أمرها ، فإذا جاءت صديقة ابنته وكانت ترتدي نفس الملابس فإن عليه أن ينصحها بالحكمة والموعظة الحسنة إذ ليس له عليها سلطان ، فإن خرج إلى الطريق ورأى فتاة ترتدي نفس الملابس الفاضحة غض بصره واستنكر بقلبه ما رأى .

فالإنسان قد يكون في موقف مغيرا للمنكر بالقوة وموقف آخر باللسان وثالث بالقلب .

ونأتي إلى معرفة المقصود بـ" أضعف الإيمان " المذكورة في الحديث فإن معناها أقل درجات التغيير وليس معناها أن من يغير بقلبه ضعيف الإيمان – إن كان لا يملك سلطة التغيير باليد أو اللسان – فضعف الإيمان معناه أقل ثمرة كما قال العلماء " (أضعف الإيمان) أضعف أعمال الإيمان المتعلقة بإنكار المنكر في ذاته لا بالنظر إلى غير المستطيع ، فإنه بالنظر إليه هو تمام الوسع والطاقة وليس عليه غيره " [2] .

ونأتي بعد هذا البيان إلى رأى علماء الدين في شرح الحديث يقول الإمام القرطبي : " قال العلماء: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء ، وباللسان على العلماء ، وبالقلب على الضعفاء ، يعنى عوام الناس " [3]

ويقول القاضى عياض : في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر " يستحب أن يكون متولي ذلك من أهل الصلاح والفضل لهذا المعنى ، ويغلظ على المتمادي في

---

(١) بعدما يكون قد استنفد جهده فى تربيتها على شرع الله بالحكمة والموعظة الحسنة .
(٢) الإمام السندى " حاشية السندى على النسائى " فى شرح الحديث .
(٣) " تفسير القرطبى " لقوله تعالى {إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم }

غيه والمسرف في بطالته إذا أمن أن يؤثر إغلاظه منكراً أشد ما غيره ، لكون جانبه محمياً عن سطوة الظالم ، فإن غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكراً أشد منه من قتله أو قتل غيره بسبب كف يده واقتصر على القول باللسان والوعظ والتخويف ، فإن خاف أن يسبب قوله مثل ذلك غير بقلبه وكان في سعة ، وهذا هو المراد بالحديث إن شاء الله تعالى، وإن وجد من يستعين به على ذلك استعان ما لم يؤد ذلك إلى إظهار سلاح وحرب، وليرفع ذلك إلى من له الأمر إن كان المنكر من غيره ، أو يقتصر على تغييره بقلبه، هذا هو فقه المسألة وصواب العمل فيها عند العلماء والمحققين، خلافا لمن رأى الإنكار بالتصريح بكل حال وإن قتل ونيل منه كل أذى " (١)

***

(١) الإمام النووى " صحيح مسلم بشرح النووى "باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان .

الفصل الرابع

السلفية النهضوية الدعوية

ظهرت الدعوة السلفية النهضوية بشكل مختلف - في جوانب متعددة عن السلفية الوهابية ، من خلال رواد كبار مثل: جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبي ، ومحمد رشيد رضا، وغيرهم. وقد انتشرت هذه الدعوة في سائر البلاد العربية ، وكثير من البلاد الإسلامية كتركيا ، وأندونيسيا ، وأفغانستان وإيران ، ومسلمي الهند ... ، ومستشرقي الغرب .

ولاقت هذه الدعوة رضى واستحسان كثير من الناس الذين أتيح لهم الاطلاع على علوم الغرب الحديثة ومذاهبه الجديدة كما لاقت صدوداً واستهجاناً من المقلدين أعداء كل جديد .

امتازت السلفية النهضوية بأنها ولدت في آتون معمعة الصراع الحضاري والثقافي مع الغرب المستعمر مما أعطاها حافزاً ودافعاً كبيراً للتجديد في ميادين الدين والسياسة والاجتماع والمعرفة والفكر والثقافة.

عصر النهضة الأوربي

كان النصف الأخير من القرن التاسع عشر في القارة الأوربية امتداداً لعصر الكشوف العلمية والنزعة الفكرية إلى التمرد على القديم ، وكان حقبة عامرة بأسباب القلق والاندفاع إلى المجهول حيثما وجد الطريق ، تمخضت عن أخطر مذاهب الفكر والأخلاق وأدعاها إلى الثورة والانقلاب ، ولا نطيل في شرح المذاهب الخاصة بتلك الحقبة فإننا نطوي الكف على خمسة فلا نستكثر بعدها أن يحدث في بقية القرن التاسع عشر كل ما حدث فيها من عظائم الأمور وعوامل الحركة والانقلاب .

ففي القرن التاسع عشر شاع مذهب دارون عن التطور وتنازع البقاء ، ومذهب كارل ماركس عن رأس المال ، ومذهب نيتشه عن " السوبر مان " أو الإنسان

الأعلى ، ومذهب المدرسة الطبيعية عن حرية الفن والأدب ، ومذهب الديمقراطية عن الحكومة الشعبية ، وكل مذهب منها لا يستقر حيث ظهر على حال من الأحوال الجمود والرضى عن التسليم والاستسلام .

وصلت فتوح العلم إلى السوق والطريق ، بل وصلت إلى الجهلاء الأميين أهول وأضخم من صورتها التي وصلت بها إلى العلماء الدارسين .

سمعوا عن الجراموفون " الحاكي " فقالوا إن الإنسان ينطق الجماد .

وسمعوا عن البرق بأسلاكه وغير أسلاكه فجدد لهم خبر المردة والمسخرين في نقل الأسرار بين السماء والأرض ، وبين المشرقين والمغربين .

وسمعوا صوت الهاتف بعد أن شهدوا الصورة التي يرسمها لهم شعاع الشمس فكادوا يلحقونها بالخوارق والمعجزات .

وكبرت في أيامهم مخترعات الأمس ، فأصبحت الطبعة والباخرة والبندقية أشباحاً تطاول المردة بعد أن كانت في الحقبة الغابرة ألاعيب أطفال .

كذلك كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر في ميدان الفكر والصناعة .

أما ميدان العمل والحياة العامة فمجمل ما يقال فيه تلخص في كلمتين تترددان بلسان المقال أو الحال وهما : الحرية وحق الأمة .

ففي البلاد الإنجليزية كان سلطان الملوك يتقيد ويتبعه سلطان السادة النبلاء إلى القيد ، ولم تهدأ فيها المطالبة بالمشاركة في الحكومة بين أصحاب الأموال وجماعات العمال ، فكان العقد الثاني بعد منتصف القرن فاتحة العهد الذي برز فيه الأحرار وتمهدت فيه السبيل لطوائف العمال .

وفي البلاد الفرنسية قضت حرب السبعين على الإمبراطورية وتحولت بالحكم على النظام الجمهوري على أساس المبادئ التي أعلنتها الثورة وتجاوبت معها أصداء العالم وهي مبادئ الحرية والإخاء والمساواة .

وفي البلاد الألمانية ظفرت القومية بالوحدة التي كانت تنشدها ، واجتمعت الولايات التي كانت موطن المغيرين من الشمال والجنوب ، ومن الشرق والغرب ، فأصبحت قوة القارة التي يخشاها المغيرون .

وفي البلاد الإيطالية تجمعت تلك المتفرقات من قضايا العصر كله ، ومنها قضية الاستقلال ، وقضية الوحدة ، وقضية السلطة الدينية ، وقضية الحكومة الشعبية ، فكانت – وهي تضطرب بجميع هذه القضايا – كأنها الحلقة الوسطى بين الشرق

والغرب . وبين القارة الغالبة والقارات التي تشكو الغلبة عليها . فثارت إيطاليا قبل منتصف القرن تسترد الحرية من الدول الثلاث التي تنازعتها وهي النمسا ، وفرنسا، وأسبانيا .

وعند منتصف القرن ثارت على أمرائها الذين تنازعوها وفرقوا أرضها وأبناءها وجمعت شمالها في ظل رايتها الموحدة على أرضها . وفصلت الوطنية الإيطالية في قضية السلطة الدينية كما فصلت في قضية الملك والدولة ، ثم فصلت في قضية الحكم فأقامتها على قواعد النيابة الشعبية ، ولم ينقض القرن حتى دخلت في سباق الاستعمار طامعة في أسلاب غيرها .

هذه نبذة مختصرة عن حركات الغرب في النصف الأخير من القرن التاسع عشر أوجزنا فيها القول عن أمم أربع من أممها التي سرت أخبارها وأخبار قضاياها إلى الشرق العربي وبلاد الدولة العثمانية ، وهي على تفاوتها في كل ظاهرة من ظواهر السياسة والثقافة تشترك في خصلة واحدة لا تغيب عن واحدة منها في خبر من أخبارها وهي المطالبة بالحقوق والحريات .

فإذا كانت قارة الاستعمار قد حصرت خطتها حيال الشرق في سياسة واحدة تريدها وتتعمدها لتقهره وتتغلب عليه ، فهناك سياسة أخرى لم تردها ولم تتعمدها تلقاها الشرق منها فهبَّ لمقاومتها وتيقظ لمطامعها ونزل معها في ميدانها الذي استفزته له باختيارها وبغير اختيارها .

في القارة الأوربية حكم التاريخ حكمه بعد النزاع القائم بين السلطة الدينية والسلطة السياسية ، فوهم العلماء في مطلع الثقافة الحديثة أن هذه الثقافة حرب بين العلم والدين ، فلما انتقلت ثقافة الغرب إلى الشرق تلقاها المسيحي في المدارس من رجال دينه ، وتلقاها المسلم مستجيباً لنداء " العودة إلى الدين " على كل لسان يُسْمع منه الوعظ وقبل منه الإرشاد ، فقد وقر في العقول أن المسلمين هجروا دينهم فحاق بهم بلاء الذل والضياع .

واتفق الجامدون منهم على القديم والمتطلعون إلى الجديد على هذا النداء ، فلا خلاف بينهم إلا على الرجوع كيف يكون ؟

وربما قال الجامدون قبل المجددين إن الأوربيين عملوا بالإسلام فأعدوا العدة ونظروا إلى حكمة الله في خلقه فتقدموا وتأخر المسلمون .

وتباعدت الشقة بين المحافظين أنصار النص والحرف ، وبين المجددين أنصار المعنى والقياس فاختلفوا على الكثير ، ولكنهم مع اختلافهم هذا لم يتفقوا على شيء كما اتفقوا على حرب الخرافة وعقائد الجهل والشعوذة الدخيلة على الدين ، فحاربها المحافظون الحرفيون لأنها بدع مستعارة من بقايا الوثنية ، وحاربها المجددون لأنها سخافات وأباطيل ينقضها العلم الحديث ، وتراجعت هذه السخافات والأباطيل إلى غيابة الجهل لا تجترئ على التقدم إلى صفوف القيادة المسموعة بين أنصار القديم ولا بين أنصار الجديد .

كانت هذه الظاهرة النادرة إحدى حسنات التوفيق في صدر الدعوة إلى الإصلاح ، وتلك ولا ريب إحدى العوامل القوية التي جعلت دعوة الإصلاح مهمة روحية وثقافية ، وجعلت رجلاً كالسيد جمال الدين الأفغاني داعياً مسموعاً حيثما حلّ في قطر من أقطار الشرق بين المسلمين العرب والفرس والهنود ، وبين العرب المسلمين وغير المسلمين . (١)

بداية عصر النهضة المصرية

إن الشرق لم يكن سريع الخطى في انتقاله من دور الجمود إلى دور الخلاص ، لأنه قضى نحو قرن كامل يجاذب بعضه بعضاً عن الطريق القويم بين من يحسبون أن الخلاص كله في اتباع الجديد على علاّته ومن يحسبون أن هذا الخلاص مطلب بعيد المنال علينا إذا نحن لم ننبذ الجديد بقضّه وقضيضه .

وفي مصر كانت حملة نابليون هي الصدمة التي خصتها بدروسها العاجلة ، وكانت دروساً محتومة لا تمهل المتعلم أن يتردد بين الجمود والحركة ، ونابليون لم يزحف على المماليك بجيش واحد بل بجيشين : جيش يحمل السلاح ، وجيش آخر من جماعة العلوم والفنون يحمل الكتب والأوراق .

وربما كان من بواعث إحياء الثقة بعد موتها ، ومن بواعث الإقبال على هذه العلوم الغربية بعد نفور منها والإعراض عنها ، أن أذكياء البلد فهموا أنها "بضاعتنا رُدَّت إلينا" وأن الفرنسيين إنما أخذوا من علومنا في الشرق ما أهملناه وضيَّعناه فبلغوا به من القوة حديثاً مثل ما بلغناه قديماً ، ولا يزالون يبحثون عن المزيد

---

(١) لمزيد من التفصيل حول سمات عصر النهضة الأوربية ، الرجوع إلى عباس محمد العقاد " عبد الرحمن الكواكبي "مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ،فصل " العصر".

ليبلغوا فوق ما بلغوا ، وقد فارقت الحملة الفرنسية مصر ولم تفارقها فكرة التقدم العصري الذي سبق إليه القوم بعلوم ابتكروها أو بعلوم اقتبسوها منا ، وآن لنا أن نردها إلينا . (١)

لقد انقسم المثقفون ، إبان النهضة المصرية ، إلى فريقين حول الطريق الأمثل للنهضة واللحوق بالأمم التي سبقتنا في العلم والتكنولوجيا والنظم المدنية .

الفريق الأول : أتباع القديم الذين ينظرون إلى التراث نظرة تقديس ، وهم لا يفرّقون بين النص الديني المقدس (القرآن الكريم والحديث الشريف) وبين اجتهاد السلف في فهمه حسب علمهم والظرف التاريخي الذي عاشوا فيه إنما ينظرون إلى اجتهادات السلف كمقدس ديني لا يجوز العدول عنه فهو صالح لكل زمان ومكان كالنص الديني تماماً . ويجعلون ما سواه بدعة وضلال ولا سيما إذا كان صادراً من بلاد الفرنجة بلاد الكفر والانحلال .ففي التمسك بتراث الأمة الموروث ونبذ البدع والمنكرات يكون التقدم ، بهذا تقدم الأسلاف وبهذا نتقدم نحن ! فما ترك السابقون للاحقين شيئاً .

وللأسف الشديد كان جُلُّ علماء الأزهر من هذا الفريق ويرجع الطهطاوي سبب تخلف الأزهر إلى محمد علي الكبير الذي لم يدخل فيه العلوم الحديثة : الطبيعية والحكمية .

يقول الطهطاوي : " ولو أنه (يقصد محمد علي) أعلى منار الوطن ورقّاه لم يستطع إلى الآن أن يعمم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الأزهر الأنور ، ولم يجذب طلابه إلى تكميل عقولهم بالعلوم الحكمية التي كبير نفعها في الوطن ليس ينكر " (٢)

ويبرر العقاد موقف حكومة محمد علي من مسألة التعليم بالجامع الأزهر بأنها "كانت على موقف الحذر من تقرير علوم تدرس فيه بغير طلب من أهله ، هيبةً لعلمائه وخوفاً من تهمة المساس بالدين والاجتراء على سنن السلف ومجاراة البدع المستحدثة : بدع الفرنجة أو بدع الفلاسفة كما قال الشيخ العطار بألسنتهم حين تتلى عليهم مسألة من مسائل المعرفة لم ترد في كتاب من كتب المتأخرين . " (٣)

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول النهضة المصرية راجع عباس محمود العقاد " عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده " مكتبة مصر ، فصل " العصر " .
(٢) نقلاً عن عباس محمود العقاد " عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده " مرجع سابق ص ٥٩ .
(٣) عباس محمود العقاد " عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده " مرجع سابق ص ٦٥ .

أما الفريق الثاني فهم أتباع الجديد الذين ينظرون إلى كل ما يفعله الغرب المتقدم نظرة تقديس فإذا كان الغرب قد نبذ دينه فتقدم فعلينا أن نفعل مثلهم لكي نتقدم ، فالدين ، نص مقدس واجتهادات العلماء ، كان السبب في تخلف المسلمين وهو العائق دون التقدم .

وجُلُّ هذا الفريق من أبناء البعثات العلمية التي أرسلها محمد على إلى أوربا لتحصيل العلوم الطبيعية والرياضية ، ومن أبناء مدارس الحكومة التي أشرف على تعليهم إما أجانب لقنوهم حب الغرب كما لقنوهم علومه أو مصريون فتنوا بالغرب وعلومه.

والحق أن كلا الفريقين مصيب ومخطئ ، فنعم تقدم المسلمون عندما تمسكوا بالإسلام لكن فهمهم للإسلام يختلف عن فهم هؤلاء المقلدين الرجعيين .

فقد فهموا الإسلام على أنه نظام شامل : دين ودنيا ، مأثور ومعقول ، إيمان وعمل لا كما يفهمه النصيون الحرفيون على أنه نقل لا عقل فيه ومأثور لا فقه فيه وثبات لا تطور فيه !!

كما أن أوربا ما تقدمت إلا بعدما طرحت الدين وراء ظهرها وأخذت في أسباب العلوم الطبيعية والحكمية وهذا حق ، ولكن الحق أيضاً أن الدين الذي طرحته أوربا والذي كان عائقا للتقدم العلمي والذي حكم رجال دينه على جاليليو بالهرطقة والكفر واضطروه إلى العدول عن نظرياته العلمية ! ليس هو دين الإسلام الذي يجعل العلم ، بمفهومه الشامل ، فريضة وأنه لا تعارض بين الفهم الصحيح للدين والحقائق العلمية . (١)

كانت فكرة النهضة تحوم بين بعض الرءوس ولا يظهر لها أثر في الحياة العامة؛ لاختلاف وجهات النظر بين طلاب الجديد على علاَّته وأعداء الجديد بحذافيره ، ولأن التجديد في الحياة العامة مطلب تتولاه الهيئات المنظمة والحكومات المطاعة ، ولا يستقل به الأفراد في جهود مبعثرة وآراء متضاربة ، فلما قامت في مصر أول حكومة ذاتية بعد حملة نابليون لم تلبث أن أحسَّت وطأة الضرورات العملية وإلحاح المطالب الموقوتة ، ولم تكن هذه الضرورات مما يحتمل التسويف بين الآراء المتشعبة والوجهات المتعارضة ، ووجب على ولاة الأمر أن يوطِّنوا أنفسهم على

(١) محمد يونس هاشم " ميزان الحق بين العلمانية اللادينة والسلفية الا أصولية " مرجع سابق ص ١٣

مصير كمصير المماليك أو يبتدروا الزمن إلى الانتفاع العاجل بتجديد التعليم والتصنيع ، فأخذوا في بناء المدارس وإرسال البعوث وإنشاء المصانع وتنظيم الدواوين وضبط موارد الثروة ، وعملت المطبعة في نقل المؤلفات النافعة وإحياء الذخائر السلفية ، وتداولت أيدي المثقفين القلائل كتب الأجانب في علوم التاريخ والفلك والجغرافيا والطبيعة والكيمياء وشئون الحكم والاجتماع ، كما تداولت كتب الأدب والثقافة من آثار السلف المهجورة ، واتجهت الهمم إلى جمع هذه الآثار من مظانها في المساجد والزوايا وخزائن القصور .[١]

وكان لا بد من وجود فريق ثالث لا يأخذ الموروث القديم بقضّه وقضيضه ، ولا يتبع سنن الغرب حذو النعل بالنعل فكان أن الظهر جيل المثقفين الحقيقيين .

المثقف الحقيقي

لم يمض جيل واحد بعد الحملة الفرنسية حتى ظهر " الرجل المثقف " في البيئة المصرية ولم تخل منه بيئة من بيئات التقليد والرجعة إلى القديم وهي على عادتها في الأزمنة المختلفة أعدى أعداء التحول والتجديد .

وشروط الرجل المثقف في كل عصر أنه " ابن عصره " وأن طابع عصره يلازمه في تفكيره وعمله كما يلازمه في نظرته إلى العالم من حوله ، فلا يعيش في الزمن الحاضر بعقل الزمن الماضي ، ولا يترجم الواقع والحقيقة بلغة الوهم والخرافة ، وقد وُجِد هذا الرجل المثقف في كل بيئة من بيئات التقليد والتجديد ، فثبت طابع العصر على أبناء القرن التاسع عشر قبل انتصافه ، ولا نعني بثبوت طابع العصر في تلك الفترة أنها أخذت كل ما يعطيه العصر من علومه وفنونه وأفكاره وخواطره ، ولا أن المثقفين في الأمة غلبوا على أفكارها وخواطرها أو غلبوا على كل ما بقي في رءوسهم وصدورهم من ميراث ماضيهم ، ولكنما نعني أنهم استطاعوا أن يفتحوا أعينهم على النور بعد الظلمة ، فأبصروا غاية ما تمتد إليه تلك العيون من منظور معروض بين أيديهم تحت ضوء النهار ، ولم يزل فيهم بعد ذلك حديد النظر وكليله ، بل لم يزل فيهم من هو طويل النظر ينظر إلى بعيد ولا ينظر إلى القريب بين يديه أو ينظر إلى القريب الملاصق به ولا يعدوه إلى ما وراءه .

---

(١) عباس محمود العقاد " عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده " مرجع سابق ص ١٦

كان القرن الثامن عشر أحلك ساعات الليل قبل مطلع الفجر ، فلما طلع الفجر وأشرق من بعده النهار تيسرت الرؤية لمن يستطيعها كما تستطيع عيناه ، وهذا هو الفارق بين المثقف ابن عصره في منتصف القرن التاسع عشر وبين الجامد على قديمة قبل ذلك بقرن ونصف من الزمان ، فارق بين من ينظر بعينه وبين من يتخبط في الظلمة أو يُقاد . (١)

رواد السلفية النهضوية

ومن هؤلاء الناظرين بأعينهم إلى النور بعد منتصف القرن التاسع عشر بل في طليعة الناظرين البصراء إلى حقائق زمانهم جمال الدين الأفغاني وتلامذته : محمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبي ، ورشيد رضا .

ولم يكن هؤلاء الرواد مُنبتِّي الصلة بتراثهم الإسلامي وعلمائهم الأفذاذ بل رسخت أقدامهم في العلوم الإسلامية ، واشرأبَّت أعناقهم لتطالع الجديد من العلوم العقلية والحكمية والطبيعية التي برع فيها الغرب . فجمعوا بين الحسنيين : ثوابت الدين ، ومتغيرات العصر ، أو بين صحيح الدين ، وحقائق العلوم .

فكان هؤلاء الرواد وسطاً بين طلاب الجديد على علاَّته ، وأعداء الجديد بحذافيره ، وسطاً بين مقلدي الحديث ، ومقلدي القديم . وكما أن العين لكي ترى الأجسام بوضوح لا بد أن تتمركز الأشعة المنعكسة من تلك الأجسام على الشبكية . فإن بعض الأشخاص يعانون من عيوب في هذه الوظيفة الطبيعية التي تقوم بها العين مما يسبب قصر النظر أو بعد النظر . فكذلك كان الناس إبان النهضة كأنهم في سباق اختراق ضاحية ، منهم من عنده قصر نظر فلم ير إلا نفسه وموضع قدمه ولا يرى غيره ؛ فبطأت حركته ؛ لأنه لا يرى من غَلَبَه ، وإن حدَّثوه عنه يخشى إن أسرع الخطى أن يسقط في المجهول الذي لا يراه ، ومنهم من عنده بعد نظر فيرى فيولع بمن غَلَبَه ويحاول تقليده ؛ للحاق به لكنه لا يري موضع قدميه فلا يأمن التعثر وإن أمنه يظل تابعاً لمن قلدَّه وتظل المسافة بينه ثابتة إن لم تتسع .

أما صحيح البصر والبصيرة فيستثيره من سبقه لكنه لا يهرول وراءه فربما سار في الطريق الخطأ ، إنما يعمد إلى مكامن قوته فيشحذها ، وعوامل ضعفه فيعالجها، وخريطة الطريق فيدرسها ؛ ليسلك أقصر السبل وآمنها للوصول للهدف ويقدر

---

(١) نفسه ص ١٧ ، ١٨ .

لقدمه قبل الخطو موضعها فلا يتعثر ، وإن كان هذا لا يمنعه من الإفادة من نقاط قوة منافسه .

وهكذا كان موقف التيار السلفي الإصلاحي وسط بين هؤلاء التغريبيين المتحررين من عُرا الإسلام ، وبين أولئك التقليديين المُغَيَّبين عن العصر - فأخذوا الإسلام من منابعه الصافية ، وآمنوا بأنه منهاج كامل للحياة ، للفرد والأسرة والمجتمع والدولة . فنظروا إلى الإسلام بعين ، وإلى العصر بعين ، وحاولوا الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح ، فشرعوا يلتزمون بالسلفية المجددة ، ويوازنون بين الثوابت والمتغيرات ، ويدعون إلى احترام العقل ، وتجديد الفكر ، والاجتهاد في الدين ، والابتكار في الدنيا ، ويقتبسون من أنظمة العصر أفضل ما فيها ، ويرون أن الديمقراطية أقرب ما تكون إلى الإسلام ، بعد أن تنقى من بعض ما بها من شوائب ، وأن تطعم بما ينبغي من قيم الإسلام وأحكامه . [١]

وفي ذلك يقول رشيد رضا : " كنا نعد فرق المسلمين الذين يتنازعون أمر الأمة في هذا العصر ثلاثًا :

(الأولى) : حماة تقليد الكتب المدونة في المذاهب المتبعة من سنة وشيعة زيدية وشيعة إمامية وإباضية . وحجتهم أن علوم الشريعة المودعة في الكتاب والسنة إجمالاً وتفصيلاً قد انحصرت فيها ، فمن لم يأخذ بمذهب منها فليس على ملة الإسلام ، دع ما يرجح به كل منهم مذهبه على غيره .

(الثانية) : دعاة الحضارة العصرية ، والنظم المدنية ، والقوانين الوضعية ، الذين يقولون : إن هذه الشريعة الإسلامية المدونة لا تصلح لهذا الزمان ، ولا يمكن أن تصلح بها حكومة ، ولا تستقيم بها مصالح أمة . فيجب تركها ، واستبدال قوانين الإفرنج بها ، أو استقلال كل قوم أو شعب من المسلمين كغيرهم بتشريع جديد يوافق مصالحهم ، وإلا كانوا من الهالكين ، ومن هؤلاء من يرى من مصلحة قومه وبلاده المحافظة على مهمات شعائر الإسلام ، وما لا ينافي المدنية من خصائصه الاجتماعية والأدبية ، ومنهم من لا يرى وجوب ذلك ، وهم درجات أو دركات في هذه المسائل ، منهم المسلم المتأول ، والزنديق المجاهر أو المستكتم .

(الثالثة) : دعاة الإصلاح الإسلامي المعتدلين الذين يثبتون أنه يمكن إحياء الإسلام ، وتجديد هدايته الصحيحة باتباع الكتاب والسنة الصحيحة وهدي السلف

---

(١) د. يوسف القرضاوي " من فقه الدولة في الإسلام " دار الشروق ص ٩

الصالح ، والاستعانة بعلوم أئمة المذاهب كلها بدون التزام شيء معين من كتب الفقه والكلام المذهبية التي جمد عليها الفريق الأول ، وأنه يمكن الجمع بينه وبين أشرف أساليب الحضارة والنظام وهو ما ينشده الفريق الثاني ، بل يرى هؤلاء أن ما يدعون إليه – وهو أقدم هداية الدين وأحدث وسائل الحضارة والقوة – صديقان يتفقان ولا يختلفان ، وإن كلا منهما يزيد الآخر قوة وشرفًا .

فدين العصر الأول للإسلام ينفي خبث المدنية المادية الحاضرة ، وينقي قلوب أهلها من الرجس ، وينقذهم من فوضى الحرية البلشفية ، وأخطار الفلسفة المادية ، ويزكي أنفسهم من الظلم والفسوق والعصيان . كما أن علومها وفنونها الصحيحة تظهر من إعجاز القرآن ، ومن آيات الله في الأكوان ما يكمل به الإيمان ، ويوجه قوى هذه العلوم إلى العمران ، وإصلاح نوع الإنسان . (١)

السلفية النهضوية والانتصار للعقل

إذا كانت جميع المدارس السلفية من أول أحمد بن حنبل إلى ابن عبد الوهاب تنتصر للنقل وظاهر النص ، وأقوال السلف فإن المدرسة السلفية النهضوية أول مدرسة سلفية تنتصر للعقل ، وتتدبر النص ، والعلوم الحديثة الحكمية والطبيعية وهذا مما حدا بكثير من الكتاب ألا يعدها من المدارس السلفية لأن ، تقديم النقل على العقل ، وإن كان النقل ظني الثبوت والدلالة ، أصل من أصول السلفية ، كما أن عدم تجاوز رأي السلف في فهم النصوص أصل آخر من أصولها ، وعدم الخروج على الحاكم وإن كان ظالماً ما دام يقيم الصلاة أصل ثالث من أصولها ، والأخذ بظاهر النصوص دون تأويل أصل ثابت من أصولها .

والسلفية النهضوية أتت على معظم هذه الأصول فقد جعلت مصلحة الأمة الهدف الأسمى الذي تسعى لتحقيقه ، ففتحت الباب واسعاً أمام العقل ليستفيد من علوم العصر ، وتجارب الأمم ، ونظم الحكم ، وتاريخ الشعوب في تجديد دين المسلمين من أجل تجديد دنياهم واللحاق بقطار التقدم الذي فاتهم بثلاثة قرون على الأقل .

ولكن في نفس الوقت وهم في غمرة الصراع الحضاري والرغبة في تجديد الدين والدنيا لم يفرِّطوا في أصل من أصول الدين ولم يجوروا على معلوم من الدين

---

(١) محمد رشيد رضا " مقدمة كتاب يسر الإسلام وأصول التشريع العام " مجلة المنار ج ٢٩ ص ٦٣

بالضرورة إنما اجتهدوا ، وكانوا أهلاً للاجتهاد ، في الأمور التي يسوغ الاجتهاد فيها كمسائل الحكم والسياسة والاقتصاد والمعاملات ؛ لذا عدُّوا إحدى مدارس السلفية لتمسكهم بأصول أهل السنة والجماعة وثوابت الدين فجميعهم علماء دين في الأصل .

لقد أخذ علماء السلفية الوهابية على السلفيين النهضويين أنهم جاءوا بآراء جديدة لم يقل بها السلف ، لذا فهم مبتدعون وليسوا مُتَّبِعين ـ وخَلَفِيون وليسوا سلفيين .

قال الوهابيون عنهم هذا لأنهم لم يقفوا موقف الجامدين من أهل العلم في عصرهم الذين يعيشون في القرن الرابع عشر الهجري ولكنهم يفكرون بعقول من ماتوا من قرون وقد تغير كل شيء تقريباً في الحياة عما عليه الحال في عهود أولئك العلماء، ونسي الوهابيون أن الإمام الشافعي غيَّر مذهبه في مدة وجيزة ، فكان له مذهب جديد ، ومذهب قديم ، وأن أصحاب أبي حنيفة خالفوه في أكثر من ثلث المذهب ؛ لاختلاف عصرهم عن عصره ، وقالوا : لو رأى صاحبنا ما رأينا ؛ لقال بمثل ما قلنا أو أكثر ، والإمام أحمد تُروى عنه في المسألة الواحدة روايات قد تبلغ سبعاً ، أو أكثر وما ذلك إلا لاختلاف الأحوال والملابسات ، وتغير الظروف والأوضاع في غالب الأحيان . [١]

وليس معنى هذا أن علماء السلفية النهضوية معصومون من الخطأ ، ناطقون بالحق دائماً ، إنما شأنهم شأن علماء الإسلام المجتهدين الذين أصابوا وأخطئوا ، فلا عصمة إلا لنبي ، وإن كانوا مأجورين في الحالتين نحسبهم كذلك ولا نزكِّي على الله أحداً .

جمال الدين الأفغاني

جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨- ١٨٩٧م) هو رائد السلفية النهضوية بحق وإن كان لرفاعة الطهطاوي وعلي مبارك مجهودات لا تنكر في التمهيد لها .

ولد الأفغاني بأسعد أباد بأفغانستان سنة ١٨٣٨م، وانتقل والده إلى كابل وهو في الثامنة من عمره، فالتحق بمدارسها، ودرس على يد أساتذتها علوم العربية والتاريخ والإنشاء والعلوم الدينية والفلسفية باختلاف أنواعها . ولما أتمَّ دراسة هذه العلوم

---

(١) د. يوسف القرضاوي " من فقه الدولة في الإسلام " مرجع سابق ص ٧ .

على الطريقة القديمة رحل إلى الهند، فدرس فيها بعض العلوم الحديثة، وتعلم اللغة الإنجليزية، فجمع بين العلوم القديمة والحديثة.

منهج الأفغاني في التربية والإصلاح

كان أهم ما قام به الأفغاني هو اهتمامه الشديد بتربية تلاميذه على إيقاظ العقول واستيعاب العلوم العقلية النافعة ، ودراسة تاريخ الأمم وسياستها ، والاستفادة مما وصلت إليه العلوم الحديثة في أوربا في مجالي : العلوم الحكمية ، والعلوم الطبيعية والرياضية ، فإذا ما تمَّ لهم ذلك عرفوا كيف يفهمون دينهم فهماً صحيحاً دون الوقوع في تقليد الموروث القديم أو تقليد الوافد الدخيل إنما يأخذون من التراث المعرفي والثقافي الأصيل ، ويأخذون من علوم العصر النافع المفيد ، دون الوقوع في التقليد أو التغريب .

يقول رشيد رضا : " كانت طريقة الأزهر في التعليم قبل مجيء السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر إلزام الطلبة قبول كل ما في كتب التدريس وما يقوله لهم المدرسون بالتسليم وعدم الاعتراض ، عقلوه أم لم يعقلوه ، وطريقة الأستاذ الإمام التي استفادها من الأفغاني وجرى عليها بالدعوة وبالعمل في دروسه الدينية والفنية والعقلية أن لا يقبل أحد كلام أحد بالتسليم الأعمى ، بل يجب الفهم والاستدلال المؤدي إلى الإقناع والتفرقة بين كلام المعصوم وغير المعصوم ." (١)

لذا دعا الأفغاني إلى شحذ العقول وتنويرها لفهم الدين الإسلامي من نصوص الشرع : القرآن الكريم وصحيح السنة التي تفسره وتبينه ولا تهيمن عليه وتنسخه ، وتطوير دنيا المسلمين بدراسة العلوم الحديثة والقيم الحضارية التي تعين على فهم الدين وتبينه ولا تهيمن عليه وتنسخه .

ومنهج الأفغاني في إيقاظ العقول وتحريرها من عقال التقليد لا حشوها بالعلوم والمعارف دون فهم أو تدبر هو المنهج القويم الذي اهتدت إليه الأمم المتقدمة وأخذت به في تعليم أبنائها ، وجَحَدَه المسئولون عن التعليم عندنا وفضلوا عليه الحفظ والتلقين واتباع القديم .

ويشرح العقاد منهج الأفغاني هذا فيقول : " حضر التلميذ (محمد عبده) على أستاذه (الأفغاني) دروساً في كتب المنطق والحكمة والتصوف وأصول الدين ، ولكن الدروس الروحية التي كانت تسري من أحاديث هذا المصلح العظيم كانت

---

(١) مجلة المنار ج ٣٢ ص ٦٧٣ .

أعظم وقعاً وأعمق أثرا من دروس الأوراق والأسفار ، ولم تكن شروحه للكتب التي كان يقرأها على تلاميذه معاني فكرية تستخرج من ألفاظها القاموسية على عادة الشراح الذين يقفون بالعبارات عند ألفاظها ومعانيها ، ولكنه – كما سمعنا من مريديه الذين عرفناهم – كان يشرح العبارة ليستخرج منها قوة حيَّة تسري إلى النفس فتحركها إلى العمل ، وكأنما الكلمات المشروحة على لسانه تلك المفاتيح الصغيرة التي تدار فتنبعث منها قوى من الكهرباء لا يستقر عليها قرار .

وخير الأساتذة ، على ما نعلم ، هو الأستاذ الذي ينبه في التلميذ ملكات ذهنه ويستجيش في قرارة طبعه غاية وسعه من الاجتهاد والهمَّة على حسب فطرته واستعداده ، فليس بخير الأساتذة من يجعل تلاميذه نسخاً منه تحكيه ولا تزيد من عندها شيئاً غير الاقتداء به والعمل على غراره ، فهذه هي تربية التقليد والمحاكاة تصلح للذين خُلِقُوا للاتباع ولا تصلح للذين خُلِقُوا على نصيب من قدرة الاستقلال والاجتهاد .

وهكذا كانت تربية جمال الدين لمحمد عبده وهو يخطو خطواته الأولى على طريق العمل والإصلاح : إنه لم يخلق فيه ملكة كانت معدومة فيه ، ولكنه رده إلى طبيعته العملية وعزز فيه تلك الثقة التي لا غنى عنها لم يتولى عظائم الأمور وينهض إلى الغاية العصيَّة والمطلب البعيد . " (١)

فروح جمال الدين هذه كان لها الأثر البالغ في نفوس تلاميذه الذين نهضوا بالعلوم والآداب في مصر وحملوا مشاعل التنوير فيها ، ولا يفوتنا القول بأن البيئة التي كانت مستعدة للرقي، صالحة لغرس بذور هذه النهضة، وظهور ثمارها، أو بعبارة أخرى أن مصر بما فيها من المعاهد العلمية الحديثة، والتقدم العلمي الذي ابتدأ منذ عهد محمد علي، كانت على استعداد لتقبل دعوة الحكيم الأفغاني، ولولا هذا الاستعداد لقضي على هذه الدعوة في مهدها، ولأخفق هو في مصر كما أخفق في الأستانة، حيث وجد أبواب العمل موصدة أمامه، وهذا يبين لنا جانباً من مكانة مصر، وسبقها الأقطار الشرقية في التقدم العلمي والفكري والسياسي، ويزيد هذه الحقيقة وضوحاً أنك إذا استعرضت حياة جمال الدين العامة، وما تركه من الأثر في مختلف الأقطار الشرقية التي بث فيها دعوته، وجدت أثره في مصر أقوى وأعظم منه في أي بلد من البلدان الأخرى، وفي هذا ما يدلك على مبلغ استعداد مصر للنهضة والتقدم، إذا تهيأت لها أسباب العمل ووجدت القادة والحكماء .

---

(١) عباس محمود العقاد " عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده " مرجع سابق ص ١٢٥

كان همُ الأفغاني الأكبر إلى جانب تحرير العقول من الأوهــام ، وفهــم القــران الكريم في ضوء المستجد من العلوم والمعارف – تحرير الشعوب الإســلامية مــن الاستبداد والقهر وحكام السوء الذين أحلُّوا بالديار الإسلامية ، ذات التاريخ المجيــد في شتى المجالات ، دارَ البوار وأطمعوا فيهم العدو الأجنبي بل ارتموا في أحضانه وأغرتهم سياستهم الغاشمة الجاهلة المستبدة بغزو بلادهم واحتلالها .

كانت خطة الأفغاني للإصلاح السياسي أن يبدأ بتأسيس دولة واحدة علــى الأقــل صالحة لقيادة العالم الإسلامي كله في معترك السياسة الدولية وفــي تنفيــذ بــرامج النهضة والهداية العلمية .[1]

وفي سبيل تنفيذ هذه الخطة رحل الأفغاني إلى كثير من البلاد الإسلامية يحاول أن ينشر دعوته ويصطنع الرجال ويربي الشباب على العزة والكرامــة وعــدم قبــول الضيم والذل من الحكام ويبث فيهم قولاً وعملاً قوله ﷺ : " أَلاَ وَإِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَــادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ " (السلسلة الصحيحة للألباني)

حياة الأفغاني في مصر

جاء جمال الدين الأفغاني إلى مصر يحمل بين جنبيه روحاً كبيرة، ونفــساً قويــة، تزينها صفات وأخلاق عالية، أنبتتها الوراثة والتربية الأولــى، وهــذبتها الحكمــة والمعرفة، ومحصتها الحياة الحربية التي خاض غمارها في بلاد الأفغان، والتجارب التي مارسها، والشدائد التي عاناها جاء وفيه من الشمم والإباء ما صــدفه عــن أن يطأطئ الرأس أو يقيم على الضيم .

عاش الأفغاني نحو عشر سنوات في مصر كانت أخصب الــسنوات فــي تــاريخ إنجازاته الفكرية والسياسية .. فيها ربَّى نخبة من العقول التي جددت فكر الإســلام وحياة المسلمين وفي مقدمتهم الشيخ محمد عبده ، وشرح من كتب الفلسفة والكــلام والمنطق والعرفان ما أعاد للحياة الفكرية قيمة العقلانية الممزوجة باللطائف القلبيــة والوجدانية ، تلك التي غابت عن الثقافة الإسلامية منذ عصر التراجــع الحــضاري للمسلمين ، ونشأت على يديه مدرسة في الصحافة الأهلية الحرة – غير الحكومية – وتيار شعبي لمعارضة الاستبداد الــداخلي ، وللثــورة علــى النفــوذ الأجنبــي –

---

(١) نفسه ص ١٢٧

الاقتصادي والسياسي والعسكري والفكري - الزاحف على ديار الإسلام .. بل لقد عرفت مصر والشرق على يديه وقيادته طلائع التنظيمات السياسية - الحزب الوطني الحر - في تلك الفترة المبكرة من حياة ونشأة الأحزاب والجمعيات والتنظيمات .

وإذا كانت قوى الاستعمار الأوربي وفي مقدمتها الاستعمار الإنجليزي ، ومعها قوى الاستبداد الداخلي ، ودوائر التقليد والجمود الفكري قد حوّلت حياة جمال الدين الأفغاني إلى سلسلة متصلة من النفي وتحديد الإقامة ورقابة الجواسيس والتآمر والتشريد فلقد حوّل الرجل هذه التحديات إلى لإيجابيات فكانت سياحته عبر العالم الإسلامي ، بل وفي المنافي خارج عالم الإسلام ، فتوحات فكرية وثورية ، جعلت كل سنوات حياته طاقات إيقاظ واستنارة وتحويل لشعوب الشرق وأمة الإسلام فمن منفاه - وفي غرفة شديدة التواضع ، فوق سطح أسطح أحد المنازل ، أصدر مع الشيخ محمد عبده جريدة " العروة الوثقى " لسان حال لجمعية " العروة الوثقى " السرية التي غطَّت (عقودها - خلاياها) أغلب بلاد الإسلام ، والتي استقطبت صفوة العلماء المجددين والأمراء والساسة المجاهدين . فكانت هذه المجلة التي عالجها الاستعمار بالمصادرة والتضييق بعد سبعة أشهر ١٣ مارس ١٨٨٤ - ١٦ أكتوبر ١٨٨٤ صدر منها ثمانية عشر عدداً كانت أهم مدارس الوطنية الإسلامية والبعث الحضاري الإسلامي التي تربى فيها وتعلَّم منها واستضاء بمناهجها دعاة اليقظة والتجديد والإصلاح والثورة على امتداد عالم الإسلام بل وظلت ،حتى بعد توقفها، تنسخ أعدادها ومقالاتها وتعاد طباعتها كدليل عمل على اليقظة والإحياء والتجديد(١)

يقول الشيخ محمد رشيد رضا عن دور مقالات العروة الوثقى في الانقلاب الفكري الذي حدث له : " ولقد أحدث لي هذا الفهم الجديد في الإسلام رأيًا فوق الذي كنت أراه في إرشاد المسلمين ، فقد كان همي قبل ذلك محصورًا في تصحيح عقائد المسلمين ، ونهيهم عن المحرمات ، وحثهم على الطاعات ، وتزهيدهم في الدنيا ، فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية ، والمحافظة على ملكهم ، ومباراة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات ، فطفقت استعد لذلك استعدادًا .. " (٢)

---

(١) د. محمد عمارة " تقديم لمجموعة الآثار الجديدة " الآثار الكاملة لجمال الدين الأفغاني " الجزء الأول " العروة الوثقى " مكتبة الشروق الدولية ص ٣٤ ، ٣٥

(٢) مجلة المنار " التعريف بالمجلة " .

الأفغاني رائد اليقظة الإسلامية في العصر الحديث

فإذا علمنا أن مقالات العروة الوثقى أيقظت عقل ووجدان وعزيمة رشيد رضا قد جعلت من الرجل عبر مجلة المنار ترجمان هذا الفكر ورسول هذه اليقظة ، وإن كان أميل إلى المحافظة ، على امتداد العالم الإسلامي لنحو أربعين عاماً (مارس ١٨٩٨- إبريل ١٩٣٥) وأن المنار المجلة والمدرسة التي أحيت " العروة الوثقى " قد كانت الرحم الذي ولدت منه كل جماعات وتنظيمات اليقظة الإسلامية على امتداد عقود القرن العشرين أدركنا معنى الريادة والقيادة لجمال الدين الأفغاني في إيقاظ الشرق وإمام الصحوة الإسلامية ، التي غدت الآن أعظم ظواهر العصر الذي نعيش فيه .

وإذا كانت ريادة مصر لتيار اليقظة الإسلامية وثورات التحرر الوطني على امتداد عالم الإسلام هي حقيقة من حقائق الشرق الحديث والمعاصر ، فإن دور جمال الدين الأفغاني وأستاذيته في هذا الدور المصري تشير إليها وتفضح عنها عبارات تلميذه ، وأقرب الناس إليه وأخبرهم به الشيخ محمد عبده التي يقول فيها : " مال السيد جمال الدين إلى مصر فاهتدي إليه كثير من طلبة العلم ، واستفاضوا بحره ففاض درّاً وحملوه على تدريس الكتب من الكتب العالمية في فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية ، وطبيعية وعقلية ، وفي علوم الهيئة الفلكية ، وعلم التصوف ، وعلم أصول الفقه الإسلامي .

وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ إلى آخر ما اختتم ، ولم يذهب إلى الأزهر مدرساً ولا يوماً واحداً ، نعم كان يذهب إليه زائراً .

عظم أمره في نفوس طلاب العلم واستجزلوا فوائد الأخذ عنه ، وأعجبوا بدينه وأدبه وانطلقت الألسن بالثناء عليه وانتشر صيته في الديار المصرية .

ثم وجه عنايته لحل عقل الأوهام من قوائم العقول ، فنشطت لذلك ألباب ، واستضاءت بصائر ، وحمل تلاميذه على العمل في الكتابة وإنشاء الفصول الأدبية والحكمية والدينية ، فاشتغلوا على نظره ، وبرعوا ... " (١)

مشروع الأفغاني الإسلامي النهضوي

إذا كان جمال الدين الأفغاني قد وهب حياته وطاقاته وملكاته لإيقاظ الأمة ، كي تحرر وطنها من الاستعمار ، ودولها من الاستبداد ، وفكرها من الخرافة والجمود

---

(١) د. محمد عمارة "الآثار الكاملة لجمال الدين الأفغاني" مرجع سابق ص ٣٦

والتقليد – تقليد عصر التراجع والانحطاط – وتقليد النموذج الغربي الوضعي اللاديني – فإن كتاباته وأماليه قد مثلت – ولا تزال – الأسس والمنطلقات للمشروع الإسلامي لإنهاض الشرق بالإسلام ، وتجديد دين الإسلام لتجدد به دنيا المسلمين .

ففي مواجهة الاستلاب الحضاري ، والتغريب للثقافة ومشروع النهضة .. دعا إلى إسلامية المشروع النهضوي ، وإلى الإصلاح بالإسلام ؛ لأن استقلال الهوية والفكر والثقافة هو الشرط الأول لاستقلال الوطن والأمة ، بينما التقليد للنموذج الغربي هو طريق التبعية التي تؤيد وتؤبد الاستعمار فكتب عن إسلامية مشروع النهضة والإصلاح يقول : " إن الدين هو قوام الأمم وبه فلاحها ، وفيه سر سعادتها وعليه مدارها وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان ، إنه سلك النظام الاجتماعي ، ولن يستحكم أساس للتمدن بدون الدين البتة .. وإنًا ، معشر المسلمين ، إذا لم يؤسس نهوضنا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه ، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق . وإن تراه اليوم من حالة ظاهرة فينا (من حيث الرقي والأخذ بأسباب التمدن) هو عين التقهقر والانحطاط ؛ لأننا في تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوربية ، وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب، والاستكانة لهم ، والرضا بسلطانهم علينا ، وبذلك تتحول صبغة الإسلام التي من شأنها رفع راية السلطة والغلب ، إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبي.

إن المقلدين لتمدن الأمم الأخرى ليسوا أرباب تلك العلوم التي ينقلونها ، والتمدن الغربي هو، في الحقيقة ، تمدن للبلاد التي نشأ فيها نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني ، ولقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها ، وطلائع الجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون لهم الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم .. " (١)

الأفغاني وثنائية العقل والنقل

وفي مواجهة العقلانية التي دعا إليها التنوير الوضعي الغربي ، الذي انطلق فلاسفته من دعوى الثنائية المتناقضة بين العقل والنقل .. دعا الأفغاني إلى إحياء العقلانية الإسلامية المؤمنة ؛ لأن الإسلام وحضارته لم يعرفا هذه الثنائية المتناقضة التي حكمت التنوير الغربي في هذا الميدان .

---

(١) نقلاً عن د. محمد عمارة " الآثار الكاملة لجمال الدين الأفغاني " مرجع سابق ص ٣٧-٣٩

فالنقل الإسلامي ، القرآن الكريم ، هو الذي يعلي من مقام العقل ويحتكم إليه ويجعله مناط التكليف .

دعا الأفغاني إلى إحياء العقلانية الإسلامية المؤمنة ، التي ترفض جمود الوقوف عند ظواهر النصوص ، كما ترفض الغلو في التأويل ، ذلك الذي يُفَرِّغ الدين من الدين !! .. ويقف بالإنسان عند ظواهر الحياة الدنيا .. وكتب عن هذه العقلانية فقال: " فهذا الدين الإسلامي يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم ، وكلما خاطب العقل ، وكلما حاكم إلى العقل ، تنطلق نصوصه بأن السعادة من نتاج العقل والبصيرة ، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة .. فالعقل مَشْرِق الإيمان ، ومن تحوَّل عنه فقد دابر الإيمان ، وإنَّ هناك فرقاً بين ما لا يصل العقل إلى كنهه فيعرفه بأثره ، وبين ما يحكم العقل باستحالته ، فالأول معروف عند العقل يقر بوجوده ، ويقف دون سرادقات عزته ، أما الثاني فمطروح من نظره ، ساقط من اعتباره ، لا يتعلق به عقد من عقوده .

فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه ؟!

إن أول ركن بُنِيَ عليه الدين الإسلامي : صقل العقول بصقال التوحيد ، وتطهيرها من لوث الأوهام .. وسعادة الأمم لا تتم إلا بصفاء العقول من كدرات الخرافات وصدأ الأوهام ، فإن عقيدة وهمية لو تَدَنّس بها العقل لقامت حجاباً كثيفاً يحول بينه وبين حقيقة الواقع ويمنعه من كشف نفس الأمر ، بل إن خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية ، وتدعوه بعد ذلك أن يحمل المثل على مثله ؛ فيسهل عليه قبول كل وهم وتصديق كل ظن ، وهذا مما يوجب بُعْده عن الكمال ، ويضرب له دون الحقائق ستاراً لا يخرق ، وفوق ذلك ما تجليه الأوهام على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة والخوف مما لا يُخِيف والفزع مما لا يُفْزِع .

إن الدين الإسلامي قد فتح أبواب الشرف في وجوه الأنفس .. وقرر المزايا على قاعدة الكمال العقلي والنفسي لا غير ، فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة .. وعقائد الأمة ، وهي أول رقم ينقش في ألواح نفوسها ، يجب أن تكون مبنية على البراهين القوية والأدلة الصحيحة ، وأن تتحامى مطالعة الظنون في عقائدها ، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها ، فإن معتقداً لاحت العقيدة في مخيلته بلا دليل ولا حجة قد لا يكون موقناً ، فلا يكون مؤمناً .. وأولئك المتبعون للظن ، القانعون بالتقليد تقف بهم عقولهم عند ما تعودت إدراكه ، فلا يذهبون مذاهب الفكر ، ولا يسلكون طرائق النظر ، وإذا استمر بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدرج ، ثم تكاثفت

عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم عن أداء وظائفها العقلية بالمرة ، فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر ، فيحيط بهم الشقاء ، ويتعثر بهم البخت ، وبئس المآل مآلهم .

هذا هو الإسلام .. وقلما يوجد من الأديان ما يساويه أو يقاربه في هذه المزية ، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصية الجليلة .. " (١)

ولم يسلم الأفغاني من أولئك المتبعين للظن القانعين بالتقليد فيقول محمد عبده : " وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقوّلون عليه (أي على الأفغاني) وعلينا الأقاويل ، ويزعمون أن تلقي تلك العلوم قد يفضي إلى زعزعة العقيدة الصحيحة ، وقد يهوي بالنفس في ضلالات تحرمها خيري الدنيا والدين . " (٢)

ولكن الأفغاني لم يعدم من يؤخذ بعلمه وينتفع به وينهج نهجه ويجاهد هؤلاء المقلدين ويرد على مزاعمهم بالحجة والبرهان ، ويسعى لتجديد الدين وإصلاح الدنيا كمحمد عبده والكواكبي ورشيد رضا وغيرهم ممن أخذوا عنهم الكثير .

الأفغاني والعدالة الاجتماعية

لم يتميز مشروع الأفغاني السلفي النهضوي عن المدارس السلفية السابقة عليه بإعلائه مقام العقل ، واعتماده البراهين القوية أساساً للعقيدة لا تقليد الأقدمين فيها ، ولم يتميز كذلك بالدعوة ، قولاً وعملاً ، إلى الخروج على الحاكم المسلم الظالم المستبد وإن أقام الصلاة بل تميز أيضاً بالدعوة إلى إقامة عدالة اجتماعية المال فيها لا يكون دُولة بين الأغنياء فقط .

دعا الأفغاني إلى قسمة من قسمات المشروع النهضوي الإسلامي ، وهي وسطية الإسلام في العدل الاجتماعي ، وسطية الاشتراك في الثروات والأموال ، المؤسس على فلسفة الاستخلاف ، التي تجعل المالك الحقيق – مالك الرقبة – في الثروات والأموال هو الله ، سبحانه وتعالى ، خالق وواهب ومسخر هذه الثروات والأموال ، بينما الإنسان – مطلق الإنسان – وليس الفرد أو الطبقة – مستخلف في هذه الأموال والثروات ، له فيها ملكية الحيازة ، والاستثمار ، والاستمتاع ، في إطار بنود عقد وعهد الاستخلاف .. في إطار التكافل بين سائر أعضاء جسد الأمة الواحد .

---

(١) نقلاً عن العقاد " تراجم وسير " دار الكتاب المصري ج١٧ ص ٧٥
(١) نقلاً عن د. محمد عمارة " الآثار الكاملة لجمال الدين الأفغاني " مرجع سابق ص ٤٢ ، ٤٣

ولقد ميز الأفغاني بين الاشتراكية الإسلامية ، التي دعا إليها الإسلام ، وبين الاشتراكية الغربية ، التي هي نزعة انتقامية فوضوية ، مثلت إفراط المستغلين ، ضد تفريط ملاك رأس المال المستغلين ، فكتب وكأنه يتنبأ بما حدث للمنظومة الماركسية بعد قرن يقول : " إن ما تراه الاشتراكية في الغرب ، وما تتوخاه من المنافع بذلك المذهب ، في شكله الحاضر ، وأسسه ، وتخبط واضعي مبادئه ، كل ذلك يعكس نتائج الاشتراكية ، ويجعلها محض ضرر ، بعد أن كان المنتظر منها كل نفع .

فالاشتراكية الغربية ، ما أحدثها وأوجدها إلا حاسة الانتقام من جور الحكام والأحكام ، وعوامل الحسد في العمال من أرباب الثراء ، الذين إنما أثروا من وراء كدهم وعملهم ، وادخروا كنوزهم في الخزائن ، واستعملوا ثروتهم في السفه ..

فكل عمل يكون مركزاً على الإفراط لا بد أن تكون نتيجته التفريط ، أفرط الغربيون الأغنياء بنبذ حقوق العمال والفقراء وراء ظهورهم ، فأفرط العمال بمناهضة أهل الثروة وغاصبي حقوق الأمة ، بالمناصب ومسببات الحياة ، فلا قاعدة دينية يرجع إليها ، ولا سلطان وازع يعمل بقهر لصالح المجموع ، لذلك أصبح أمرهم في الاشتراكية فوضى ، ولسوف ينعكس أمرها !

أما الاشتراكية في الإسلام فهي خير كافل لجعلها نافعة مفيدة ، ممكناً الأخذ بها ؛ لأن الكتاب الديني ، وهو القرآن الكريم أشار إليها بأدلة كثيرة منها أن المسلم أول ما يقرأ من فاتحة الكتاب : { الحمد للَّهِ ربِّ العالمين } فيعلم أن للخَلْق رباً واحداً ، وهو مع سائر الخلق من المربوبين على السواء ، ومنها أن القرآن قد بين حقوق المستضعفين من الأمة ، الذين لم يتمكنوا من الاشتراك مع أرباب القوة ورجال الحرب فجعل لهم نصيباً إذ قال تعالى : { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
(الأنفال : ٤١)

وفي موضع آخر جاء القرآن مقرّعاً لمن يكنزون الذهب والفضة ، ثم حبذ وأثنى على الذين يؤثرون على أنفسهم بالعطاء والإسعاف والإطعام ولو كان بهم خصاصة.

وهكذا ترى قانون الاشتراكية المعقول في آيات القرآن الكريم تترى .

وكان الإخاء الذي عقده المصطفى ﷺ بين المهاجرين والأنصار أشرف عمل تجلى به قبول الاشتراكية قولاً وعملاً .

فكل اشتراكية تخالف في روحها وأساسها اشتراكية الإسلام ، لا تكون نتيجتها إلا ملحمة كبرى ، وسيل الدماء ولا سيل العرم من الأبرياء ، ومن تخريب لبناء لا يشاد عليه شيء ينتفع به أحد من الخلق ، فاشتراكية الغرب كلمة حق يراد بها باطل، واشتراكية الإسلام هي عين الحق والحق أحق أن يتبع .. " [١]

الأفغاني والاحتلال الأجنبي

لم يكن مشروع الأفغاني للنهضة ليرى النور ويأخذ طريقه للتطبيق إلا بالانتصار على العقبات الكبرى التي تحول دون إقامة قواعد هذا المشروع ، وفي مقدمة هذه العقبات الكبرى :

١- الاستعمار الغربي ، وفي المقدمة منه يومئذ الاستعمار الإنجليزي .

٢- الاستبداد الشرقي ، الذي يشل طاقات الأمة فيحول بينها وبين التصدي للاستعمار ، وتمهيد الطريق للنهضة الإسلامية .

وإذا كان الكفران بالطواغيت هو المقدمة الضرورية للإيمان بالتوحيد لله سبحانه وتعالى فإن العداء للاستعمار والجهاد في سبيل تحرير الوطن والأمة من كل ألوانه – الفكرية ، والعسكرية ، والاقتصادية ، والسياسية – هو المقدمة الضرورية لإقامة النهضة الشرقية على أساس الإسلام ، ولذلك كانت حياة الأفغاني كلها صراعاً لا هوادة فيه ضد الاستعمار الغربي ، الزاحف على أقاليم عالم الإسلام .

يقول الأفغاني : " إنه لا توجد نفس تشعر بوجود الحكومة الإنجليزية على سطح الأرض إلا وقد مسها منهم شيء من الضرر ! لقد صار الإنجليز كالدودة الوحيدة ، على ضعفها تفسد الصحة ، وتدمر البيئة !

وكيف نرضى ، ونحن المؤمنون ، وقد كانت لنا الكلمة العليا ، أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ، وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب فينا إلاً ولا ذمة ، بل أكبر همِّه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلي منا أوطاننا ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته ، والجالية من أمته ؟! "

ولقد خاطب الأفغاني أهل الهند – الذين تستعمر إنجلترا بلادهم – داعياً إياهم إلى الثورة على الإنجليز فقال : " يا أهل الهند ، وعزة الحق ، وسر العدل ، لو كنتم ،

---

(١) د. محمد عمارة " الآثار الكاملة لجمال الدين الأفغاني " مرجع سابق ص ٤٤ ، ٤٥

وأنتم تُعَدُّون بمئات الملايين ، ذباباً لكان طَنينُكم يصم آذان بريطانيا العظمى ، ويجعل في آذان كبيرهم (جلادستون) وقراً ولو كنتم أنتم مئات الملايين من الهنود ، وقد نسخكم الله فجعل كلاً منكم سلحفة ، وخضتم البحر ، وأحطتهم بجزيرة بريطانيا العظمى ، لجررتموها إلى القعر ، وعدتم إلى هندكم أحراراً " .

ودعا أهل مصر إلى الثورة على الاستعمار والاحتلال الإنجليزي كما ثار الأفغان على هذا الاستعمار ، فقال : " ذلك أن مقاومة الأهالي أشد بأضعاف مضاعفة من القوة العسكرية المجتمعة في أماكن مخصوصة تحت قيادة رؤساء معينين تنهزم بانهزامهم ، وما جرى لحكومة إنجلترا مع الأفغان أفضل شاهد على ما نقول .

دخلت الحكومة الإنجليزية أرض الأفغان بستين ألف عسكري ، واستولت على المدن ، وكاد قدمها يرسخ في البلاد فلما قام الأهالي من كل صقع ، والتحمت المقاتل في جميع أنحاء أفغانستان ، عجز الستون ألفاً عن الوقوف موقف الدفاع ، واضطرت حكومة إنجلترا بعد تسلطها سنتين وبعد صرف ثلاثين مليون جنيه إسترليني إلى ترك البلاد .

وإن على المصريين أن يقتدوا بالأفغانيين لينقذوا بلادهم من أيدي أعدائهم الأجانب ، وليس من الفتنة أن تدعوهم إلى طلب الحقوق والدفاع عن الدين والوطن، كما يظن بعض المتطفلين على موائد السياسة ، وإنما ننادي على صاحب البيت أن يدافع عن حريمه وماله وشرفه ، وأن يُخْرِج مخالب عدوه من أحشائه وهي سُنَّة جرى عليها دعاة الحق في كل أمة .

وعلى المصريين عموماً ، وعلى الفلاحين خصوصاً أن يجمعوا أمرهم على أن يمنعوا الحكومة الإنجليزية كل ما تطلب منهم ، وأن يرفعوا أصواتهم بنداء واحد ، قائلين : لا نطيع إلا حاكماً وطنيّاً ، فإن فعلوا هذا وجدوا لهم من الدول أنصاراً بل ومن الجنس الإنجليزي نفسه .."

إن مهادنة الاستعمار هي الخيانة بعينها " فلسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد وسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس ، وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس " بل خائن الوطن من يكون سبباً في خطوة سيخطوها العدو على أرض الوطن ، بل من يدع قدماً لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها . (١)

(١) د. محمد عمارة " الآثار الكاملة لجمال الدين الأفغاني " مرجع سابق ص ٤٦ ، ٤٧

ولم يكن الأفغاني يقصر الاحتلال الأجنبي على الاحتلال العسكري فحسب إنما يعد استغلال الدول الأجنبية لثروات البلاد الإسلامية احتلالاً أيضاً ، وكما يدعو المسلمين لتحرير أرضهم من الاحتلال الأجنبي يدعوهم أيضاً إلى تحرير بلادهم كذلك من الشركات ورءوس الأموال الأجنبية التي تنهب ثرواتهم .

وفي ذلك يقول الأفغاني : " فغاية الجامعة الإسلامية هي : ثروة المسلمين للمسلمين ، وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الإسلامي لهم ، ينعمون بها ، وليست لنصارى الغرب يستنزفونها ، وهي : نفض اليد من رءوس المال الغربية والاستعاضة عنها برءوس أموال إسلامية . وفوق جميع هذا ، هي : تحطيم نواجذ أوروبا ، تلك النواجذ العارضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين، وذلك بعدم تجديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجمارك والعقود التي ما دامت خارجة من أيدي العالم الإسلامي فهو يظل عالة على الغرب . " (١)

الأفغاني والاستبداد الداخلي

ومع دعوة الأفغاني إلى مقاومة الاحتلال الأجنبي بكل صوره : العسكري ، والاقتصادي ، والفكري والثقافي . دعا إلى مقاومة استبداد حكام المسلمين فهم المسئولون عن ضعف البلاد في شتى المجالات مما سهّل وقوعها فريسة سهلة ولقمة سائغة للاحتلال الخارجي ، ويضع للشعوب الإسلامية أساسي اختيار الحاكم وهما : القوة والعدل ، واختيار الشعوب حاكمهم ومشاركتهم له في القرارات والعمل على تنفيذها هي قوة الحاكم ، والتزامه بالدستور وإقامته فيهم هو العدل . فينبغي أن يكون الحاكم قويّاً بشعبه لا قويّاً عليهم ، وأن يكون مُقسِطاً بينهم لا قاسطاً لهم .

يقول الأفغاني : " إن مصر لا تحيا ، ولا يحيا الشرق بدوله وإماراته إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلاً قويّاً عادلاً ، يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان ، لأن بالقوة المطلقة الاستبداد ، ولا عدل إلا مع القوة المقيدة .

فخير صفات الحاكم القوة والعدل ، ولا خير بالضعيف العادل ، كما أنه لا خير في القوي الظالم . " (٢)

---

(١) نقلاً عن د. محمد عمارة " الآثار الكاملة لجمال الدين الأفغاني " مرجع سابق ص ٤٧، ٤٨
(٢) نفسه ص ٤٨

ويرسم الأفغاني طريق الحكم السليم وهو الحكم الدستوري النيابي ، وبهذا تسقط التهمة التي ألصقها البعض زوراً بالأفغاني وهي دعوته إلى حكم " المستبد العادل " فالحاكم إن استبد لم يكن عادلاً ، وإن عدل لم يكن مستبداً ولا يمكن أن يتصف بصفتي العدل الاستبداد معاً كما قال أرسطو في قانون عدم التناقض " الشيء لا يمكن أن يكون "أ" و"لا أ" في آن واحد " فالحجرة لا يمكن أن تكون مظلمة ومضيئة في آن واحد . والحاكم لا يمكن أن يكون مستبداً وعادلاً في آن واحد كذلك .

يقول الأفغاني : " وحكَمَ بأهلها إنما أعني به : الاشتراك الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح . والقوة النيابية لأي أمة كانت ، لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي إلا إذا كانت من نفس الأمة ، وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوى أجنبية محركة لها ، فاعلموا أن حياة تلك القوى النيابية الموهومة موقوف على إرادة من أحدثها .

إن إرادة الشعب غير المُكْرَه ، وغير المسلوب حريته قولاً وعملاً هي قانون ذلك المُتَّبَع ، والقانون الذي يجب على كل حاكم أن يكون خادماً له ، أميناً على تنفيذه ، وعلى الحاكم أن يُقْسِم لأمته على صون الدستور وأن تتوجه الأمة على الأساس ، فإن حنث بقسمه وخان الدستور فإما أن يبقى رأسه بلا تاج أو تاجه بلا رأس "[١]

الأفغاني والجامعة الإسلامية

وإذا كان الأفغاني قد رفع شعار " الجماعة الإسلامية " ودعا إلى وحدة أمة الإسلام ، وترابط أوطان المسلمين ، وأقام في سبيل ذلك التنظيمات السياسية والفكرية التي جسدت " الأممية الإسلامية " مثل " جمعية العروة الوثقى " وأصدر لهذا الصحف والمجلات ، ومارس العمل في هذا الميدان حتى وافته المنية ، فلقد قدم لهذه " الجماعة الإسلامية " تصوراً واقعيّاً عصريّاً راعى فيه التمايزات الوطنية، والقطرية ، والقومية .. فتحدث عن :

" اتصال أوطان الدول الإسلامية في الأراضي ، واتحاد شعوبها في العقيدة فكلهم يجمعهم القرآن " ، ثم تسأل :

" أليس لهم أن يتفقوا على الذَّب والإقدام كما اتفق عليهم سائر الأمم ؟!

---

(١) نفسه ص ٤٩

ولوا اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم ؛ فالاتفاق في أصول دينهم " .

ثم مضى ليقول :

" لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ؛ فإن هذا ربما كان عسيرا ، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه ، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ؛ فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه . إلا أن هذا يعد كونه أساساً لدينهم ، تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات " [١]

وليت دعاة القومية العربية الذين نبذوا الدين كعامل رئيس للوحدة وحاولوا إجبار الأنظمة العربية على الخضوع لحاكم واحد والتسليم له ، وفرض نظامه العلماني على سائر الأمم .. ذلك النظام الذي يستبدل النظام الاشتراكي الثوري المستعار من الشيوعية العالمية التي لا تؤمن بأي دين ، بأصول الإسلام الراسخ في نفوس كل المسلمين المؤمن بالله رب العالمين – ليت هؤلاء القومين فقهوا ما دعا إليه الأفغاني وعملوا على تحقيق الجامعة الإسلامية التي تجمع المسلمون حول أهدافه السامية وغايته النبيلة ، ولا تفرقهم باتباع سياسات مناهضة له .

الشيخ محمد عبده

ولد الشيخ محمد عبده في محلة نصر بمركز شبراخيت محافظة البحيرة في سنة ١٨٤٩م تلقى تعليمه الأولي للقراءة والكتابة وحفظ القرآن بقريته ثم ذهب إلى الجامع الأحمدي بطنطا ليدرس تجويد القرآن الكريم ثم ليتلقى دروسه الأزهرية وفي عام ١٨٦٦م ذهب إلى الأزهر ليكمل دراسته ونال عالميته في سنة ١٨٧٧م .

واصل بعد تخرجه تدريس كتب المنطق ، وإعادة إلقاء دروس الأفغاني على طلبة الأزهر تلك الدروس التي كان يلقيها الأفغاني في منزله . وفي سنة ١٨٧٨م عين مدرساً للتاريخ بمدرسة دار العلوم فقرأ على طلابها مقدمة ابن خلدون ، وعين مدرساً للعلوم العربية في مدرستي : الألسن ، والإدارة .

اشترك مع أستاذه الأفغاني في التنظيمات السياسية السرية التي أنشأها الأفغاني بمصر فدخل الماسونية [٢] وانضم مع الحزب الوطني الحر إلى العرابيين بعد

---

(١) د. محمد عمارة " الآثار الكاملة لجمال الدين الأفغاني " مرجع سابق ص ٤٩ .

(٢) كانت " الماسونية " حسنة السمعة إلى حد كبير يومئذ للدور الذي قامت به في أوربا في العصور الوسطى ضد استبداد الأباطرة وسلطة البابوات ، وسعيها في سبيل الديمقراطية والتحرر ، وإبعاد نفوذ الكنيسة الرجعي عن دائرة البحث العلمي ، وتحرير عقول العلماء من إرهاب رجال الدين المحافظين ، ومع كل ذلك فنقد خاب أمله فيها ، مع أستاذه ، عندما تحققا مع مهادنتها للاستبداد وصلاتها بالنفوذ الأجنبي .

مظاهرة عابدين في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١م ، ثم ألقى بكل قواه في الثورة بعد المذكرة الثنائية الإنجليزية – الفرنسية إلى مصر في يناير سنة ١٨٨٢م عندما تهددت الأخطار الأجنبية استقلال مصر ظل مكانه من المسئولية والقيادة مع الثوار حتى هزيمة الثورة في سبتمبر سنة ١٨٨٢ م ، وحكم عليه بالنفي وظل فيه إلى ما يقرب من ست سنوات . (١)

محمد عبده والثورة العرابية

مر محمد عبده بثلاثة مراحل في حياته فبدأ إصلاحياً ، ومع الثورة العرابية تحوّل إلى ثائر وبعد فشل الثورة العربية ونفيه عاد إلى الإصلاح ثانية ، وعندما كان ثائراً إبان الثورة لم يكن عُرابياً ؛ لأنه كان على خلاف مع أحمد عرابي في برنامجه العملي ، ولم يجمع العزم على تأييد العرابيين إلا لتوحيد الصفوف في وجه الاحتلال الأجنبي ، بعد التجاء الخديو توفيق إلى الدولة البريطانية .

كان محمد عبده يؤيد الثورة العرابية في أمرين :

أولهما : تنبيه الرأي العام وجمع كلمته للمطالبة برفع الظلم وإصلاح نظام الحكم وإسناد المناصب الكبرى ووظائف الحكومة عامة إلى المواطنين .

وثانيهما : وهو أحوج إلى الوقت والأناة هو التعويل على إنهاض الأمة وإقامة نهضتها على أساس التربية والتعليم ، وإعدادها للحكم النيابي المستقل برغبتها الصادقة وقدرتها على صيانته من عبث الولاة والمتسلطين ، لأنه كان سيئ الظن بالنظم التي تأتي من جانب الملوك والأمراء بعد تجربة هذه النظم في سائر البلاد الشرقية ، ولا فرق عنده بين المجالس النيابية ، وبين دواوين الحكومة إذا لم تكن للأمة قدرة على حمايتها .

إلا أنه كان يخالف زعماء الثورة في اتباع الخطة التي تؤدي إلى الشطط وتفتح الباب للتدخل العسكري من جانب الدول الأجنبية .

وكان يؤيد الخديو توفيق في سعيه إلى الاستقلال عن رقابة الدولتين : انجلترا وفرنسا، ولكنه كان ينكر عليه استخدام هذه السياسة لتعزيز سلطته والرجوع بسياسة القصر إلى مثل ما كانت عليه في عهد أبيه إسماعيل وعهود أسلافه من قبله.

---

(١) لمزيد من التفصيل حول حياة الشيخ محمد عبده راجع فصل بطاقة حياة د. محمد عمارة " الأعمال الكاملة لشيخ محمد عبده " دار الشروق ط١ ج ١ .

وكان يؤيد وزارة رياض باشا في برنامج الإصلاح ولا سيما رفع السخرة وتحريم الجلد والتشديد في محاسبة المديرين على سوء المعاملة ، ويؤيده أكبر التأييد في توسيع نطاق التعليم ، وتشجيع العاملين على نشر الثقافة من علماء هذا البلد أو العلماء الوافدين إليه من الأقطار الشرقية .

ولكنه كان يأخذ عليه أن شهوة الحكم غلبته على مشيئته فلم يعتزل الوزارة حين وجب اعتزالها .

وكان يؤيد الشكوى العامة ويشترك فيها بقلمه ولسانه . ولكنه كان يعيب على بعض الشاكين أنهم يمزجون بين الشكوى العامة وبين شكواهم الصغيرة من قبيل فوات الوظائف والعلاوات ورفض المطالب والشفاعات .

ولهذه الشوائب التي امتزجت بالحركات العامة في ذلك الحين ، كما تمتزج بها في كل ومن ، لم يتيسر لذلك العقل الناقد أن يختار حزباً بين الأحزاب يؤيده كل التأييد، ولم يكن متحيزاً في ثورته إلى فريق دون فريق إلا حين بدرت بوارد الاحتلال الأجنبي بمشايعة الخديو وحاشيته ووجب أن تتفق الأمة فريقاً واحداً على مقاومته فأقدم على مواجهة الخطر الأكبر ولم يحجم لحظة عن مناصرة الثورة العرابية [١]

قبل أن يغادر جمال الدين الأفغاني مصر منفياً سنة ١٨٧٩م وخلال المدة التي قضاها بها (١٨٧١- ١٨٧٩م) كانت صحبة الشيخ محمد عبده له دائمة وملازمته له بها كالظل الذي لا يفارق الإنسان ،وأهم من هذا فإننا لا نستطيع أن نميز لمحمد عبده في هذه المرحلة شخصية متميزة عن شخصية أستاذه .

وكان جمال الدين الأفغاني قد مكث في مصر في هذه الزيارة الثانية نحو ثماني سنوات ، غرس فيها بذور نهضة مثمرة لم يشهد من ثمراتها الجنية ثمرة أنضج وأبقى من عزيمة تلميذه وخليفته محمد عبده ففارق هذه الديار وهو يقول لمن يسألونه عن وصيته عليها : " حسبكم محمد عبده : حسبكم محمد عبده من وصي أمين " [٢]

حتى إذا نفي الأفغاني من مصر وقضى محمد عبده فيما يشبه الاعتقال ببلدته "محلة نصر" حوالي العام أعقب هذا الأمر العفو عنه ، مع إبعاده عن التدريس وذلك تعيينه رئيساً لتحرير " الوقائع المصرية " في أكتوبر سنة ١٨٨٠م .

---

(١) العقاد " عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده " مرجع سابق ص ١٤٦، ١٤٧ .
(٢) نفسه ص ١٣١ .

الفرق بين منهج الأفغاني ومحمد عبده في التغيير

وبعد هذا التحول في حياة الشيخ محمد عبده برزت ملامح موقفه المستقل ، وتميزت شخصيته الفكرية ومواقفه العملية عن شخصية الأفغاني والتي تتلخص في الدعوة إلى :

١- التحرر الفكري من الجمود والتقليد والرجعية الدينية ، بسلوك طريق العقل لتجديد الدين ، وإحياء الدراسات الفلسفية الممزوجة بالإلهيات ، وإحداث ثورة فكرية " تغربل" بها موروثاتنا الدينية عن الأولين ، وخصوصاً أهل قرون التخلف والركاكة والانحطاط .

٢- التحرر السياسي من نفوذ الاستعمار الغربي الزاحف على المنطقة ، والتصدي له بالنهضة الحضارية لمغالبته ، وتجسيد الفكر الإسلامي الشوروي في مؤسسات دستورية نيابية حديثة ، وتقييد سلطات الحكومات بالدساتير والقوانين ، وإطلاق طاقات الجماهير الواسعة في الخلق والإبداع والبناء ، وكل ذلك بالثورة على المعوقات التي تعترض الجماهير في هذا الطريق .

وإذا كان الأفغاني كان ثورياً يرى الثورة هي الوسيلة الأجدى لبلوغ الغاية التي حددها " كاستراتيجية " لشعوب الشرق في ذلك الحين ، فإن محمد عبده كان إصلاحياً يرى أن التدرج في الإصلاح هو الطريق الأقْوَم والأضمن في تحقيق هذه الغاية ، وأن التربية المستندة إلى الدين ، بعد تجديده ، بواسطة المؤسسات التربوية الجديدة مثل دار العلوم مثلاً وكذلك المؤسسات العتيقة بعد إصلاحها مثل الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، إن التربية والتعليم هي السبيل الوحيد لبلوغ غاية الشرق في التحرر الفكري والتحرر السياسي .

وبينما يدعو الأفغاني منذ وقت مبكر إلى حكم مصر بأهلها بواسطة الاشتراك الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح ويتحدث عن وجوب قيام الحياة النيابية بها وضرورة أن تكون نابعة من أحشاء شعبها فيقول : " إن القوة النيابية لأية أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي إلا إذا كانت من الأمة نفسها ، وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة لها فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على إرادة من أحدثها " ويسفِّه من رأي الخديو توفيق الذي يريد التنصل من وعوده السابقة قبل تولي الخديوية ، عن الحكم النيابي ،

بدعوى جهل العامة والجماهير فيقول له الأفغاني : " إن الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري وأفراده ، ينظرون به لسموكم . وإن قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذ باسمكم وبإرادتكم يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم " .. بينما يقف الأفغاني هذا الموقف من الحكومة الشوروية والحياة النيابية الدستورية يعارض محمد عبده إقامة هذه المؤسسات ولا يؤيدها إلا بعد إقرارها ووجودها بسلطة الثورة العرابية وسلطاتها عقب مظاهرة عابدين في ٩ سبتمبر ١٨٨١م .

فبرغم أن محمد عبده كان أحد أبرز أنصار الثورة العرابية وزعمائها إلا أنه كان يوافق زعماء الثورة على أمور ويخالفهم على غيرها ، ومن أهم ما خالفهم عليه أن يهتموا بتعليم الأمة لتوكل إليها حقوقها وهي أمينة عليها ، فإن ما يمنحه سلطان الحاكم بأمره يسلبه سلطان الحاكم بأمره " وإنما علينا – كما قال للزعيم عرابي – أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض السنين ، وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وأن نبدأ بترغيبها في استشارة الأهالي في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة ، وليس من المصلحة أن نفاجئ البلاد بأمر قبل أن نستعد له ، فيكون من قبيل تسليم المال للناشئ قبل بلوغ سن الرشد ، فيفسد المال ويفضي إلى التهلكة " (١)

وذلك لأنه كان يرى أن الجماهير الجاهلة كالسوقة والرعاع وإن كثروا " فإنهم كالآلات الصماء الموقوفة على الأعمال اليدوية ليس إلاّ وإن هؤلاء العامة " لا يمنعون تقدماً ولا يحجزون تمدناً " إلا بعد أن يربوا تربية صحيحة ويتعلموا العلم النافع .

وبينما يدعو الأفغاني الشعب إلى انتزاع حريته واستقلاله بالثورة المخضبة بالدماء نجد محمد عبده ينفر من هذا الطريق الثوري حتى إنه عندما تصبح الثورة العرابية حقيقة واقعة ، وعندما يشارك في صنع أحداثها وقيادة أمورها يمدح هذه الثورة بأنها سلمية حققت الخطوات الأولى ، التي لم يحققها الآخرون بغير الدماء .

---

(١) نقلاً عن العقاد " عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده " مرجع سابق ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

ثم ما يلبث محمد عبده وهو في منفاه في أوربا أن يقرر اعتزال العمل بالسياسة والكلام فيها والتفرغ للتربية والتعليم مخالفاً نهج أستاذه الثائر بعد أن خاض شوطاً طويلاً مع أستاذه في ذلك .

يقول رشيد رضا في المنار : " لا أنكر أن هذه الأعمال السياسية كان السيد جمال الدين هو المفترع لها ، ولكن كان فقيدنا(يقصد محمد عبده) عضده ، وساعده ، ولسانه ، وقلمه ولولاه لما استطاع المضي فيها ؛ على أن فقيدنا كان بما جرى له ولشيخه مع توفيق باشا في مصر قد ضعف أمله في الإصلاح السياسي ، ووجه همه إلى الإصلاح القومي في التربية والتعليم .

حدثني (أي محمد عبده) أنه قال للسيد في أوربا : إن هذه السياسة لا يأتي منها خير ؛ لأن تأسيس حكومة إسلامية عادلة مُصلِحة لا يتوقف على إزالة الموانع الأجنبية فقط فخير لنا أن نذهب معًا إلى مجهل من مجاهيل الأرض لا سلطان للسياسة فيه ونحاول تربية أفراد على ما نحب ؛ فإذا تيسر لنا تربية عَشْرة رجال يبذلون أنفسهم لخدمة الأمة لا يصدهم عن ذلك الجثوم في وطن ، ولا الإخلاد إلى الأهل والسكن ، بل يكون همهم الأكبر الضرب في الأرض لتربية مثلهم على ما ربوا عليه ، فلا يبعد أن يربي الواحد منهم عشرة فيكون لنا في زمن قريب مائة رجل يعملون للإسلام والرجال هم الذين يعملون كل شيء ، فقال له الأفغاني : إنما أنت مثبط قد شرعنا في عمل فلا بد من المضي فيه حتى يتم أو نعجز." (١)

محمد عبده ونظرية المستبد العادل

في كل الأطوار الفكرية التي مرت بمحمد عبده قبل عودته إلى مصر لم يكون في يوم من الأيام منحازاً للمذهب الذي يناصر استبداد الحاكم بالحكم ، وإنما كان دائماً نصيراً للقانون والسلطة والمقيدة بالقانون ، وبعد أن انضم إلى صفوف الثورة العرابية شرع قلمه وناضل بنفسه في سبيل الحكم الشوروي الدستوري ، والحكومات المقيدة بالمؤسسات الدستورية والنيابية .

أما بعد عودته إلى مصر فتجنب الخوض في هذا الميدان .

أما تفاصيل الرأي الذي بعث به إلى الجامعة العثمانية والذي نشر تحت عنوان "إنما ينهض بالشرق مستبد عادل" فإن العنوان يلخصها ، والحقيقة أن في رأي

---

(١) رشيد رضا " تتمة سيرة الأستاذ الإمام (٣) حياته في المنفى " مجلة المنار ج ٨ ص ٤٥٣

محمد عبده إضافة جديدة تجعله أكثر تخلفاً ورجوعاً إلى الوراء من رأيه القديم في هذا الموضوع ؛ لأنه قديماً كان يناصر سلطة الفرد ، ولكن بشرط أن يكون هناك قانون يحكم سلطة هذا الحاكم الفرد ، أما هنا فهو لا يشير إلى هذا القانون ، ولا يطلب رقيباً على هذا المستبد إلا العدل النابع من ذاته وصفاته الخاصة ؟! فهو يصف هذا الحاكم الذي ينشده لإصلاح الشرق والنهضة به أنه : " مستبد يُكْرِه المتناكرين على التعارف ، ويُلْجِئ الأهل إلى التراحم ، ويقهر الجيران على التناصف يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة ، إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة ، عادل لا يخطو خطوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبه الذي يحكمه ، فإن عرض حظ لنفسه فليقع دائماً تحت النظرة الثانية ، فهو لهم أكثر ما هو لنفسه ، حتى إذا عرفت الأفكار مجاريها بالتعريف ، وانصرفت إلى ما أعدت له بالتصريف وصح الشعور بالتعليل واستقامت الأهواء بالتعديل ، أباح لهم من غذاء الحرية ما يستطيع ضعيف السن قضمه ، والنقه من المرض هضمه ، وأول ما يكون ذلك بتشكيل المجالس البلدية ، ثم بعد سنين تأتي مجالس الإدارة ، لا على أن تكون آلات تدار بل على أن تكون مصادر للآراء والأفكار ، ثم تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية .

نعم .. وربما لا يتيسر لرجل واحد أن يشهد هذا الأمر من بدايته إلى نهايته ، ولكن الخطوة الأولى هي التي لها ما بعدها ، ويكفي لمدها خمس عشرة سنة ، هل يعدم الشرق كله مستبداً من أهله ، عادلاً في قومه ، يتمكن من العدل أن يصنع في خمس عشرة سنة ما لا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرناً " .

وهكذا عاد محمد عبده فيما يتعلق بطبيعة السلطة المرجوة لإصلاح الشرق إلى نظرية " المستبد العادل " وهي التي رفضها من قبل جمال الدين الأفغاني ، ورآها وهماً يجمع بين المتناقضات ، وفضّل عليها الدعوة إلى الحاكم " القوي العادل " (١)

المستبد العادل ، والشرعية الدستورية

إن فكرة المستبد العادل التي ترى أن الشعوب العربية والإسلامية غير قادرة على استيعاب مفاهيم "الديمقراطية" ومشتقاتها كالبرلمان وغيره، أو إرساء دولة المؤسسات. ومن ثَم فلا مناص من قيام مستبد عادل بتخليص تلك الشعوب من

---

(١) د. محمد عمارة " الأعمال الكاملة لشيخ محمد عبده " دار الشروق ط١ ج ١ ص ٨٦ ، ٨٧ .

الاحتلال الأجنبي، ثم يتجه بها نحو الإصلاح ويقيها مفاسد التمزق والانقسام – إن شيوع هذه الفكرة كان وراء فشل مشروع الإصلاح السياسي الذي بدأته مصر في منتصف القرن التاسع عشر ، والذي ناضل من أجله جمال الدين الأفغاني وتلامذته، عدا محمد عبده ، وأحيته ثورة ١٩ ورجالها وقضت عليه ثورة ٢٣ يوليو حتى جاءت ثورة ٢٥ يناير لتعيد إحياءه مرة أخرى ، ترى لو كان هذا المشروع قد ناضلت الشعوب من أجله وتحملت تبعات تطبيقه هل كان حالنا على ما هو عليه الآن ، وهل كنا سنحتاج إلى ثلاث ثورات : ثورة تخلقه وثورة تميته وثورة تبعثه تارة أخرى ، لا ريب أن انتصار مشروع النهضة الذي تبناه الأفغاني إن لم يقف ضده الاحتلال الخارجي والاستبداد الداخلي لتبوأت مصر وربما العالم العربي والإسلامي صدارة العالم في كل المجالات : عسكرية ، واقتصادية ، وعلمية وثقافية وحضارية .لكنه الجهل والاستبداد والأثرة وعدم مخافة الله قاتلها الله جميعاً.

لقد وجدت فكرة المستبد العادل في بلاد الشام أنصاراً لها على يد عبد الرحمن الشهبندر في ثلاثينيات القرن العشرين مع بعض التعديل، فقد رأى الشهبندر أهمية الحياة النيابية بالنسبة للأمم الواقعة تحت الانتداب والاستعمار، فما إن تستقل وتحصل على حريتها، فإنها تحتاج إلى مستبد عادل ينقذها من فوضى مرحلة ما بعد الاستقلال،وذلك في سياق انتقاد الشهبندر للتجارب البرلمانية في العالم العربي.

وفي النصف الثاني من القرن العشرين شهد تحول فكرة المستبد العادل إلى واقع مع حضور نموذج جمال عبد الناصر، وهي نتيجة يمكن الوصول إليها بدراسة سيرة عبد الناصر وقراءة مذكرات المقربين منه مثل مذكرات ثروت عكاشة [١]، الذي يؤكد اطلاع عبد الناصر على هذه النظرية وسعيه لتجسيدها من خلال حرصه على ضرورة تمركز السلطة في يديه، ليكون له حق اتخاذ القرار منفرداً. [٢]

وبرغم فشل هذه النظرية عند التطبيق ولم يتحقق في ظل الاستبداد إلا الظلم والقهر – فإن بعض الناس بعد ثورة ٢٥ يناير ، وقد رعوا كثرة الاعتصامات ، والإضرابات ، وانتشار الخارجين عن القانون وتهديهم المواطنين ، وتباطؤ صدور الأحكام على المفسدين ، وتهافت الأحكام الصدارة في حقهم ، وبراءة كثير منهم .. كنت أقول لما رأى بعض الناس هذا دعوا إلى تطبيق نظرية المستبد العادل ، واستبدال الشرعية الثورية بالشرعية الدستورية كما فعلت ثورة يوليو .

---

(١) صديق عبد الناصر وأحد الضباط الأحرار ، ووزير الثقافة الأشهر في الحقبة الناصرية.
(٢) د. محمد عفيفي " المستبد العادل: الزعامة العربية في القرن العشرين " نقلاً عن موقع المسلم .

والحقيقة أن الشرعية الثورية ، ونظرية المستبد العادل ، نظرية غاشمة عمياء قد تأتي بنتائج عاجلة ، وتحقق إنجازات سريعة ولكنها سرعان مما تتحول السرعة إلى تسرع ، وتتحول الإنجازاتها إلى إخفاقات ، ويذهب عدل الحاكم ، إن كان عادلاً ، ولا يبقى إلا استبداده ، والشرعية الثورية تأخذ الناس بالشبهات فتخلف ركاماً كبيراً من الظلم والمظالم ، ولن تتحول أبداً إلى شرعية دستورية لأن الحاكم المستبد يستمرئ السلطة المطلقة ويحول دون مشاركة غيره فيها .

أما الشرعية الدستورية فقد لا تؤتي ثمارها على المدى القريب ، وقد تتعثر خطاها قليلاً لكنها تحقق العدل الذي يزيد الإنتاج ، وتقضي على الظلم فيختفي الفساد ، وتسوي بين الناس فتتكافأ تكافؤ الفرص ، كما إنها لا تأخذ الناس بالشبهات فتأمن الخطأ في العقوبة قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" ادْرَءُوا الْحُدُودَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنْ وَجَدْتُمْ لِلْمُسْلِمِ مَخْرَجًا فَخَلُّوا سَبِيلَهُ فَإِنَّ الإِمَامَ أَنْ يُخْطِئَ فِى الْعَفْوِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِى الْعُقُوبَةِ ". (رواه الترمذي والحاكم وغيرهما)

كما أن من أهم مزايا الشرعية الدستورية أنها تصحح خطأها وتعدل مسارها ، وتسمح باختيار الأصلح وتراقب أعماله وتحاسبه على أخطائه وتعزله إن يحقق تطلعاتها .

فطريقها كما يقول الإنجليز " Slow but sure effect " بطيء لكنه أكيد المفعول .

على عكس الشرعية الثورية فنتائجها سريعة لكنها غير مأمونة العواقب .

مفهوم محمد عبده لأصول الإسلام

كتب محمد عبده عدة مقالات بعنوان "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية" (١) قارن فيها بين الإسلام والمسيحية ورد فيها على افتراءات المستشرقين على الإسلام وذكر في " المقال الثالث " طبيعة الإسلام مع العلم بحكم أصوله ، عرَّف في هذا المقال أصول الإسلام ، كما يراها ، وقارن بينها وبين المسيحية وهذه هي الأصول كما جاءت في هذا المقال ، وتعليقنا على كل أصل منها .

الأصل الأول للإسلام : النظر العقلي لتحصيل الإيمان

فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي ، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح فقد أقامك معه على سبيل الحجة وقاضاك إلى العقل ، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته ، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه .

---

(١) جمعت هذه المقالات في كتاب يحمل نفس الاسم .

بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة : إن الذي يستقصي جهده في الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالبا غير واقف عند الظن فهو ناج ، فأي سعة لا ينظر إليها الحَرِجُ أكمل من هذه السعة .

والأصل الأول الذي ذكره محمد عبده صحيح فقد عهد الله تعالى إلى العقل البشري أن يهتدي إلى أعظم حقيقيتين في مجال العقيدة : حقيقة وجود الله ووحدانيته، وحقيقة ثبوت الوحي والنبوة والرسالة. [١]

الأصل الثاني للإسلام : تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض

أسرع إليك بذكر أصل يتبع هذا الأصل المتقدم قبل أن أنتقل إلى غيره : اتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلاً ممن لا يُنْظَرُ إليه على أنه إذا تعارض العقل والنقل أُخِذَ بما دل عليه النقل وبقي في النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمة وتفويض الأمر إلى الله في علمه ، والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل ، وبهذا الأصل الذي قام علي الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي ﷺ مُهِّدَتْ بين يدي العقل كل سبيل ، وأُزِيلَتْ من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال إلى غير حد ، فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا ؟ أي فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم إن لم يسعهم هذا الفضاء ؟ إن لم يكن في هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ، ولا سماء بأجرامها وأبعادها .

وهذا الأصل أساس الخلاف مع المدرسة السلفية النهضوية وأس النقد الذي وُجِّه لأعلامها ؛ فالمدارسِ السلفية السابقة (الحنبلية ، والإصلاحية ، والوهابية) كانت في مجال العقيدة تسلم بظاهر النص ، وإن خالف العقل ، ولا تفوِّض ولا تتأول ، ولقد ناقشنا هذا الموضع عند حديثنا عن المدرسة السلفية الإصلاحية ، وأثبتنا أن من تأوَّل آيات الذات والصفات وأحاديثها بما ينبغي لجلال وجهه ، سبحانه ، وعظيم سلطانه أو آمن بها وفوَّض علمها إلى الله تعالى فلا إثم عليه وذكرنا الأدلة القاطعة على ذلك ومنها ما حكاه أبو حيان الأندلسي صحاب " البحر المحيط " من إجماع الأمة على التأويل فيقول : " { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } (الحديد : ٤): أي بالعلم والقدرة .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول دور العقل في العقيدة والشريعة راجع الفصل الرابع " الإسلام والعقل " من كتابنا " ميزان الحق " مرجع سابق .

قال الثوري : المعني علمه معكم ، وهذه آية أجمعت الأمَّة على هذا التأويل فيها، وأنها لا تحْمَل على ظاهرها من المعية بالذات ، وهي حجة على من منع التأويل في غيرها مما يجري مجراها من استحالة الحمل على ظاهرها." (١)

أما بالنسبة للنصوص الخاصة بالفروع فإن تعارض ظاهر بعضها مع العدل والحكمة وللرحمة والمصلحة قد ألجأ كبار الصحابة والتابعين والفقهاء المعتبرين إلى تأويلها لتتوافق مع مقاصد الإسلام العليا .

ومحمد عبده وسائر المدرسة السلفية النهضوية ساروا على نفس النهج ، فاجتهدوا في فهم النصوص التي تعارض ظاهرها ، فيما رأوا ، مع العلم الحديث أو العقل الصريح ، أو مصلحة الأمة ، وهم مثابون ، إن شاء الله ، وإن أخطئوا في اجتهادهم هذا .

الأصل الثالث من أصول الأحكام في الإسلام : البعد عن التكفير

هلا ذهبت من هذين الأصلين إلى ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم وهو : إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حُمِلَ على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر ، فهل رأيت تسامحًا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولاً لا يحتمل الإيمان من مائة وجه ؟ إذا بلغ به الحمق هذا المبلغ كان الأجدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى في النار .

وهذا الأصل ، وهو البعد عن التكفير ، تميزت به المدرسة السلفية النهضوية ربما عن سائر المدارس السلفية السابقة عليها التي أفرطت في تكفير وتفسيق وتبديع من خالف فهمها النصي الحرفي للأصول ، ومن خالف ظاهر النصوص في الفروع .

الأصل الرابع في الإسلام : الاعتبار بسنن الله في الخلق

يتبع ذلك الأصل الأول في الاعتقاد – وهو أن لا يعول بعد الأنبياء في الدعوة إلى الحق على غير الدليل وأن لا ينظر إلى العجائب والغرائب وخوارق العادات – أصل آخر وضع لتقويم ملكات الأنفس القائمة على طريق الإسلام وإصلاح أعمالها

---

(١) أبو حيان " البحر المحيط " ج ١٠ ،ص ٢١٩

في معاشها ومعادها ، ذلك هو أصل العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفي آثار سيرهم فيهم ، فما جاء في الكتاب العزيز مقررًا لهذا الأصل { قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ } (آل عمران : ١٣٧) ، { سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً } (الإسراء : ٧٧) ، { فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً } (فاطر : ٤٣) ، { أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } (الروم : ٩) إلخ .

في هذا يصرح الكتاب العزيز بأن لله في الأمم والأكوان سننًا لا تتبدل والسنن الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشئون وعلى حَسَبِهَا تكون الآثار وهي التي تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنها بالقوانين ، ما لنا ولاختلاف العبارات والذي ينادي به الكتاب العزيز أن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله ويبني عليها سيرته وما يأخذ به نفسه ، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن إلا الشقاء ، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقربين سببه فمهما بحث الناظر وفكّر وكشف وقرَّر ، وأتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجري مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه ، فلِمَ لا يعظم تسامحها معه .

وهذا الأصل ، الاعتبار بسنن الله في الخلق ، أصل صحيح وإن كان قد وقع بعض أعلام السلفية النهضوية في الخطأ عند تطبيقه ، فاعتمدوا ، أحياناً ، على نظريات علمية ومذاهب سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية لم تبلغ درجة الحقائق العلمية المقطوع بصحتها وراحوا يتأولون بعض النصوص لتتوافق معها مثل تفسيرهم السموات السبع بالكواكب السبع السيارة ومداراتها في أفلاكها [١]، وتفسيرهم حجارة من سجيل في قوله تعالى { تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ } بميكروب الجدري [٢] كذلك إعجابهم بالاشتراكية وإن كان لهم عليها بعض التحفظات .

---

(١) مجلة المنار ج ١٤ ص ٣٤٠

(١) مجلة المنار ج ١٤ ص ٦٧٤

الأصل الخامس للإسلام : قلب السلطة الدينية

أصل من أصول الإسلام أنتقل إليه وما أجلّه من أصل قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها ، هَدَمَ الإسلامُ بناءَ تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم ، لم يدع الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطانًا على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه ، على أن الرسول عليه السلام كان مبلغًا ومُذكرًا لا مُهيمنًا ومُسيطرًا قال تعالى : { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ } (الغاشية : ٢١-٢٢) ولم يجعل لأحد من أهله أن يحل ولا أن يربط لا في الأرض ولا في السماء بل الإيمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده ، ويرفع عنه كل رق إلا العبودية لله وحده ، وليس لمسلم مهما علا كعبه في الإسلام على آخر مهم انحطت منزلته فيه إلا حق النصيحة والإرشاد قال تعالى في وصف الناجين:{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} (العصر : ٣) وقال : { وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (آل عمران : ١٠٤) وقال : { فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } (التوبة : ١٢٢) .

فالمسلمون يتناصحون ثم هم يقيمون أمة تدعوهم إلى الخير وهم المراقبون عليها يردونها إلى السبيل السوي إذا انحرفت عنه ، وتلك الأمة ليس لها فيهم إلا الدعوة والتذكير ، والإنذار والتحذير ، ولا يجوز لها ولا لأحد من الناس أن يتبع عورة أحد ، ولا يسوغ لقوي ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد ، وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد إلا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف ، وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها وأحوال العرب خاصة في زمان البعثة وما كان الناس عليه زمن النبي ﷺ وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحي وشيء من الناسخ والمنسوخ من الآثار ، فإن لم تسمح له حاله بالوصول إلى ما يعده لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه إلا أن يسأل العارفين بهما وله بل عليه أن يطالب المجيب بالدليل على ما يجيب به سواء كان السؤال في أمر الاعتقاد أو في حكم عمل من الأعمال ، فليس في الإسلام من يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه .

وهذا الأصل من أجلِّ الأصول فقد وضَّح محمد عبده جليّاً أن السلطة في الإسلام مدنية ، ومن حق الناس أن تختار من يحكمها وتحاسبه وتعزله ؛ أنه لا يحكمهم بالحق الإلهي كما كان الحكم في أوربا في عصور الظلام ، إنما هو بشر يصيب ويخطئ، وعلى الناس المراقبة والمحاسبة كما قال أبو بكر بعد بيعته " أيها الناس فقد وليت عليكم ولست بخيركم .. إنما أنا متبع ولست بمبتدع فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوِّموني " .

وأكد محمد عبده كلامه فذكر سلطة الحاكم في الإسلام فقال :

السلطان في الإسلام

لكن الإسلام دين وشرع فقد وضع حدودًا ورسم حقوقًا ، وليس كل معتقد في ظاهر أمره بحكم يجري عليه في عمله ، فقد يغلب الهوى وتتحكم الشهوة فيغمط الحق ، أو يتعدى المتعدي الحد فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وُجِدَتْ قوة لإقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضي بالحق وصون نظام الجماعة ، وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى علي عدد كثير فلا بد أن تكون في واحد وهو السلطان أو الخليفة .

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم ، ولا هو مهبط الوحي ، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة ، نعم شرِط فيه أن يكون مجتهدًا أي أن يكون من العلم باللغة العربية وما معها مما تقدم ذِكره بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج إليه من الأحكام حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل والصحيح والفاسد ، ويسهل عليه إقامة العدل الذي يطالبه به الدين والأمة معًا .

هو على هذا ، لا يخصه الدين في فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية ، ولا يرتفع به إلى منزلة ، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء ، إنما يتفاضلون بصفاء العقل ، كثرة الإصابة في الحكم ثم هو مطاع ما دام على المحجة ونهج الكتاب والسنة ، والمسلمون له بالمرصاد ، فإذا انحرف عن النهج أقاموا عليه ، وإذا اعْوَجَّ قَوَّمُوه بالنصيحة والإعذار إليه (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) (متفق عليه) فإذا فارق الكتاب والسنة في عمله ، وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره ، ما لم يكن في استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه فالأمة أو نائب الأمة هو الذي ينصبه ، والأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه ، وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدني من جميع الوجوه .

ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج (تيوكَراتِيك) أي سلطان إلهي ، فإن ذلك عندهم هو الذي ينفرد بتلقي الشريعة عن الله وله حق الأثرة بالتشريع ، وله في رقاب الناس حق الطاعة لا بالبيعة وما تقتضيه من العدل وحماية الحَوْزَة بل بمقتضى الإيمان فليس للمؤمن ما دام مؤمنًا أن يخالفه وإن اعتقد أنه عدو لدين الله ، وشهدت عيناه من أعماله ما لا ينطبق على ما يعرفه من شرائعه ؛ لأن عمل صاحب السلطان الديني وقوله في أي مظهر ظهر هو دين وشرع ، وهكذا كانت سلطة الكنيسة في القرون الوسطى ، ولا تزال الكنيسة تدعي الحق في هذه السلطة إلى اليوم كما سبقت الإشارة إليه .

كان من أعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد والأعمال فيما هو من معاملة العبد لربه ، تشرع وتنسخ ما تشاء وتراقب وتحاسب كما تشاء وتحرم وتعطي كما تريد وخول السلطة المدنية حق التشريع في معاملات الناس بعضهم لبعض وحق السيطرة على ما يحفظ نظام اجتماعهم ، في معاشهم لا في معادهم ، وعدوا هذا الفصل منبعًا للخير

الأعم عندهم ، ثم هم يتهمون فيما يرمون به الإسلام من أنه يحتم قرن السلطتين في شخص واحد ويظنون أن معنى ذلك في رأي المسلم أن السلطان هو مقرر الدين وهو واضع أحكامه وهو منفذها ، والإيمان آلة في يده يتصرف بها في القلوب بالإخضاع ، وفي العقول بالإقناع ، وما العقل والوجدان عنده إلا متاع ، ويبنون على ذلك أن المسلم مستعبدًا لسلطانه بدينه ، وقد عهدوا أن سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ، ويحمي حقيقة الجهل ، فلا يتيسر للدين الإسلامي أن يأخذ بالتسامح مع العلم ما دام من أصوله أن إقامة السلطان واجبة بمقتضى الدين ، وقد تبين لك أن هذا كله خطأ محض وبُعْد عن فهم معنى ذلك الأصل من أصول الإسلام ، وعلمت أن ليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير ، والتنفير عن الشر ، وهي سلطة خَوَّلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خَوَّلها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم ، ومن هنا تعلم (الجامعة) أن مسألة السلطان في دين الإسلام ليست مما يضيق به صدره ، وتحرج به نفسه عن احتمال العلم ، وقد تقدم ما يشير إلى ما صنع الخلفاء العباسيون والأمويون والأندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء ، وربما أتينا على شيء آخر منه فيما بعد يقولون : إن لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني أفلا يكون للقاضي أو المفتي أو شيخ الإسلام ، وأقول : إن الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على

العقائد وتقرير الأحكام وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قرَّرَهـا الشرع الإسلامي ، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعي حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه أو يُنازعه في طريق نظره .

الأصل السادس للإسلام : حماية الدعوة لمنع الفتنة عن المسلمين

قالوا : إن الدين الإسلامي دين جهادي شُرِعَ فيه القتال ، ولم يكن شرع في الدين المسيحي ، ففي طبيعة الدين الشدة على من يخالفه وليس فيها ذلك الصبر الاحتمال اللذان تقضي بهما شريعة المسالمة وهي الشريعة التي وردت في كثير من الوصايا المسيحية " مَنْ ضَرَبَك على خدك الأيسر فأَدِرْ له خدك الأيمن ، من سَخَّرَكَ ميلاً فَسِرْ معه مِيلينِ " ونحو ذلك ، حتى لقد طلبت فيها محبة الأعداء وإن كانت محبة العدو مما لا يدخل تحت الاختيار بل ولا محبة الصديق وإنما الاختياري العدل بين الأعداء والأولياء لكن في ملكوت الله كل شيء مُستطاع ولا شيء فيه بمستحيل ، قلنا : لكن انظروا هل دَفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه خاص بالدين الإسلامي أو هو في طبيعة كل قادر يُغْذِرُ إلي خَصْمه ؟ ليس القتل في طبيعة الإسلام بل في طبيعته العفو والمسامحة : { خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ } (الأعراف : ١٩٩) ، ولكن القتال فيه لرد اعتداء المعتدين على الحق وأهله إلى أن يأمن شرهم ويضمن السلامة من غوائلهم ، ولم يكن ذلك لإكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه ولهذا لا تسمع في تاريخ الفتوح الإسلامية ، ما تسمعه في الحروب المسيحية ، عندما اقتدر أصحاب (شريعة المسالمة) على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والأطفال .

لم تقع حرب إسلامية بقصد الإبادة كما وقع كثير من الحروب بهذا القصد بأيدي المسيحيين ، وإنما كان الصبر والمسالمة دينا عندما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين ، وغاية ما يقال : إن العناية الإلهية منحت الإسلام في الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه ما لم تمنحه لغيره في الزمن الطويل ، فتيسر له في شبيبته

ما لم يتيسر لغيره إلا في كهولته أو شيخوخته .

وفي هذا الأصل يدافع محمد عبده دفاعاً مجيداً عن الإسلام ضد الافتراءات التي رماه بها بعض المستشرقين واتهامه أنه انتشر بحد السيف ، وأن المسلمين قهروا الناس للدخول فيه عنوة ! ويقارن بين الفتح الإسلامي الذي كان خيراً وبركة على الشعوب المفتوحة، بين الاحتلال الغربي الذي كان نكبة على الشعوب التي احتلوها.

أنت ترى الإسلام من جهة يكتفي من الأمم والطوائف التي يغلب على أرضها بشيء من المال أقل مما كانوا يؤدونه بنظام السلطة العامة ، ثم يرخي لهم بعد ذلك

عنان الاختيار في شئونهم الخاصة بهم لا رقيب عليهم فيها إلا ضمائرهم ، ومن جهة أخرى ينهي أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوي قربانهم من المشركين ويطالبهم

بحسن معاملتهم .

ففي طبيعته أن يَكل أمر الناس في سرائرهم إلى ربهم ، وفي طبيعته أن يجير من لا يعتقد عقيدته ، ويحمي من لا يتبع سنته ، وإن كان في عمًى من الجهالة وخبَل من الضلالة ، أفَتَرى أنه يصعب عليه بعد ذلك أن يحتمل العلم والعلماء ، ويضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضلاء ، ممن ينفق عمره في تقرير حقيقة ، أو كشف غامض أو تبيين طريقة ؟ كلا ثم كلا ، فمن بحث ونقب ، وسبر ونقر ، أو شق الأرض ، أو ارتقى إلى السماء فهو في أمن من أن يعرض الإسلام له في شيء من عمله إلا أن يُحْدِث شغبًا ، أو يُفْسِد أدبًا ، فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد ، وإصلاح الفاسد ، بسماح من الدين .

الأصل السابع : مودة المخالفين في العقيدة

المصاهرة : أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية نصرانية كانت أو يهودية وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها، القيام بفروض عبادتها ، والذهاب إلى كنيستها أو بيعتها ، وهي منه بمنزلة البعض من الكل ، وألزم له من الظل ، وصاحبته في العز والذل ، والترحال والحل ، بهجة قلبه ، وريحانة نفسه ، وأميرة بيته ، وأم بناته وبنيه ، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه ، لم يفرق الدين في حقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية ، ولم

تخرج الزوجة الكتابية باختلافها في العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى :
{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (الروم : ٢١) فلها حظها من المودة ، ونصيبها من الرحمة ، وهي كما هي ، وهو يسكن إليها كما تسكن إليه ، وهو لباس لها كما أنها لباس له ، وأين أنت من صلة المصاهرة التي تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عُهِدَ في طبيعة البشر ، وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم ، وذوي القربى

لوالدتهم ، أيغيب عنك ما يستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذي لم يُعْهَد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه .

وهذا الأصل ربما يمكن أن يأخذه ، النصيون الحرفيون ، على محمد عبده ويتهمونه بأنه يدعو إلى ود أهل الكتاب والمشركين وهذا مخالف لقوله تعالى :

{ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } (المجادلة : ٢٢)

فالله تعالى ينهى عن حب كل من كفر بالله تعالى واستهزأ بآياته وطعن في دينه وشحذ سلاحه في وجه أنصاره .

والود والمولاة لا يكونان إلا لأهل الإيمان والطاعة ، فمن أحب قوماً حشر معهم .

وأحسب أن محمد عبده يقصد بكلامه عن حب المسلم زوجته الكتابية حب العشرة والطباع لا حب العقيدة والموالاة . ويقصد بحسن معاملة غير المسلم إن كان مسالماً غير معادٍ ولا ظهير لعدو ؛ فإن غير المسلمين ليسوا قسماً واحداً في شريعة الإسلام إنما أقسامٌ ثلاثة :

القسم الأول : هم الذين يعيشون مع المسلمين ويسالمونهم ، ولا يعملون لحساب غيرهم؛ ولم يبدر منهم ما يفضي إلى سوء الظن بهم وهؤلاء لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، ولا مانعٍ من مودتهم والإحسان إليهم كما في قوله تعالى { لاَّ يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وتقسطوا إِلَيْهِمْ إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين } (الممتحنة : ٨)

والقسم الثاني : وهم الذين يقاتلون المسلمين ، ويسيئون إليهم بشتى الطرق وهؤلاء لا تصح مصافاتهم ، ولا تجوز موالاتهم ، وهم الذين عناهم الله في قوله تعالى { إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الذين قَاتَلُوكُمْ في الدين وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُواْ على إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فأولئك هُمُ الظالمون } (الممتحنة : ٩)

والقسم الثالث : قوم لا يعلنون العداوة لنا ولكن القرائن تدل على أنهم لا يحبوننا بل يحبون أعداءنا ، وهؤلاء يأمرنا ديننا بأن نأخذ حذرنا منهم دون أن نعتدي .[1]

فمن حملك على الكفر لا تطعه وإن كان والديك . ، ومع ذلك فصاحب والديك ومن في منزلتهما في الأمور الدنيوية التي لا تتعلق بالدين مصاحبة كريمة حسنة ، يرتضيها الشرع ، وتقتضيها مكارم الأخلاق .

---

(١) محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ج ١ ص ١٢٩٨، ١٢٩٩ .

نعود فنكمل كلام محمد عبده في حديثه عن أصول الإسلام " لو ذهبت أعد ما في طبيعة الإسلام من عناصر وأركان كلها تؤلف مزاج الكرم ، وتكون حقيقة المسامحة مع العلم ؛ لأطلت على القارئ أكثر مما أطلت ولهذا أرى من الواجب عليّ أن أختم القول بذكر أصل أشرت إليه ولا غنى لما نحن فيه عن ذكره .

الأصل الثامن للإسلام : الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة

الصحة : الحياة في الإسلام مقدمة على الدين ، أوامر الحنيفية السمحة إن كانت تختطف العبد إلى ربه ، وتملأ قلبه من رَهَبِهِ ، وتفعم أمله من رَغَبِهِ ، فهي مع ذلك لا تأخذه عن كسْبِهِ ، ولا تحرمه من التمتع به ، ولا توجب عليه تقشف الزهادة ، ولا تُجَشّمه في ترك اللذات ما فوق العادة .

صاحب هذا الدين ﷺ لم يقل " بِعْ ما تملك واتبعني " ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله : " الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاس " (متفق عليه) .

الرُّخص : فرض الصوم على المؤمنين لكن إذا خشي منه المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه بل قد يجب إذا غلب على الظن الضرر فيه ، الوضوء والغسل من شروط الصحة للصلاة إلا إذا خشي منه الضرر أو عرضت مشقة في تحصيل الماء . القيام مما لا تصح الصلاة إلا به إلا إذا أصابت المصلي مشقة فيه فيسقط ويصلي قاعدًا . السعي إلى الجمعة واجب إلا إذا كان وحل غزير أو مطر كثير أو ما يوجب تعبًا ومشقة فيسقط .

وهكذا تجد القاعدة قد عمت : " صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان " فترى الدين قد راعى في أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح .

الزينة والطيبات : أباح الإسلام لأهله التجمل بأنواع الزينة والتوسع في التمتع المشهيات على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية ، والوقوف عند الحدود الشرعية ، والمحافظة على صفات الرجولية ، جاء في الكتاب العزيز :

{ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } (الأعراف : ٣١)

الاقتصاد : ووضع قانونًا للإنفاق وحفظ المال في قوله : { وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورا } (الإسراء : ٢٩) .

النهي عن الغلو في الدين : وخشي على المؤمن أن يغلو في طلب الآخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها فذكرنا بما قَصَّهُ علينا أن الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا في الدنيا إذ قال : { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِينَ } (القصص : ٧٧) .

فترى أن الإسلام لم يبخس الحواس حقها كما أنه هيأ الروح لبلوغ كمالها ، فهو الذي جمع للإنسان أجزاء حقيقته واعتبره حيوانًا ناطقًا لا جسمانيًا صرفًا ، ولا ملكوتيًا بحتًا ، جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة ، استبقاه من أهل هذا العالم الجسداني ، كما دعاه إلى أن يطلب مقامه الروحاني ، أليس يكون بذلك وبما

بينه في قوله : { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا } (البقرة : ٢٩) قد أطلق القيد عن قواه ، لتصل من رقة الحياة (مع القصد) إلى منتهاه ، والنفوس مطبوعة على التنافس ، قد غرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيرًا ، أو تجده لذيذًا أو تظنه نافعًا .

كيف يتسنّى للمسلم أن يشكر الله حق شكره ، إذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره لينفذ من ظاهرة إلى سرّه ويقف على قوانينه وشرائعه ويستخدم كل ما يصلح لخدمته في توفير منافعه ، كيف يشكر الله إذا توانى في ذلك وقد أرشده الله في كتابه وبسنة نبيه إلى أن عالمه إنما خلق لأجله ، وقد وضعه الله تحت تصرف عقله. (١)

وكلام محمد عبده في هذا الأصل الأخير كلام نفيس ذكر فيه شذرات من محاسن الإسلام ومقاصد الشريعة الغراء .

محمد عبده وإصلاح الأزهر

عين محمد عبده عضواً بمجلس إدارة الأزهر سنة ١٨٩٤م ثم تعززت مكانته الرسمية بولايته منصب الإفتاء بعد ذلك بخمس سنوات . وقد كان بوسع الشيخ محمد عبده وأعوانه الثقات أن ينجزوا في ثلاث سنوات أو أربع سنوات ما استغرق

---

(١) محمد عبده " الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية " المقال الثالث " طبيعة الإسلام مع العلم بحكم أصوله مجلة المنار ج ٥ ص ٤٤١

إنجازه منهم أكثر من عشر سنين وهي المدة التي أشرف فيها محمد عبده على إدارة الأزهر منذ أن كان عضواً بمجلس الإدارة إلى استقالته من منصب الإفتاء في سنة ١٩٠٥ لكنه آثر أن يتمهل اختياراً لتسويغ الانتقال من القديم إلى الجديد في نفوس أنصار القديم المتشبثين ببقائه بين الموافقة باللسان والمراوغة في التنفيذ ، واضطر في كثير من الأحيان إلى التمهل اضطراراً لتراجع ولي الأمر - الخديو عباس الثاني وحاشيته - في وعودهم وعدولهم عن العمل على التغيير الصريح إلى المراوغة كمراوغة الشيوخ الجامدين بين الموافقة اللسانية والتعويق في التنفيذ ، ولكن دعاة الإصلاح تمكنوا - مع هذه التعويقات - من إقامة الأسس التي يصعب على المعارضين أن يهدموها بعد لإقامتها ، وكان عملهم مدى السنين العشر أعظم مما يتسع له هذا الأمد القصير بالقياس إلى القرون المتوالية التي تم تبديلها في خلالها ، بعد الشروع فيه والعدل عنه واستمرار الدعوة إليه أعواماً إثر أعوام .

كانت العلوم الحديث محرمة لا تدرس ولا يرضى عن طلابها في غير الحلقات الحلقات الأزهرية ، وكانت علوم السلف التي تنسب إلى الفلاسفة أو المعتزلة قرينة بتهمة الكفر والزندقة ، ومن اشتغل بها مُعَلِّماً أو مُتَعَلِّماً فسبيله أن يعتزل الجماعة خفية ، ولا سلامة له باعتزالهم جهرة على سنة الأقدمين ممن اشتهروا بالاعتزال .

وكانت تدابير الصحة مهملة ، بل كادت أن تكون ممنوعة ، لقلة اطمئنان العلماء الجامدين إلى المواد التي تستخدم للتعقيم والتطعيم ، بل قلة اطمئنانهم إلى أقوال الأطباء في عدوى الجراثيم ، ولولا أن النظافة من آداب الإسلام لما تقبل القائمون على إدارة الجامع عملاً من أعمال الوقاية في أزمنة والوباء ، غير الأمر بإغلاق الجامع ووقف الشعائر والدروس في أروقته .

وتبدل ذلك كله في سنوات قلائل ، وأول ما تبدل منه العناية بالتدبيرات الصحية ، فأنشئت للجامع صيدلية خاصة وعين له طبيب منقطع لعلاج طلابه والكشف عليهم بالمجان .

ولم يكن من اليسير تنظيم أعمال التدريس وغير تنظيم أوقات العمل والمرتبات ، فتوافر للأزهر مدد من الميزانية الحكومية وميزانية الأوقاف يكفي لتنظيم التدريس ورفع المرتبات إلى المستوى اللائق بطبقة العلماء .

وتقرر تدريس العلوم الحديثة مع الترغيب فيها بالمكافأة الحسنة والترشيح لوظائف القضاء والتعليم .

إن المصاعب التي وجب تذليلها لوضع هذا التغيير موضع التنفيذ أطول شرحاً من وجوه الإصلاح بكل ما اقتضاه بحثها وترتيبها والمضي في تنفيذ قوانينها وإجراءاتها .

ومن تلك الموانع جاه العلم الذي ضاع على زمرة السلفيين الجامدين بعد أن حفظوه لأنفسهم دون الدخلاء عليهم من رجال العلوم الدينية والعلوم الدنيوية على السواء .

ومنها جيوش الطلاب والمتطلعين إلى الطلب ممن أحسوا وعورة الطريق بعد اقترابهم من نهايته الميسرة لهم على النظام القديم ، وقد يزيد عليهم في العدد طلاب الجراية والمسكن بغير أمل في نهاية قط على نظام قديم أو جديد .

ومنها قوة الجهل المطبق والظن السيئ في عقول الدهماء الذين سمعوا من الأئمة المصدَّقين أن القول بدوران الأرض كفر براح ، وأن معلم الجغرافيا مسخر من أعداء الدين ليعلم المسلمين أنها كرة مستديرة دوَّارة في الفضاء ، وأكفر منه من يعلمهم الطبيعيات ؛ لأن القول بالطبيعيات إنكار لوجود الله وإثبات لوجود المخلوقات بطبيعتها دون وجود الخلاق .

ومنها ، ولعله يجمعها بحذافيرها ، سلطان ولي الأمر إذ أدرك بعد حين أن الإصلاح قدت فوَّت عليه سلطانه ، فوَّت عليه الغنيمة التي كان يجنيها لنفسه ويغدق منها على خدامه وحواشيه .

قال الخديو في الاحتفال بخلع الكسوة على الشيخ عبد الرحمن الشربيني شيخ الجامع الجديد : " إن الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية إسلامية تنشر علوم الدين الحنيف في مصر وجميع الأقطار الإسلامية ، وأول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الأزهر الشريف ، والشغب بعيداً عنه ، فلا يشتغل علماؤه إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الأفكار ؛ لأنه هو مدرسة دينية قبل كل شيء "

وقد صدرت المراسيم بعد خروج الشيخ محمد عبده باختيار شيخين من الحزب القديم لأكبر المناصب الدينية ، وهما منصب الإفتاء ومنصب مشيخة الأزهر ، فعين الشيخ عبد القادر الرافعي مفتياً للديار المصرية وعين الشيخ عبد الرحمن الشربيني شيخاً للأزهر .

ولقد صرَّح شيخ الأزهر عبد الرحمن الشربيني في حديث نشرته صحيفة الجوانب المصرية ١٣ مارس ١٩٠٥ م فقال عن رأيه في الغرض من إنشاء الأزهر : " إن غرض السلف من تأسيس الأزهر إقامة بيت لله يعبد فيه ويؤخذ فيه شرعه ويؤخذ الدين كما تركه لنا الأئمة الأربعة رضوان الله عليهم ، وأما الخدمة التي قام بها الأزهر ولا يزال يؤديها فهي حفظ الدين لا غير ، وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للأزهر به ولا ينبغي له " .

ثم قال عن إصلاح التعليم : " إن الذي حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني فيه ويحول هذا المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب تجارب الدين وتطفئ نوره في هذا البلد وغيره من البلاد الإسلامية ... وإني أسمع منذ سنوات بشيء يسمونه حركة الأزهر ، أو إصلاح الأزهر ، ولكنني لم أر لهذه الحركة وهذا الإصلاح من نتيجة سوى انتشار الفوضى في ربوعه "

ثم قرن بين حركة الإصلاح والسياسة : " إني رأيت الكثيرين من إخواني خَدَمَة العلم في منصب المشيخة فوجدتهم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة وأشدهم فراراً من مظاهر الدنيا الباطلة "

وهذا هو شرط الأزهري الصالح في عرف المشيخة التي اختارها ولي الأمر لتعتدل به من طريق الزيغ والشغب إلى طريق الإيمان والأمن ! معهد يستبد ولي الأمر بإدارته وتعلميه ليستخدم سمعته الدينية في تعزيز سلطانه وتوفير ثروته ، ثم يكل المشيخة فيه إلى أناس يردونه في القرن العشرين مدرسة كبرى لا تعرف شيئاً عن علوم الأعصر ولا تدري شيئاً عن الدنيا والديوان ، لأن كل شيء عن الدنيا والديوان إنما هو سياسة تترك لولي الأمر ولا يحسن برجل الدين أن يعرض لها من قريب أو بعيد ! (١)

مذهب محمد عبده في النقل والعقل والمصلحة

كان محمد عبده يحاول أن يجمع بين النقل الصحيح والعقل الصريح ، والعقل الصريح هو المستقيم الذي لا يفرق بين المتماثلات، ولا يجمع بين المختلفات، وبين النقل الصحيح هو الثابت من اليقينيات كذلك الذي قامت عليها الأدلة، وما خالف

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول علاقة محمد عبده بالأزهر راجع كتاب العقاد " عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده " مكتبة مصر ، فصل " في الأزهر " .

دلك وشذ عنه إنما هو خيالات وأهواء سميت عقليات، أو هو نقل مكذوب منتحل لا تصح نسبته إلى الله ورسوله.

فالشيخ محمد عبده كان : " أبداً داعٍ إلى أن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين ، فالدين عرف بالعقل ولا بد من اجتهاد يعتمد على الدين وعلى العقل معاً ، حتى يستطيع المسلمون أن يواجهوا الأوضاع الجديدة في المدينة الحديثة مقتبسين منها ما يفيد وينفع ، وإذا كان المسلمون لا يستطيعون أن يعيشوا في عزلة فلابد لهم أن يتسلّحوا بما يتسلح به غيرهم وأكبر سلاح في الدنيا وهو العلم " (١)

يقول العقاد عن ثقافة محمد عبده ومنهجه في البحث والاجتهاد : " وقد درس حكمة الفلاسفة النظريين ، كما درس فلسفة المعتزلة ، وعلماء الكلام ، ومذاهب الفقهاء من أسرى النصوص ومن أصحاب التأويل.

ولم يكن قط من " أهل الظاهر " الذين يأخذون بالحرف ويدينون بالتقليد .

ولكنه كذلك لم يكن قط من " أهل الباطن " الذين يفهمون " الباطنية " على أنها رفض للظاهر وانقطاع عن الواقع ونبذ للحياة وانصراف عن شواغل المعيشة التي يشتغل بها الأحياء في دنياهم ، أو يحسبون الباطنية ضرباً من " الدروشة " والمسكنة المختارة على مذهب المجاذيب من أبناء الطريقة .

إنما كان رفضه للظاهر رفضاً للقشور وألوان الطلاء (من كلام قدامى العلماء وليس نصوص الدين) . وكان بحثه عن الباطن بحثاً عن حقيقة المعنى الصحيح من وراء اللفظ .

إنما رفضه للظاهر المموه بحثاً عن الواقع الذي خلص من التمويه ، فهو واقعي عملي في صميم الواقع الذي يصلح للعمل النافع ، وهو يقترب من وسائل العمل كلما ابتعد من ظاهر الطلاء والتمويه فيما يتداوله الناس من الأباطيل ، وغيره على غير هذه السجية من حياة العمل الواقعية كلما أمعنوا في البحث عن باطنهم المحجوب أو خيالهم البعيد .

فهو مصلح فيلسوف بكل ما شئنا من معاني الإصلاح والفلسفة .

هو مصلح يتصل إصلاحه بالتفكير كما يتصل بالعمل ، وهو فيلسوف حين تكون الفلسفة حكمة يروض بها الحكيم نفسه على المسلك الذي ينبغي له كما يراه والغاية

---

(١) نقلا عن رفعت السعيد "حسن البنا متى وكيف ولماذا ؟" دار الطليعة الجديدة سوريا دمشق ص ٣١

التي يسعى إليها كما هداه الفكر إليها . وهو فيلسوف حين تكون الفلسفة بحثاً عن سر الوجود ورأياً في كليات الحقائق يحيط بأجزائها ويستعان به على تفسير الأجزاء ." (١)

كان محمد عبده يشارك المعتزلة في تحكيم العقل والاستهداء به إلى هدى الدين ، ولكنه لا يرى رأيهم في الاستغناء بالعقل وحده ، لأنه يفرق بين مطابقة الدين للعقل وبين الاكتفاء بالعقل في المسائل النظرية والشرعية ، إذا لا بد من تسليم العقل بنصيب الشرع من الهداية ، ما دام العقل يعلم أنه لا ينفذ إلى كنه الأشياء ، وأن العقول الإنسانية موكولة إلى حكمة الغيب حيث وقف بها مدى التفكير .

كما يخالف رأي المعتزلة في مجادلاتهم العقيمة حول مسألة الصفات وما تفرع عليها من الكلام عن خلق القرآن الكريم .

وهو مع المتكلمين في استخدام القضايا المنطقية ، ولكنه يأخذ على غُلاتهم أن استخدام المنطق يذهب بهم إلى السفسطة أحياناً ، ويدفع بهم إلى خلق المشكلات بينهم وبين الفلاسفة أو المعتزلة ، في غير داعٍ إلى الإشكال .

وهو مع المتصوفة أو على الأصح مع الحكماء المتصوفين ولا سيما الأخلاقيين ؛ لأن التصوف عنده رياضة خلقية على هدى الرياضة العقلية ، لكنه يرى لهذه الرياضة جانباً غير الجانب الحسي من الحياة الدنيوية يسميه " ذوقاً " ويحمد من صاحبه أن يروض عليه ضميره ووجدانه ، ولا يدين به أحداً من المقيدين بالحياة الطبيعية أو الحياة الحسية ؛ لأن الأمر في هذه الحياة لما يستقيم عليه صلاح الجماعة ، ولا محل فيه للذوق الخاص الذي لا تراض عليه طبيعة العموم .

وجماع القول في مذهب محمد عبده أنه كان مذهب " المصلح الإسلامي المفكر " الذي أعطى التفكير النظري كل حقه ، ولكنه أخذ منه حق العمل على الإصلاح الرشيد المستنير ، واستخلص منه العقيدة الإسلامية الخالصة من عقبات الجمود والخرافة التي تصدها عن التقدم وتقعد بها عن مسايرة الزمن والتأهب للحياة بأهبة العقل البصير والضمير الحر والكفاية الخلقية والمادية لمناهضة القوة المستطيلة عليها بسلاح العلم والمال – تلك القوة التي أنزلت المسلمين في العصر الحديث منزلة المغلوبين المستبعدين ، ومن حقهم لو عرفوا دينهم حق معرفته أن يرتفعوا بأنفسهم عن مهانة الخنوع والاستعباد . (٢)

---

(١) العقاد " عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده " مرجع سابق ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .
(١) نفسه ص ٢٥٠ ، ٢٥١

موقف محمد عبده من قضايا المرأة

كان محمد عبده يعتقد أن من أخطر أسباب الضعف التي أصابت المسلمين كما قال في دره على " هانوتو " : " إن النساء قد ضرب بينهن وبين العلم بما يجب عليهن في دينهم أو دنياهن بستار لا يدري متي يرفع " وقد قال في إحدى خطب الجمعية الخيرية الإسلامية : " نحن نتمنى تربية بناتنا ، فإن الله تعالى يقول :

{ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ } .. إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تشرك الرجل والمرأة في التكاليف الدينية والدنيوية ، وتترك البنات يفترسهن الجهل وتسهوين الغباوة من الجرم العظيم . " (١)

محمد عبده والفنون الجميلة

ويعرض محمد عبده لحكم الشريعة في الفنون الجميلة فيقول : " إذا كان القصد منها تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجثمانية – فأقول إن الراسم قد رسم والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال ، أو الصورة قد انمحى من الأذهان . فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة وإما أن ترفع سؤالاً إلى المفتي يجيبك مشافهة ، فإذا أوردت عليه حديث : " إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ " رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ ، أو ما في معناه مما ورد في الصحيح فالذي يغلب على ظني أنه سيقول لك أن الحديث جاء في أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين : الأول اللهو ، والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين . والأول مما يبغضه الدين ، والثاني مما جاء الإسلام لمحوه . والمصور في الحالين شاغل عن الله ممهد للإشراك به ، فإذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات ، وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف وأوائل الصور ولم يمنعه أحد العلماء . مع أن الفائدة في نقش المصاحف موضوع نزاع ، وأما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكر .. ولا يمكنك أن تجيب المفتي بأن الصورة على أي حال مظنة العبادة فإني أظن أنه يقول لك : إن لسانك أيضاً مظنة الكذب ، فهل يجب ربطه مع إنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب ؟ وبالجملة يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من تحرم وسيلة من أفضل

---

(١) نفسه ص ٢٦١

وسائل العلم بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين ، ولا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل . على المسلمين لا يتساءلون إلا فيما تظهر فائدته ليحرموا على أنفسهم منها ، وإلا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو ما سماهم بعضهم من الأولياء وهم ممن لا تعرف لهم سيرة ولم يطلع لهم أحد على سريرة ؟ وهم يخشونها كخشية الله أو أشد خشية ويطلبون منها ما يخشون أن لا يجيبهم الله فيه ويظنون أنهم أسرع إلى إجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى .. لا شك أنهم لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد ، ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الإنسان والحيوان ؛ لتحقيق المعاني العلمية وتمثيل الصور الذهنية " [١]

ومحمد عبده هنا يشير إلى المفتي بصيغة الضمير للغائب ولا يجزم بفتواه جزم التوكيد ؛ لأنه يكتب تلك الرسائل من أوربة ويوقعها بتوقيعه المستعار كما تعوَّد في كتابة رسائل الرحلات .

رأي محمد عبده في ذات الله وصفاته

الإله في العقيدة الإسلامية كما يبسطها محمد عبده في كتبه هو " الوجود الكامل المطلق " وكل ما عداه من المخلوقات فهو وجود ناقص محدود .

وكمال الله تعالى لا ينفي إرادة الخلق على قول أرسطو في الإرادة ، ولا يقتضي قدم المخلوقات الناقصة المحدودة متفرقة أو مجتمعة فيما نسميه العالم أو الكون ، ولا يمنع العقل أن يكون هذا العالم حادثاً وأن يكون الله قد أحدثه من العدم بقدرته ، لأن القدرة هي إمكان القادر ما لا يمكن غيره ، ومعنى قدرة الخالق المطلق أنه يمكنه ما ليس بالممكن بغير قدرته المطلقة، فلا وجه هنا للاستحالة مع الوجود المطلق الذي ليست له حدود .

وصفات الله التي يقتضيها الكمال واجبة وجوب وجوده على أكمل صفة ، فإذا جاء الشرع بصفات غير مستلزمة عقلاً فلا يجوز للفيلسوف أن يرفض صفة من الصفات لا يمنع العقل نسبتها إلى الكمال المطلق . ولا معنى للجدل العقيم في استكناه هذه الصفات لأن العقل الإنساني لا ينفذ إلى كنه شيء من الأشياء ، فضلاً عن كنه الوجود الأوحد الذي ليس له مثيل يقاس عليه .. وعلم العقل الإنساني بقصوره يلهمه تفويض الإيمان بمسائل الغيب ومسائل الشرع التي لا يتطلبها العقل

---

(١) نقلاً عن العقاد " عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده " مكتبة مصر " ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

على صورة من الصور غير صورتها في الدين ، كشعائر الفروض وإعداد الركعات في الصلوات ، العبادة ومقادير الزكاة وما إليها ، فإن العقل يتقبلها لأنها ضرورية على صورة من الصور ، وليس له أن يرفضها على صورة دون صورة.

فالوجود المطلق لا يحده الزمان لأنه يخلق الزمان ، ولا موجب إذن للحيرة في قدم العالم أو حدوثه ؛ لأن الله قادر على أن يخلقه مع الزمان ، ولا داعية لحيرة العقل في أمر حدوثه وقدمه على هذا الاعتبار .

ويقول رشيد رضا في المتشابهات الواردة في شأن عالم الغيب : إن لعلماء لمسلمين في مثلها طريقتين :

(إحداهما) : طريقة السلف وهي التنزيه الذي أيَّد العقل فيه النقل ... وتفويض الأمر إلى الله تعالى في فهم حقيقة ذلك مع العلم بأن الله يعلمنا بمضمون كلامه ما نستفيد به في أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا ويأتينا في ذلك بما يقرِّب هذه المعاني من عقولنا ومخيلاتنا .

(والثانية) : طريقة الخلف وهي التأويل ، يقولون إن قواعد الدين الإسلامي وُضعت على أساس العقل فلا يخرج شيء منها عن المعقول ، فإذا جزم العقل بشيء وورد في النقل خلافه يكون الحكم العقلي القاطع قرينة على أن النقل لا يُراد به ظاهره ولا بد له من معنى موافق يحمل عليه فينبغي طلبه بالتأويل .

(قال الأستاذ محمد عبده) : وأنا على طريقة السلف في وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بالله وصفاته وعالم الغيب ، وإننا نسير في فهم الآيات على كلتا الطريقتين لأنه لا بد للكلام من فائدة يُحمل عليها ؛ لأن الله عز وجل لم يخاطبنا بما لا نستفيد له معنى . [١]

والذين يقولون أن البعث بالأرواح حتم يوجبون استحالة البعث بالأجسام في غير استحالة معقولة ؛ لأن قدرة الله لا يمتنع عليها تبديل الجسد في إبان الحياة ، ولا داعية للحيرة في مقادير المادة التي تتألف منها الأجساد الحيوانية جميعاً ؛ لأن الإله الذي خلق المادة ابتداءً يخلقها كرة أخرى بما يشاء لها من المقادير .

ومسألة القدر – على أي من معانيه – لا تلغي إرادة الإنسان كما ينبغي أن تكون إرادة المخلوق المحدود ولا تبطل الجزاء كما ينبغي لتلك الإرادة ، والعلم السابق

---

(١) محمد رشيد رضا " مجلة المنار " ج ٣٢ ص ٧٥٨

بالتكليف والعقاب لا يقتضي بطلان الإرادة النفسية ؛ لأن الإنسان قد يريد عامداً ما ما يعلم أنه معاقب عليه . وإذا كان علم الله بعمل الإنسان حقيقة فحقيقة مثلها أنه له إرادة على قدر وسعة ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها على أية حال .

وإذا بقي من هذه الخلافات شيء لا تبطل فيه الحيرة فهو الشيء الذي يقضي العقل بالتفويض فيه إلى لله ؛ لأن فهمه والتسليم فيه للغيب سواء .

ويخيل إلى قارئ الفلسفة حين يراجع أقواله في العقائد العضدية ورسالة التوحيد أنه فرغ من هذه الأقوال جميعاً وهو يقول لنفسه : إن المفيد هو أن نعمل ما لا بد من عمله ، فدعونا من إضاعة الوقت والعقل في تحصيل الحاصل ، ودعونا من الخلاف فيما يتساوى فيه طرفا الخلاف ، فإن ترك الحيرة أولى من الحيرة التي لا تنتهي إلى طائل .

ولم يكن محمد عبده يكفر من قال أن الله أو جد العالم في القدم ، وإن يكن مخطئاً في التفكير .

وفي ذلك يقول محمد عبده : " ومن المعلوم أن من سلك طريق الاجتهاد ولم يعول على التقليد في الاعتقاد ، ولم تجب عصمته فهو معرض للخطأ ، ولكنه خطأ عند الله واقع موقع القبول ، حيث كانت غايته من سيره ، ومقصده تمحيص نظره أن يصل إلى الحق ويدرك مستقر اليقين " (١)

ولم يقف محمد عبده موقف ابن تيمية الجامد في عدم جوازه تأويل صفات الذات إنما على المسلم الإيمان بآيات الذات والصفات في إطار قوله تعالى ليس كمثله شيء ومن يعجز فهمه عن إدراك كنهها يفوض فيه الأمر إلى لله .

كما نهى عن كثرة الجدل في هذه الأمور الغيبية وشغل الناس بها عن جادة الأمر. فأمام المسلم تحديات كثيرة سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية وثقافية يجب أن يوليها اهتمامه . فبلاد الإسلام محتلة سياسياً ومنهوبة اقتصادياً ومتخلفة علميّاً وثقافياً ، وممزقة اجتماعياً .

تلاميذ محمد عبده

وقد كان لمحمد عبده في مذهبه هذا تلاميذ يؤمنون بالفكر والعقيدة في أرجاء العالم الإسلامي من أقصاه في المشرق إلى أقصاه في المغرب ، وكان أكثر هؤلاء

---

(١) العقاد " عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده " مرجع سابق ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

من قادة الفكر المتدينين يقومون بواجبهم المضاعف في كل بلد إسلامي كما قام به محمد عبده في وطنه ، فيكافحون الجمود من جهة ويكافحون التفرنج الذميم من الجهة الأخرى ، ويتعرضون في وقت واحد لعداوة المتألبين عليهم من أنصار الاستعمار والاستبداد وأنصار الجهل المظلم والتعليم الفاسد ، وفئات النفعيين الذين يندسون بين جميع الصفوف ، حيث وجدت المنفعة على كل حساب ، ولو كان حساب الوطن والدين .

على أن تلاميذ محمد عبده كانوا فئة معدودة تحسب بالآحاد في كل أمة من الأمم العالم الإسلامي ، وكان عليهم أن يعيدوا دعوته بألسنتهم وأقلامهم مرة أخرى حتى تبلغ إلى الأسماع والعقول ، وإنما انتشرت دعوته إلى الإصلاح أوسع انتشارها بين قراء تفسيره للقرآن وفتاواه لطلاب الفتيا الكثيرين ومقالاته وفصوله التي كانت تنشر بتوقيعه أو بغير توقيعه ولا تخفى نسبتها إليه لنشرها في مجلة " المنار " وقد نشأ مسلمو أندونيسيا مجلة على مثالها سموها : المنير " تبلغ هذه الدعوة لمن يقرءون العربية من أبناء الأمة الملاوية ، وتتبع مسلمو الهند دروسه كما توجهوا إليه بالاستفتاء في كل مشكلة من مشكلاتهم الاجتماعية التي تصطدم عنهم بالعقيدة الدينية .

وبرزت حقيقة محمد عبده في كل مهمة تتطلب الرجال العاملين من المفكرين المؤمنين بفريضة الإصلاح ورسالة التقدم ، فقد شوهد تلاميذ المصلح الكبير على أس كل حركة جادة من حركات النهضة الوطنية أو الفكرية ، وتلفتت الأمة بعد وفاته تبحث عن القادة العاملين فلم تجد بين المتقدمين للقيادة من هو أقدر على قيادتها وتسديد خطاها وتقرير مطالبها من زمرة الفقيد وخيرة أشياعه وتلاميذه ومريديه ، لا فرق في ذلك بين شئون الدنيا وشئون الدين ، وحسب القارئ ما يمكن حصره في الشئون الدينية التي تتصل بالجامع الأزهر ومعاهد التعليم على منهجه ، فلم يكن أظهر بين مشايخه وأقطابه من الشيخ محمد شاكر ، والشيخ مصطفى المراغي ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ إبراهيم حمروش ، والشيخ محمود شلتوت ، وكلهم من مريديه المؤمنين برسالته ، وغيرهم كثيرون مثلهم وإن لم يحضروا كلهم على يديه ، أما في شئون النهضة الوطنية على اختلافها فلا حاجة إلى التخصيص باسم واحد من أسمائها أو فرع واحد من فروعها ، فكلها بلا استثناء تقترن باسم – أو أكثر من اسم – بين شيعة محمد عبده وقد كانت ثورة مصر الكبرى على الحملة البريطانية بعد الحرب العالمية الأولى – بزعامة سعد زغلول

– مثالاً للأمانة الخلقية والنفسية التي أودعها محمد عبده في نفوس شيعته وخاصة صحبه ، وأهّلتهم في نطاقها الواسع لتلك المهمة الجامعة ، كما أهّلتهم لما دونها من المهام المتفرقة كل نطاق محدود .

وأكبر ما استفاده العقل السليم المستنير من فكر محمد عبده في الإصلاح والحرية الإنسانية أنه أعاد إليه الثقة بعقيدته في هذا العصر الحديث ، ورفع من طريقه إلى العمل عقبات الجمود والخرافة والتقليد ؛ لأنه زوّده على قواعد دينه بفلسفة الحياة التي يقابل بها فلسفات الغرب المتسلطة عليه من جهة السطوة أو من جهة الإيمان بالعقائد والآراء ، ولهذا كانت ردوده على فلاسفة الغرب ومفكريه أهم وأجدى على المسلم العصري من ردود المدافعين عن الإسلام على جماعات المبشرين المحترفين، إذ كانت شبهات المبشرين المحترفين لا تعدو أن تدور حول الشقاشق اللفظية التي تمس الأديان الأخرى أشد من مساسها بالإسلام في العصر الحاضر أو العصور الماضية ، لكن شبهات المفكرين على غرار الفيلسوف " أرنست رينان " والوزير " جبرايل هانوتو" كانت على غير ذلك الغرار من شبهات المبشرين المحترفين : كانت بحاجة إلى الفكر العصري المؤمن بالدين لمواجهة الأفكار العصرية التي لعلها لا تؤمن بالإسلام ولا بغير الإسلام ، ولكنها تخامر فكرة المسلم كما تخامر ضميره بالأسئلة المعلقة في انتظار الجواب من ذي ثقة باعتقاده وذي ثقة بتفكيره وذي طويَّة لا ترتقي إليها الظنون ، وكان الأستاذ الإمام محمد عبده مليئاً بكل ما يتطلبه العقل المسلم المستنير في عصره من آيات الثقة وحجج الاقتناع .

ولم ينزل محمد عبده إلى مضمار هؤلاء المستشرقين إلا ليدفع عن عقيدة الإسلام دون أن يقدح في عقيدة المسيحية ، بل كان دفاعه عن الإسلام في وجه الأوربيين المصطبغين بالصبغة المسيحية وهم أبعد ما يكونون عن المسيحية السمحة كما يعرفها محمد عبده .

ولم يخرج من ردوده بتنزيه الإسلام وتشويه المسيحية . بل خرج منها جميعاً بتنزيه الديانتين وإثبات الحقيقة التي يدين بها من يدين بكتاب الإسلام : وهي أن المسيحية ديانة محبوبة لا عداوة بين من يدين بها على أصولها ومن يدين بالإسلام على أصوله ، ولا يحرم على المسلم يوماً أن يصاحب أهل الكتاب .[1]

---

(١) العقاد " عبقري الإصلاح والتعليم محمد عبده " مرجع سابق ص ٢٥٦ – ٢٥٨ بتصرف

ومازلت حتى الآن بعض الجماعات السلفية تحرم على المسلم تهنئة غير المسلم في أفراحه وتعزيته في أتراحه بل أن غير المسلم في عرف هؤلاء كفار كأبي جهل لا يجوز التعامل معهم فضلاً عن مؤاكلتهم أو الزواج من نسائهم وإن جاء القرآن الكريم بإباحة هذا { الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ }
(المائدة : ٥)

عبد الرحمن الكواكبي

عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ – ١٩٠٢م) مفكر وعلامة سوري رائد من رواد التعليم ومن رواد الحركة الإصلاحية العربية وكاتب ومؤلف ومحامي وفقيه شهير.

ولد في مدينة حلب لعائلة لها شأن كبير، في مدينة حلب التي كانت تزدهر بالعلوم والفقهاء والعلماء درس الشريعة والأدب وعلوم الطبيعة والرياضة في المدرسة الكواكبية التي تتبع نهج الشريعة في علومها، وكان يشرف عليها ويدرِّس فيها والده مع نفر من كبار العلماء في حلب.

لم يكتفِ بالمعلومات المدرسية، فقد اتسعت آفاقه أيضاً بالاطلاع على كنوز المكتبة الكواكبية التي تحتوي مخطوطات قديمة وحديثة، ومطبوعات أول عهد الطباعة في العالم، فاستطاع أن يطلع على علوم السياسة والمجتمع والتاريخ والفلسفة وغيرها من العلوم.

بدأ الكواكبي حياته بالكتابة إلى الصحافة وعين محرراً في جريدة الفرات التي كانت تصدر في حلب،وعرف الكواكبي بمقالاته التي تفضح فساد الولاة .

أصدر في حلب صحيفة «الشهباء» عام ١٨٧٧، وكانت أول صحيفة تصدر باللغة العربية، وسجلها باسم صديقه كي يفوز بموافقة السلطة العثمانية أيامها وبموافقة والي حلب. لم تستمر هذه الصحيفة طويلاً، إذ لم تستطع السلطة تحمل جرأته في النقد.ونفس المصير لقته جريد الاعتدال التي أنشاها بعد جريدة الشهباء .

بعد أن تعطلّت صحيفتاه " الشهباء " و" الاعتدال " ، انكبّ على دراسة الحقوق حتى برع فيها، وعيّن عضواً في لجنتي المالية والمعارف العمومية في حلب، والأشغال العامة (النافعة) ثم عضواً فخرياً في لجنة امتحان المحامين للمدينة.

بعد أن أحس أن السلطة تقف في وجه طموحاته، انصرف إلى العمل بعيداً عنها، فاتخذ مكتباً للمحاماة ، وكان يستقبل فيه الجميع من سائر الفئات ويساعدهم ويحصل حقوق المتظلمين عند المراجع العليا ويسعى إلى مساعدتهم، وقد كان يؤدي عمله في معظم الأحيان دون أي مقابل مادي، حتى اشتهر في جميع أنحاء حلب بلقب " أبي الضعفاء " .

تقلد عبد الرحمن الكواكبي عدة مناصب في ولاية حلب فبعد أن عين عضواً فخرياً في لجنتي المعارف والمالية، عين مديراً رسمياً لمطبعة الولاية ورئيساً فخرياً للجنة الأشغال العامة في حلب وحقق في عهده الكثير من المشاريع الهامة التي أفاد بها حلب والمناطق التابعة لها وفي ١٨٩٢ عين رئيساً لبلدية حلب.

استمر الكواكبي بالكتابة ضد السلطة التي كانت في نظره تمثل الاستبداد، وعندما لم يستطع تحمل ما وصل إليه الأمر من مضايقات من السلطة العثمانية في حلب، سافر الكواكبي إلى آسيا: الهند والصين وسواحل شرق آسيا وسواحل أفريقيا وإلى مصر حيث لم تكن تحت السيطرة المباشرة للسلطان عبد الحميد، وذاع صيته في مصر وتتلمذ على يديه الكثيرون وكان واحداً من أشهر العلماء .

أمضى الكواكبي حياته مصلحاً وداعياً إلى النهوض والتقدم بالأمة العربية وقد شكل النوادي الإصلاحية والجمعيات الخيرية التي تقوم بتوعية الناس وقد دعا المسلمين لتحرير عقولهم من الخرافات وقد قسم الأخلاق إلى فرعين فرع أخلاقي يخدم الحاكم المطلق وفرع يخدم الرعية أو المحكومين ودعا الحكام إلى التحلي بمكارم الأخلاق لأنهم الموجهون للبشر، ودعا إلى إقامة خلافة عربية على أنقاض الخلافة التركية وطالب العرب بالثورة على الأتراك وقد حمل الحكومة التركية المستبدة مسؤولية الرعية.

ألَّف الكواكبي العديد من الكتب وترك تراثاً أدبياً كبيراً من الكتب منها طبائع الاستبداد وأم القرى كما ألف العظمة لله وصحائف قريش وقد فقد مخطوطان مع جملة أوراقه ومذكراته ليلة وفاته. له الكثير من المخطوطات والكتب والمذكرات التي طبعت. وما زالت سيرة وكتب ومؤلفات عبد الرحمن الكواكبي مرجعاً هاماً لكل باحث. [١]

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول حياة الكواكبي الرجوع إلى د. ماجدة حمود " عبد الرحمن الكواكبي فارس النهضة والأدب " من منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق ٢٠٠١م

حاول الكواكبي بذل جهده في نصرة الحق وإقامة العدل الذي ضاعت أسسه بعد أن ساد الفساد بين الولاة ؛ لذلك جنّد نفسه لمواجهة المستبدين والحكام بكل ما يملك من وسائل فكرية وعملية .

كان صالباً في مقارعة المستبد ممن يؤمنون بأن " أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر " ولا شك أن تربيته على أخلاق الدين الإسلامي ومبادئه السمحة بالإضافة إلى تعرضه لظلم السلطة حيث (صودرت أملاكه ، وسلبت منه نقابة الأشراف ، وأعطت لإنسان لا يستحقها ، وسُجن وحكم عليه بالإعدام ظلماً ، وأغلقت صحيفته ، واضطراره للهجرة إلى مصر) أدى كل ذلك إلى شحذ عزيمته لمقاومة الاستبداد ، فبدا لنا مرهف الإحساس لمعانة غيره من المظلومين يمتلك حساً بالمسئولية حيال الضعفاء من قومه الذين لا يملكون أدوات مواجهة الاستبداد .

لذلك حاول أن يفضح أساليب الظالمين من الحكام بكل ما يملكه من وسائل كما حاول أن يساند المظلومين بكل ما يملكه من إمكانات لهل أهمها القلم . [١]

كتاب أم القرى أدواء الأمة الإسلامية وأدويتها

أتاحت مقارعة سلطة الاستبداد للكواكبي والعمل بالصحافة فهم الواقع المتردي مما جعله يدرك أن التخلف مرض يصيب جسد الأمة بأكمله ، لهذا نجده في كتابه الأول " أم القرى " يحاول الوقوف على الخلل الذي أصاب المسلمين ، ويحاول أن يجمع ، عبر الخيال ، علماء المسلمين الداعين إلى الإصلاح ممن سبقوه وعاصروه مثل : الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما ليسمع آراءهم لذلك كان هذا الكتاب تجسيداً لرغبة كامنة في أعماقه يتمنى تحقيقها وهي وحدة المسلمين وقوتهم فكان الكتاب منهج عمل لدراسة الأمة الإسلامية ، ومناقشة أسباب هذا التخلف بطريقة علمية ، تنقب عن أفضل الوسائل التي تنهض بالأمة ، لهذا نجده يحدد بلسان العلماء ، مواضع الداء أولاً ثم أعراضه وجراثيمه ليقترح على هؤلاء العلماء بعد ذلك الدواء مبينين كيفية استخدامه معلنين اتحاد للمسلمين في جمعية تأسيسية تستطيع تنظيم العلاج تدعى " جمعية تعليم الموحدين " وبذلك توارى الكواكبي وراء آراء جماعة العلماء المسلمين وفقهائهم ، لينأى عن الرأي الفردي الذي لن يكون منقذاً لعامة

---

(١) د. ماجدة حمود " عبد الرحمن الكواكبي فارس النهضة والأدب " مرجع سابق ص ١٧ ، ١٨

المسلمين باختلاف أقطارهم ومذاهبهم ، وبذلك استطاع أن يقدم لنا أول مؤتمر إسلامي مُتَخيَّل يجسد رغبة حقيقية في وحدة المسلمين .

وعلى هذا الأساس اختار الكواكبي لكتابه شكلاً جديداً أقرب إلى فن الرواية إذ تخيل فيه جمعية تضم أعلام المسلمين تعقد اجتماعاً في مكة المكرمة قبل موسم الحج وقد سمعنا في المقدمة صوت الرحالة الراوي الذي هو صوت الكواكبي يقول:" فعقدت العزيمة متوكلاً على الله تعالى على إجراء سياحة مباركة بزيارة البلاد العربية لاستطلاع الأفكار وتهيئة الاجتماع في موسم أداء فريضة الحج " .

ونلاحظ أن الكواكبي حين تخيل عقد الاجتماع لم يكتف بعلماء عرب بل أضاف إليهم علماء مسلمين من كافة البلاد الإسلامية بل من بلاد غير إسلامية فالمهم لديه انتماء العالِم إلى الفكر الإسلامي بغض النظر عن بلده .

وبما أن الراوي هو الصوت الرئيس الذي يجسده صوت الكواكبي نفسه لهذا شغل حيزاً كبيراً في الكتاب ، دون أن يحاول إلغاء الأصوات الأخرى فهو يناقش أحوال المسلمين مع شخصيات أخرى تنتمي إلى الأمة الإسلامية (الفاضل الشامي، البليغ القدسي ، العلامة المصري ، المحقق المدني ، المولى الرومي ، الشيخ السندي ، الفقيه الأفغاني ، الخطيب القازاني ، السعيد الإنجليزي ..)

ولقد تعمد الكواكبي ، في هذا الكتاب ، أن يبرز وحدة الأمة الإسلامية رغم تنوع بلدانها وقد استطاع بالتالي أن يبرز تعدد الآراء والحلول من أجل معالجة هذه الأمراض .

وقد بدت لنا استفادته من إنجازات الفن الروائي حين أسبغ على العلماء أسماء وهمية مستغلاً دلالات الاسم المكانية ليفصح عن انتماء الشخصية إلى بلد إسلامي بعينه ، فتتحدث حديث العارف دون وجل عن أوضاع بلاد المسلمين ومعاناتهم ، ولا يمكن أن ننسى ظروف القهر السياسي التي أدت به إلى الاستعانة بهذه الأسماء الوهمية .. وبذلك أتاح له الشكل الفني المبتكر أن يقدم أفكاراً لا يمكن أن ينسبها صراحة لنفسه فهو ينتقد ظاهرة تقديس أقوال الفقهاء ، أي ظاهرة النقل لدى المسلمين وإغفال العقل ، فيجدهم أسرع للفروع غافلين عن الأصول لذلك نجد سعيد الإنجليزي (وهو أحد ممثلي مسلمي بريطانيا) يعلن بصراحة بأننا : " تركنا دين آبائنا وقومنا لنتبع دين محمد نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام لا لنتبع الحنفي أو الشافعي أو الحنبلي أو المالكي وإن كانوا ثقاة ناقلين "

ويجعل الكواكبي إن من جملة الأسباب التي أدت إلى تخلف المسلمين عن طريق الحوار بين علمائهم المخلصين الذين يؤدون فريضة الحج فيجعلونها متلازمة مع فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فالاقتراب من الله تعالى في هذه الفريضة يعني الاقتراب من مصالح الجماعة الإسلامية من مناقشة أوضاعها وأسباب تخلفها من أجل النهوض بها لذلك رأيناه يتوقف عند الأسباب التالية :

الأسباب الدينية

يحاول الكواكبي أن يعود بالإسلام إلى صفائه وقوته فيربطه بالحياة العامة ؛ إذ يلاحظ العبث بأركان الإسلام الأساسية ذات السمات العامة التي يجتمع فيها المسلمون (صلاة الجمعة ، فريضة الحج ، التكافل الاجتماعي ..) فيتم تحويلها إلى فريضة خاصة ، لا علاقة لها بهموم الجماعة وذلك خوفاً من الحكام المستبدين.

كما تم تشويه الدين الإسلامي أيضاً ، في رأي الكواكبي ، على يد بعض الفقهاء حين أدخلوا عليه عقيدة الجبرية ، والزهد في الدنيا ، وإماتة المطالب النفسية (حب المجد والرياسة والمفاخر) وقد شبه الكواكبي هذا التشويه الذي يشيع الجبرية في حياة المسلمين بالمخدرات أو المثبطات التي تميت كينونة الإنسان وروحه ليبقى جسده فقط على قيد الحياة ومثل هذه الميتة أقسى من ميتة الروح والجسد معاً .

ومما شوّه الإسلام أيضاً في رأيه هو التشدد في الدين والتعصب مع أن الإسلام يأباه وينكره وهو يذكرنا بحقيقة تكاد ننساها فيقول :" إن كل دين في أوليته باثّاً النظام والنشاط ، وراقياً بمعتنقيه إلى أوج السعادة في الحياة إلى أن يطرأ عليه التأويل والتحريف والتفنن والزيادات فيأخذ في انحطاط الأمة " .

لا شك أن مسئولية هذا الانحطاط تقع على رجال الدين الذين يدعوهم الكواكبي "بالمتعمّمين الجهال" وقد صاروا أضر على الدين من الشياطين إذ اقتصر همهم في النوافل والقربات ورواية الحكايات والإسرائيليات ونوادر الزهاد وكراماتهم .. هؤلاء العلماء الذين يشترون دنياهم بدينهم فيسبغون على السلطان الألقاب التي تقربهم من الشرك مثل (المولى المقدس ، صاحب العظمة ..) ويشجعونهم على الاستقلال في الرأي ومعاداة الشورى ، ونجد هؤلاء المنافقين لا يعرفون من القرآن سوى آيتين يفسرونهما وفق أهواء المتسلطين من الأمراء إحداهما قوله تعالى {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ } (النساء : ٥٩) متغافلين عن صيغة الجمع في " أولي الأمر " وما يقتضيه قيد منكم والآية الثانية { وَجَاهَدُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (الصف : ١١) متغافلين أن الجهاد في سبيل الله إعـزاز كلمـة الله لا تأييد الأمراء وحمايتهم ولذلك لم يعد الدين يستوطن القلوب وإنمـا رءوس الألسن لاسيما عند بعض الأمراء والأعاجم الذين يتظاهرون بالتدين لتمكين سلطتهم على بسطاء الأمة كما أن ظواهر عقائدهم تحكم عليهم بالشرك وهم لا يشعرون .

لذا وجدنا الكواكبي يحمّل الفقهاء مسئولية الإساءة إلى سماحة الدين حين رفضوا الحرية الدينية وتعدد التأويلات ، وشدَّدوا علـى صـحة آرائهـم مخطئـين الآراء المخالفة فأثاروا فتنة الجدل في العقائد الدينية والتعصب للمذاهب مما شوَّش أفكـار الأمة ؛ إذ كثرت فيها الآراء المختلفة في فروع الدين ، وفي بعض الأحكام الخلافية التي ليس لها في القرآن الكريم والسنة نصوص صريحة وهذه الأحكـام الخلافيـة كلها ترجع إلى دلائل إما قطعية الثبوت ظنية الدلالة ، أو ظنية الثبـوت والدلالـة ، ويرى أن منشأ اختلاف المجتهدين يعود إلى الخلافات النحوية والبيانية ثم وجـدناه يورد أقوالاً للأمة (ابن حنبل ، ومالك ، وأبي حنيفة ، والشافعي) التـي تبـين أن اجتهادهم فيما لم يرد في القرآن الكريم والسنة قابل للأخذ والرد ، فهو يلفت النظـر إلى أن هؤلاء الأئمة اجتهدوا وفق ظروف زمانهم ومتطلباته لذلك قد يكـون هـذا الاجتهاد غير صالح لزمان آخر ، وبالتالي يتوجب على العلماء في العصر الحديث الاجتهاد وعدم الركون إلى أقوال الفقهاء السابقين ، وبذلك يدعو إلى إعمال العقـل في كل ما لم يجده في النصين المقدسين (القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة) وإن وجدوه في الفروع كما يدعوهم إلى سعة الأفق وقبول الرأي المخالف لآرائهـم خاصة حين تصدر عن عالم مثلهم .

إذن يحاول الكواكبي أن يضع يده على عوامل ضعفنا وتمزقنا فيقدِّم لنا العـلاج ، مبيناً أن علينا ترك الخلافات المذهبية التي نتبعها تقليداً ، وأن نعتمد علـى صـريح الكتاب وصحيح السنة وثابت الإجماع ، لكيلا تفرقنا الآراء ، أما ما لم يرد فيه نص أو إجماع فنأخذ ما يناسبنا من أي مذهب كان دون أن نقيد أنفسنا بمـذهب معـين ، فهو يريد التوفيق بين المذاهب حلاً للخلاف بينها وتوحيداً للمسلمين ، وقد لمسنا هذه الدعوة لدى جمال الدين الأفغاني وغيره من رجال النهضة حرصاً على توحيد كلمة المسلمين .

الأسباب السياسية

وبين الكواكبي أن سبب الفساد الذي يسيطر على الفكر العام أربعة قرون هو تلك السياسة المطلقة العنان التي اتبعها الحكام ، وأن المنشأ الأصلي لكـل شـقاء هـو انحلال السلطة القانونية بسبب فسادها أو غلبة سلطة شخصية عليها وهكذا انحرفت

السياسة الإسلامية من الديمقراطية في عهد الراشدين إلى الملكية المقيدة بقواعد الشرع الأساسية ، ثم أصبحت شبه مطلقة ، ومثل هذا الانحراف أدى إلى ضعف المسلمين .

ويرى الكواكبي أن من فروع الحرية بالإضافة إلى الحرية السياسية في اختيار الحاكم حرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات وحرية البحث العلمي لذلك نجده معنيّاً بإبراز مكانة الحرية فهي " أعز شيء لدى الإنسان بعد حياته وحين نفقدها نفقد الآمال ، ونبطل الأعمال وتموت النفوس وتتعطل الشرائع وتختل القوانين " وبذلك تصبح قوام الحياة والتطور فإذا فقدناها ساد في حياتنا الضعف والفساد والدمار .

وينبه الكواكبي إلى طرفي المعادلة الرئيسيين : الحكام والمحكومين فلا يلقي تبعة الاستبداد وتخلف البلاد على عاتق الحكام فقط فالمحكوم مسئول عن ضعفه وجهله {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} (الرعد:١١)

إهمال العلم

ويجعل الكواكبي إهمال العلم والعلماء من الأسباب الأساسية التي تسهم في ضعف الأمة لذا فإنه يربط النهوض السياسي بالنهوض التعليمي ويبرز كيف أساء الحكام إلى الأمة حين أهملوا العلم وأفقروا العلماء وقربوا المدلسين ، فوّضوا خدمة الدين إلى الجهلاء .

ومن أسباب ضعف الأمة أيضاً : اقتصارها على العلوم الدينية وإهمال العلوم الرياضية والطبيعية وهو يلفت النظر إلى أن هذه العلوم آخذة في النمو في الغرب فيلتقي في نقده هذا مع رواد النهضة فقد رأينا رفاعة الطهطاوي يبين أن العلماء في الغرب ليسوا علماء دين كالشرق إذا يطلق عليهم اسم العلماء على من له معرفة بالعلوم العقلية .

وقد بين الكواكبي أن دواء الضعف والتخلف يكمن في الاهتمام بهذه العلوم العقلية النافعة ، كما كان المسلمون في الماضي فيجلبون إلى دينهم منجزات العالم المتمدن ويبعدون عن عقولهم الخرافات وهو ينبهنا إلى خطورة الابتعاد عن العلوم إذ يتحول الإنسان إلى حيوان كما قال تعالى : { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ } (الزمر: ٩)

أسباب إخلاقية

إن ما يقصده الكواكبي بالأسباب الأخلاقية هي الأسباب التربوية والاجتماعية والاقتصادية أي جميع مناحي الحياة التي أسهمت في فتور المسلمين .

من تلك الأسباب ترك المرأة دون تعليم بدعوى أن تعليمها يؤدي إلى الفجور فبيَّن أن هذه الدعوة باطلة إذ " ربما كانت العالِمة أقدر على الفجور من الجاهلة ولكن الجهل أجسر عليه من العالمة " .

ويوضح الكواكبي أن جهل المرأة لا ينعكس على ذاتها فقط وإنما يتعدى إلى الزوج والأولاد فالرجل " ينجر طوعاً أو كرهاً لأخلاق زوجته فإن كانت سافلة تسفل لا محالة ، وإن كانت غريبة بغضته في أهله وقومه وجرَّته إلى موالاة وقومها ، ولا شك أن هذه المفسدة تستحكم في الأولاد وأكثر الأزواج وربما كان أكبر مسبب لانحلال أخلاق الأمراء المسلمين أتاهم من جهة الأم والزوجات السافلات ، إن أعظم الرجال لا يوجدون غالباً إلا من أبناء وبعول نسوة شريفات أو بيوت قروية " .

وهكذا فإن التردي الاجتماعي والتربوي الذي تعيشه المرأة لا بد أن ينعكس على الحياة السياسية ، ويسهم في ترديها أيضاً فالمرأة الحرة تنشئ الأحرار ، والعبدة تنشئ العبيد .

التفرنج

هناك مرض آخر عانى منه الإنسان المسلم ومازال يعني وهو التفرنج وذلك حين يظن أن الكمال في الأجانب فيندفع إلى تقليدهم مهملاً واجباته الدينية وعاداته القومية التي تهبه هوية خاصة به لذلك يرى من الواجب محاربة المتفرنجين بكل وسيلة بل نجده يدعو الأدباء إلى ممارسة دورهم في التوعية وذلك بوضع الأهاجي والأناشيد بعبارات بسيطة كي تنتشر على ألسنة العامة ؛ فيتم القضاء على هؤلاء الواهنة ونشر قيم أصيلة بين العامة .

الأسباب الاقتصادية

انتبه الكواكبي إلى أن الأسباب السياسية التي رأينا بعض ملامحها سابقاً في ضعف المسلمين أدت كذلك إلى ضعفهم من الناحية الاقتصادية فقد انحصر هَمُّ النظام السياسي بالجباية المقلوبة ، أي في الأخذ من الفقراء وإعطاء الأغنياء ،

وكذلك بات الاهتمام بالجندية مشجعاً الناس على تفضيل الارتزاق بها وترك الصنائع .

كذلك نجده يبين أثر إهمال الحقوق العامة على النفوس إذ تصاب باليأس والخمول فتترك العمل بعد أن فقدت الحافز الذي دفعها لبذل الجهد ما دام العدل مفقوداً وهذا يؤدي إلى افتقاد الإنسان الإحساس بالأمان وهذا الإحساس يعد ضرورياً لاستمرار أي عمل وتطويره .

أما إهمال الرابطة الدينية فقد تجلى في انحلال نظام الحسبة (المراقبة) كما تجلى في فقدان القوة المالية الاشتراكية بسبب التهاون في الزكاة .

وقد بدا داء الفقر لدى الكواكبي داءً عاماً فهو " قائد كل شر ورائد كل نحس فمنه جهلنا ومنه فساد أخلاقنا بل منه تشتت آرائنا في ديننا ومنه فقد إحساسنا " فهو إذن سبب كل المصائب التي تحيط بالمسلمين (الجهل ، والفساد ، والذل و التهاون في الدين ..)

وهو يحاول أن يبعد اليأس عن المسلمين ويبث الثقة في نفوسهم فيبين أن المسلمين يملكون مقومات النهضة من حيث تكوينهم الفطري ، وعددهم الكثير ، وغنى أرضهم وشرع الله القويم ، لذلك لا ينقصهم عن الأمم الحية غير القوة المالية، التي أصبحت لا تحصل إلا بالعلوم وبالفنون والعالية وهذه لا تحصل إلا بالمال الطائل فوقعوا في حلقة مفرغة عسى أن يهتدوا لفكِّها .

إنه يدل الأمة على طريق النهوض فيدعوها لامتلاك القدرة المادية التي لن تحققها إلا برعاية العلم والعلماء ، ويلفت نظرنا اهتمام الكواكبي بالقدرة الروحية التي تحققها الفنون فترتقي بإنسانية الإنسان فتشكل أساساً قوياً لامتلاك القوة المالية ، نجده يدعو إلى إتقان العمل فيعطي العمل وقتاً مناسباً وتفرغاً وأن ينفق على قدر ما يكسب ويرتب أموره الدينية والدنيوية بما يتناسب مع دخله وأن يقتصد في النفقة من أجل مرحلة العجز وأن يربي أولاده (ذكوراً وإناثاً) على الاعتماد على النفس .

وقد نبَّه منذ وقت مبكر إلى جانب فكري مهم أسهم في تخلفنا وضعفنا ، هو افتقاد النقد إذ بفضل النقد نتعرف على عيوبنا ونحاول تجاوزها كما نتعرف على محاسننا فنقوم بتطويرها مما ينعكس إيجابياً على حياتنا الأخلاقية والسلوكية .

ولكن أين يكمن الخلاص والأمل لدى الكواكبي ؟

أين يكمن الخلاص ؟

إن هذا الخلاص ، في رأي الكواكبي ، لن يكون إلا لدى الشباب المتدين الذي يحرص على القيام بواجباته الدينية ويتجنب المنكرات لا يفتخر بعظام نخرها الدهر ولا يرضى أن يكون حلقة ساقطة بين الأسلاف والأخلاف ؛ لأنه يملك شخصية متميزة غير ممسوخة لذلك يأبى الذل والأسر ويود أن يموت من أجل كرامته ويحب وطنه ولا يبخل عليه بفكره ووقته وماله ويعلم أن الإنسانية هي العلم والبهيمية هي الجهل، يعرف أن خير الناس أنفعهم للناس ، وأن القنوط وباء ، وأما القضاء والقدر فهما السعي والعمل "

لقد جعل الكواكبي القضاء والقدر مرادفين للعمل والسعي بعد أن كانا مرادفين للتواكل والاستسلام في عصور خلت !!

وكأن الكواكبي كان يتنبأ بالربيع العربي حيث جاء الحل على يد ثورة شباب متدين ، ذكي ، متعلم ، محب لدينه ووطنه ، متفائل .

وهذه سمة المفكرين العظام يموتون وتبقى كلماتهم خالدة يُنْتَفَعُ بها على مر العصور وتتابع الدهور ، ولا سيما إذا كانت تستمد معانيها من كتاب الله تعالى وسنة رسوله.

إن الكواكبي يقدم فهماً جديداً للموروث الديني كي يجعه عامل دفع وبناء للإنسان لذلك يذكرنا بأن الله تعالى جلَّت حكمته رتَّب هذه الحياة على أسباب ظاهرية ولم يشأ أن يجعلها كالآخرة عالم أقدار ، فالتغيير لا بد له من معرفة الأسباب العقلية التي تقضي على مسببات الضعف لهذا دعا إلى تربية تعتمد مبادئ قومية تبني الإنسان من الداخل مما يجعله نواة رأي عام لا يتطرق إليه التخاذل .

وقد لاحظ الكواكبي أننا نفتقد في أمتنا إلى الحكماء (المثقفون عند العقاد) ذوي النشاط والعزم الذين ينبهون الناس ويرفعون الالتباس " فيجمعون بين الفكر الواعي والعمل بعزم ، ويضحون بأعز ما لديهم حفظاً لشرفهم الذي لا يقوم إلا بشرف قومهم بل حفاظاً لحياتهم وحياة قومهم من أن يصبحوا أمواتاً متحركين في أيدي أقوام آخرين " .

إنه يحمل المثقف مهمة إيقاظ الناس وتوعيتهم حتى يستطيعوا معرفة واجباتهم وحقوقهم ، وهو لن يستطيع القيام بهذه المهمة إلا إذا امتلك القدرة على التضحية

وإلغاء أنانيته عندئذ يستطيع أن يمتزج بقومه امتزاجا قويًا فيرى شرفهم هو شرفه وحياتهم هي حياته وبذلك يتفاعل الخاص بالعام لديه .

وقد رأي الكواكبي في انعزال العلماء الحقيقيين عن الحياة العامة وانحراف العلماء الرسميين داء دفين وسبباً من أسباب ضعفنا .

وقد كرر القول بأن الفقهاء أحد أكبر أسباب انحطاط المسلمين فهم يضيقون الدين على المسلمين وذلك بتوسيع دائرة أحكامهم وتكفيرهم ، إلى درجة لا يكاد مسلم يصل إلى مرتبة الإيمان والنجاة لتعذر تطبيق جميع عباداته ومعاملاته التي يتطلبها هؤلاء الفقهاء المتشددون .

وذلك بإنزالهم السنن والمندوبات منزلة الفروض والواجبات ، كما ينزلون المباحات والمكروهات منزلة الفروض والواجبات فيجعلون النقاب فرضاً ، وكل غناء مزماراً للشيطان .

وبذلك أصبح الجمهور الأكبر من المسلمين يعتقدون في أنفسهم التهاون اضطراراً فيهون عليهم التهاون اختياراً وبسبب التشدد التجأ كثير من المسلمين إلى الصوفية التي تهون عليهم دينهم ، أو الإباحية التي تسقط عنهم مخافة الله .

وعلى هذه الأساس بات الفقهاء الذين يمارسون دوراً مقلوباً فبدل أن يقربوا الناس من الدين ينفرونهم منه ، إنهم أبعد ما يكونونٍ عن روحِ الدين الإسلامي الذي لمسناه في قوله ﷺ " يَسِّرُوا وَلاَ تعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا وَلاَ تنفرُوا " (البخاري) والسبب في ذلك أن هؤلاء الفقهاء يعانون الجهل في أمور دينهم ويعيشون على ما ألفوه من أفكار لدى آبائهم .

ولهذا السبب لن يكون مستغرباً أن نجد في توصيات الجمعية " جمعية أم القرى " وقضاياها توصية تدعو إلى الاهتمام بإيقاظ فكر علماء الدين وتنشيطهم للسعي في تطوير التعليم باتباع خمسة أمور هي :

١- تعميم القراءة والكتابة مع تسهيل تعليمها .

٢- الترغيب في العلوم النافعة التي هي من قبيل الصنائع مع تسهيل تعليمها .

٣- تخصيص كل من المدارس والمدرسين لنوع واحد أو نوعين من العلوم والفنون لنجد في الأمة أفراداً متخصصين .

٤- إصلاح تعليم اللغة العربية والعلوم الدينية ليسهل تحصيلها في أقصر وقت فيتمكن الطالب من تحصيل العلوم النافعة الأخرى .

٥- السعي من أجل توحيد أصول التعليم وكتب التدريس .

والكواكبي ينبّه إلى تلك العلاقة الدقيقة بين سوية المتعلم والمعلم فيجعلها على أربعة مراتب :

١- العامة ومُعلِّموها أئمة المساجد .

٢- المُهذِّبون ومعلموها مدرسو المدارس العمومية والجوامع .

٣- العلماء ومُعلِّموهم مدرسو المدارس المتخصصة .

٤- النابغون ومُعلِّموهم الأفاضل المتخصصون .

ويتحدث في كتابه عن الجامعة الإسلامية التي دعا إليها الأفغاني كحل لمشكلات تمزق للأم الإسلامية وضعفها أمام القوة الغربية الباطشة . والكواكبي لا يرفض هذه الجامعة الإسلامية كما ، اتهمه بعض معاصريه ، لكنه يريد أن تكون هذه الجامعة مطلباً شعبيّاً لا مطلباً نخبويّاً خاصة إذا عرفنا أن المثقفين المصريين تبنوها نتيجة دعوة أطلقها السلطان عبد الحميد ، وهو يبحث عن الطريق الصحيح لتجسيدها على أرض الواقع لذلك وجدناه يريد أن يؤسس الجامعة الإسلامية على أساس نهضة دينية ، ويكون للمثقف دور مهم في إيقاظ العامة والتأثير فيها عن طريق العلم ، فيعدهم لتقبل فكرة الوحدة الإسلامية على أسس معرفية لا عاطفية ، وبذلك يرتفع بالعامة إلى مستوى المثقفين فيحملهم مسئولية النهضة ، حين يزودهم بالعلم ليصبحوا حريصين على الوحدة فاعلين من أجلها . (١)

وهذا الكتاب كما يبدو يسير على نهج المدرسة السلفية النهضوية ولا يكاد يخرج عن أفكارها ولذا لا عجب عندما يقول د. سامي الدهان في ترجمته للكواكبي في سلسلة نوابغ الفكر العربي إن كتاب أم القرى : " صدر في حياته منقحاً بقلم السيد رشيد رضا أو بقلم الشيخ محمد عبده كما قال الأب شيخو " .

ويقول العقاد ولا يمتنع عندنا أن يكون الشيخ محمد عبده أو السيد رشيد قد نظرا في الكتاب وأبديا عليه بعض الملاحظات وأخذ المؤلف بما أبدياه ، بل نحن نجزم بمراجعتهما لآراء الكتاب ونصيحتهما بحذف طائفة من العبارات السياسية التي وردت فيه ، وثبتت هذه المراجعة من المقابلة بين النسخة التي طبعها السيد رشيد في طبعة المنار والنسخ التي لم يشرف على طبعها فقد حذفت منها العبارات التي

---

(١) لمزيد من التفصيل حول كتاب " أم القرى " الرجوع إلى د. ماجدة حمود " عبد الرحمن الكواكبي فارس النهضة والأدب " مرجع سابق ، والعقاد " عبد الرحمن الكواكبي " مرجع سابق .

اشتدت فيها على الدولة العثمانية ، واتبع السيد رشيد في حذفها رأي الأستاذ الإمام وجهه إليه من النصائح غير مرة ، إذ قال السيد رشيد وهو يعد وجوه النقد التي كان أستاذه بها : " إنها تشتمل الخوض في سياسة الدولة العثمانية في بعض الأحيان " .

والمشهور عن الأستاذ الإمام أنه ابتلي بالمتاعب المرهقة من آفات السياسة حتى ملّها واستعاذ بالله منها في كلمته المعروفة " أعوذ بالله من السياسة .. ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس " وطفق ينصح لمريديه باجتنابها لتمحيص القول في المبادئ والأصول التي يتجرد الناس من أهوائهم ومآربهم عند نظرها ولا يصدون عنها ذهاباً مع وساوس العصبية ونوازع المنفعة والنفاق . وقد كان الأستاذ الإمام يبيح النقد ويأبى الحملة على الدولة العثمانية في محنتها ، وأحرى به أن يرى الإغراق في هذا النقد على طريقة الكواكبي كلما استثارته حماسة الدعوة فشدد النكير وبالغ في الاتهام . (١)

طبائع الاستبداد كلمة حق عند سلطان جائر

وبعد ثلاثة أعوام من تأليف الكواكبي كتاب " أم القرى" أصدر كتابه " طبائع الاستبداد .. " الذي يعد استمراراً لكتابه الأول فقد حاول فيه أن يبحث في أحد أبرز أسباب تخلف المسلمين " الاستبداد " بعد أن تحدَّث عنه في كتابه " أم القرى " حديثاً سريعاً ورأى أنه يستحق وقفة متأمّلة تبحث في أصل الداء وتقترح الدواء وبذلك يمكننا القول بأنه قدَّم في هذا الكتاب خلاصة تجاربه الفكرية بكل ما تعنيه من معاناة يومية للظلم الذي وقع عليه وعلى قومه .

كما نتجت عن جهد معرفي دام ثلاثين عاماً مجاهداً الظلم ومنقِّباً عن أسباب تخلف المسلمين متأملاً معالم الأسباب وباحثاً عن الدواء الشافي الذي ينهض بأمته .

ولقدر ارتفع صوت الكواكبي عالياً منددأ بالاستبداد بكل أنواعه ، وبالتخلف بسائر أشكاله ، ومنادياً بحرية الفكر والإبداع وبديمقراطية الحكم والسلطة ويرى أن ذلك من أصول الإسلام ونهج الخلفاء الراشدين يقول الكواكبي : " جاء الإسلام بالحكمة والعزم هادماً التشريك بالكلية ومُحكِماً قواعد السياسة المتوسطة بين الديمقراطية والأريستقراطية فأسس التوحيد وأظهر للوجود حكومة كحكومة الخلفاء الراشدين

---

(١) عباس محمد العقاد " عبد الرحمن الكواكبي " مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ص ٧٨ ، ٧٩

التي لم يسمح الزمان بمثال لها بين البشر حتى ولم يخلفهم فيها بين المسلمين أنفسهم خلف إلا بعض النماذج الفريدة كعمر بن عبد العزيز والمهدي العباسي ونور الدين محمود الشهيد . " (١)

ولم يكتف الكواكبي بذكر ثلاثة نفر من خلفاء المسلمين فقط ، غير الخلفاء الراشدين ، كنماذج للعدل بل راح يصم عموم خلفاء المسلمين من بني أمية والعباس وعثمان والمماليك بالاستبداد والجور قياساً بالديمقراطية والريستوقراطية الغربية اللتين أُسِّس الحكم الإسلامي الرشيد عليهما .

يقول الكواكبي : " إن الإسلامية مؤسسة على أصول الإدارة الديمقراطية أي العمومية ، والشورى الريستوقراطية أي شورى الأشراف . وقد مضى عهد النبي ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين على هذه الأصول بأتمِّ وأكمل صورها خصوصاً وأنه لا يوجد في الإسلامية نفوذ ديني مطلقاً في غير مسائل إقامة الدين .

هذا الدين الحر السهل السمح الذي رفع الإصر والأغلال وإبادة الميزة والاستبداد. الدين الذي ظلمه الجاهلون فهجروا حكمة القرآن ودفنوها في قبور الهوان . الدين الذي فقد الأنصار والأبرار والحكماء الأخيار فسطا عليه المستبدون واتخذوه وسيلة لتفريق الكلمة وتقسيم الأمة شيعاً وجعلوه آلة لأهوائهم فضيَّعوه وضيَّعوا أهله بالتفريع والتوسيع والتشديد والتشويش وإدخال ما ليس منه فيه كما فعل أصحاب الأديان السائرة . (٢)

أسباب استبداد الحكام المسلمين

والكواكبي لا يلقي باللوم على الحكام الذين ضيَّعوا حكمة القرآن وأخذوا الناس بالقهر والاستبداد بل يلقي التهمة قبل الحكام على علماء الأمة وحكمائها الذين تقاعسوا عن بيان الحق الذي جاء به القرآن الكريم في مجال السياسة والحكم وأفتوا بصحة حكم المستبد المتقلد بسيفه وحرَّموا الخروج عليه وإن تسلط على رقاب الناس وثرواتهم مما سوَّغ للحكام الاستبداد والقهر والاستئثار بالسياسة والاقتصاد دون رقيب أو حسيب .

هؤلاء العلماء بدلاً من القيام بأمر الحكام بالمعروف ونهيهم عن المنكر فهم علماء الأمة وأدري الناس بأحوال العباد وبأحكام الشرع وبأفعال الحكام بدلاً من دعوة

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي " طبائع الاستبداد " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٥
(١) نفسه ص ١٧

الحكام إلى الحق والعدل والسوية كمسئولين عن الرعية أمام الله تعالى انزلوا الحاكم منزلة من لا يسأل عم يفعل في السياسة والاقتصاد والقيام بشئون العباد ؛ فكان أن سلط الله على المسلمين شرارهم فساموهم سوء العذاب .

يقول الكواكبي : " وهذا الإهمال للمراقبة والسيطرة والمؤاخذة والسؤال أوسع لأمراء الإسلام مجال الاستبداد وتجاوز الحدود وبهذا وذلك ظهر حكم حديث " هلك المتنطعون " أي المتشددون في الدين وحديث " لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب " (١) والله الموفق للصواب . (٢)

والذنب الأكبر والإثم الأعظم لهؤلاء العلماء ، عند الكواكبي ، هو نسبة ما يقولونه بأهوائهم إلى الشرع الحكيم فيدخلون ما ليس من الدين فيه كما فعل أصحاب الديانات السابقة ولولا أن الله تعالى حفظ القرآن الكريم لما ترددوا هؤلاء العلماء المنافقين في تحريفه انتصاراً لأهوائهم .

" وقد جمع بعضهم جملة مما اقتبسه وأخذه المسلمون عن غيرهم وليس من دينهم فقال : اقتبسوا مقام البابوية وتمثيله ، وضاهوا مقامات البطارقة والكردينالية ... ومنعوا الاستهداء بنصوص الكتاب والسنة من حظر الكهنة الكاثوليك الفهم من الإنجيل على غيرهم وسد اليهود باب الأخذ من التوراة وتمسكهم بالتلمود .. ومن تأمل هذه المقتبسات يجد أكثرها أمهات الاستبداد وسلاسل للاستعباد ، وهكذا تفسد الأديان ويشقى الإنسان ولا حول ولا قوة إلا بالله . " (٣)

وهكذا يريد الكواكبي من العلماء أن يحكّموا عقولهم في ركام الموريات القديمة والتقاليد الدخيلة وإعمال العقل في النصوص الشرعية دون وساطة .

وهو بهذا ينتقد المقلدين في أخذهم الدين من آراء الرجال غير المقدسة وغير المعصومة وإغفال نصوص الشرع المقدسة المعصومة حتى لا يكونوا كاليهود والنصارى .

---

(١) لا يوجد حديث شريف بهذا اللفظ ولعله يقصد قوله ص " وَاللهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ ، وَلَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ أطْراً ، وَلَتَقْصُرُنَّه عَلَى الحَقِّ قَصْراً ، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ الله بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ " (رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حديث حسن)
(١) عبد الرحمن الكواكبي " طبائع الاستبداد " مرجع سابق ص ١٨ .
(١) نفسه ص ١٨، ١٩ بتصرف

الحكام المستبدون والعلم

يقول الكواكبي : " والناظر المدقق في تاريخ الإسلام يجد للمستبدين من الخلفاء والملوك الأولين المنافقين أفعالاً مريعة في إطفاء نور العلم ويجد أنهم طالما أرادوا أن يطفئوا نور الله ولكن أبى الله إلا أن يتم نوره فحفظ للمسلمين كتابهم الكريم الذي هو شمس العلوم وكنز الحكم من أن تمسه يد التحريف وهي إحدى معجزاته لأنه قال تعالى فيه : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (الحجر: ٩) فما مسه المنافقون إلا بالتأويل وهذا أيضاً من معجزاته لأنه أخبر عن ذلك في قوله تعالى : {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ }
(آل عمران : ٧)

وإني أمثل للطامعين ما فعله الاستبداد في العلم والإسلام بما حجر على العلماء الحكماء من أن يفسروا قسمي : الآلاء ، والأخلاق من القرآن تفسيراً مدققاً لأنهم كانوا يخافون مخالفة رأي بعض السلف القاصرين في العلم فَيُكَفَّرون فيقتلون . وهذه مسألة إعجاز القرآن الكريم وهي من أهم مسائله في الدين لم يقدروا أن يوفوها حقها من البحث واقتصروا على ما قاله بعض السلف أنها هي فصاحتها وبلاغتها وإخباره عن أن الروم من بعد غلبهم سيغلبون .

مع إنهم لو أطلق العلماء عنان التدقيق وحرية الرأي والتأليف كما أطلق لأهل التأويل والخرافات لرأوا في ألوف من آيات القرآن ألوف من آيات الإعجاز . لرعوا فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان تبرهن إعجازه بصدق قوله تعالى: { وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ }(الأنعام : ٥٩) برهان عيان لا مجرد تسليم وإيمان " (١)

وهنا ينعي الكواكبي على السلفيين إهمالهم العقل في تدبر القرآن الكريم وفهم أسراره ومعجزاته واكتشاف السنن الكونية التي ألمح إليها الله جل وعلا في كتابه واقتصارهم على الإعجاز البياني فقط وترك غيرهم من الأمم الأوربية شرف اكتشاف السنن الكونية ، وكانوا هم أولى بها لو أمعنوا النظر في كتاب الله تعالى وتركوا الجدل العقيم حول قضايا لا يبنى عليها عمل ولا تنهض بها أمة .

وقد يسأل سائل كيف تعد الكواكبي من السلفيين وهو ينتقدهم ولا يسير على منهجهم ، والحقيقة أن الكواكبي وغيره من دعاة المدرسة السلفية النهضوية لا يختلف عن المدارس السلفية في الأصول وثوابت الدين إنما يختلف في بعض

---

(١) نفسه ص ٢٠، ٢١

الفروع والمسائل التي يجوز فيها الخلاف ، وهو يحاول أن يفهم النصوص الشرعية في ضوء الثورة العلمية الغربية والمكاسب السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي انتزعتها الشعوب الغربية من براثن الحكام بفضل علمائهم ومفكروهم ، ويتأسى على حال الأمة الإسلامية التي ترزح تحت نير الاستبداد والقهر والتخلف في شتى المجالات ، وكان أجدر بعلمائها وقد حباهم الله بالإسلام خاتم الأديان والصالح لكل زمان ومكان والذي فتح لهم مجال البحث في آفاق الكون والنفس واسعاً ليستنبطوا كافة العلوم الإنسانية والطبيعية النافعة ويسبقوا غيرهم في الاهتداء إليها .

من أمثال قوله تعالى : " { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } (فصلت: ٥٣)

فقد حث الله تعالى الخلق على تدبر هذا الكون ومعرفة أسراره ليستفيدوا منه في الاهتداء إلى العلوم النافعة التي تعينهم على التمكين في الأرض وإصلاحها ، وهداية البشر إلى معرفة أسرار الخلق وعظمة الخالق الحق المستحق للعبادة والطاعة .

ومثل قوله تعالى : { وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ* وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } (الذاريات: ٢٠، ٢١)

وهذه الآية تفتح الباب واسعاً أمام عقول علماء المسلمين ومفكريهم لاكتشاف السنن الكونية في الأرض ومعرفة العلوم الطبيعية والرياضية التي تمكنهم من قيادة العالم وإصلاح الأرض وتعميرها ، كما تفتح الباب واسعاً أمام علماء المسلمين والمصلحين للتوصل إلى العلوم الحكمية التي تغذي العقل وتزكي النفس وتطهر القلب وتحطم أغلال الاستبداد السياسي والاجتماعي والاقتصادي التي تكبل النفوس قبل الأبدان وتحرم الإنسان من العدل والحرية والإخاء والمساواة والمشاركة في البناء .

يقول الكواكبي : " ومثال ذلك أن العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعها من علماء أوربا وأمريكا والمدقق في القرآن الكريم يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن الكريم شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه " [١]

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي " طبائع الاستبداد " مرجع سابق ص ٢٠

ويؤكد ذلك بذكر كثير من معجزات القرآن الكريم في الكون في عصره وحسب فهمه .

العلوم التي يخشاها المستبدون

وبعد أن وضح الكواكبي بعضاً من الإعجاز العلمي للقرآن الكريم راح يوضح بجلاء لا غموض فيه أن الحاكم المستبد لا يخشى العلوم اللغوية اللسانية ولا الدينية التقليدية التي تعتمد على النقل لا العقل والتقليد لا الإبداع والجمود لا الابتكار فهذه العلوم ومصنفوها ودارسوها لا يتدخلون في شئون الحكم وسلطات الحاكم وسياسة الدولة إنما يهمهم تقويم اللسان العربي والانحراف العقدي والبدع المستحدثة في العبادات ويقاومون كل جديد مستحدث وإن كان يندرج تحت قوله ﷺ " أنتم أعلم بأمر دنياكم " فالعقلية السلفية في ، عصره وعصور الانحطاط الحضاري ، تنفر من التفكير المبدع والأفكار المستحدثة والعلوم الحديثة وإن كانت علوماً طبيعية أو رياضية لذا أنكر بعضهم كروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس وكثير من الحقائق العلمية التي كشفت في عصرهم .

يقول الكواكبي : " والعلم قبسة من نور الله وقد خلق الله النور كاشفاً مبصراً ولأّداً للحرارة والقوة وجعل العلم مثله وضَّاحاً للخير فضَّاحاً للشر يولد في نفوس حرارة وفي الرءوس شهامة .

المستبد لا يخشى علوم اللغة المقومة للسان إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الألوية أو سحر البيان يَفل الجيوش لأنه يعرف أن الزمان ضنين بأن تلد الأمهات كثيراً من أمثال الكميت (١) وحسان (٢) أو مونتسكيو(١) وشيلر (٢) .

---

(١) الكميت بن زيد الأسدي (٦٠ – ١٢٦هـ) شاعر عربي من قبيلة من أشهر شعراء العصر الأموي قال محمد العيساوي الجمحي: الكميت أول من أدخل الجدل المنطقي في الشعر العربي فهو مجدد بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، وشعره ليس عاطفياً كبقية الشعراء، بل إن شعره شعر مذهبي، ذهني عقلي. حينما ثار زيد بن علي على هشام، وقف الكميت يؤيد ويدعو للمشاركة في الثورة على حكم بني مروان، مما أثار عليه حكام عصره، فتعرض للأذى مراراً، وسُجن، وتشرّد وخيرا قتلوه .

(٢) حسان بن ثابت : (٦٠ قبل الهجرة – ٤٠ هـ) صحابي جليل، شاعر النبي ﷺ وأحد المخضرمين، أدرك الإسلام وعمره ستون سنة وهو أشعر أهل الحواضر في الجاهلية، وعندما أسلم أصبح شاعر النبي ﷺ المنافح عن الدعوة الإسلامية. جاهد بلسانه جهاداً قوياً، فعندما بدأ شعراء المشركين في مكة هجاء المسلمين في المدينة وتسفيه دينهم، نهض للرد عليهم بشعره وكان أقدر شعراء المسلمين على ذلك، وقد سجل بقصائده انتصارات المسلمين في الغزوات وآلامهم في المصائب التي امتحنوا بها.

وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة وإنما يتلهى بها المتهوسون للعلم فإذا نبغ فيهم البعض ونالوا شهرة بين العوام لا يعدم وسيلة لاستخدامهم في تأييد أمره بنحو سد أفواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستعباد . " (٣)

والكواكبي يقصد بالعلوم الدينية المتعلقة بالمعاد ما عناه كارل ماركس بتسخير حكام أوربا في العصور الوسطى الدين من أجل استبدادهم بالسلطة والثروات فراح رجال الدين ، بواعز من الحكام ، يزهّدون الناس في الدنيا وحقوقهم فيها والغنى ورغبتهم فيه ، والسلطة وتطلعهم إليها ويذكرونهم بأن ملكوتهم ليس على الأرض إنما في السماء وليس في الدنيا إنما في الآخرة إن هم صبروا على قهر الحكام وشظف العيش وبؤس الحال وفسروا أقوال المسيح لتتوافق مع هذه الأفكار كقوله "طُوبَى لَكُمْ أَيُّهَا الْمَسَاكِينُ، فَإِنَّ لَكُمْ مَلَكُوتَ اللهِ! ٢١طُوبَى لَكُمْ أَيُّهَا الْجَائِعُونَ الآنَ، فَإِنَّكُمْ سَوْفَ تُشْبَعُونَ. طُوبَى لَكُمْ أَيُّهَا الْبَاكُونَ الآنَ، فَإِنَّكُمْ سَوْفَ تَضْحَكُونَ. ٢٢طُوبَى لَكُمْ مَتَى أَبْغَضَكُمُ النَّاسُ، وَعَزَلُوكُمْ، وَأَهَانُوا اسْمَكُمْ وَنَبَذُوهُ كَأَنَّهُ شِرِّيرٌ، مِنْ أَجْلِ ابْنِ الإِنْسَانِ. ٢٣ افْرَحُوا فِي ذلِكَ الْيَوْمِ وَتَهَلَّلُوا، فَهَا إِنَّ مُكَافَأَتَكُمْ فِي السَّمَاءِ عَظِيمَةٌ: لأَنَّهُ هكَذَا عَامَلَ آبَاؤُهُمُ الأَنْبِيَاءَ. ٢٤" وَلكِنِ الْوَيْلُ لَكُمْ أَنْتُمُ الأَغْنِيَاءُ، فَإِنَّكُمْ قَدْ نِلْتُمْ عَزَاءَكُمْ! ٢٥الْوَيْلُ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُشْبَعُونَ الآنَ، فَإِنَّكُمْ سَوْفَ تَجُوعُونَ. الْوَيْلُ لَكُمْ أَيُّهَا الضَّاحِكُونَ الآنَ، فَإِنَّكُمْ سَوْفَ تَنُوحُونَ وَتَبْكُونَ. " (لوقا ٦ : ٢٠- ٢٥)

---

(١) مونتيسكيو :(١٦٨٩ – ١٧٥٥ م)، فيلسوف فرنسي صاحب نظرية فصل السلطات الذي تعتمده غالبية الأنظمة حاليا. في كتابه روح القوانين شرح الفرق بين ثلاثة أنواع من أنظمة الحكم :
الملكية : يرث الحاكم فيه السلطة. الديكتاتورية : يحكم الحاكم فيه وحده دون حدود قانونية ويثبت حكمه بواسطة إرهاب المدنيين. الجمهورية :نظام يحكم فيه الشعب أو ممثلوه. يرى مونتيسكيو أن نظام الحكم الأمثل هو النظام الجمهوري. وقد ادعى أن على كل نظام حكم أن يصبو إلى ضمان حرية الإنسان ومن أجل ذلك يجب الفصل بين السلطات والحفاظ على توازن بينها: السلطة التنفيذية. السلطة التشريعية. السلطة القضائية. حصلت نظرية مونتسكيو على العديد من المؤيدين في أوروبا وأثرت مبادئها على دستور الولايات المتحدة الأمريكية، إعلان حقوق الإنسان والمواطن وعلى دساتير العديد من الأنظمة الديمقراطية في عصرنا.

(٢) شيلر : (١٧٥٩- ١٨٠٥م) شاعر ومسرحي كلاسيكي وفيلسوف ومؤرخ ألماني بدأ شيلر في عام ١٧٧٧م في مسرحيته الأولي " اللصوص" بالألمانية تحت تأثير أفكار عصر التنوير .وفي هذه المسرحية يتجسد الرفض المطلق للسلطة المطلقة، والنزوع نحو الحرية الإنسانية من الاضطهاد والظلم الاجتماعي. وبذلك أصبح شيلر من الممثلين الأساسيين لأفكار حركة العاصفة والاندفاع "روحي ظامئة إلى الحرية " أصدر الدوق كارل أويجين قرارا بمنع كتابات شيلر لما فيها من تحريض على رفض الطغيان والاستبداد ودعوة إلي الحرية .

(٣) عبد الرحمن الكواكبي " طبائع الاستبداد " مرجع سابق ص ٢٣

وهذا التفسير وفق نظرية الدولة والإيديولوجيات لدى ماركس فنظرية للدولة "متصورة بوصفها أداة سلطة في خدمة الطبقة المهيمنة " وللإيديولوجيات " كتعبير عن مصالح طبقية معينة " وللاستلاب " كتقديس أعمى للبضاعة " ، وللدين" كأفيون الشعوب " مغيب للعقول عن المطالبة بحقوقهم واستحقاقاتهم لدى حكامهم .

يقول الكواكبي : " نعم ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفية العقلية وحقوق الأمم وسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الأدبية وغيره من العلوم الممزقة للغيوم المبسقة الشموس المحرقة الرءوس .

ويقال بالإجمال إن المستبد لا يخاف من العلوم كلها بل من التي توسع العقول وتعرف الإنسان ما هو الإنسان ؟ وما هي حقوقه ؟ وهل هو مغبون ؟ وكيف الطلب؟ وكيف النوال ؟ وكيف الحفظ ؟ المستبد عاشق للخيانة والعلماء عواذله . المستبد سارق ومخادع والعلماء منبهون محذرون والمستبد أعمال وصوالح لا يفسدها عليه إلا العلماء . [١]

فالعلماء عند الكواكبي هم من يحررون العقول المكبلة بالجهل والتخلف ويشحذون الأفهام من صدأ الأوهام لتدرك حقائق العلم والتقدم ويبصرون الناس بحقوقهم في الحرية والكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية لا العلماء الذين يستعبدون الناس للحكام المستبدين باسم الدين .

يقول الكواكبي : " وينتج مما تقدم أن بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة يسعى العلماء في نشر العلم ويجتهد المستبد في إطفاء نوره ، والطرفان يتجاذبان العوام . ومن هم العوام ؟ هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا وإذا خافوا استسلموا . وهم الذين متى علموا قالوا ، ومتى قالوا فعلوا .

العوام هم قوت المستبد وقوته بهم عليهم يصول وبهم على غيرهم يطول . يأسرهم فيهللون لشوكته ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء الحياة ويهينهم فيثنون على رفعته ويغري بعضهم على بعضٍ فيفتخرون بسياسته وإذا أسرف بأموالهم يقولون عنه أنه كريم وإذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيماً ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب وإن نقم عليهم بعضُ الأباةِ قاتلوهم كأنهم بغاة .

والحاصل أن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل فإذا ارتفع الجهل زال الخوف وانقلب الوضع أي انقلب المستبد رغم طبعه إلى وكيل أمين يهاب الحساب ، ورئيس عادل يخشى الانتقام ، وأب رحيم يتلذذ بالتحابب .

---

(١) نفسه ص ٢٣، ٢٤

وحينئذ تنال الأمة حياة رضية .. حياة رخاء ونماء .. حياة عز وسعادة ، ويكون حظ الرئيس من ذلك رأس الحظوظ بعد أن كان في دور الاستبداد أشقى العباد لأنه كان دائما محاطاً بالأعداء ملحوظاً بالبغضاء غير آمن على حياته طرفة عين " [١]

ولا يكتفي الكواكبي بالدعوة إلى إصلاح السياسة والحكم بل يدعو إلى العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية أيضاً.

" إن الإسلامية كما أسست حكومة ديمقراطية وقد سبق إيضاحها أسست أيضاً أصول هذه المعيشة التي يتمنى ما هو من نوعها أغلب العالم المتمدن الإفرنجي مع أنه تسعى وراءه منهم جمعيات منتظمة مكونة من ملايين كثيرة ومع أن لها نوع من الأصل في الإنجيل وهو تخصيص عشر الأموال للمساكين .

وهذه الجمعيات تطلب التساوي أو التقارب في الحقوق والحالة المعيشية بين البشر وتسعى ضد الاستبداد المالي ذلك التساوي أو التقارب المقرران في الإسلامية ديناً بواسطة أنواع الزكاة وتقسيمها على أنواع المصارف العامة وأنواع المحتاجين ، ولا يخفى على المدقق أن جزءاً من أربعين من رءوس الأموال يلحق فقراء الأمة بأخلاق الأفراد ، وكذلك تركت الإسلامية معظم الأراضي الزراعية ملكاً لعامة الأمة يستنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط وليس عليهم غير العُشْر أو الخراج الذي لا يتجوز أن يتجاوز الخمس لبيت المال ." [٢]

وهكذا عاش الكواكبي ثائراً على كل أنواع الاستبداد : استبداد الحكام بالسلطة واستبداد الأغنياء والإقطاعيين بالمال واستبداد العلماء الجامدين بالدين ...

محمد رشيد رضا

كان الشيخ محمد رشيد رضا(١٨٦٥-١٩٣٥م) أكبر تلامذة الأستاذ الإمام محمد عبده ، وخليفته من بعده ، حمل راية الإصلاح والتجديد ، وبعث في الأمة روحًا جديدة ، تحرِّك الساكن ، وتنبه الغافل ، لا يجد وسيلة من وسائل التبليغ والدعوة إلا اتخذها منبرًا لأفكاره ودعوته ما دامت تحقق الغرض وتوصل إلى الهدف .

وكان متعدد الجوانب والمواهب ، فكان مفكرًا إسلاميًا غيورًا على دينه ، وصحفيًا نابهًا ينشئ مجلة (المنار) ذات الأثر العميق في الفكر الإسلامي ، وكاتبًا بليغًا في كثير من الصفح ، ومفسرًا نابغا ، ومحدِّثًا متقنًا في طليعة محدثي العصر ،

---

(١) نفسه ص ٢٥ .
(١) نفسه ص ٤٤ .

وأديبا لغويا ، وخطيبا مفوها تهتز له أعواد المنابر ، وسياسيًا يشغل نفسه بهموم أمته وقضاياه ، ومربيًا ومعلمًا يروم الإصلاح ويبغي التقدم لأمة .

وخلاصة القول : إنه كان واحدًا من رواد الإصلاح الإسلامي الذين بزغوا في مطلع القرن الرابع عشر الهجري ، وعملوا على النهوض بأمتهم ؛ حتى تستعيد مجدها الغابر ، وقوتها الفتية على هدى من الإسلام ، وبصر بمنجزات العصر .

ولد محمد رشيد بن علي رضا في سبتمبر ١٨٦٥م في قرية تقع على شاطئ البحر المتوسط من جبل لبنان . حفظ القرآن وتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب في قريته صغيراً دخل المدرسة الرشيدية الابتدائية بطرابلس وتعلم فيها النحو والصرف ومبادئ الجغرافيا والحساب ، توثقت صلته بالشيخ حسين الجسر أحد علماء الشام الأفذاذ ومن رواد النهضة الثقافية العربية ، وكان يرى أن الأمة لا يصلح حالها أو ترتقي بين الأمم إلا بالجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا على الطريقة العصرية الأوربية مع التربية الإسلامية الوطنية .

وجد الشيخ الجسر في تلميذه نباهة وفهمًا ، فآثره برعايته وأولاه عنايته ، فأجازه سنة ١٨٩٧م بتدريس العلوم الشرعية والعقلية والعربية ، وهي التي كان يتلقاها عليه طالبه النابه ، وفي الوقت نفسه درس رشيد رضا الحديث على يد الشيخ محمود نشابة وأجازه أيضًا برواية الحديث .

اتخذ الشيخ رشيد رضا من قريته الصغيرة ميدانًا لدعوته الإصلاحية بعد أن تزود بالعلم وتسلح بالمعرفة ، فكان يلقي الدروس والخطب في المسجد بطريقة سهلة بعيدة عن السجع الذي كان يشيع في الخطب المنبرية آنذاك ، ويختار آيات من القرآن يحسن عرضها على جمهوره ، ويبسط لهم مسائل الفقه ، ويحارب البدع التي كانت شائعة بين أهل قريته .

ولم يكتف الشيخ رضا بمن يحضر دروسه في المسجد ، فذهب هو إلى الناس في تجمعاتهم في المقاهي التي اعتادوا على الجلوس فيها لشرب القهوة والنارجيلة ،ولم يخجل من جلوسه معهم يعظهم ويحثهم على الصلاة ، وقد أثمرت هذه السياسة المبتكرة ، فأقبل كثير منهم على أداء الفروض والالتزام بالشرع والتوبة والإقبال على الله ، وبعث إلى نساء القرية من دعاهن إلى درس خاص بهن ، وجعل مقر التدريس في دار الأسرة ، وألقى عليهن دروسًا في الطهارة والعبادات والأخلاق ، وشيئًا من العقائد في أسلوب سهل يسير .

اتصال رشيد رضا بمحمد عبده

في الفترة التي كان يتلقى فيها رشيد رضا دروسه في طرابلس كان الشيخ محمد عبده قد نزل بيروت للإقامة بها ، وكان محكومًا عليه بالنفي بتهمة الاشتراك في الثورة العرابية ، وقام بالتدريس في المدرسة السلطانية ببيروت ، وإلقاء دروسه التي جذبت طلبة العلم بأفكاره الجديدة ولمحاتة الذكية ، وكان الشيخ محمد عبده قد أعرض عن السياسة ، ورأى في التربية والتعليم سبيل الإصلاح وطريق الرقي ، فركز جهده في هذا الميدان .

وعلى الرغم من طول المدة التي مكثها الشيخ محمد عبده في بيروت فإن الظروف لم تسمح لرشيد رضا بالانتقال إلى المدرسة السلطانية والاتصال بمحمد عبده مباشرة ، والتلمذة على يديه ، وكان التلميذ النابه شديد الإعجاب بشيخه ، حريصًا على اقتفاء أثره في طريق الإصلاح ، غير أن الفرصة سنحت له على استحياء ، فالتقى بالأستاذ الإمام مرتين في طرابلس حين جاء إلى زيارتها ؛ تلبية لدعوة كبار رجالها ، وتوثقت الصلة بين الرجلين ، وازداد تعلق رشيد رضا بأستاذه، وقوي إيمانه به وبقدرته على أنه خير من يخلف (جمال الدين الأفغاني) في ميدان الإصلاح وإيقاظ الشرق من سباته .

وحاول رشيد رضا الاتصال بجمال الدين الأفغاني والالتقاء به ، لكن جهوده توقفت عند حدود تبادل الرسائل وإبداء الإعجاب دون أن تتحقق أمنيته في رؤيته والتلمذة على يديه .

الرحيل إلى القاهرة

لم يجد رشيد رضا مخرجًا له في العمل في ميدان أفسح للإصلاح سوى الهجرة إلى مصر والعمل مع محمد عبده تلميذ الأفغاني حكيم الشرق ، فنزل الإسكندرية في ٣ يناير ١٨٩٨م ، واتصل على الفور بالأستاذ الإمام ، وبدأت رحلة جديدة لرشيد رضا كانت أكثر إنتاجًا وتأثيرًا في تفكيره ومنهجه الإصلاحي .

ولم يكد يمضي شهر على نزوله القاهرة حتى صارح شيخه بأنه ينوي أن يجعل من الصحافة ميدانا للعمل الإصلاحي ، ودارت مناقشات طويلة بين الإمامين الجليلين حول سياسة الصحف وأثرها في المجتمع ، وأقنع التلميذ النجيب شيخه بأن الهدف من إنشائه صحيفة هو التربية والتعليم ، ونقل الأفكار الصحيحة لمقاومة

الجهل والخرافات والبدع ، وأنه مستعد للإنفاق عليها سنة أو سنتين دون انتظار ربح منها.

مجلة المنار

صدر العدد الأول من مجلة المنار في مارس ١٨٩٨م ، وحرص الشيخ رشيد على تأكيد أن هدفه من المنار هو الإصلاح الديني والاجتماعي للأمة ، وبيان أن الإسلام يتفق والعقل والعلم ومصالح البشر ، وإبطال الشبهات الواردة على الإسلام، وتفنيد ما يعزى إليه من الخرافات .

وأفردت المجلة إلى جانب المقالات التي تعالج الإصلاح في ميادينه المختلفة بابًا لنشر تفسير الشيخ محمد عبده ، إلى جانب باب لنشر الفتاوى والإجابة على ما يرد للمجلة من أسئلة في أمور اعتقادية وفقهية ، وأفردت المنار أقسامًا لأخبار الأمم الإسلامية ، والتعريف بأعلام الفكر والحكم والسياسة في العالم العربي والإسلامي ،

وتناول قضايا الحرية في المغرب والجزائر والشام والهند .

ولم يمض خمس سنوات على صدور المجلة حتى أقبل عليها الناس ، وانتشرت انتشارًا واسعًا في العالم الإسلامي ، واشتهر اسم صاحبها حتى عُرف باسم رشيد رضا صاحب المنار ، وعرف الناس قدره وعلمه ، وصار ملجأهم فيما يعرض لهم من مشكلات ، كما جاء العلماء يستزيدون من عمله ، وأصبحت مجلته هي المجلة الإسلامية الأولى في العالم الإسلامي ، وموئل الفتيا في التأليف بين الشريعة والعصر .

وكان الشيخ رشيد يحرر معظم مادة مجلته على مدى عمرها المديد ، يمده زاد واسع من العلم ، فهو عالم موسوعي ملم بالتراث الإسلامي ، محيط بعلوم القرآن ،

على دراية واسعة بالفقه الإسلامي والسنة النبوية ، عارف بأحوال المجتمع الأدوار التي مر بها التاريخ الإسلامي ، شديد الإحاطة بما في العصر الذي يعيش فيه ، خبير بأحوال المسلمين في الأقطار الإسلامية .

منهج رشيد رضا في الإصلاح

كتب رشيد مئات المقالات والدراسات التي تهدف إلى إعداد الوسائل للنهوض بالأمة وتقويتها ، وخص العلماء والحكام بتوجيهاته ؛ لأنهم بمنزلة العقل المدبر والروح المفكر من الإنسان ، وأن في صلاح حالها صلاح حال الأمة ، وغير ذلك

بقوله : " إذا رأيت الكذب والزور والرياء والنفاق والحقد والحسد وأشباهها من الرذائل فاشية في أمة ، فاحكم على أمرائها وحكامها بالظلم والاستبداد وعلى علمائها ومرشديها بالبدع والفساد ، والعكس بالعكس " .

واقترح رشيد رضا لإزالة أسباب الفرقة بين المسلمين تأليف كتاب يضم جميع ما اتفقت عليه كلمة المسلمين بكل فرقهم ، في المسائل التي تتعلق بصحة الاعتقاد وتهذيب الأخلاق وإحسان العمل ، والابتعاد عن مسائل الخلاف بين الطوائف الإسلامية الكبرى كالشيعة ، وتُرسل نسخ بعد ذلك من هذا الكتاب إلى جميع البلاد الإسلامية ، وحث الناس على دراستها والاعتماد عليها .

وطالب بتأليف كتب تهدف إلى توحيد الأحكام ، فيقوم العلماء بوضع هذه الكتب عليِ الأسس المتفق عليها في جميع المذاهب الإسلامية وتتفق مع مطالب العصر ، ثم تعرض على سائر علماء المسلمين للاتفاق عليها والتعاون في نشرها وتطبيق أحكامها .

الرشيد رضا والتربية والتعليم

كان الشيخ رشيد رضا من أشد المنادين بأن يكون الإصلاح عن طريق التربية والتعليم ، وهو في ذلك يتفق مع شيخه محمد عبده وصديقه الكواكبي في أهمية هذا الميدان ، " فسعادة الأمم بأعمالها ، وكمال أعمالها منوط بانتشار العلوم والمعارف فيها " .

وحدد رشيد رضا العلوم التي يجب إدخالها في ميدان التربية والتعليم لإصلاح شئون الناس ، ودفعهم إلى مسايرة ركب العلم والعرفان ، مثل : علم أصول الدين ، علم فقه الحلال والحرام والعبادات ، التاريخ ، الجغرافيا ، الاجتماع ، الاقتصاد ، التدبير المنزلي ، حفظ الصحة ، لغة البلاد ، والخط .

ولم يكتف بدور الموجه والناصح ، وإنما نزل ميدان التعليم بنفسه ، وحاول تطبيق ما يراه محققًا للآمال ، فأنشأ مدرسة دار الدعوة والإرشاد لتخريج الدعاة المدربين لنشر الدين الإسلامي ، وجاء في مشروع تأسيس المدرسة أنها تختار طلابها من طلاب العلم الصالحين من الأقطار الإسلامية ، ويُفضل من كانوا في حاجة شديدة إلى العلم كأهل جاوة والصين ، وأن المدرسة ستكفل لطلابها جميع ما يحتاجون إليه من مسكن وغذاء ، وأنها ستعتني بتدريس طلابها على التمسك بآداب الإسلام وأخلاقه وعبادته ، كما تُعنى بتعليم التفسير والفقه والحديث ، فلا خير في

علم لا يصحبه خلق وسلوك رفيع ، وأن المدرسة لا تشتغل بالسياسة ، وسيُرسل الدعاة المتخرجون إلى أشد البلاد حاجة إلى الدعوة الإسلامية .

وقد افتتحت المدرسة عام ١٩١٢م في مقرها بجزيرة الروضة بالقاهرة ، وبدأت الدراسة في اليوم التالي ، وكانت المدرسة تقبل في عداد طلبتها شباب المسلمين ممن تتراوح أعمارهم ما بين العشرين والخامسة والعشرين ، على أن يكونوا قد حصلوا قدرًا من التعليم يمكنهم من مواصلة الدراسة .

غير أن المدرسة كانت في حاجة إلى إعانات كبيرة ودعم قوي ، وحاول رشيد رضا أن يستعين بالدولة العثمانية في إقامة مشروعه واستمراره لكنه لم يفلح ، ثم جاءت الحرب العالمية لتقضي على هذا المشروع ، فتعطلت الدراسة في المدرسة ، ولم تفتح أبوابها مرة أخرى .

مؤلفات رشيد رضا

بارك الله في عمر الشيخ الجليل وفي وقته رغم انشغاله بالمجلة التي أخذت معظم وقته ، وهي بلا شك أعظم أعماله ، فقد استمرت من سنة ١٨٩٩م إلى سنة ١٩٣٥م واستغرقت ثلاثة وثلاثين مجلدًا ضمت ١٦٠ ألف صفحة ، فضلاً عن رحلاته التي قام بها إلى أوربا والآستانة والهند والحجاز ، ومشاركته في ميادين أخرى من ميادين العمل الإسلامي .

ومن أهم مؤلفاته (تفسير المنار) الذي استكمل فيه ما بدأه شيخه محمد عبده الذي توقف عند الآية (١٢٥) من سورة النساء ، وواصل رشيد رضا تفسيره حتى بلغ سورة يوسف ، وحالت وفاته دون إتمام تفسيره ، وهو من أجل التفاسير . وله أيضًا : الوحي المحمدي ونداء للجنس اللطيف ، وتاريخ الأستاذ الإمام والخلافة، والسنة والشيعة ، وحقيقة الربا ، ومناسك الحج .

التعريف بمنهج مجلة المنار

وتُعَدُّ مجلة المنار التي أصدرها الشيخ بعد شهر واحد من مقدمه إلى مصر أكبر مجلة إسلامية في العالم الإسلامي بأسره ، وأكثرها تداولاً وأعظمها تأثيرًا وأبعدها صيتًا .

ولقد عُنيت المجلّة بمحاور متعددة ، فلم تقتصر على الأمور الشرعيَّة والدينيَّة،بل أَفْرَدت مساحات للأدب والشعر والقصة ، ونشرت مقالات عديدة عن السنن الكونية

والطب والصحة ، ونقلت عن مجلات أخرى عيون مقالاتها وبحوثها الجيدة ، وشارك السيد رشيد في تحريرها نخبةٌ من الأعلام كالرافعي ، والمنفلوطي ، وشكيب أرسلان ، ومحمد الخضر حسين ، وغيرهم .

وأخذت المجلة في حياة مؤسسها مكانتها في قلوب الناس وعقولهم ، وامتد أثرها إلى معظم أصقاع العالم الإسلامي . واستمر صدورها إلى وفاة مؤسسها في ٢٢ من أغسطس ١٩٣٥م لتتوقف سبعة أشهر وتعود على يد علامة الشام الشيخ بهجت البيطار ، ثم توقفت أخرى ليعود صدورها على يد الشيخ حسن البنا حيث أخرج منها ستة أعداد على مدى أربعة عشر شهرًا لتتوقف عن الصدور نهائيًّا عام ١٩٤٠م .

وبحق فقد كانت المنار منارًا للإحياء والتجديد والتربية والتعليم ، وقد تصدت لقضايا الأمة بعامة ، وعنيت بإصلاح العقيدة ومحاربة البدع والخرافة ، والاهتمام بشأن العلم المادي والتجريبي ، والدعوة إلى إنهاض الأمة في جميع المجالات ، ولقد كانت بصمات الشيخ رشيد رضا على المجلة واضحة ، فهو أكبر محرريها ، وأكثر من كتب فيها، بل جلّ مقالاتها تُنسَب إليه شخصيًّا أو إلى المدرسة التي انتمى إليها في المرحلة الوسيطة من حياته . [1]

مآخذ على السلفية النهضوية واجتهادات روادها

تصدى رشيد رضا في مجلته المنار لبدعة ابتدعها المؤذنون بمصر في القرن الثامن ، وهي زيادة السلام على النبي ﷺ في آخر الأذان ، ثم زيادة الصلاة مع السلام وزيادة نداء السيد البدوي أيضًا بعد أذان الفجر ، أفتى في المنار بأنها بدعة في شعار ديني تدخل في عموم قوله ﷺ من حديث كان يقوله ﷺ في خطبته : " وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ (رواه مسلم) ، وأفتت مجلة نور الإسلام الأزهرية الرسمية بأنها بدعة حسنة .

ثم نشرت مجلة نور الإسلام للأستاذ يوسف الدجوي مقالاً طويلاً في الرد على ما كتبه المنار في هذه المسألة أكثر فيه من الطعن والتهكم والغميزة والزراية على رشيد رضا صاحب المنار والتجهيل والتكفير له ، وقذفه بأنه كذَّب الله ورسوله

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن رشيد رضا ونهجه الرجوع إلى ترجمة صاحب المنار والتعريف بمنهج المنار ، مقدمة " مجلة المنار " .

وعزا إليه مسائل لا يقول بها كلها ولا ببعضها أحد يؤمن بالله وبما جاء به محمد خاتم النبيين عنه عز وجل وهذه الاتهامات كما قلنا ليست مقصورة على رشيد رضا فحسب إنما تشمل معظم رواد السلفية النهضوية والاتهامات كما جاءت في مقال الشيخ الدجوي هي :

١- إنكار الملائكة وتقرير أنهم عبارة عن القوى الطبيعية .

٢- إنكار الجن وتقرير أن الجن المذكورين في القرآن عبارة عن الميكروبات .

٣- جواز تطبيق القرآن على مذهب داروين المخالف لقوله تعالى : { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ } (آل عمران : ٥٩) .

٤- إفتاء التلاميذ المسلمين بالصلاة مع النصارى في الكنائس ليغرس في قلوبهم النقية تلك الطقوس النصرانية ، وينقش في نفوسهم الساذجة ما يسمعونه من القسوس والمبشرين هناك .

٥- كما يقول في مناره- أن اجترأ على تكذيب رسول الله ﷺ فيما اتفق عليه البخاري ومسلم من أن الشمس تسجد تحت العرش .

حتى قال : فالشيخ إذن مخطِّئ لله ولرسوله مكذب للقرآن والسنة ، وإن شئت فقل: مجهل لهما !!

٦- قوله : رد الأحاديث التي في البخاري وغيره الناطقة بأن آية " الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ " كانت قرآنًا يُتلى ، وقد رده كبار الفقهاء من قبل .

٧- رد الحديث الصحيح الذي رواه البخاري في سحر النبي ﷺ.

هذه هي التهم التي أوردها يوسف الدجوي في مقالة بدعة الزيادة على الأذان وحدها في سياق طويل .[(١)]

ونعود فنذكر أن هذه الاتهامات لا تعد هجوماً على محمد رشيد فحسب إنما تنسحب على رواد السلفية النهضوية ، ولا سيما محمد عبده لذا سنلاحظ في رد رشيد رضا على هذه الاتهامات يقتبس كثيراً من كلام محمد عبده ولهذا فضّلنا إرجاء المآخذ التي أخذت على محمد عبده ، والكواكبي إلى محمد رشيد رضا آخر

---

(١) محمد رشيد " مجلة المنار " ج ٣٢ ص ٦٧٣

رواد السلفية النهضوية الذي تولى الرد على هذه الاتهامات والدفاع عن منهج السلفية النهضوية.

وبعد أن نشر الشيخ الدجوي اتهاماته ضد مجلة المنار وصاحبها حدث خلاف كبير بينه وبين رشيد رضا ، وتدخل شيخ الأزهر والمفتي وكثير من العلماء للصلح بينهما ، وتم الصلح بين الشيخين على أن يكف الدجوي عن الإساءة لرشيد رضا وأن تنشر مجلة نور الإسلام التي نشر فيها الدجوي اتهاماته ردود رشيد رضا عليها ، ونكص الدجوي في وعوده وعاد فهاجم رشيد ثانية ، واضطر رشيد إلى الدفاع عن نفسه وتفنيد مزاعم الدجوي .

دفاع رشيد رضا عن منهج السلفية النهضوية

قام رشيد رضا بالدفاع عن نفسه ضد اتهامات يوسف الدجوي السبع .

بهيتة إنكار الملائكة وتقرير أنهم عبارة عن القوى الطبيعية

خلاصة الرد على هذه البهيتة :

(١) إن عقيدتنا وعقيدة شيخنا الأستاذ الإمام في الملائكة هي عقيدة سلف الأمة الصالح ، وهي أنهم من عالم الغيب الذي نؤمن بكل ما جاء في كتاب الله ،وثبت عن رسوله ﷺ من أخباره ، من غير تأويل ولا زيادة ولا نقصان ولا رأي ولا قياس ، وقد أكثرنا من الشواهد على هذه العقيدة ، وخلاصتها أن الملائكة من عالم الأرواح العاقلة المستقلة ، وأنهم أنواع لكل منها وظائف وأعمال خاصة به لا نبحث عن حقيقتها بآرائنا .

(٢) إن علماء الكلام ومن تبعهم من المفسرين والفقهاء يتأولون أكثر أخبار الغيب من صفات الله وأسمائه ومنها بعض ما ورد في الملائكة .

(٣) اتفاق علماء السلف والخلف في الأمة على تأويل شيئًا منها تأولاً مبتدعًا لا ينقض شيئًا من أمور الدين القطعية المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة وهو مذعن للأمر والنهي يكون معذورًا في تأوله فلا يحكم بكفره .

(٤) إننا نقلنا عن أستاذنا في تفسير قصة آدم أن بعض المفسرين من علماء الخلف المتأولين ذهب إلى أن مجموع ما ورد في نوع الملائكة الموكلين بالأعمال (من إنماء نبات وخلقة حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك لا في كل أنواع الملائكة فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة) وخلاصة هذا الإيماء أن الروح الإلهي الذي قام به نظام هذه الأعمال هو أمر وجودي خفي لا ندرك حقيقته ، وأن المعنى الإيمائي – لا المطابقي لمعنى النصوص – يتفق مع قول الذين يثبتون هذا

الروح الخفي من المنكرين للوحي وعالم الغيب ، ويعبرون عنه بالقوى الطبيعية في الأشياء ؛ لأنهم إذا سئلوا عن حقيقة هذه القوى يعترفون بأنهم لا يعرفونها ، وبهذا يكون الخلاف في التسمية ، فالمؤمنون بالوحي يسمون ما به نظام هذه المخلوقات بالملائكة ، ومن لا يؤمنون بالوحي يسمونها القوى الطبيعية ، والجامع بين التسميتين أن ذلك أمر يعرف بأثره ولا تعرف حقيقته .

فالأستاذ يحكي هذا عن بعض المفسرين وأنهم قالوه من باب الإيماء والإشارة لا من باب التفسير للنص أو الظاهر من العبارة . وصرح بأن غرضه منه أن من يميل إليها ويطمئن إليها قلبه لا يكون كافرًا خارجًا من هذه الملة السمحة ، فهو لم يكن موافقًا لهم على هذا الإيماء بل لم يكن موافقًا لهم على ما قالوه .

بُهيتة إنكار الجن

يوهم محرر مجلة مشيخة الأزهر (نور الإسلام) من ابتلاهم الله بقراءتها أن صاحب المنار يقول أن الجن الذين أخبر الله بهم في كتابه عبارة عن هذه المكروبات التي كشف الأطباء أمرها في القرن الماضي ، وأنه ما ثم شيء يطلق عليه هذا الاسم واسم العفاريت والشياطين غيرهم . وهذا افتراء وبهتان كالذي قبله سواء .

الجن خلق خفي مستتر من عالم الغيب أثبتتهم جميع الأديان وطريقتنا فيهم هي وجوب الإيمان بكل ما أخبر الله تعالى من أمرهم في كتابه وبكل ما صح عن رسوله ﷺ لمن علم به وليس منه شيء قطعي يدخل في العقيدة ، ولا نزيد على ما ثبت عندنا من خبر المعصوم شيئًا .

وقد ورد ذكر الجن والشياطين وإبليس في مواضع كثيرة من أجزاء تفسيرنا العشرة وفي مواضع كثيرة من مجلة المنار فأثبتنا في كل موضع من التفسير ما أثبته الكتاب العزيز بما يقربه إلى العقل ورددنا على المنكرين والمتأولين لما هو المتبادر من النصوص .

بُهيتة : ما سماه تكذيب سجود الشمس ، وسحر النبي ، نسخ التلاوة .

هذه هي البهيتة الكبرى التي افترتها علينا مجلة مشيخة الأزهر وسمتها (عظيمة العظائم) وعبارتنا التي حرفها البهّات المُفتري :

بينت في تلك المقالة مسألة (أحاديث الآحاد والدين) ثم مسألة (أحاديث الآحاد تفيد العلم أو الظن) بما لم أعلم أن أحدًا سبقني إلى مثله في نصر السنة في التفرقة بين اليقين اللغوي الشرعي ، واليقين المنطقي الأصولي . وانتقلت من هذا إلى بحث

ما يوثق به وما لا يوثق به من الروايات ، وما انتقده المحدثون من أحاديث الشيخين البخاري ومسلم بجرح كثير من رواتهما وغلط بعض متونهما وذكرت بعض المتون التي حكموا بالغلط فيها ، ومنها حديث شريك عند البخاري في المعراج إذ صرح بأنه رؤيا منامية وخالف غيره من رواة البخاري في مسائل أخرى فيه وحديث مسلم (خلق الله التربة يوم السبت) إلخ ، وحديث صلاة الكسوف بثلاث ركوعات وثلاث سجودات في كل ركعة وغير ذلك ثم قلت ما نصه: وجملة القول في الصحيحين أن أكثر رواياتهما متفق عليها عند علماء الحديث لا مجال للنزاع في متونها ولا في أسانيدها ، والقليل منها مختلف فيه وما من إمام من أئمة الفقه إلا وهو مخالف لكثير منها ، فإذا جاز رد الرواية التي صح سندها في صلاة الكسوف لمخالفتها لما جرى عليه العمل ، وجاز رد رواية خلق الله التربة يوم السبت إلخ لمخالفتها للآيات الناطقة بخلق السموات والأرض في ستة أيام وللروايات الموافقة لذلك - فأولى وأظهر أن يجوز رد الروايات التي تتخذ شبهة على القرآن من حيث حفظه وضبطه وعد ضياع شيء منه (كالروايات في نسخ التلاوة) ولا سيما لمن لم يجد لها تخريجًا يدفع الشبهة كالدكتور محمد توفيق صدقي وأمثاله كثيرون ومثلها الرواية في سحر بعض اليهود للنبي ﷺ ردها الأستاذ الإمام ولم يعجبه شيء مما قالوه في تأويلها لأن نفس النبي ﷺ أعلى وأقوى من أن يكون لمن دونه تأثير فيها ، ولأنها مؤيدة لقول الكفار { وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً } (الفرقان : ٨) وهو ما كذبهم الله فيه بقوله بعده : { انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً } (الإسراء : ٤٨) .

ومثل هذا وذاك ما خالف الواقع المشاهد كرواية السؤال عن الشمس أين تذهب بعد الغروب ؟ والجواب بأنها تذهب فتسجد تحت العرش ، وتستأذن الله تعالى بالطلوع إلخ . وقد سألنا عنه بعض أهل العلم من تونس ولما نجب عنه لأننا لم نجد جوابًا مقنعًا للمستقل في الفهم . فالشمس طالعة في كل وقت لا تغيب عن الأرض طرفة عين كما هو معلوم بالمشاهدة علمًا قطعيًا لا شبهة فيه ، فإذا قلنا إنها يصدق عليها مع ذلك أنها ساجدة تحت العرش لأنها خاضعة لمشيئة الله تعالى ولأن كل مخلوق هو تحت عرش الرحمن ، إذا قلنا هذا أو أنه تمثيل لخضوعها في طلوعها وغروبها وهو أقرب ، فهل ينطبق على السؤال والجواب انطباقًا ظاهرًا لا مراء فيه؟ اللهم لا . " ولكن هذا النوع من الحديث على ندرته في الصحيح قد يُخرَّج بعضه على أنه من باب الرأي في أمور العالم . والأنبياء لا تتوقف صحة دعوتهم ونبوتهم على العلم بأمور المخلوقات على حقيقتها ولم يقل أئمة الدين إنهم

معصومون فيها كما يدل عليه الحديث الصحيح في تأبير النخل ، ولكن يستثنى الأخبار عن عالم الغيب فهم معصومون فيه " .

هذه هي عبارتنا بنصها وفصها التي استند إليها البهات المحرف في اتهامه إيانا برد حديث عمر في رجم الشيخ والشيخة وأنه كان آية من القرآن ورد حديث سحر اليهودي للنبي ﷺ وحديث سجود الشمس وتكبيره للأمر بأنها وردت في الصحيحين، ونحن إنما ذكرنا هذه الأحاديث وغيرها كحديث المعراج وحديث صلاة الكسوف وحديث خلق السموات والأرض في سبعة أيام من باب التمثيل للأحاديث المشكلة التي تتعلق بموضوع المناظرة التي حكمنا فيها بما بينا به مزية الصحيحين وأن ما انتقده المحدثون والمتكلمون والفقهاء وردوه من أحاديثهما قليل لا ينافي تفضيلهما على غيرهما ، وقد ذكرناها بموضوعها لا بنصوصها بل لم نذكر حديث عمر في الرجم مطلقًا ؛ لأن المقام مقام التمثيل لما انتقده بعض المتناظرين بالإجمال ، ولم نذكرها لاستئناف انتقاد عليها أو استشكال لها من عند أنفسنا .

حاصل أقوال العلماء والعبرة به وحاصل ما أوردناه من كلام المفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين أنهم اتفقوا على أن الحديث مشكل كما قلنا ، وأنهم أنكروا منه السجود تحت العرش واحتجاب الشمس عن الدنيا ، وكانت أجوبتهم عن السجود أقوى من أجوبتهم عن الاحتجاب ، وإن أحدًا منهم لم يكفر أحدًا ممن استشكله ، ولا رماه بتكذيب الله ورسوله وأن لم يسلم له تأويله ، وأن جوابنا في حل الإشكال أظهر من جميع أجوبتهم ، وأننا على توفيقنا هذا لخدمة السنة قد رمانا محرر مجلة الأزهر زورًا وبهتانًا بما علم القارئون ، ولنا أن نتمثل بقول الشاعر :

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود .

البُهَيْتَة : ما سماه إفتاء التلاميذ المسلمين بالصلاة مع النصارى في الكنائس

كل بُهَيْتَة من المفتريات التي بهتنا به الشيخ يوسف الدجوي في مجلة الأزهر كان لها شبهة منتزعة من المنار أو تفسيره بضرب من التحريف بالزيادة أو النقصان ، وجعل المنقول مقولا للناقل ومذهبًا له ، وتفسيره بغير معناه ، وإضافة شيء من الكذب أو اللوازم الباطلة إليه . وأما هذه البهيتة فهي الفرية المفضوحة التي لا تستند إلى أدنى شبهة ، بل هي قذف لنا بضد ما كنا عليه في موضوعها ، وخلاف ما قررناه وما كررناه فيه وفي وقائعه .

البهيتة ما سماه تطبيق القرآن على مذهب داروين .

إن الشيخ الدجوي قد اعتذر عن رمينا بهذه البهيتة عقب نشرها في جريدة الأفكار سنة ١٣٣٥هـ إذ خاف أن نقاضيه إلى محكمة العقوبات ، فيضطر إلى الاعتذار

فيها كما اعتذر زميله في ذلك العام ، وكان مما بهت به صاحب المنار افتراؤه عليه أنه قال : إن آدم عليه السلام من سلالة القرود ، وأنه ليس أبَا الجميع البشر ، وكانت حجته في اعتذاره أن الذي قرأ له غشّه وهو أعمى لا يُبْصِر ، ولكنه عاد في هذه السنة إلى الطعن علينا بما كتبه واعتذر عنه .

أننا نعلم أن كثيرًا من المسلمين يعتقدون صحة نظرية داروين في جملتها ، وطالما حاججناهم فيها .

قال تعالى من سورة الأعراف { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ } (الأعراف : ١١) قال الأستاذ الإمام في تفسير هذه الآية : " الخطاب لبني آدم ، والمعنى خلقنا جنسكم أي مادته من الصلصال والحمأ المسنون ، وهو الماء والطين اللازب المتغير الذي خلق منه الإنسان الأول ، ثم صورناكم بأن جعلنا من تلك المادة صورة بشر سَوِي قابل للحياة ، أو قدرنا إيجادكم تقديرًا ثم صورنا مادتكم تصويرًا إلخ ؛ وما ذكرناه هو الموافق لما عليه الجمهور ، والإنسان الأول آدم " وهذا نص صريح في اعتقادنا أن آدم هو الإنسان الأول ، وأنه أبو البشر ناقضًا لما افتراه علينا الشيخ الدجوي ومُكَذِّبًا له . [(١)]

المرحلة الأخيرة من حياة رشيد رضا

وأما المرحلة الأخيرة من حياة الشيخ رشيد رحمه الله فتبدأ بوفاة شيخه محمد عبده، وتستمر حتى وفاته منتحلاً مذهب السلف في الجُملة ومتأثرًا بالصوفيَّة والعقلانيَّة في قضايا عديدة .

أما الدليل على انتحاله مذهب السلف ومنهج أهل السنة والجماعة فيتمثل في أمور منها :

مخالفته في قضايا عديدة لمنهج المدرسة العقلية التي نشأ عليها في التفسير وغيره، كما أفصح هو عن ذلك بنفسه ، ومن ذلك عنايته بكتب السلف عقيدة ومنهجًا حيث عُنِي بكتب ابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب وغيرهم ؛ حتى اشتهر بذلك وأسماه خصومه بالوهابي ، ولعل سبب هذه التسمية أيضًا أنه كتب مقالات عديدة في الدفاع عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، منها مجموعة مقالات أسماها الوهابيون والحجاز شرح فيها دعوة الشيخ ، وجلّى مبادئها وأهدافها،

---

(١) لمزيد من التفصيل حول ردود محمد رشيد على الدجوي راجع " مجلة المنار " ج ٣٢ ص ٧٥٣ ، ٧٥٨ ، ٧٦٧، ٧٧٢، ٧٨٥، ج ٣٣ص ٣٣

كما كتب كتابًا ردَّ فيه على خصوم الدعوة من الشيعة والرافضة ، أسماه (السنة والشيعة) أو (الوهابية والرافضة) .

وأخيرًا فممَّا يؤكد سلفيَّة مرحلته الأخيرة : أنه وقعت بَيْنَه وبين أتباع وتلامذة المدرسة العقليَّة الحديثة العداوة والوحشة بسبب ما انتحاه الشيخ من مَنحى السلفيَّة ، مما أذكى نار العداوة بينهم على صحائف الصحف والمجلات .

وبحق فقد كانت عقيدة السيد رشيد رضا أصفى وأنقى في طورها الأخير ، وأبعد عن نظرات الاعتزال ومسالك العقلانيين .(١)

كلمة أخيرة في رواد السلفية النهضوية

مع تقديرنا لمنهج السلفية النهضوية : الأفغاني وتلميذه محمد عبده ، وتلميذه رشيد رضا ، وصديقه الكواكبي ، واجتهادهم في محاولة الجمع بين تحديات العصر ، والثورة العلمية ، وبين نصوص الدين ليثبتوا أن الدين ليس عائقاً ضد التطور والتحديث إنما يواكب كل جديد ويصلح لكل زمان ومكان ، فإنهم – كسائر المجتهدين – لم يسلموا من الخطأ والانحياز لبعض النظريات العلمية التي لم تصبح حقائق راسخة في تفسير الدين ، وإنكار بعض الغيبيات صحيحة النقل بدعوى مخالفتها للعقل .وهذا لا يغض من قيمة هؤلاء المفكرين العظماء ، ولا مما قاموا به من خدمات جليلة لتجديد الدين الإسلامي ، ودنيا المسلمين ، وإيقاظ الغافلين ومحاربة أهل البدع والضلال ، وأهل الكفر والإلحاد ، والمفتونين بكل غربي مستورد الكارهين لكل إسلامي أصيل .

وللأسف فإن الكثير من السلفيين المعاصرين لا يذكرون أحداً من رواد المدرسة السلفية النهضوية إلا في معرض الانتقاد والخروج على مذهب السلف ، والابتداع في الدين ويكررون الافتراءات التي سبق أن وجَّهتها مجلة نور الإسلام الأزهرية لرشيد رضا دون ذكر لرد رشيد رضا عليها أو التحقق من صحة كل ما ينسب إليهم !!

ومَنْ مِن المجتهدين العظام في تاريخ الإسلام ، إلا المعصوم عليه الصلاة والسلام، لم يوجه له لوم ولم يؤخذ عليه بعض المسائل ، ولم تفترى عليه بعض الأقاويل ، ومن لم يحسده المنافسون ، ويغمطه المتكبرون .

---

(١) مقدمة مجلة المنار .

وهذا لم يصرف الناس عن الأخذ عنهم والاستفادة باجتهاداتهم ومعرفة قدرهم ، ولولا رواد السلفية النهضوية ومن نحا نحوهم وسار على دربهم لظل المسلمون يعيشون في غياهب عصور التدهور والانحطاط الحضاري أواخر الدولة العثمانية ، ولو أن كل مجتهد أهمل غزير علمه وجزيل فضله بسبب بعض أخطائه في بعض المسائل الفرعية لما بقي من علم العلماء كلمة ولا من فضلهم نعمة .

ويكفهم شرفاً أن عدت أخطاؤهم .

يقول الشاعر :

وَمَن ذا الَّذي تُرضى سَجاياهُ كُلُّها ... كَفى المَرءَ نُبلاً أَن تُعَدَّ مَعايِبُهْ

ويقول آخر : من الذي ما ساء قط ... ومن له الحسنى فقط

وأختم في هذا الصدد بقول الإمام الذهبي في ترجمته لابن تيمية : " لا يسعني في ديني ولا عقلي أن أكتم محاسنه وأدفن فضائله وأبرز ذنوباً له مغفورة في سعة كرم الله تعالى وصفحة مغمورة في بحر علمه وجوده فالله يغفر له ويرضى عنه ويرحمنا إذا صرنا إلى ما صار إليه مع أني مخالف له في مسائل أصلية وفرعية قد أبديت آنفاً أن خطأه فيها مغفور بل قد يثيبه الله تعالى فيها على حسن قصده وبذل وسعه والله الموعد " (١)

لقد دأب كثير من السلفيين إلى تمزيق الأمة على بسبب اختلافها في بعض الفروع بدلاً من السعي إلى وتحيدها على الأصول والتماس العذر لمن خالف في الفروع ليتهم أخذوا بمنهج السلفية النهضوية في السعي إلى توحيد الأمة وتقدمها في سائر المجالات .

فالسلفية النهضوية ترى أن الوحدة الإسلامية لا تتحقق إلا بالرجوع إلى الكتاب والسنة المتبعة المجمع عليها في أمور العقائد والعبادات المحضة كما كان السلف ، وأن يكون الاجتهاد في المعاملات قائمًا على أصولهما العامة مع مراعاة مصلحة الأمة وعُرف الزمان كما جرت المذاهب ، وعدم التفريط في مصلحة الأمة لأجل موافقة مذهب دون مذهب ، وما نذكر من المسائل بأدلتها مع بيان حكمتها وانطباقها على المصلحة نريد به مع الرد على المنكرين بيان النموذج الذي نرى اتباعه جامعًا لكلمة الأمة ومحييًا لنشأة الدين فيها ، ولا نلتزم في ذلك إلا موافقة الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، فما كتبنا شيئًا يخالف هذه الأصول ولا القياس حيث لم توجد . (٢)

***

---

(١) شمس الدين الذهبي " ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام " ص ٢٢- ٢٦

(١) محمد رشيد رضا " مجلة المنار " ج ٧ ص ٩٥٤

الفصل الخامس

الإخوان المسلمون

حسن البنا

مؤسس جماعة الإخوان المسلمين والمرشد الأول لها هو حسن أحمد عبد الرحمن البنا ولد في أكتوبر ١٩٠٦م ، بالمحمودية في محافظة البحيرة .

والده أحد تلامذة الإمام محمد عبده ، ومن علماء الحديث ؛ ،فقد رتب مسند الإمام أحمد بن حنبل، وخرَّج أحاديثه، وشرح ما يحتاج إلى بيان، وسمّاه " الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني " كما رتّب معظم أسانيد الأئمة الأربعة علي أبواب الفقه، وله مؤلفات عديدة في السنة منها " بدائع المنن في جمع وترتيب مسند الشافعي والسنن " .

بدأ حسن البنا دراسته بالقرآن الكريم والثقافة الإسلامية ؛ فقد أراد له أبوه أن ينشأ نشأة إسلامية حقيقية وأصرَّ علي أن يحفظ القرآن ، واستكمل له الكثير من جوانب الثقافة الإسلامية في سن مبكرة .

يقول عبد الرحمن البنا عن طفولة أخيه الأكبر حسن البنا :

" كنّا نعود من المكتب (الكُتّاب) فتتلقفنا يد الوالد الكريم ، فتعدنا وتصنعنا ، وتحفظنا دروس السيرة النبوية المطهرة وأصول الفقه والنحو ، وكان له منهاج يدرسه لنا الوالد الكريم ، وكانت مكتبة الوالد تفيض بالكتب وتمتلئ بالمجلدات ، وكنا ندور عليها بأعيننا الصغيرة ، فتلمع أسماؤها بالذهب ، فنقرأ : النيسابوري ، والقسطلاني ، ونيل الأوطار ، وكان يبيحها لنا ويشجعنا علي اقتحامها ، وكان أخي هو المجلي في الحلبة وفارس الميدان ، وكنت أحاول اللحاق به ، ولكنه كان غير عادي ، كان فرق السن بيننا سنتين ، ولكنه لم يكن الفرق الحقيقي ، بل فرق إرادة إلهية أعدته لأمر عظيم ، فكان طالب علم ولكنه مستقر موهبة ومستودع منحة ربانية ، وشتان بين المنزلتين ، وفرق بعيد بين المريد والمراد ! وكنا نسمع ما يدور في مجلس الوالد الكريم من مناقشات علمية ومساجلات ، ونصغي للمناظرات

بينه وبين من يحضر مجلسه من جلة العلماء ، أمثال الشيخ محمد زهران والشيخ حامد محيسن ، فنسمعهم وهم يناقشون عشرات المسائل . "

التحق حسن البنا بمدرسة الرشاد الدينية التي أسسها الشيخ محمد زهران وسنه حوالي ثمانية أعوام واستمر لمدة أربع سنوات ، وكانت هي الأساس والقاعدة الصلبة التي استند عليها في تجاوز مراحل تعليمه اللاحقة بجدارة وتوفيق .

قال حسن البنا عن شيخه محمد زهران :

" ولعلي أفدت منه ، رحمه الله ، مع تلك العاطفة الروحية حب الاطلاع وكثرة القراءة ، إذ كثيراً ما كان يصطحبني إلي مكتبته وفيها الكثير من المؤلفات النافعة لأراجع له وأقرأ عليه ما يحتاج إليه من مسائل ، وكثيراً ما يكون معه بعض جلسائه من أهل العلم فيتناولون الموضوع بالبحث والنظر والنقاش وأنا أسمع ."

انتقل البنا بعد ذلك إلى المدرسة الإعدادية ، وقد شارك أثناء دراسته بالمدرسة الإعدادية في جمعية منع المحرمات ، كما كان رئيسًا لمجلس إدارة جمعية الأخلاق الأدبية وكانت تحت إشراف أحد أساتذة المدرسة ، واستمر في المدرسة الإعدادية لمدة سنتين حتى ألغيت المدارس الإعدادية واستبدل نظام المدارس الابتدائية بها .

ثم التحق البنا بمدرسة المعلمين الأولية عام ١٩٢٠م وتخرج منها مدرساً ، وكانت هذه المرحلة مرحلة تحول في حياة البنا من الناحية العلمية والثقافية " فقد كانت أيام مدرسة المعلمين في سنواتها الثلاث أيام استغراق في التصوف والتعبد ، ولكنها مع ذلك لم تخل من إقبال علي الدروس وتحصيل العلم خارج حدود المناهج المدرسية .

وأدي البنا امتحان كفاءة التعليم فكان الأول في المدرسة والخامس في القطر ، وكانت هذه النتيجة مفاجأة له وكان نجاحه في دخول دار العلوم مفاجأة ثانية كما يقول هو :

" إن مجلس مديرية البحيرة قرر تعييني مدرسًا بمدرسة خربتا الأولية ، ودعيت إلي تسليم عملي عقب الإجازة الصيفية مباشرة ، فكان عليَّ بناء علي هذا أن أختار بين الوظيفة أو العودة إلي طلب العلم بدار العلوم ولكني في النهاية فضلت أن أستمر في سلك التعلم ، وأن أشد الرحال إلي القاهرة ، حيث دار العلوم . "

ووفقه الله تعالى في دخول دار العلوم وتفوق فيها من السنة الأولي لدراسته فيها وكان الثالث علي دفعته ، ولم يكتف بما كان يدرسه في دار العلوم ، ولكنه كان محبًا للعلم وتحصيله بشتى الطرق ، فقد كان يتردد علي المكتبات وكبار المفكرين والعلماء في ذلك العصر .

ولم يكتف بكل ذلك بل جعل المكافأة الشهرية التي كانت تمنحها لـه دار العلـوم لشراء الكتب النافعة ، وقد قرأ في شتى مجالات المعرفة ، وتشكلت ثقافته من كـل أصناف ميراث الحضارة الإسلامية والنهضة الأوربية .

فقرأ للغزالي والزمخشري وفخر الدين الرازي وأبي الحسن الأشعري ، بالإضافة إلي كتابات السلف وأئمة الصوفية ، كما قرأ لديكارت وإسحق نيوتن وميشال الفلكي الإنجليزي وهربرت اسبنسر واستشهد بهم . "

وقد كان لا يكتفي بمجرد القراءة في المجالات المختلفة فيعرف شيئاً عن شيء بل كانت ثقافته موسوعية ، يعرف التطور التاريخي لكل علم وأصوله لا سيما في اللغة والشرع ، حتى أنه كتب في كثير من علوم اللغة والشرع .

وكان في كل هذه العلوم لا يأخذها من جانب واحد ولكن كان يقرأ للمختلفين فـي وجهات النظر لا سيما في المسائل الخلافية وقد كتب البنا بخط يده قـصاصة مـن الورق موضوعة في طيَّات كتاب " هذه هي الأغلال " ومن بين ما كتبه بخط يـده فيها " ويل للذين ينظرون إلي الأشياء من جانب واحد ، ويل وويل للإنسان مـنهم ، ولن تجد علي الأرض أشد منهم ظلمًا ولا أسقم فهمًا ."

والعبارة الأخيرة حكمة بالغة ونصيحة نفيسة فمن قرأ في اتجاه واحد أصبح أثيره ولا يرى عيوبه بعكس الذي يقرأ في مجالات شتى وللمختلفين في وجهـات النظـر فيستطيع أن يعرف مزايا كل اتجاه وعيوبه { الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْـسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ } (الزمر : ١٨)

يقول ابن عباس في تفسير الآية : هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيـه محاسن ومساوئ ، فيحدث بأحسن ما سمع ، ويكف عما سواه .

كانت مرحلة دار العلوم هي مرحلة تنوع الثقافة فلم تكن الدراسة جامدة ، بل كـان الطلاب والأساتذة يتناولون كثيراً من الأمور العامة سياسية كانـت أو اجتماعيـة ، وكانت المواد التي تدرس في دار العلوم تتضمن علـوم اللغـة والأدب والـشريعة والجغرافيا والتاريخ ومناهج التربية العلمية والعملية والاقتصاد السياسي ، وكان للبنا لقاءات متعددة مع أعلام الفكر والثقافة في عصره فكانت له لقاءات كثيرة مع السيد محب الدين الخطيب ، والأستاذ الكبير محمد الخضر حسين ، والأستاذ محمد أحمـد الغمراوي ، وأحمد باشا تيمور ، وعبد العزيز باشا محمد ، كما كان يلتقي والـشيخ

رشيد رضا ، والشيخ عبد العزيز الخولي ، والشيخ محمد العدوى ، كان يلتقي بهم ويستفيد من علمهم وثقافتهم .

كما كان البنا يغشي مجالس الشيخ يوسف الدجوي ويلتقي به ومن يجالسه من العلماء ويشارك في لقاءاتهم وكذلك كان كثير اللقاء بالأستاذ محمد فريد وجدي حيث يغشي داره ويجلس للاستفادة من المناقشات التي كانت تتم بينه وبين العلماء من ضيوفه حيث يتدارسون علومًا في شتي مناحي الحياة وكان البنا من محبي قراءة مجلة الحياة وكان من عشاق دائرة معارفه .

يقول البنا في مذكراته : " وهكذا كانت حياتي في القاهرة خليطاً عجيباً من الحضرة في منزل الشيخ أو منزل علي أفندي غالب، إلى" المكتبة السلفية" حيث السيد محب الدين، إلى دار المنار والسيد رشيد، إلى منزل الشيخ الدجوي، ثم منزل فريد بك وجدي، ودار الكتب أحياناً، ومسجد شيخون أحياناً أخرى . " (١)

ويروي الأستاذ محمود عبد الحليم عن امتحانه في دبلوم دار العلوم فيقول نقلاً عن حسن البنا : " وكان امتحان الأدب العربي هو الامتحان الرئيس في دار العلوم وكان الامتحان فيه تحريريًا وشفويًا ، فلما مثلت بين يدي لجنة الامتحان الشفوي في امتحان الدبلوم النهائي لدار العلوم سألني رئيس اللجنة عما أحفظ من الشعر فقدمت إليه الكراريس فقال لي : ما هذه الكراريس ؟ قلت أن ما فيها هو ما أحفظه ! فتعجب الرجل وقال : هل أنت علي استعداد أن اسمع منك أية قصيدة أختارها من هذه الكراريس ؟ فأجبته بالإيجاب ، فطفق يطلب إلي أن أقرأ فأقرأ حتى اطمئن إلي أنني أحفظ ما فيها جميعًا .

ثم قال لي : أني أسألك السؤال الأخير : ما أحسن بيت أعجبك في الشعر العربي؟ قلت : أحسن بيت أعجبني هو قول طرفة بن عبد في معلقته :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني * عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

قال : قم يا بني هذا السؤال يسأل للنابهين من الطلبة في كل عام هنا ، وفي الأزهر فلم يجب أحد بمثل ما أجبت إلا الشيخ محمد عبده .. إنني أتنبأ لك يا بني بمستقبل عظيم . "

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول السيرة الذاتية لحسن البنا الرجوع إلى كتابه " مذكرات الدعوة والداعية " .

أسّس حسن البنا جماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٢٨م وأعاد إصدار" جريدة المنار" بعدما توقفت، وعمل من أجل المشروع الإسلامي الذي يستطيع مقاومة الاستعمار، ومحاولات قهر الشعوب المسلمة، واقتحم سنة ١٩٣٦م الميدان السياسي، ودعا الملوك والحكام إلى تطبيق الشريعة الإسلاميَّة في شئون الحياة سنة ١٩٤٨م ، وبشّر بالدولة الإسلاميَّة في صورة الخلافة، وقال: إذا لم تقم الحكومة الإسلاميَّة فإن جميع المسلمين آثمون .

ألف: حسن البنا : الرسائل، وأحاديث الجمعة ، والمأثورات، وكتاب سيرته الذاتية " الدعوة والداعية " .

كان خطيباً من الطراز الأول : وصف الشيخ علي الطنطاوي لقاءً خطب فيه الإمام البنا فقال : " وهو في خطبته التي يلقيها كما تلقى الأحاديث بلا انفعال ظاهر، ولا حماسة بادية، من أبلغ من علا أعواد المنابر، تفعل خطبه في السامعين الأفاعيل وهو لا ينفعل، يبكيهم، ويضحكهم، ويقيمهم، ويقعدهم، وهو ساكن الجوارح، هادئ الصوت، يهز القلوب ولا يهتز ."

هدف دعوة حسن البنا

برغم دعوة رواد المدرسة السلفية الإصلاحية التنويرية إلا أنها لم تؤثر إلا في بعض النخب الثقافية ، وظل أكثر الناس موزعين بين تقليد القديم بقضه وقضيضه وإهمال بل وربما تحريم كل جديد نافع ، وبين تقليد كل جديد مستورد لأوربا مستهترين بأصول الدين وشريعته الخالدة .

على أننا نرى أن حسن البنا يستهدف بدعوته مواجهة التيار العلماني التغريبي أكثر من مواجهة التيار الرجعي التقليدي .

وفي ذلك يقول حسن البنا : " أما تدعيم النهضة على أصول إسلامية خالصة: فمن المعلوم كذلك أن الأمم الإسلامية بعد الحرب العالمية (الأولى) وقفت على مفترق طريقين: طريق المدنية الأوروبية بزخارفها ومظاهرها ومباهجها ومفاتنها ومتعها ونسائها وفضتها وذهبها، وطريق الحياة الروحية التي نبتت في الشرق، وأورقت في الشرق، وغذّتها الفلسفات وباركتها النبوات، وكان ختام ذلك كله الإسلام الذي جعله الله رحمته الكبرى للعالمين.

فأما بعض الأمم الإسلامية فقد خفي عليها جمال دينها، وأحاطت بها ظروف أبعدتها عن أصوله وفضائله، فتنكرت لعقائدها، ولبست أرواحًا غير أرواحها،

واندفعت في تيار التقليد الأوروبي لا تلوي على شيء؛ حتى صارت شبه أوروبية في كل شيء، قوم تمَّ لهم ذلك، وقوم على إثرهم يسيرون، والموجة تطغى والسيل ينهمر. ومن وراء هؤلاء أمم محيرة لا تدري في أي الطريقين تسير؟! [١]

وحسن البنا في تركيزه على التصدي للتيار التغريبي ومهاجمته يكون أقرب إلى فكر رشيد رضا منه إلى فكر محمد عبده فمن المعروف أن رشيد رضا كان أكثر محافظة من أستاذه محمد عبده لدرجة أن البعض وصفه بأنه في آخر حياته أصبح وهَّابي الهوى .

يقول حسن البنا : " إن الدعاية الأوروبية قد نجحت تمامًا في غزو الفكرة الإسلامية، وإحلال غيرها من الفكر المدنية محلها في مظاهر الحياة العامة، ولم تبق بين المسلمين إلا قشورًا لا تنفع؛ ففي السياسة وفي القانون وفي الخلق وفي الاجتماع زاحمت الفكرة الإسلامية أفكارًا أخرى أضعفت قوتها، وأذهبت ريحها، وصرفت الأبصار عنها.

ومهمة الإخوان المسلمين أن يردوا الأمة إلى أصول الإسلام، وأن يحرروا العقول والأفكار من هذا التعبد المخجل للأفكار الأوروبية البحتة.

إن مدنية أوروبا ليست فيها من ناحية جمال إلا ناحيتها العلمية، وهذه لا يأباها الإسلام بل يحض عليها ويأمر بها، وما عدا ذلك فنحن في غنى عنه، وفي الإسلام خير منه لو كشف المسلمون عن أسراره وفهموه فهمًا صحيحًا، ذلك ما ننادي به {وللهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ})(الروم: ٤-٥) [٢]

كانت رؤية حسن البنا التي عمل على تحقيها تتمثل في هدفين أساسين هما :

١- تحرير الوطن الإسلامي من كل سلطان أجنبي .

٢- قيام دولة إسلامية حرة تعمل على تطبيق الإسلام الشامل لجوانب الحياة كما دعت إليه السلفية النهضوية التي تربى على أفكارها .

كانت هذه هي رؤيته أما منهجه في تحقيق هذه الرؤية فهو جمع أتباعه على المحبَّة والإخاء ، وتربيتهم على الإيمان بالدعوة ، والتجرد لها، والاستعداد التام لكل

---

(١) حسن البنا " من قواعد الإصلاح " جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ٩ مارس ١٩٣٧م.
(٢) نفسه .

ما يلقونه في سبيلها، وإعادة فكرة شموليّة الإسلام ، وضرورة تطبيقه كمنهج حياة، والولاء الكامل للإسلام، والإخاء الإسلامي، ومحاربة مظاهر الانحلال الخلقي، والتفرنج بمفهوم الكواكبي .

اغتيل حسن البنا عفا الله عنا وعنه وعن سائر المسلمين في ١٢ فبراير عام ١٩٤٩م وخلفه المرشد الثاني حسن إسماعيل الهضيبي . [١]

حسن البنا والتنظيم الحركي للسلفية النهضوية

المطالع لفكر الإخوان خصوصًا ما وضعه حسن البنا المؤسس في عدد من رسائله، يجد عرضًا واضحًا متكاملاً للتنظيم الحركي للسلفية النهضوية المحافظ فقد استفاد حسن البنا من السلفية النهضوية منهجها التعليمي الدعوي وتتلمذ على أعلامها ولا سيما رشيد رضا ومحب الدين الخطيب ولكنه لم ير أن وسيلة التربية والتعليم التي اختارتها السلفية النهضوية وحدها وسيلة كافية لإصلاح المجتمع والتي تمثلت في اكتفائها في نشر مشروعها النهضوي بالكتابة في الصحف والمجلات وتأليف الكتب التي لا يطّلع عليها إلا عدد ضئيل جداً من القراء دون أن يكون لها تنظيم حركي يبث هذا الفكر بين الناس ويعنى بتربية كوادر بشرية تحمل هذا المشروع وتجاهد في سبيل نشره .

لذا كان حسن البنا مهتماً باصطناع الرجال لجماعته مُقلاً في التأليف، رغم قدرته على ذلك، وإمكاناته العلمية والأدبية يقول البنا موضحاً منهجه الحركي :

" دعوني من تأليف الكتب، فمهما حوى الكتاب من نظرات وأفكار، فإن هذه النظرات والأفكار ستظل حبيسة دفتيه، رهينة صفحاته، حتى تصادف قارئًا أهلاً لفهمها، قادرًا على الانتفاع بها.. وقلما تصادف الكتب هذا اللون من القراء.. فأكثر المؤهلين لذلك لا تسعفهم ظروفهم باقتناء الكتب ولا بقراءتها.. أما أكثر الذين يقتنونها فإنهم يقتنونها ليزينوا بها أثاث بيوتهم، والمكتبة الإسلامية متخمة بالمؤلفات في جميع العلوم والفنون، ومع هذا لم تغنِ عن المسلمين شيئًا حين قعدت هممهم وثبطت عزائمهم، وركنوا إلى الدعة والخمول، واستكانوا للترف، فركبهم الأعداء من كل جانب..

والوقت الذي أضيعه في تأليف كتاب، أستغله في تأليف مائة شاب مسلم، يصير كل شاب منهم كتابًا حيًّا ناطقًا عاملاً مؤثرًا، أرمي به بلدًا من البلاد فيؤلفها كما أُلف هو." [١]

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول حياة ودعوة حسن البنا الرجوع لموقع " ويكيبيديا الإخوان المسلمون " .

فهذا المشروع يتسم كما يقول د. عبد الحميد الغزالي في كتابه: المشروع الإسلامي لنهضة الأمة " بسلاسة العرض، وسهولة الأسلوب، وتقديم الدليل الشرعي، والتركيز على تربية الرجال، وإيثار الناحية العملية، والتدرج في الخطوات، والبعد عن مواطن الخلاف، والإيمان العميق بشمول الإسلام لكل مناحي الإصلاح إلى نهاية الزمان، فهو فكرة وعقيدة، ونظام ومنهاج، لا يحدّه موضع، ولا يقيده جنس، ولا يقف دونه حاجز جغرافي، ولا ينتهي بأمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ ذلك لأنه نظام رب العالمين، ومنهاج رسوله الأمين. (٢)

نشأة جماعة الإخوان المسلمين

بعد سنوات ليست بالقصيرة قضاها حسن البنا في التعلم على يد كوكبة من العلماء والشيوخ والاطلاع على كنوز التراث الإسلامي والغربي ، وسنوات من الدعوة والتعليم وإلقاء المحاضرات والدروس أسس البنا جماعة الإخوان المسلمين .

يقول حسن البنا عن نشأة جماعة الإخوان المسلمين " في مارس سنة ١٩٢٨م زارني بالمنزل أولئك الإخوة الستة : حافظ عبد الحميد، أحمد الحصري، فؤاد إبراهيم، عبد الرحمن حسب الله، إسماعيل عز، زكي المغربي، وهم من الذين تأثروا بالدروس والمحاضرات التي كنت ألقيها، وجلسوا يتحدثون إلي وفي صوتهم قوة، وفي عيونهم بريق، وعلى وجوههم سنا الإيمان والعزم، قالوا: " لقد سمعنا ووعينا، وتأثرنا ولا ندري ما الطريق العملية إلى عزة الإسلام وخير المسلمين، ولقد سئمنا هذه الحياة: حياة الذلة والقيود، وها أنت ترى أن العرب والمسلمين في هذا البلد لا حظ لهم من منزلة أو كرامة وأنهم لا يعدون مرتبة الأجراء التابعين لهؤلاء الأجانب. ونحن لا نملك إلا هذه الدماء تجري حارة بالعزة في عروقنا، وهذه الأرواح تسري مشرقة بالإيمان والكرامة مع أنفسنا، وهذه الدراهم القليلة، من قوت أبنائنا، ولا نستطيع أن ندرك الطريق إلى العمل كما تدرك، أو نتعرف السبيل إلى خدمة الوطن والدين والأمة كما تعرف، وكل الذي نريده الآن أن نقدم لك ما نملك لنبرأ من التبعة بين يدي الله، وتكون أنت المسئول بين يديه عنا وعما يجب أن

---

(١) محمود عبد الحليم فى كتابه " الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ- رؤية من الداخل "
(٢) عامر شماخ ' الإمام البنا.. والمشروع الحضاري الإسلامي " الموقع الرسمي للإخوان المسلمين بتاريخ ٢٠١١/١/٣١

نعمل، وإن جماعة تعاهد الله مخلصة على أن تحيا لدينه، وتموت في سبيله، لا تبتغي بذلك إلا وجهه، لجديرة أن تنتصر، وإن قل عددها وضعفت عددها".

كان لهذا القول المخلص أثره البالغ في نفسي، ولم أستطع أن أتنصل من حمل ما حملت، وهو ما أدعو إليه وما أعمل له، وما أحاول جمع الناس عليه، فقلت لهم في تأثر عميق: " شكر الله لكم وبارك هذه النية الصالحة، ووفقنا إلى عمل صالح، يرضي الله وينفع الناس، وعلينا العمل وعلى الله النجاح. فلنبايع الله على أن نكون لدعوة الإسلام جندا، وفيها حياة الوطن وعزة الأمة !.

وكانت بيعة ... وكان قسماً أن نحيا إخواناً نعمل للإسلام ونجاهد في سبيله.

وقال قائلهم: بم نسمي أنفسنا ؟ وهل نكون جمعية أو نادياً، أو طريقة أو نقابة حتى نأخذ الشكل الرسمي ؟ فقلت : لا هذا، ولا ذاك، دعونا من الشكليات ، ومن الرسميات، وليكن أول اجتماعنا وأساسه : الفكرة والمعنويات والعمليات. نحن إخوة في خدمة الإسلام، فنحن إذن" الإخوان المسلمون". وجاءت بغتة... وذهبت مثلاً... وولدت أول تشكيلة للإخوان المسلمين من هؤلاء الستة: حول هذه الفكرة، على هذه الصورة وبهذه التسمية." (١)

وهكذا ولدت جماعة الإخوان المسلمين ، ولقد بذل أعضاؤها جهداً كبيراً في الدعوة إليها والالتزام بمبادئها ، أما جهاد حسن البنا في سبيل الدعوة إلى هذه الجماعة واصطناع رجالها فقد كان خارقاً .

جهاد حسن البنا في سبيل جماعة الإخوان

بدأ نشاط حسن البنا الجم في صفوف العمال والحرفيين ، وخاض غمار هذا النشاط بحماس يفوق الوصف وكان حماسه هذا يأسر أتباعه وخصومه معاً ، كان لا يعرف اليأس ولا التعب يقحم نفسه على المجالس أي مجلس محتمياً بدعوته إلى القرآن والدين .

قرر يوماً أن ينشئ فرعاً لجماعته في " أبو صوير " فسافر إلى البلدة وحيداً ولم يكن يعرف فيها أحداً ، ونترك حسن البنا يحدثنا بنفسه عن هذه الرحلة : " زرت

---

(١) حسن البنا " مذكرات الدعوة والداعية " ص ٧٥، ٧٦ .

"أبو صوير" وبدا أن أنشئ فيها فرعاً للجمعية بالإسماعيلية فأخذت أتفرس في وجوه الناس في القهاوي وفي الطرقات والحوانيت حتى رأيت دكان الشيخ محمد العجرودي رحمه الله، وكان رجلاً وقوراً مهيباً سمحاً فيه صلاح وله منطق ولسان. ورأيته يبيع ويتحدث مع زبائنه فتوسمت فيه الخير فسلمت عليه وجلست إليه وإلى من معه في الدكان وقدمت إليه نفسي والغرض الذي من أجله زرت" أبو صوير" وأنني توسمت فيه الخير ليحمل أعباء هذه الدعوة، وأخذت في حديثي ألفت نظره ونظر الجالسين إلى نقط أساسية : إلى سمو مقاصد الإسلام وعلو أحكامه وإلى ما فيه المجتمع من فساد وشر وسوء، وإلى أن ذاك ناتج عن تركنا وإهمالنا لأحكام الإسلام ، وإلى وجوب الدعوة إلى تصحيح هذا الوضع وإلا كنا آثمين لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل النصيحة فريضة واجبة، وإلى أن الطريقة الفردية وحدها لا تكفي بل لا بد من تكوين رأي عام يناصر هذه الفكرة وجماعة من الطيبين في كل قرية يؤمنون بها ويجتمعون عليها ونسميهم الإخوان المسلمين.

وكان الرجل ومن معه يصغون باهتمام ولكنهم لم يفقهوا بادئ ذي بدء إلا أنها دعوة إلى جمعية خيرية أو إلى سماع درس ألقيته عليهم وأبى لطفه إلا أن يدعوني إلى الغداء ويحضر لي القهوة فاعتذرت عن الغداء وأردت الانصراف ولكنه شدد وأشار علي في أن ألقي درساً في المسجد أو في مصلى على البحر يجتمع فيه الناس فاخترت أن ألقي الدرس في القهوة وقد كان، وتجمع الناس وأصغوا واستغربوا ما رأوا وما سمعوا وعجبوا من أن مدرساً شاباً وجيهاً يلقي دروساً دينية هكذا على الناس في القهاوي وليس بإمام في مسجد ولا بشيخ طريقة، وأعجبهم القول فشددوا في أن أكرر الزيارة وقد كان.

وبعد زيارات متتالية اجتمعنا في منزل أحمد أفندي دسوقي وقررنا إنشاء شعبة للإخوان المسلمين في "أبو صوير" ... " (١)

ويمكن القول أن رحلة "أبو صوير" هذه قد تكررت مئات المرات بل وآلاف المرات والشيخ الشاب يحمل حقيبة صغيرة فيها ملابسه يتجول من قرية لقرية ويقصد أعيان القرى يقيم في مضايفهم يتحدث ويناقش ويدعو فإن لم يجد صدراً وحباً فالمسجد موجود فيه يستريح وينام ويدعو الناس . " وكان أعجب ما في

---

(١) حسن البنا " مذكرات الدعوة والداعية " ص ١٠٠

الرجل صبره على الرحلات في الصعيد هذه الرحلات التي لا تبدأ إلا في فصل الصيف حيث تكون بلاد الوجه القبلي في حالة غليان (شديدة الحر) في أحشائها يتنقل الرجل بالقطار والسيارة والدابة وفي القوارب وعلى الأقدام وهناك تراه غاية في القوة واعتدال المزاج لا الشمس اللافحة ولا متاعب الرحلة تؤثر فيه ولا هو يضيق بها " وقد أمدته هذه في خمس عشرة عاماً زار خلالها أكثر من ألفي قرية وزار كل قرية بضع مرات بفيض غزير من العلم والفهم للتاريخ القريب والبعيد للأسر والعائلات والبيوتات وأحداثها وأمجادها وما ارتفع منها وما انخفض ، وألوانها السياسية وأثرها في قراها ورضا الناس عنها وبغضهم لها وما بين البلاد أفراداً وأحزاباً وهيئات وطوائف من خلافات أو حزازات وكان يزور أحياناً بلداً من البلاد بلغت فيه الخصومة بين عائلتين مبلغها ، وكل عائلة تود أن تستأثر به لتنتصر على الأخرى فيقصد إلى المسجد مباشرة ، أو يغيِّر طريق سفره فلا يستقبله أحد إلا بعد أن يكون قد قصد إلى عامل فقير في البلد ، وكنت إذا قلت له فلان الحسني أو الحديدي أو الحمصاني قال لك : إن هذا الاسم تحمله خمس أسر أو أربع إحداها في القاهرة والثانية في دمنهور والثالثة في الزقازيق والرابعة في ... فأيهما تقصد ؟ وقد حدثني أنه كان يدخل بلداً من البلاد أحياناً لا يعرف فيه أحد فيقصد إلى المسجد فيصلي مع الناس ثم يتحدث بعد الصلاة عن الإسلام وأحياناً ينصرف الناس عنه فينام على حصير المسجد وقد وضع حقيبته تحت رأسه والتف بعباءته " [١]

ويقول د. يوسف القرضاوي عن حسن البنا : " ومن أهم المرات التي لقيت فيها الأستاذ المرشد حسن البنا: مرة زيارته للمحلة الكبرى، قادماً من زفتى ،وقد أقيم له سرادق كبير، دعي إليه جم غفير من المحلة ومما حولها من البلدان. وقد تحدث بعض الإخوة، ثم كان حديث الأستاذ في الختام.

وذهب الأستاذ بعد ذلك إلى دار الإخوان ليلتقي بنواب الشعب، ثم بالعمال، ثم بالطلاب، وظل في اجتماعات إلى أن بقي على الفجر حوالي ساعة، فقال: أستأذنكم لأستريح هذه الساعة، ودخل حجرة ليستريح، وبعد ساعة، وجدناه خارجاً، فلا أدري هل نام هذه الساعة أو لم ينم؟ الذين عايشوه قالوا: إنه إذا أراد أن ينام نام، وكان يقول: إذا أحب الله عبداً سخر له النوم !

---

(١) الهلال أبريل ١٩٧٧ مقال : رأي كاتب أمريكي في حسن البنا – بقلم روبير جاكسون ترجمة أنور الجندي . نقلا عن د. رفعت السعيد " حسن البنا .. متى وكيف ولماذا ؟ " مرجع سابق ص ٧٣ ، ٧٤

وجاء الفجر فصلى بنا، وقرأ سورة (ق) في الركعتين.

وبعد ذلك أخلدنا نحن إلى النوم، ولا ندري ماذا فعل الشيخ بعد ذلك.

وعندما استيقظنا في الضحى، علمنا أن الشيخ مدعو إلى قرية (محلة أبو علي) بجوار المحلة، لتناول الغداء فيها، ثم إلقاء محاضرة في أحد مساجدها.

ومن هنا سافرت إلى محلة أبو علي لألتقي بأصدقائي فيها، ولننتظر الشيخ هناك، وقد صلينا العصر في المسجد العباسي مع الأستاذ المرشد، وألقى محاضرة بعد العصر، نوَّه في مقدمتها بعلماء البلدة ودعاتها، مثل الشيخ أحمد القط.

وبعد انتهاء المحاضرة ودَّع الشيخ إخوانه ومضيفيه في محلة أبو علي، ليولي شطره نحو مدينة (بلقاس) وهي آخر محطة في هذه الرحلة الدعوية، ليعود من جديد إلى القاهرة، ليستعد لرحلة أخرى، فهكذا هو أبدا، حل وارتحال، وحركة وانتقال، وقد سمعته مرة يقول: نحن كالعرب أصحاب الخيام " . (١)

وإذا كانت دراسات عديدة قد أفاضت في أسباب وبواعث قوة جماعة الإخوان المسلمين فإن كتّاب ومفكري الجماعة أنفسهم قد أكدوا أكثر من مرة " أن سر نجاح الحركة كان يكمن في شخصية البنا " (٢)

لقد كان البنا زعيماً حقاً لا جدال في ذلك ولقد أعد نفسه منذ البداية ليكون كذلك فهو يقول " يجب أن يكون الزعيم تربى ليكون كذلك ، لا زعيماً خلقته الضرورة وزعَّمته الحوادث فحسب أو زعيماً حيث لا زعيم . إن الزعماء خلقتهم الظروف أرادوا أن يستعجلوا النتائج قبل الوسائل وخدعتهم غرارتهم بقيادة الشعوب ومكائد السياسة فظنوا السراب ماء " (٣)

وكُتِبَ لجماعة الإخوان المسلمين الذيوع والانتشار بفضل شخصية مرشدها الساحرة الكاريزمية وإخلاص أعضائها وتفانيهم ، وكان حسن البنا دائماً ما يذكِّر فيما يلقيه من محاضرات ودروس علمية ودعوية بالتعريف بالجماعة وبأهدافها ، ووسائل دعوتها حتى يكون أنصارها وأعداؤها واقفين على حقيقتها فلا ينحرفون بغايتها ولا يسيئون فهمها ، ولا يتقوّلون عليها ولا على أعضائها الأقاويل .

---

(١) د . يوسف القرضاوي " ابن القرية والكتاب " فصل " حياتي مع الإخوان " .
(٢) د. رفعت السعيد " حسن البنا .. متى وكيف ولماذا ؟ " مرجع سابق ص ٧٤
(٣) حسن البنا " مذكرات الدعوة والداعية " ص ١٤٦

جماعة الإخوان المسلين ومشروع النهضة الشاملة

وصف حسن البنا جماعة الإخوان في رسالة المؤتمر الخامس على أنها جماعة إصلاحية شاملة تفهم الإسلام فهما شاملاً وتشمل فكرتهم كل نواحي الإصلاح في الأمة وأنها:

١- دعوة سلفية، إذ يدعون إلى العودة إلى الإسلام، إلى أصوله الصافية القرآن والسنة النبوية، وهي أيضاً .

٢- طريقة سنية لأنهم يحملون أنفسهم علي العمل بالسنة المطهرة في كل شيء، وبخاصة في العقائد والعبادات ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً .

٣- حقيقة صوفية، يعتقدون أن أساس الخير طهارة النفس، ونقاء القلب، وسلامة الصدر، والمواظبة على العمل، والإعراض عن الخلق، والحب في الله، والأخوة في الله.

٤- هيئة سياسية، يطالبون بالإصلاح في الحكم، وتعديل النظر في صلة الأمة بغيرها من الأمم، وتربية الشعب على العزة والكرامة.

٥- جماعة رياضية، يعتنون بالصحة، ويعلمون أن المؤمن القوي هو خير من المؤمن الضعيف، ويلتزمون قول النبي: "إن لبدنك عليك حقًا"، وأن تكاليف الإسلام كلها لا يمكن أن تُؤدى إلا بالجسم القوي، والقلب الذاخر بالإيمان، والذهن ذي الفهم الصحيح.

٦- رابطة علمية ثقافية، فالعلم في الإسلام فريضة يحض عليها، وعلى طلبها، ولو كان في الصين، والدولة تنهض على الإيمان، والعلم.

٧- وشركة اقتصادية، فالإسلام في منظورهم يُعنى بتدبير المال وكسبه، والنبي يقول: " نعم المال الصالح للرجل الصالح" و" من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفورًا له " .

٨- كما أنهم فكرة اجتماعية، يعنون بأدواء المجتمع، ويحاولون الوصول إلى طرق علاجها وشفاء الأمة منها. أي أن فكر الأخوان مبني على شمول معنى الإسلام، الذي جاء شاملاً لكل أوجه ومناحي الحياة، ولكل أمور الدنيا والدين .

ويحدد البنا مستلزمات مشروع النهضة بقوله : " إن تكوين الأمم وتربية الشعوب وتحقيق الآمال ومناصرة المبادئ تحتاج من الأمة التي تحاول هذا، أو من الفئة التي تدعو إليه على الأقل، إلى قوة نفسية عظيمة تتمثل في عدة أمور:

١- إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف.

٢- وفاء ثابت لا يعدو عليه تلوُّن ولا غدر.

٣- تضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل.
٤- معرفة بالمبدأ، وإيمان به، وتقدير له، يعصم من الخطأ فيه، أو الانحراف به عنه، أو المساومة عليه، أو الخديعة بغيره .[١]

ولنجاح المشروع: ركز الإمام البنا على العمود الفقري لإحداث النهضة، وهم الشباب، بقوله :

" إنما تنجح الفكرة إذا قوي الإيمان بها، وتوافر الإخلاص في سبيلها، وازدادت الحماسة لها، ووجد الاستعداد الذي يحمل على التضحية والعمل لتحقيقها، وتكاد تكون هذه الأركان الأربعة: (الإيمان، والإخلاص، والحماسة، والعمل) من خصائص الشباب؛ لأن أساس الإيمان: القلب الذكي، وأساس الإخلاص: الفؤاد النقي، وأساس الحماسة: الشعور القوي، وأساس العمل: العزم الفتي.. وهذه كلها لا تكون إلا للشباب، ومن هنا كان الشباب- قديمًا وحديثًا- في كل أمة عماد نهضتها، وفي كل نهضة سر قوتها، وفي كل فكرة حامل رايتها..{إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى } (الكهف :١٣) [٢]

ومن عوامل نجاح المشروع كذلك:

إعداد الرجال، بالتربية الجادة، وبناء النفوس، وتشييد الأخلاق، وطبع أبنائها على خلق الرجولة الصحيحة؛ حتى يصمدوا لما يقف في طريقهم من عقبات، ويتغلبوا على ما يعترضهم من صعاب.. "إن الرجل سر حياة الأمم ونهضتها، وإن تاريخ الأمم جميعًا إنما هو تاريخ من ظهر بها من الرجال النابغين أقوياء النفوس والإرادات، وإن قوة الأمم أو ضعفها إنما تقاس بخصوبتها في إنتاج الرجال الذين تتوافر فيهم شرائط الرجولة الصحيحة" [٣]

والإسلام كفيل، بإمداد الأمة الناهضة- وفقًا لتحليل حسن البنا- بالدعائم أو عناصر القوة التالية: الأمل الواسع الفسيح، الاعتزاز بالقومية والتاريخ المجيد، القوة والاستعداد والجندية، العلم الغزير (علم الدنيا وعلم الدين)، الخلق الفاضل القوي المتين، النفس العالية الطموح، المال والاقتصاد. ولقد أكد الأستاذ البنا- منذ اليوم الأول لدعوته- أن مرجعية الدولة العليا هي الإسلام، وأن هذه الدعوة تتميز بمجموعة من الخصائص تميزها عن غيرها من الدعوات، وهي ليست خصائص

(١) من رسالة حسن البنا " إلى أي شيء ندعو الناس " .
(٢) من رسالة " إلى الشباب" .
(٣) من رسالة " هل نحن قوم عمليون ؟ " .

شكلية، وإنما تمثل جوهر الفكرة التي يقوم عليها هذا المشروع الحضاري الذي يستنهض الأمة من جديد، وهذه الخصائص هي: الربانية، العالمية، التميز، الشمولية، العلمية، العقلانية، الاستقلالية، العملية، الوسطية، الشرعية التاريخية، الامتداد الحضاري. (١)

والإخوان يعملون لغايتين هما:

- المساهمة في الخير العام والخدمة الاجتماعية.

-الإصلاح الشامل والتغيير والتبديل للأوضاع القائمة.. وهاتان الغايتان تندرج تحتهما أهداف قريبة وبعيدة تشمل: إصلاح الفرد، بناء الأسرة، إرشاد المجتمع، إصلاح الحكومة، إعادة الخلافة، تحقيق السيادة، أستاذية العالم .

وهناك وسائل حركية أخرى يحددها في :

الدعوة والبيان (الوعظ والإرشاد)، التربية (الإعداد والتكوين) ، العمل السياسي (النضال الدستوري)، الجهاد (الفريضة الماضية لتحرير الأوطان)

ويحدد البنا العقبات الرئيسة التي تواجه مشروعه في :

جهل الشعب، استغراب أهل التدين وإنكار العلماء الرسميين، وحقد الرؤساء والزعماء وذوي الجاه والسلطان، وقوف الحكومات على السواء في وجوه الإخوان والحد من نشاطهم، وتذرع الغاصبين بكل طريق لمناهضتهم وإطفاء نور دعوتهم، وإثارة غبار الشبهات وظلم الاتهامات .

وقد حدد البنا صفات المرشح للحاق بالدعوة في :

أن يكون شخصًا عمليًا متحركًا، مفكرًا، جريئًا، منتجًا .

ومن أجل تربية الأنصار وتكوينهم وتعبئتهم حدد لذلك وسائل هي :

الأسر (محضن للعلاقات الأخوية)، الكتائب (معهد التربية الروحية)، الرحلات (محضن العلاقات الاجتماعية)، الدورات (مركز التأهيل والتدريب)، المخيمات (معهد التربية الجسمية)، المؤتمرات (معهد التربية العلمية والفكرية) (٢)

رؤية حسن البنا في فهم الإسلام والعمل له

في رسالة " التعاليم " التي اشتملت على عشرين أصلاً حدد حسن البنا فيها رؤية الإخوان المسلمين للتعاليم الإسلامية الأساسية ، ورأيهم في مواطن الخلاف بين الطوائف . كما تشتمل علي توجيهات عملية كثيرة . ترسم الصورة التي يرى الإخوان الفكرة الإسلامية في إطارها ، دونك بعض هذه الأصول :

---

(١) عامر شماخ " الإمام البنا.. والمشروع الحضاري الإسلامي " مرجع سابق .

(٢) نفسه .

الأصل الأول : الإسلام نظام شامل مظاهر الحياة جميعا فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة .

وهو في هذا الأصل يتدارك ما وقعت فيه مدارس السلفية قبله من التركيز على محاربة البدع في مجال العقيدة والأمور الخلافية في مجال الفقه بالتنبيه إلى أن مجال الدعوة لا يقتصر على بعض القضايا إنما يجب أن يشمل جميع مناحي الحياة: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية والتربوية ...

يقول حسن البنا : " يظن كثيرٌ من الناس أن الإخوان المسلمين يقضون الليل في المساجد والمغاور، ويشترطون على مَن يلتحق بهم أن يتجرد من عمله ويتفرغ للعبادة ويهمل في شئونه الخاصة، والإخوان المسلمون في حقيقة دعوتهم يحاربون هذا التنطع وينكرون هذه البطالة، ويلزمون من يتبع طريقهم أن يكون إمامًا في كل شيء؛ في العلم، وفي المال، وفي القوة، وفي الصحة، وفي الخُلق، ولا يلزمون أحدًا إلا أن يؤدي فرائض الله التي فرضها ويجتنب محارمه التي حرمها . "[١]

وما يدعو إليه الإخوان في هذا الأصل ليس دعوة نظرية بل حاولوا تطبيقه في الواقع فقد نشرت جريدة الأهرام ٢٠ يناير ١٩٣٠ " إن الإخوان يقدمون للبيئة المصرية معهداً علميّاً متكاملاً بإنشائها قسماً ليليّاً للغات الحية وآخر للفنون الجميلة نذكر منها الموسيقى الشرقية ، وفن التمثيل من الناحية الأخلاقية ، وأنشأت قسماً للحفر – بالإضافة إلى القسم الرياضي وبجانب هذه الأقسام اهتمت الجماعة بتكوين مكتبة عامرة بالمؤلفات النفسية والمطبوعات مما جعلها مرجعاً وافياً بحاجة الأعضاء "[٢]

الأصل الثاني : القرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم في تعرُّف أحكام الإسلام . وهو في هذا الأصل يتفق مع كل مدارس السلفية قبله ، وإن كان يتبنى فقط منهج السلفية النهضوية في فهم الكتاب والسنة .

الأصل الخامس : رأي الإمام أو نائبه فيما لا نص فيه ، ويحتمل وجوهاً كثيرة في المصالح المرسلة ، معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية . وقد يتغير بحسب الظروف والعادات . فإنه تغير في الفرعيات لا في الأصل .

---

(١) حسن البنا " إلى الذين لم يعرفونا " مجلة النذير ٧ مارس ١٩٣٩ نقلاً عن موقع الإخوان المسلمين .
(٢) نقلا عن د. رفعت السعيد " حسن البنا .. متى وكيف ولماذا ؟ " مرجع سابق ص ٦٩

وهنا يأخذ بفكرة السلفية الإصلاحية التي وسَّعت من مفهوم الشرع فجعلته لا يشمل فقط الكتاب والسنة " الشرع المُنزّل " بل يشمل أيضاً سياسة أولي الأمر واجتهاداتهم فيما لا نص فيه ومراعاة مصلحة الأمة فيما فيه نص " الشرع المُتَأَوَّل" وهو ما نادت به المدرسة السلفية الإصلاحية وذكره ابن القيم في كتابه " إعلام الموقعين " .

الأصل الثامن : الخلاف الفقهي في الفرعيات لا يجب أن يتسبب في اختلاف بين الأطراف أو سبباً للتفريق في الدين ، أو يؤدي إلي خصومة ولا بغضاء " الاختلاف لا يفسد للود قضية " .

وهنا يختلف تماما مع السلفية الوهابية التي لم تقبل بالاختلاف وجاهدت كل من خالفها رأيها في المسائل الفقهية بالكلمة والسيف !

الأصل العاشر : معرفة الله تبارك وتعالي وتوحيده هو من عقائد الإسلام ، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء . ويسعنا ما وسع رسولنا الكريم وأصحابه {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} (آل عمران : ٧)

وفي هذا الأصل وإن كان قد وافق ما سبق من مدارس سلفية يؤمن بالأسماء والصفات دون تأويل أو تعطيل فقد اختلف مع نهج السلفية الوهابية التي ألزمت بالقوة الناس برأي واحد رغم ما في هذه المسائل العقدية من خلاف بين العلماء مستساغ .

وهذا ما يؤكده حسن البنا في الأصل الخامس عشر فيقول : " والدعاء إذا قرن بالتوسل إلي الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة . "

موقف حسن البنا من قضية النقل والعقل

يقول حسن البنا في الأصل الثامن عشر : الإسلام يحرر العقل ، ويحث علي النظر في الكون ، ويرحِّب بالصالح النافع من كل شيء . " الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ حَيْثُمَا وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا " .

وهنا يقف موقفاً متميزاً بين مقلدي السلفية الحنبلية والإصلاحية والوهابية ، وبين رواد السلفية النهضوية ففي حين أن المقلدين قد أخضعوا العقل لظاهر النصوص ، وأنكروا دوران الأرض حول الشمس وكرويتها " ففي عام ١٨٧٦م كتب يعقوب صروف في المقتطف مقالاً عن دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس ، وقال

أنه أمر : " صار أشهر من نار على علم ، وأوضح من الصبح لذي عينين وتحققت صحته لكل ذي عقل سليم يطالع ويفهم "

فثار ضده شيوخ الأزهر ثورة عاتية ، وشارك في الهجوم أرشمنديت الكرسي الأنطاكي ببيروت الأب جبريل غباره الذي كتب مقالاً أكد فيه مستنداً إلى النصوص الدينية ثبات الأرض وعدم دورانها . " (١)

وفي مقابل موقف المقلدين الرافضين لكل جديد وإن كان حقائق علمية ثابتة فإن السلفية النهضوية قد تأولت أحياناً النصوص لصالح العقل ، يقول : جمال الدين الأفغاني : " والدين لا يجب أن يخالف الأفكار العلمية فإن خالفها فإن كان ظاهره المخالفة وجب تأويله " أما حسن البنا فقد بين بوضوح مجال كل من العقل والنص .

فقال في الأصل التاسع عشر : النظر الشرعي والنظر العقلي لا يدخل في دائرة الآخر ولكنهما لم يختلفا في القطعي " فلا تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة ؛ ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي ، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولي بالأتباع حتى يثبت العقلي أو ينهار " .

وهذه فكرة بديعة من حسن البنا حل بها الخلاف بين المدارس السلفية فالحقائق العلمية التي استقر عليها العلم لا يمكن أن تتعارض مع قطعي الثبوت والدلالة من نصوص الدين أما إذا اختلفت الحقائق العلمية مع نصوص ظنية الدلالة تؤول النصوص لتتفق مع الحقائق العلمية مثل كروية الأرض ودورانها حول الشمس أما إذا كانت النصوص قطعية الثبوت والدلالة فلا تؤول لصالح نظريات علمية كما فعلت المدرسة السلفية النهضوية حين فسرت السموات السبع بالكواكب السبع السيارة ومداراتها في أفلاكها (٢) ، وفسرت حجارة من سجيل في قوله تعالى {تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ} بميكروب الجدري . (٣)

الأصل العشرون : لا نكفر مسلمًا أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض – برأي أو معصية – إلا إذا أقر كلمة الكفر ، أو أنكر معلومًا من الدين بالضرورة ، أو كذّب القرآن ، أو فسره علي وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية ، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر .

---

(١) د. رفعت السعيد " التأسلم فكر مسلح " دار الطليعة الجديدة سوريا دمشق ص ٢٥
(٢) مجلة المنار ج ١٤ ص ٣٤٠
(٣) مجلة المنار ج ١٤ ص ٦٧٤

وهو رد على المدرسة السلفية الوهابية التي رمت بالكفر كل من خالفها في بعض المسائل الخلافية كالتوسل بالنبي والصالحين ، كما يوضح أن المسلمين لسوا ملائكة ذوي أجنحة إنما هم بشر يصيبوا بتوفيق الله ويخطئون بغواية الشيطان وميول أنفسهم ، ويرجعون إلى الله فيقبل توبتهم ، لذا ينبغي التعامل مع العصاة تعامل الطبيب مع المريض لا الشرطي مع المجرم .

كما أن العمل الصالح ليس قاصراً على العبادات من صوم وصلاة وحج وزكاة وذكر ودعاء إنما العبادة تشمل كل عمل صالح نافع للفرد أو المجتمع ولا يخالف شرع الله بل يساهم في تعمير الكون ، وعلى المسلم الحق أن يكون متفوقاً في كل عمل يعمله ويكون قدوة لغيره فيه ، حتى يعيد مجد الأمة الغابر ، ويقيلها من عثرتها .

يقول حسن البنا : " كل ذلك جرى على هذه الأمم وهي مهد الحضارة، وأمّ المدنيات، ومنبع العلوم والمعارف، ومهبط النبوات والشرائع، على أنها مع شدة الضغط وقوة القهر لا تزداد على المحنة إلا صلابة، وكأنما تزيد الحوادث حيويتها الخالدة ظهورًا وقوة.

هذه الأمم المجيدة لا بد أن تعود إليها حريتها ولا بد أن يُبعث مجدها من جديد، وتتبوأ مركزها بين الأمم، ولا بد أن تساهم بنصيب في رقي الإنسانية حديثًا، كما وضعت لها أصول الرقي قديمًا، ولا بد أن يسعد العالم بروحانيتها من بعد، كما سعد بها من قبل ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ (التوبة: ٣٢) " (١)

حسن البنا وأمراض الأمة الإسلامية

وبناء على الأصل الأول : الإسلام نظام شامل مظاهر الحياة جميعًا فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة فقد قام حسن البنا بتشخيص أدواء الأمة فوجدها تتمثل في :

١- إصابتها في ناحيتها السياسية، بالاحتلال من جانب أعدائها، والحزبية والخصومة والفرقة والشتات من جانب أبنائها.

٢- إصابتها في ناحيتها الاقتصادية، بانتشار الربا بين كل طبقاتها، واستيلاء الأجانب على مواردها وخيراتها.

---

(١) حسن البنا " من قواعد الإصلاح " جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية ٩ مارس ١٩٣٧م.

٣- إصابتها الفكرية بالفوضى والمروق والإلحاد، يهدم عقائدها، ويحطم المثل العليا في نفوس أبنائها.

٤- إصابتها الاجتماعية بالإباحية في عاداتها وأخلاقها، وبالتقليد الغربي الذي يسري في مناحي حياتها .

٥- إصابتها بالقوانين الوضعية التي لا تزجر مجرمًا، ولا تؤدب معتديًا، ولا ترد ظالمًا، ولا تغني يومًا من الأيام غناء القوانين السماوية التي وضعها خالق الخلق ومالك الملك ورب النفوس وبارئها.

٦- وإصابتها في ناحيتها النفسانية بيأس قاتل، وخمول مميت، وجبن فاضح، وذلة حقيرة، وخنوثة فاشية، وشح وأنانية تكف الأيدي عن البذل، وتقف حجابًا دون التضحية، وتخرج الأمة من صفوف المجاهدين إلى صفوف اللاهين اللاعبين. [١]

ولم يسلك حسن البنا في الوصول إلى هدفه هذا سبيل السلفية النهضوية ويكتفي بأن يكون تياراً دعوياً عاماً إنما سلك نهج التنظيم الحركي .

وعلى عكس السلفية الوهابية التي ركزت على محاربة البدع في العقيدة والعبادة والتقيد بالمذهب الحنبلي في التشريع وفرض ذلك بالقوة فإن حسن البنا كانت رأى أن العلة قد شملت جوانب الحياة الإسلامية كلها وأفسدتها كلها، ورأى أن العودة للكتاب والسنة إنما تعني جهدًا متشعبًا لإصلاح الفساد الذي أصاب هذه الحياة من جوانبها المختلفة وأن مهمة الداعية ليست محاكمة الناس وإدانتهم، وإنما مهمته أن يكون طبيبًا يشخص العلة ويغري المريض بتناول العلاج، بتنبيهه إلى الخطر من جانب، وتحبيبه في الدواء من جانب آخر.

لم يطالب الناس بمستوى الصحابة، وإنما فتح عيون الناس على ما في حياة الصحابة من أسوة وقدوة.

لم يسلك مسالك الجدل الذي يثير الخصومة ويدفع إلى العناد ويثير الأحقاد، وإنما نبَّه إلى الصحيح ووضح سبله وأغرى به ودعا إليه.

دعا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وأخذ بأيدي الغافلين في رحمة وعطف، ووضع أيديهم على مكامن العلة؛ ليلمسوها بأنفسهم في وداعة للنتائج.

لم يجلس على منبرٍ عالٍ يصيح منه على العصاة والمنحرفين ويصبُّ عليهم اللعنات، وإنما سعى إلى الناس في مواقع غفلتهم وقعودهم، يعرض عليهم بضاعته، وذهب إلى أسواقهم ومجامعهم، وركب إليهم في قراهم وكفورهم.

---

(١) عامر شماخ " الإمام البنا.. والمشروع الحضاري الإسلامي " مرجع سابق .

يخاطبهم بما يفهمون، ويجعل لكل مقام مقالاً، ويذكرهم من غير زجر، ويعلمهم من غير استعلاء، ويعينهم بنفسه على أنفسهم، ويأسوهم بنفسه وماله بطاقة لا تنتظر جزاءً ولا شكورًا، وإنما تعطي في تجرد وتواضع، ثم هو في الوقت نفسه يقبل الأعذار، ويستر العورات، ويقبل من كل على حسب طاقته من العمل والمال ويحث في نفس الوقت على المزيد من العطاء والبذل، ويقبل من كل حسب قدراته العقلية واستعداده النفسي ويحث في نفس الوقت علي التعلم والتفقه ومجاهدة النفس.(١)

ويؤكد هذا المعنى صالح عشماوي أحد أكبر قيادات الإخوان المسلمين الأوائل فيقول : " جاء حسن البنا إلى الدنيا فوجد الخلافات المذهبية تمزق شمل المسلمين، وتفرق وحدة المؤمنين، فدعا إلى الوحدة، وسعى إلى التقاء المسلمين جميعًا على أصول الدين، وفي ظل التوحيد، ونادى بالعودة إلى مصادر الإسلام الأولى من الكتاب والسنة؛ ليأخذ المسلمين دينهم من هذا المنهل الصافي كما فعل أسلافهم الصالحون.

وبغّض- رحمه الله- في الجدل والمراء، ونهى عن التعصب المذموم للرأي، وكان كثيرًا ما يستشهد بالحديث الشريف" ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل"، كما كان يوصي تلامذته وأتباعه بالقاعدة الذهبية "فلنتعاون فيما اتفقنا عليه، وليعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه . " (٢)

وسيلة حسن البنا لسيادة المسلمين الدنيا

ولم يأخذ حسن البنا على عاتقه مع من ربَّاهم من كوادر ومن علمهم من أعضاء الجماعة مهمة إصلاح البلد التي يعيشون فيها فحسب وإنما كان يطمح لسيادة الدنيا وإرشاد الإنسانية وليس فقط النهوض بالأمة فيقول: "إن مهمتنا سيادة الدنيا، وإرشاد الإنسانية كلها إلى نظم الإسلام الصالحة، وتعاليمه التي لا يمكن بغيرها أن يسعد الناس.. "

ولم يسلك طريق الحرب والإرهاب لسيادة الدنيا ، كما ستعمل السلفية الجهادية فيما بعد ، إنما كانت دعوته تعمل على تحقيق الأخوة العالمية، المساهمة في السلام

---

(١) د. محمد رشاد خليل " منهج حسن البنا في الإصلاح والتجديد" مجلة "الدعوة" سبتمبر ١٩٧٧ نقلاً عن موقع الرسمي للإخوان المسلمين .

(٢) صالح عشماوي " حسن البنا مرحلة في تاريخ الكفاح الإسلامي " مجلة " الدعوة " فبراير ١٩٧٨ نقلاً عن الموقع الرسمي للإخوان المسلمين .

العالمي، احترام القانون الدولي في السلم والحرب، التعهد بكفالة الحقوق الدولية، المحافظة على التعهدات وأداء الالتزامات، البر والإحسان بين المواطنين وإن اختلفت عقائدهم، تحريم العنصرية والعصبية الطائفية، اعتماد سياسة التعاون والتحالف الصادق .

لم يدعو البنا إلى الجهاد بالسيف إلا لتحرير البلاد من المستعمرين المغتصبين .

يقول صالح عشماوي : " ولقد دعا الإمام الشهيد في حربه ضد الاستعمار وكفاحه للمستعمرين إلى القوة وإلى الجهاد وكفريضة ماضية إلى يوم الدين ضد المعتدين والغاصبين لبلادنا والسالبين لحريتنا وهو بذلك قد جدد ركنا من أركان الدين كانت معالمه قد اندرست، وظن الجهلة من المسلمين أن الجهاد كان أيام النبي والخلفاء الراشدين وقد انقضى وولى زمانه إلى يوم الدين. [١]

وكان حسن البنا يحارب الاستعمار في جميع جبهاته وفي وقت واحد فما كان يسعه أن يحارب الاستعمار البريطاني في وادي النيل، مصره وسودانه ويترك الاستعمار الإنجليزي الصهيوني يرعى فلسطين.

وحسن البنا في حربه ضد الاستعمار وثورته للحرية ودعوته للوحدة الإسلامية إنما كان يضع حلقة جديدة في الكفاح الإسلامي بجانب الحلقة التي صنعها جمال الدين الأفغاني الذي كان ثائرًا يدعو المسلمين إلى الحرية، وإلى محاربة المستعمر الغاصب وإلى مقاومة الفساد والاستبداد من الملوك والحكام .

ولقد جمع حسن البنا بين طريقة جمال الدين الأفغاني الثائر للحرية وعلى الفساد والداعي إلى الجامعة الإسلامية، معتمدًا في ذلك على إثارة النفوس وتحريك الهمم وتكوين رأي عام وبين طريقة محمد عبده الذي كان يعتمد على التربية وإصلاح النفس ويدعو إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة.

فكان ثائرًا ومربيًا في وقت واحد وقلما يجتمعان، ولم يترك حسن البنا كتبًا ومؤلفات ولكنه ترك جيلاً من المسلمين يؤمنون بالإسلام إيمانًا راسخًا عميقًا ويفهمون فكرته ودعوته فهمًا شاملاً كاملاً دقيقًا.

ومات السيد جمال الدين الأفغاني في عهد السلطان عبد الحميد، ولم تشيع جنازته ولم يعرف قبره حتى اكتشفه أحد المستشرقين .

---

(١) نفسه .

ومات محمد عبده في زمن الخديوي عباس، ولم تشيع جنازته وشاركهما حسن البنا في هذه الخاتمة وإن كان قد امتاز عليهما بالشهادة فلقي مصرعه على قارعة الطريق برصاص غادر مجرم من أذناب الملك الخليع المخلوع فاروق وقدمت رأس البنا إلى صاحب الجلالة في يوم عيد ميلاده؛ حيث كان يقضي سهرته الحمراء.

وحرمت الحكومة على الناس أن يشيعوه، ورأى الشعب نعشًا يحمل جثة هامدة ومن حولها رجال الشرطة مدججون بالسلاح وعلى طول الطريق إلى المقابر، ومن وراء النوافذ كنت تنطلق الزفرات وتسيل العبرات وترتفع الأصوات بالبكاء.

وهكذا غادر حسن البنا الدنيا بعد أن سكب آخر دفقة من حياته مع آخر نبضة من قلبه تاركًا من ورائه سيلاً متدفقًا من الوعي الإسلامي الذي لا بد أن يبلغ يومًا مداه.[١]

اللائحة الداخلية لجماعة الإخوان المسلمين

طبقا للمادة ٩ في اللائحة الداخلية للإخوان المعدلة عام ١٩٤٨م يحتل المرشد العام المرتبة الأولى في الجماعة باعتباره رئيساً لها، ويرأس في نفس الوقت جهازي السلطة فيها وهما مكتب الإرشاد العام ومجلس الشورى العام ، ويُنتخب المرشد العام عن طريق مجلس الشورى العام ويجب أن يكون قد مضى على انتظامه في الجماعة أخاً عاملاً مدة لا تقل عن خمس عشرة سنة هلالية ولا يقل عمره عن أربعين سنةً هلاليةً ، وبعد انتخابه يبايعه أعضاء الجماعة وعليه التفرغ تماماً لمهام منصبه للعمل بالجماعة، فلا يصح له المشاركة في أي أعمال أخرى عدا الأعمال العلمية والأدبية بعد موافقة مكتب الإرشاد عليه ، ويظل المرشد في منصبه لمدة ست سنوات، قابلة للتجديد مرة واحدة ، ويختار المرشد العام نائباً له أو أكثر من بين أعضاء مكتب الإرشاد العام وفي حالة وفاته أو عجزه عن تأدية مهامه، يقوم نائبه بعمله إلى أن يجتمع مجلس الشورى العام لانتخاب مرشد جديد، وكذلك يمكن لمجلس الشورى العام أن ينحي المرشد إذا خالف واجبات منصبه .

مكتب الإرشاد العام العالمي

مكتب الإرشاد العام هو القيادة التنفيذية العليا للإخوان المسلمين، وهو المشرف على سير الدعوة والموجِّه لسياستها وإدارتها. ويتم اختيار أعضائه عن طريق

---

(١) نفسه .

الاقتراع السري، ومدة العضوية فيه محدّدة بأربع سنوات هجرية، ويتألف مكتب الإرشاد العالمي من ١٣ عضواً عدا (المرشد العام).

مجلس الشورى العام العالمي

مجلس الشورى العام : وهو السلطة التشريعية لجماعة الإخوان المسلمين، وقراراته ملزمة، ومدة ولايته أربع سنوات هجرية. وتتضمن مهامه الإشراف العام على الجماعة وانتخاب المرشد العام ، و

أ- يتألف مجلس الشورى العام من ثلاثين عضواً على الأقل، يمثلون التنظيمات الإخوانية المعتمدة في مختلف الأقطار، ويتم اختيارهم من قبل مجالس الشورى في الأقطار أو من يقوم مقامهم .

العلاقة بين القيادة العامة وقيادات الأقطار

١- طبقا للمواد (من ٤٩ إلي ٥٤) في النظام الأساسي للإخوان، فإن على قيادة الأقطار الالتزام بقرارات القيادة العامة متمثلة في المرشد العام ومكتب الإرشاد العام ومجلس الشورى العام وتشمل الالتزام بمبادئ النظام الأساسي للإخوان وتشمل هذه المبادئ : على الالتزام بفهم الجماعة للإسلام ، بسياسات الجماعة ومواقفها تجاه القضايا العامة ، والالتزام بالحصول على موافقة مكتب الإرشاد العام قبل الإقدام على اتخاذ أي قرار سياسي هام .

ويقوم كل قطر بوضع لائحة تنظيمية خاصة به على ألا تتعارض مع النظام الأساسي للإخوان، ويجب اعتمادها من مكتب الإرشاد العام قبل تنفيذها. يقدم كل مراقب عام تقريراً سنوياً عن سير الدعوة ونشاط الجماعة والاقتراحات التي يراها كفيلة بتحقيق المصلحة في إقليمه إلى مكتب الإرشاد العام قبل انعقاد الاجتماع الدوري لمجلس الشورى العام. وللمساهمة في أعباء الدعوة يلتزم كل قطر بتسديد اشتراك سنوي تحدد قيمته بالاتفاق مع مكتب الإرشاد العام .

ينقسم القطر إلى مكاتب إدارية، فلكل محافظة مكتبها الإداري الذي يشرف على المناطق الواقعة في هذه المحافظة، ويجوز أن تتسع حدود المكتب أو تضيق عن حدود المديرية أو المحافظة، ولكل مكتب إداري مجلس يديره، ويرأس المجلس الإداري رئيس الشعبة الرئيسية أو من يختاره مكتب الإرشاد من الإخوان العاملين الذين يرون فيهم الكفاءة، ولكل مكتب وكيل وسكرتير وأمين مالي، وضمن أعضاء المجلس أيضاً رؤساء المناطق في دائرة المكتب الإداري، وأعضاء مجلس الشورى

في القطر، ويوزع المكتب الإداري مناطقه في شكل قطاعات لتسهيل مهمة المتابعة في المكتب الإداري، ويضم القطاع الواحد علي الأقل ثلاث مناطق.

وينقسم المكتب الإداري إلي مناطق، تتكون المنطقة من كل الشُّعَب الواقعة في دائرة المركز أو القسم (بحد أدنى ثلاث شُعب وبحد أقصي عشر شُعَب)، ويجوز أن تكون حدود المنطقة أوسع أو أضيق من حدود المركز أو القسم. لكل منطقة مركز يديرها، يرأسه رئيس الشعبة الرئيسية .

وتنقسم المنطقة إلي شُعَب، والشُّعْبَة هيٍ أصغر الوحدات الإدارية، ويتكون لها مجلس لإداراتها ضمن أعضاءه رئيس الشُعْبَة ونائبه ووكيل وسكرتير وأمين صندوق ،وللشعبة جمعية عمومية، وتضم الشعبة كل الإخوان المقيمين في دائرة الشعبة أيا كانت صفتهم، (والحد الأدنى لأعضاء الشعبة خمسة من الإخوان العاملين، بصرف النظر عن عدد المنتظمين والمنتسبين، والحدّ الأقصى خمسة وأربعون من الإخوان العاملين(، وينقسم الإخوان في الشعبة إلي إخوان تحت الاختبار (منتسبين ومنتظمين) وهم الذين اعتنقوا فكرة الإخوان حديثاً، وإخوان عاملين وهم كل من قام بواجبات عضويته واعتمدت عضويته من المركز العام وبايع علي ذلك.

وينقسم الأعضاء العاملون في الشعبة إلي أسر، ويختار نقيب لكل أسرة .

مصادر تمويل جماعة الإخوان

وتمويل الإخوان ذاتي ،بمعنى أن الإخوان يعتمدون على تمويل أعضاء الجماعة للقيام بالأنشطة المختلفة التي يمارسها الإخوان ، ووفقاً للنظام الأساسي للجماعة فإن أعضاء الجماعة مقسمين، على حسب ما تصنفهم الجماعة، إلى مؤيد ومنتسب ومنتظم وعامل، على التوالي ووفقاً لآليات تحددها الجماعة يتم تصعيد العضو من مرحلة إلى أخرى أو من تصنيف إلى آخر، وذلك بعد اجتياز عدد من الاختبارات السلوكية والتثقيفية داخل الجماعة، ومن ذلك يلتزم العضو بدفع اشتراك شهري للجماعة، يقتطعه من دخله الشهري ، ويستثنى من ذلك الإخوان المصنفين كمؤيدين والطلاب وأصحاب الرواتب الضعيفة .كما أن بعض الأنشطة التي يمارسها الإخوان تمول نفسها ذاتياً مثل المستشفيات ودور الرعاية التي تقدم خدماتها نظير رسوم الخدمة .

وهكذا وكما ترى فإن جماعة الإخوان المسلمين هي تنظيم حركي منضبط له نظمه وقواعده التي تضبط حركة أعضائه ، وهذا ما كتب لها البقاء والاستمرار رغم الضربات المتوالية التي منيت بها .

هذا عن هو تنظم الإخوان المسلمين في أدبيات الجماعة أما ممارساتها فقد شابها كثيراً من الأخطاء والتجاوزات والخروج عن الأطر التي رسمتها لنفسها أو رسمها لها مؤسسها وهذا راجع لممارستها العمل السياسي ، والسياسية ليس لهـا مواقف ثابتة مما جعل أعداء الجماعة يصفون الجماعة بالتلون والانتهازية فتارة الملك وتارة يعادونه ، وتارة يؤيدون رؤساء الوزراء وتارة يعدونهم .

ما يؤخذ على جماعة الإخوان المسلمين

إن أكبر ما يؤخذ على جماعة الإخوان المسلمين أمران :

١- استخدام العنف والإرهاب في مواجهة خصومهم .

٢- توظيف الدين لأهداف سياسية .

ونترك العدو الأكبر للإخوان يوجه اتهاماته لهم ثم نتعرف على ردود الإخوان والواقع عليها .

رفعت السعيد : الإخوان فكر مسلح

يقول د. رفعت السعيد (رئيس حزب التجمع) " ولعل أوضح نموذج لمحاولة لمحاولة الخلط - بين الدين والفكر الديني - هذه هو قول حسن البنا متحدثاً عن منهج جماعته : " على كل مسلم أن يعتقد أن هذا المنهج كله من الإسلام ، وأن كل نقص منه نقص من الفكرة الإسلامية الصحيحة ."

فقط تأمل هذه العبارة وما تحتويه من مطلقات " على كل مسلم " كله من الإسلام " " كل نقص منه نقص من الفكرة الإسلامية الصحيحة " ثم نتأمل رد الفعل عند صاحبها إذا ما حاول أحد انتقاد منهج الجماعة أو رفضه أو معارضته المنطق الطبيعي هو اتهامه بالكفر .. ووصل الأمر في الخلط بين الدين والفكر الديني أن الأستاذ صالح عشماوي (أحد أقطاب الإخوان) كتب يقول : " إن أي اضطهاد للإخوان هو اضطهاد للدين ذاته " وهكذا يكون تكفير خصوم الإخوان سهلاً .

وعندما يصل أي من هؤلاء إلى الحكم فإنه يحاول أن يكسو نفسه بحصانة غير مفترضة فالحكم يكون " حكم الإسلام " وليس حكماً شخصيّاً أو جماعة ، ومن ثمَّ

فكل من يحاول انتقاد هذا الحكم أو معارضته أو الاعتراض على أي من قراراته يكون منتقداً أو معترضاً على الإسلام ذاته . [١]

لقد غاص د. رفعت السعيد في بحور أدبيات الإخوان الإخوان وممارساتهم ، فهو أحد الذين وقفوا أنفسهم لعداء الإخوان ، فلم يجد ما يدين به حسن بنا إلا قوله : "على كل مسلم أن يعتقد أن هذا المنهج كله من الإسلام ، وأن كل نقص منه نقص من الفكرة الإسلامية الصحيحة " ويجعل هذا النص هو محور انتقاداته لحسن البنا وللإخوان المسلمين كأن حسن البنا لم يقل غير هذا النص ، ولم يكتب سواه ، وكل أفعاله وأقواله تنبثق منه ، والحقيقة غير ذلك تماماً فحسن البنا ، كما ذكرنا ، لم يدَّع قط أنه المتحدث الرسمي باسم الإسلام وشريعته إنما كل ما عمله أنه اجتهد في فهم الإسلام بعدما استكمل شروط الاجتهاد وأقوال حسن البنا التي تناقض فهم د. رفعت أكثر مما تحصى نكتفي بذكر ما جاء فقط في رسالة التعاليم التي اشتملت على عشرين أصلاً من الأصول التي بنى عليها حسن البنا والإخوان فهمهم للدين يقول حسن البنا في الأصل الثاني : " القرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم في تعرُّف أحكام الدين " إذن مرجعية المسلم إخواني أو غير إخواني هي كتاب الله والسنة المطهرة وليست كلام حسن البنا فقط كما يدعي د. رفعت ، وفي الأصل الخامس يقول البنا : " رأي الإمام أو نائبه فيما لا نص فيه ، ويحتمل وجوهاً كثيرة في المصالح المرسلة ، معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية . وقد يتغير بحسب الظروف والعادات . فإنه تغير في الفرعيات لا في الأصل" وفي هذا الأصل يعطي حق الاجتهاد في فهم الدين ، فيما لا نص فيه ، للإمام المسلمين أو نائبه ، وفي الأصل الثامن يقول : " الخلاف الفقهي في الفرعيات لا يجب أن يتسبب في اختلاف بين الأطراف أو سبباً للتفريق في الدين ، أو يؤدي إلي خصومة ولا بغضاء "الاختلاف لا يفسد للود قضية" . فهو لا يخاصم ولا يكره فضلاً عن أن يقاتل ويجاهد من اختلف معه في فهم الإسلام بل يحمل له الود والحب . وقال في الأصل العاشر : " معرفة الله تبارك وتعالي وتوحيده هو من عقائد الإسلام ، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء ويسعنا ما وسع رسولنا الكريم وأصحابه .." فحسن البنا ينهى عن مجرد التعرض للخلاف بين العلماء ، ويؤمن بأن الإسلام يسع اختلاف العلماء واجتهاداتهم.

هذا فقط في رسالة واحدة من رسائل البنا ، ولقد أكد هذا مئات المرات في رسائله وخطبه . نأتي بعد ذلك إلى مفهوم ما ذكره د. رفعت من كلام البنا فإنه لا يعني

---

(١) د. رفعت السعيد " التأسلم فكر مسلح " مرجع سابق ص ٥٥

أكثر من أن الرجل اجتهد أن يكون كل ما ينادي به مأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ، وليس مأخوذاً من كتب ماركس وسنة لينين ، وكان الأولى برفعت السعيد أن يجهد نفسه ، وقد أجهدها ، في ذكر المبادئ التي نادى بها البنا وتصطدم بقاعدة شرعية ، والمبادئ التي ينادي بها هو ولا تصطدم بقاعدة شرعية .

ولما لم يجد من كلام البنا ما يؤخذ عليه راح يرصد ويتصيد جملةٍ من هنا وجملة من هناك من أقوال غيره ، ويتأولها بعيداً عن سياقها ليؤكد أن البنا يكفر المخالفين له في الرأي من المسلمين !!

ولو كلَّف د. رفعت نفسه ، وقد كلَّف نفسه ، وأتي لنا بأثر ، أي أثر ، من آثار حسن البنا يكفر فيه مسلماً صحيح الإسلام . يقول البنا في الأصل العشرين : " لا نكفر مسلمًا أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض - برأيٍ أو معصية - إلا إذا أقر كلمة الكفر ، أو أنكر معلومًا من الدين بالضرورة ، أو كذَّب القرآن ، أو فسره علي وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية ، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر . "

أما قول د. رفعت " وعندما يصل أي من هؤلاء إلى الحكم فإنه يحاول أن يكسو نفسه بحصانة غير مفترضة فالحكم يكون " حكم الإسلام " وليس حكماً شخصيّاً أو جماعة ، ومن ثمَّ فكل من يحاول انتقاد هذا الحكم أو معارضته أو الاعتراض على أي من قراراته يكون منتقداً أو معترضاً على الإسلام ذاته ."

فقد كذَّب الواقع كل أوهامه فبعد نحو ثمانين سنة من جهاد الإخوان في سبيل دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة والصبر على كل أنواع القهر وصل د. مرسي مرشح الإخوان المسلمين إلى الحكم ، وها هو يسمع انتقادات حادة ليل نهار ولم نسمع منه أو من أحد من جماعته أن زجَّ باسم الإسلام في الرد على هذه الانتقادات، ولم يشهر سلاحاً في وجه المعارضين .

وبعد محاولة إلصاق د. رفعت السعيد تهمة التكفير بحسن البنا وجماعته راح يلصق بهم تهمة أكبر وجريمة أبشع وهي ممارسة العنف ضد المخالفين لهم كنتيجة طبيعية لتكفير المخالفين لهم كما يزعم !!

يقول رفعت السعيد : " تسييس الدين وتديين السياسة وهي الوجه الآخر للخلط بين الدين والفكر الديني ، لكن المشكلة هنا تزداد تفاقماً ، فالسياسة ترتدي ثياباً دينيّة والفكرة السياسية تصبح فكرة دينية وتختلط مع الدين فتحاول أن تتخذ صفة "

المطلق " كامل الصحة ، ثم " ومن والاه فقد والى صحيح الدين ، ومن خالفه فقد خالف صحيح الدين " ومن هنا يتحول التنظيم الذي يعمل على تسييس الدين – بالضرورة – إلى ممارس للعنف ، ألم تر كيف أكد حسن البنا أن منهاجهم كله من الإسلام ، كل نقص منه نقص من الفكرة الإسلامية ذاتها .[١]

ويذكر قول البنا شعراً

الدين شيء والسياسة غيره دعوى نحاربها بكل سلاح

والبنا يقصد بهذا القول عدم فصل الدين عن السياسة فإقصاء الدين عن السياسة علمانية أما عدم خروج السياسة عن المتفق عليه في الدين فهذا مبدأ ثابت أجمعت عليه الأمة ودونته في دستور ٢٣ ودساتيرها التالية .

فحسن البنا يقول : " أتحسب أن المسلم الذي يرضى بحياتنا اليوم ويتفرغ للعبادة ويترك الدنيا والسياسة للعجزة الآثمين يسمى مسلماً ؟ كلا إنه ليس بمسلم "[٢]

ود. رفعت يعترض على كلام حسن البنا الذي ينادي بعدم فصل الدين عن السياسة ، وبضرورة الاحتكام إلى مبادئ الشريعة الإسلامية كمبدأ ثابت أجمعت عليه الأمة ودونته في دستور ٢٣ ودساتيرها التالية ، حتى الدساتير التي كتبت في ظل الحكم الاشتراكي الذي يؤمن به د. رفعت به .

والعجيب أن د. رفعت وحزبه وكل الأحزاب المدنية والدينية قد وقَّعت على وثيقة الأزهر التي أبقت على هذه المادة الثانية " مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع " ، كما تمسكت بها في الدستور الجديد دون تغيير . !!

فما وجه الاعتراض إذن على حسن البنا ؟!!

وهل الذين نادى مؤسس جماعتهم بعدم فصل الدين عن السياسة عندما وصولوا إلى الحكم قد أقاموا محاكم تفتيش ، وألقوا بمن خالفهم الرأي في غياب السجون كالحكام الشيوعيين ، مؤسسي الفكر الذي يدين به الاشتراكيون عندنا ؟!

ولقد وجد رفعت السعيد في قتل الخازندار ، والنقراشي ، ونسف المحكمة الابتدائية ضالته ليؤكد أن الإخوان المسلمين فكر مسلح ، وأن كل جماعات السلفية الجهادية إنما هي في الحقيقة جماعات إخوان مسلمين !!

---

(١) د. رفعت السعيد " التأسلم فكر مسلح " مرجع سابق ص ٥٥

(٢) نقلاً عن د. رفعت السعيد " التأسلم فكر مسلح " مرجع سابق ص ٥٨

يقول رفعت السعيد : " وفي مضبوطات قضية جماعة الإخوان المسماة قضية " سيارة الجيب " عثر المحقق المستشار عصام حسونة وزير العدل فيما بعد على ورقة تقول : " إن القتل الذي يعتبر جريمة في الأحوال العادية يفقد صفته هذه وصبح فرضاً واجباً على الإنسان إذا استعمل كوسيلة لتأييد الدعوة " وتقول إن من يناوئ الجماعة ، أو يحاول إخفات صوتها مهدر دمه وقتاله مثاب على فعله " [١]

وكل الإرهابيين في العالم ، عند رفعت السعيد ، قد خرجوا من عباءة الإخوان : "ويبقى فقط أن نقول أن كل هؤلاء الإرهابيين المتفرقين في جماعات مثل "الجهاد" و"طلائع الفتح" و "الجماعة الإسلامية" وغيرها وقبلها جماعة "التكفير والهجرة" هم من أتباع سيد قطب إلى درجة أنهم يسمون إجمالاً بالقطبيين ومن ثم فلا غرابة إذ يقال إن جميع الإرهابيين قد خرجوا من عباءة جماعة الإخوان . [٢]

بل يصل كره رفعت السعيد لحسن البنا وجماعته إن ينسب إليهم كل فعل إرهابي وقع في مصر أو غيرها !!

يقول د. رفعت : " إن الإرهاب يبدأ فكراً دارت مساجلات عديدة ، قديمة وحديثة، وستظل هذه المساجلات مستمرة ما استمرت محاولات تسييس الدين أو تديين السياسة تلك التي أورثتنا حالة من الخلط المتعمد من جانب البعض بين الدين المقدس ، وبين الممارسات والأفكار الإنسانية التي قد تخطئ وقد تصيب ، والتي كثيراً ما تخطئ بسبب من النزعة التسلطية لأصحابها تلك النزعة التي يتشحون بها استناداً إلى الزعم بأن فكرهم هو المقدس ذاته ، وليس مجرد فهم أو تفسير أو رؤية له.[٣]

ويقول أيضاً : " إن الجماعات الإسلامية بتطرفها الذي يبدو مثيراً للحيرة والاضطراب ، والذي يحاول الإخوان التملص منه والتنكر له إن هذه الجماعات ليست سوى امتداد للخط الذي رسمه البنا وليسوا سوى امتداداً طبيعياً ونتاجاً منطقياً لأفكاره ومقولاته .

ويكمن الفارق فقط في التكتيك واختيار الوقت والقدرة على المداراة ، ولقد يتفق البعض معي أو يتخلف لكن اليقين أنه يستحيل تأمل الصورة الحالية بكل ما فيها من

---

(١) عصام حسونة ٢٣ يوليو وعبد الناصر ص ٤٦
(٢) د. رفعت السعيد " التأسلم فكر مسلح " مرجع سابق ص ٩٥
(٣) د. رفعت السعيد " حسن البنا .. متى وكيف ولماذا ؟ " مرجع سابق ص ٩

تطرف غير منطقي دون الرجوع إلى المنبع ، وإلى صاحب الدعوة الأولى وحسن البنا وهكذا . [١]

وعند هذا الحد وقد أطلنا الاستشهاد بكلام أعدى أعداء الإخوان المسلمين أن نعرف حقيقة التنظيم السري الذي أنشأه حسن البنا وارتكب العديد من جرائم القتل.

رؤية الإخوان لأسباب نشأة التنظيم السري

"النظام الخاص" بجماعة الإخوان المسلمين أو التنظيم الخاص أو التنظيم السري لجماعة الإخوان المسلمين. هو نظام عسكري أسسته الجماعة في عام ١٩٤٠م وهدفه بحسب محمد مهدي عاكف "إعداد نخبة منتقاة من الإخوان المسلمين للقيام بمهمات خاصة والتدريب على العمليات العسكرية ضد العدو الخارجي ومحو الأمية العسكرية للشعب المصري في ذلك الوقت، حيث كان كل فرد يمكنه دفع عشرين جنيهًا ليستطيع التخلص من الخدمة العسكرية. " [٢]

فقد أراد حسن البنا أن يُكوِّن ذلك "الجيش المسلم" للتصدي لليهود والإنجليز حيث كانت قناعته أن الإنجليز بتواطئهم مع اليهود لن يتركوا مصر ولا فلسطين، ومع شعوره بضعف الحكومات العربية وهزال الجيش المصري في هذا الوقت كان هذا حافزًا آخر لتكوين "النظام الخاص"، حيث كان التأسيس وليد فكر مشترك بين الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين وبين حسن البنا مرشد الإخوان .

لم يكن النظام الخاص فكرة جديدة ابتدعها الإخوان في ذلك التوقيت، فكل القوى السياسية الموجودة بالساحة في ذاك الوقت كان لديها أجهزة عسكرية سرية مثل: الوفد ، والسراي ، ومصر الفتاة ،وعرف وقتها أصحاب الياقات الزرقاء والحرس الحديدي.

تم اكتشاف النظام السري للإخوان عبر قضية السيارة الجيب عام ١٩٤٨م حيث عثر البوليس السياسي علي سيارة جيب بها جميع أسرار النظام الخاص لجماعة الإخوان المسلمين، ومن بينها أوراق التكوين والأهداف، وقدمتها حكومة النقراشي لمحكمة الجنايات. وبعدما اطلعت المحكمة على أهداف النظام الخاص قالت في حكمها: " إن المدانين كانوا من ذوي الأغراض السامية التي ترمي أول ما ترمي إلى تحقيق الأهداف الوطنية لهذا الشعب المغلوب علي أمره ." .

---

(١) نفسه ص ١٤ .

(٢) حوار محمد مهدي عاكف المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين لعزام التميمي برنامج مراجعات تغطية عبد المنعم محمود – إسلام أون لاين .

يقول الشيخ يوسف القرضاوي في مذكراته : " لقد أحيلت هذه القضية إلى محكمة مدنية، برئاسة المستشار أحمد بك كامل، وكان قد اتهم فيها أكثر من ثلاثين شخصًا، منهم :عبد الرحمن السندي، ومصطفى مشهور، ومحمود الصباغ، وأحمد حسنين، وأحمد زكي وغيرهم. وكان الجو السياسي قد تغير، بعد سقوط حكومة إبراهيم عبد الهادي، وكانت فرصة ليصول فيها المحامون الإسلاميون والوطنيون، أمثال مختار عبد العليم، وشمس الدين الشناوي، وعبد المجيد نافع، وعزيز فهمي، وأحمد حسين وغيرهم، وأن تُسمع شهادات رجال كبار مثل اللواء المواوي، واللواء فؤاد صادق وغيرهما.

وقد أصدرت المحكمة فيها حكمًا تاريخيًا، برّأ أكثرية المتهمين، وحُكم على أفراد قليلين منهم بأحكام مخففة، ما بين سنة وثلاث سنوات. ولكن الشيء المهم في الحكم أنه أنصف الإخوان بوصفهم جماعة إسلامية وطنية، وأبرز دورهم الوطني والجهادي في مصر وفلسطين، ودورهم الثقافي والاجتماعي في خدمة مصر ثم كانت المفاجأة الكبرى أن انضم رئيس المحكمة المستشار الكبير أحمد كامل بعد ذلك إلى الإخوان المسلمين، ونشرت ذلك الصحف بالخط العريض: حاكمهم ثم انضم إليهم !(١)

كانت هذه رؤية الإخوان المسلمين للتنظيم الخاص فماذا عن رؤية الضباط الأحرار الذين اشتركوا في هذا التنظيم وكانوا ممثليه في الجيش المصري ؟

رؤية الضباط الأحرار للتنظيم السري للإخوان

إن صلة ضباط الجيش بالإخوان تعود إلى الحرب العالمية الثانية ، ولكنها لم تظهر كتيار رئيسي في مجال الحركة السياسية بالجيش إلا بعد انتهاء الحرب . ولم تكن اتصالات الأخوان المسلمين مقتصرة على فرد أو أفراد محدودين ، وإنما كانت منتشرة مع أكبر عدد متاح لهم من الضباط. (٢)

وفي سنة ١٩٤٣ بدء الإخوان المسلمون تنظيماً سريّاً لضباط الجيش برئاسة محمود لبيب (وكيل جماعة الإخوان المسلمين) وعن هذا التنظيم يقول حسين حمودة – أحد أعضاء ذلك التنظيم وأحد الضباط الأحرار بعد ذلك – : " كانت الخلية الرئيسة في تنظيم الإخوان المسلمين داخل القوات المسلحة مكونة من سبعة

---

(١) د. يوسف القرضاوي " ابن القرية والكتاب " دار الشروق فصل " في ركب الإخوان "
(2) أحمد حمروش " ثورة ٢٣ يولية " الهيئة المصرية العامة للكتاب . الجزء الأول ص ١١٣.

ضباط هم : عبد المنعم عبد الرءوف ،وجمال عبد الناصر ، وكمال الدين حسين،وسعد توفيق ، وخالد محيي الدين ، وحسين حمودة ، وصلاح خليفة "[١]

وتروي لنا مذكرات عبد المنعم عبد الرءوف تكوين الخلية الأولى للضباط الإخوان المسلمين من سبعة هم : عبد المنعم عبد الرءوف ، وعبد الناصر ، وحسين حمودة ، وكمال الدين حسين ، وسعد توفيق شقيق زوجة حسين حمودة، وصلاح الدين خليفة ، وخالد محيي الدين .[٢]

وظلت هذه الخلية تعمل سراً طيلة أربع سنوات وأربعة أشهر بدءاً من عام ١٩٤٤ حتى ١٥ مايو ١٩٤٨ لضم أكبر عدد ممكن من الضباط إلى صفوف هذا التنظيم السري واتسع هذا التنظيم وتكونت خلايا جديدة فرعية منبثقة من الخلية الرئيسة فشكل كل فرد من أفراد الخلية الرئيسية خلية فرعية لا تزيد عن سبعة أفراد وكان محمود لبيب يحضر الاجتماع الأسبوعي للخلية الرئيسية ويحضر أيضاً الاجتماعات نصف الشهرية للخلايا الفرعية ، وصار محمود لبيب هو حلقة الاتصال بين الضباط المنضمين للتنظيم ليس في الجيش فقط بل وفي الطيران أيضاً. واتسع نطاق العمل السري ليشمل قطاع المدنيين من شباب الإخوان المسلمين" [٣]

وفي عام ١٩٤٦ حَلَفَ الضباط السبعة اليمين وأُخِذَ عليهم العهد .

يقول حسين حمودة : " قادنا صلاح خليفة واحداً بعد واحد لأخذ العهد وحلف اليمين في حجرة مظلمة تماماً يجلس بها رجل مغطى بملاءة فلم نعرف شخصيته وحين جاء دوري جلست أمام الرجل المخفي وكان سؤال هذا الشخص المتخفي الذي يأخذ العهد " هل أنت مستعد للتضحية بنفسك في سبيل الدعوة الإسلامية ، وإعلاء كلمة الله ؟ فقلت : نعم . فقال: " امدد يدك لتبايعني على كتاب الله وعلى المسدس سلاح العصر ".

فوضعت يدي على مصحف ومسدس وبايعته على فداء الدعوة الإسلامية وعدم إفشاء أسرارها . وقال الرجل المتخفي : " إن من يفشي سرنا فليس له منا سوى جزاء واحد هو جزاء الخيانة وأظنك تعرف جيداً ذلك الجزاء ".

وبعد أن بايع كل منَّا عدنا إلى الحجرة ذات الضوء الخافت فوجدنا شخصاً عرَّفنا بنفسه وذكر اسمه عبد الرحمن السندي ، وقال إنه يرأس التنظيم السري الخاص

---

(1) **حسين حمودة " أسرار حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمون " الزهراء للإعلام العربي ص ٣٣ ، ٣٤**
(2)عبد المنعم عبد الرءوف "أرغمت فاروق على التنازل عن العرش"الزهراء للإعلام العربي ص٤٣.
(3) حسين حمودة " أسرار حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمون " مرجع سابق ص ٣٣- ٣٤.

بجماعة الإخوان المسلمين وهو تنظيم سري مسلح يضم شباباً من الطلبة والعمال والفلاحين والحرفيين ممن باعوا أنفسهم لله واستعدوا للموت في سبيل إعلاء كلمة الله .. وفي هذه الليلة تفاهمنا مع عبد الرحمن السندي على أن نقوم بتدريب شباب الإخوان من أعضاء التنظيم السري على استعمال الأسلحة .. وبعد ذلك بدأنا مرحلة جادة في تدريب شباب الإخوان المسلمين ، وكانت التدريبات تتم في صحراء حلوان وجبل المقطم وفي محافظة الشرقية ومحافظة الإسماعيلية ، وقد اشترك جمال عبد الناصر معي في تدريب شباب الإخوان المسلمين عامي ١٩٤٦، ١٩٤٧ ، وكان التدريب يتم على الأسلحة الصغيرة مثل الطبنجات والبنادق والرشاشات القصيرة والقنابل اليدوية وأساليب النسف والتدمير بأصابع الجيلجنيت وأسلوب استخدام زجاجات المولوتوف ضد دبابات العدو . والتدريب كان يتم لرؤساء الخلايا وهم يدربون الأفراد التابعين لهم بدورهم .

وشهدت مدن مصر : القاهرة ، والإسكندرية ، ومدن قناة السويس خلال عامي ١٩٤٦، ١٩٤٧ حرب عصابات مسلحة ضد قوات الاحتلال البريطاني وكان القائمون بهذا الكفاح المسلح ضد المحتلين هم شباب التنظيم السري لجماعة الإخوان المسلمين برئاسة عبد الرحمن السندي بعد أن أقام عبد المنعم عبد الرءوف، وجمال عبد الناصر ، وحسين حمودة وبقية الزملاء من الضباط بتدريب هؤلاء الشباب على استعمال الأسلحة بأسلوب حرب العصابات (اضرب واهرب).

اضطرت الحكومة البريطانية إزاء اشتداد حوادث الإرهاب المسلح ضد جنودها إلى إجلاء قواتها عن القاهرة والإسكندرية عام ١٩٤٧م . وكان الفضل في تحقيق فهذا الجلاء إلى شباب الإخوان المسلمين الذين شنوا حرب عصابات ضد الإنجليز وكان ذلك بتوجيه الضباط السبعة .[١]

كانت هذه رواية حسين حمودة وقد أكد ما جاء فيها كثير من الضباط الأحرار وكتّاب الإخوان المسلمين .

فقد ذكر خالد محيي الدين حلِفَه اليمين هو وعبد الناصر وأخذ العهد عليهما على النحو الذي ذكره حسين حمودة.

يقول خالد محيي الدين عن حلفه لليمين " أدخلونا غرفة مظلمة ودخل معنا عبد الرحمن السند المهم بعد شوية حلفنا وجابوا لنا مصحف ومسدس .. وخرج ورايا

(١) حسين حمودة " أسرار حركة الضباط الأحرار" مرجع سابق ص ٣٥- ٣٨.

جمال عبد الناصر كان يعني في غرفة ثانية [1] ويذكر خالد محيي الدين مبررات انضمامه للتنظيم السري للإخوان المسلمين قائلاً : " في ذلك الوقت كنا نرى أنه كان تنظيماً وطنيّاً .. الرئيس عبد الناصر انضم للإخوان المسلمين معانا لمدة طويلة اشتغلنا مع الإخوان المسلمين وتنظيماتهم السرية وبعدين تركناهم . " [2]

ويعترف السادات بصلة جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين بالإخوان في كتابه" أسرار الثورة المصرية " الذي أقرَّ عبد الناصر بكل ما جاء فيه في مقدمته التي كتبها للكتاب وجاء فيها " لقد حلل المؤلف في كتابه الشخصيات والأحداث تحليلاً دقيقاً ، مما جعل الكتاب مرجعاً قيِّماً يعتد به . " [3]

يقول السادات في هذا الكتاب : " وبدأت في تلك الفترة صلات جديدة بين جماعة الإخوان ، صلات بين ضباط المجموعة ، وبين قيادة الجماعة . فقد عُقدت اجتماعات في بيت المرحوم حسن البنا ضمت جمال عبد الناصر ، وكان إذ ذاك في كلية أركان حرب ، وكمال الدين حسين ضابط المدفعية ، وبعض الضباط المنتمين للإخوان . " [4]

وأبو الفضل الجيزاوي (من الضباط الأحرار) يقول : " معظم ضباط الثورة تقريباً إن لم يكن ٨٠ % - ٩٠ % منهم دخلوا في الإخوان ، وعبد الناصر علاقته مع الإخوان على هذا الأساس كانت طيبة من قبل قيام الثورة ." [5]

ويضيف أحمد حمروش (من الضباط الأحرار ، ومن مؤرخي ثورة يوليو) : "معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا في الإخوان المسلمين ، عبد الناصر كان في الإخوان ، وعبد اللطيف البغدادي ، وخالد محيي الدين ، كل دول بدءوا حياتهم في الإخوان " [6]

فاروق يخشى الإخوان أكثر من اليهود

إن الملك فاروق كان ينظر بعين الريبة إلى الإخوان المسلمين ويخشى أن يؤلفوا جيشاً في فلسطين يكون خطراً على عرشه ، حقاً لقد كان الإخوان المسلمون خطراً

(١) خالد محيي الدين برنامج " زيارة خاصة " قناة الجزيرة الفضائية بتاريخ ١٣ / ٣ / ٢٠٠٦.
(٢) طارق حبيب " ملفات ثورة يوليو شهادة ١٢٢ من صانعيها ومعاصريها "مرجع سابق ص ٢١.
(٣) مقدمة الرئيس جمال عبد الناصر لكتاب " أسرار الثورة المصرية " دار الهلال ص ١١.
(٤) أنور السادات " أسرار الثورة المصرية " مرجع سابق ص ١٩٥.
(٥) طارق حبيب " ملفات ثورة يوليو شهادة ١٢٢ من صانعيها ومعاصريها " مرجع سابق ص ٢٢ .
(٦) نفسه ص ٢٢

على إسرائيل وقد فهم اليهود ذلك حق الفهم في ميدان القتال فأوحى اليهود إلى الإنجليز الذين أوحوا إلى الملك فاروق وأدخلوا في روعه أن استمرار الإخوان في جهادهم في فلسطين والنشاط الذي يجريه حسن البنا في مصر لتجهيز قوات إخوانية كثيفة ليدخل بها فلسطين وإيقاظه روح الجهاد الديني في الشعب المصري سيصبح خطراً على عرش فاروق فأمر الملك فاروق رئيس وزرائه محمود فهمي النقراشي باتخاذ الإجراءات اللازمة للبطش بجماعة الإخوان المسلمين .. ولو أدَّى ذلك إلى تعريض جيش مصر في فلسطين لأفدح الأخطار وتعريض الأرض التي اكتسبها بدمائه إلى الضياع وتسليمها لليهود بلا قتال إذ أصدر النقراشي رئيس الوزراء أوامره المشددة إلى اللواء فؤاد صادق قائد حملة فلسطين الجديد بسحب قوات الإخوان من مواقعهم وسحب أسلحتهم واعتقالهم وإرسالهم كأسرى حرب إلى المعتقلات في مصر ولكن اللواء صادق رفض بشدة اعتقال هؤلاء المجاهدين واكتفى بسحبهم من مواقعهم وإبقائهم في معسكر بمنطقة رفح المصرية ومعهم أسلحتهم.

وفي الوقت الذي كان فيه حسن البنا يعد قوات كثيفة ليدخل بها فلسطين كان النقراشي يرتكب أبشع حماقة يمكن أن تصدر من رجل دولة مسئول في حالة حرب ولم تلبث الأنباء أن جاءت بقيام المذبحة فسيق زعماء الإخوان إلى المعتقلات، وليلة ٧ / ١٢ / ١٩٤٨م حوصر معسكر الإخوان برفح بقوات كبيرة من الجيش المصري وحضر اللواء البرديني ومعه عدد من ضباط البوليس الحربي.

وأرسل حسن البنا خطابا سريّاً مع أحد الإخوان يأمر فيه الإخوان أن يتحملوا المحنة وأن يسلموا أكتافهم للسعديين (حكومة النقراشي) ليقتلوا ويشردوا كيف شاءوا حرصاً على مصلحة شعب مصر وإبقاء على وحدة الأمة وتفادياً لنشوب حرب أهلية لا يستفيد منها سوى أعداء الإسلام.

وصدع الإخوان بالأمر وتحملوا مصائب المحنة بصبر وجلد ومضى السعديون في خطتهم الطائشة يعتقلون ويذبحون حتى بات أي فرد في مصر تحت رحمة البوليس السياسي.

وكان طبيعيّاً أن تبرر الحكومة ذلك فأخذت وسائل الإعلام التابعة لها تشيع أنباء مختلفة عن مؤامرات وهمية تدبَّر في الخفاء لقلب نظام الحكم وطفحت الصحف الحكومية بتفاصيل هذه المؤامرة الوهمية ولم يُسمَح للإخوان بالدفاع عن أنفسهم وفرض التعتيم الإعلامي التام لكيلا يعرف شعب مصر الحقيقة . [١]

([1]) حسين حمودة " أسرار حركة الضباط الأحرار " مرجع سابق ص ٥٩-٦٢ بتصرف .

وعن مؤامرة الإخوان لقلب نظام الحكم يقول أحمد عادل كمال أحد أفراد النظام الخاص للإخوان حينئذ : " حصل الإخوان بتوسط من الجامعة العربية والهيئة العربية العليا لدى وزارة النقراشي على تصريح بجمع السلاح من صحراء مصر الغربية حيث كانت بقايا معارك الحرب العالمية الثانية مازالت متناثرة حيث دارت، غير أن النقراشي ما لبث أن سحب التصريح .ولم يكن بوسع الإخوان إذ سحب التصريح أن يمتنعوا عن جمع السلاح بعد أن صار لهم في فلسطين ألفان من المتطوعين لهم وجودهم الفعلي ، واستمرت حركة الجمع ، وكان إخواننا الذين يجوبون الصحراء وراء السلاح يشاهدون اليهود يفعلون نفس الشيء من صحرائنا .. وقع انفجار بمبنى كان ملحقاً بالمركز العام للإخوان المسلمين بفعل بعض الألغام التي تآكلت أجهزة الأمان بها . أرادت تقارير البوليس وقتها أن تذهب إلى أن اليهود فعلوها رداً على نسف حارتهم ، ولكن الأستاذ البنا أعلنها صراحة ، إنها مفرقعاتنا التي نقوم بإعدادها لإخواننا المتطوعين في حرب فلسطين . ولقد أراد بهذا الإعلان عن أننا مازلنا نجمع السلاح ونصلحه ونرممه بعد سحب الترخيص حتى لا يهاجمنا بعد ذلك أحد بدعوى أن في يدنا سلاح ، ومع ذلك شهدنا تلك البجاحة بعد ذلك حين عرضت قضايانا على القضاء بتهمة جمع السلاح للعمل على قلب نظام الحكم.

ويظهر هذا الكتاب بعد سقوط الملك والملكية بأربعة وثلاثين عاماً [1] فلا يضيرنا أبداً أن نفاخر بأن ذلك السلاح كان لقلب حكم فاسد انقلب فعلاً ، ولكن ذلك يجافي الحقيقة ، وقد تكرر ذلك الزعم بعد ذلك أيام جمال عبد الناصر مزاعم أيضاً تجافي الحقيقة لتبرر مذابح دبرها للتخلص من الجماعة ثم ليصير جباراً في الأرض. " [2]

الإخوان المسلمون وتنظيم الضباط الأحرار

اعترف معظم الضباط الأحرار أن تنظيم الضباط الأحرار أنشأه الضباط الذين كانوا أعضاء في التنظيم السري للإخوان المسلمين ، وظل الضباط الأحرار على صلة بالإخوان بعد إنشاء تنظيمهم ، وحتى ما بعد قيام ثورة يوليو ونجاحها .

يقول حسن إبراهيم (عضو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار ،وعضو مجلس قيادة الثورة ، ونائب الرئيس جمال عبد الناصر) : " تشكل في سلاح الطيران نوع

---

(1) الطبعة الأولى لهذا الكتاب كانت عام ١٩٨٧ .
(2) أحمد عادل كمال " النقط فوق الحروف ، الإخوان المسلمون والنظام الخاص " الزهراء للإعلام العربي ص١٨٧ ، ١٨٨

من التنظيم ضم مجموعة من الأصدقاء والزملاء : عبد اللطيف البغدادي ، ووجيه أباظة ، وعبد المنعم عبد الرءوف ، وحسين ذو الفقار صبري ، وعبد الحميد دغيدي ، ومصطفى مرتجي ، وكان عزيز المصري هو الرأس المدبرة لهذه المجموعة .

كما قمنا بالاتصال بالإخوان المسلمين من خلال الصاغ المتقاعد محمود لبيب ، وكان المرحوم حسن البنا يلتقي بنا ... وأثناء حرب فلسطين بدأ تجمعنا من جديد ، وتشكلت المجموعة التأسيسية للضباط الأحرار من جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وخالد محيي الدين وكمال الدين حسين ومني ثم انضم إلينا صلاح سالم وعبد اللطيف البغدادي وجمال سالم وأخيراً انضم إلينا أنور السادات . "[١]

كانت العلاقة بين الإخوان والضباط الأحرار معروفة فمحمد نجيب يقول : " إنني أعرف أن الإخوان كانوا أول من ساعدوا عبد الناصر في تنظيم الضباط الأحرار.. وكان بين عبد الناصر وبينهم تاريخ طويل قبل الثورة . "[2]

ويقول محمد نجيب أيضاً : " وأذكر يوم طلبنا من الأحزاب أن تنظم نفسها أن طلب عند الناصر عدم اعتبار الإخوان حزباً حتى لا ينطبق عليهم القانون ، وقال لي : " إن جماعة الإخوان كانت أكبر أعوان الحركة قبل قيامها ، ولا يصح أن نطبق عليها قانون الأحزاب . "[3]

ومع هذا فبعض الكتاب الناصريين والقوميين والاشتراكيين يحاولون في كتاباتهم وأقوالهم حرمان جماعة الإخوان المسلمين من شرف المشاركة في تأسيس تنظيم الضباط الأحرار ، والتعاون مع قادة الثورة في سنيها الأولى ، وذلك لاختلافهم مع الجماعة أيديولوجيا أو لاختلاف مجلس قيادة الثورة مع الإخوان بعد ذلك .

والحقيقة أن الفضل لا بد أن يعود لأصحابه وإن اختلفنا معهم والقرآن الكريم يقول :

{وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (المائدة:٨)

([1]) أحمد حمروش " ثورة ٢٣ يوليو " الجزء الثاني شهود ثورة يوليو ص ٨٢٢ .
([2]) محمد نجيب " كنت رئيسا لمصر " المكتب المصري الحديث ط٢ ص ١٦٧.
([3]) أنور السادات " أسرار الثورة المصرية " مرجع سابق ص ١٦٩ .

سبب انفصال الضباط الأحرار عن الإخوان

لم يكن من الممكن عودة الضباط إلى التنظيم السري للإخوان المسلمين بعد حل جماعتهم والقبض على قادتهم لذا عمد عبد الناصر إلى تكوين تنظيم آخر بديل عن التنظيم السابق واختار أهم قادته منه وعن أسباب انفصال تنظيم الضباط الأحرار عن التنظيم السري للإخوان المسلمين يقول أحمد عادل كمال: " كان الصاغ محمود لبيب هو سنارة الإخوان التي تدلت بين الضباط في الجيش فاستطاع أن يجتذب بعضاً منهم ، وكانت أكبر الرتب التي أقبلت إلى الأخوان عبد المنعم عبد الرءوف، وجمال عبد الناصر ، وأبو المكارم عبد الحي ، وكمال الدين حسين ، وحسين حمودة . ونظراً لحساسية وضع الضباط فقد رُئي ألا يكون نشاطهم في شُعب الإخوان بالمجال العام حتى لا يكونوا عرضة للمحاكمات العسكرية والفصل والقوانين التي تحظر على الضباط الاشتغال بالسياسة أو الانتماء إلى منظمات سياسية ، لذلك تقرر إلحاقهم – خلافاً للمألوف – بالنظام الخاص ، وتم اتصالهم بعبد الرحمن السندي ، وخصص الشيخ سيد سابق ليعطيهم دروساً في الفقه ويثقفهم في الإسلام عوضاً لهم عن حضورهم المحاضرات العامة .

واشتعلت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وحوصرت قوة الفالوجا وفيها جمال عبد الناصر والكتيبة ١٣ مشاة ، واستطاع عبد الناصر أثناء ذلك الحصار أن يستميل بعض الأنصار من العناصر الساخطة من المحصورين ثم ما لبثت قوة الفالوجا أن عادت إلى مصر بعد فك الحصار عنها عام ١٩٤٩ ، واستدعى إبراهيم عبد الهادي (رئيس الوزراء حينئذ) جمال عبد الناصر وأخبره أنه نما إلى علمه أنه على علاقة بالإخوان .. وحلف جمال ما بلغ الباشا ليس صحيحاً.

وحدث خلاف بين أعضاء الجيش المنتمين للتنظيم الإخوان الخاص فكان رأي جمال عبد الناصر يقول إن منهج الإخوان طريق طويل ولا يوصل إلى شيء فما جدوى أن نجمع الضباط في مجموعات لحفظ القرآن والحديث ودراسة السيرة إلخ ، وما ضرنا لو انضم إلينا ضابط وطني من غير دين الإسلام ، أ فنرفضه لذلك فنحرم جهده معنا ؟ وكان عبد المنعم عبد الرءوف يناقض جمالاً فيما ذهب إليه ، فنحن إخوان ومسلمون ونعمل لهذه الدعوة ونستهدف قيام دولة مسلمة ويتعين علينا ألا نزيغ عن أهدافنا ولا أن ننصرف عن التفقه في ديننا ، وكمال الدين حسين من وجهة نظر جمال عبد الناصر ، كما أن "أبو المكارم عبد الحي" من جهة نظر عبد المنعم عبد الرءوف . طلبوا عرض الخلاف على المرشد العام.

ويبدو أن المرشد العام الأستاذ الهضيبي قد وجد انه امام أمر واقع ، فهذه مجموعة تريد أن تتحلل من التزاماتها كإخوان وليس هناك بد من ذلك ، وليس في الإمكان إجبارهم على غير ذلك ... قال الأستاذ الهضيبي إنه ربما كان من الأصلح عدم وضع البيض كله في سلة واحدة ، فليستمر الإخوان في طريقهم وليستمر جمال في طريقه وكان هذا هو ما أراده جمال فأجاب أنه سوف يستمر صديقاً للإخوان"(١)

أما ثروت عكاشة فيقول عن سبب الانفصال بين الإخوان وضباط الجيش : "بقينا معشر الضباط في خلايانا موصولين بجماعة الإخوان المسلمين ننشر الدعوة إلى الإصلاح إلى أن قامت حرب فلسطين الأولى عام ١٩٤٨ فحالت أحوال القتال بيننا وبين سيرتنا الأولى مع التنظيم .. وكان تورط الإخوان المسلمين في أمور غامضة كالاغتيالات وأعمال العنف وما يجري مجراها قد نفرّ خلايا الضباط منهم ودفعهم إلى اكتشاف حاجاتهم إلى تنظيم شامل لا يتقيد بمعتقد مذهبي ، بل تنظيم يضم تحت لوائه مواطني مصر ،على أي عقيدة كانوا وعلى أي مذهب سياسي عاشوا طالما أن هدفهم هو مصر الوطن الأم ، ومن هنا دبَّ الخلاف بيننا نحن معشر الضباط وبين المرحوم عبد المنعم عبد الرءوف الذي خلف محمود لبيب بعد وفاته فضلاً عن أنه كان يرى على العكس مما كنا نرى أن خلايا الضباط يجب أن تكون تابعة كلها لسلطان الإخوان المسلمين . فكان هذا باعثاً إلى إنشاء تنظيم الضباط الذي ضمَّ الأحرار منهم للسعي وراء تطهير البلاد من كل عبث . "(٢)

والروايتان لا اختلاف بينهما إلا في إدانة ثروت عكاشة لأعمال العنف والاغتيالات التي قام بها الإخوان المسلمون وسبق أن قلنا أن هذه الاغتيالات السياسية كانت سمة هذا العصر لم يسلم منها أي تنظيم حتى الضباط الأحرار أنفسهم فقد حاولوا اغتيال حسين سري عامر وفشلت المحاولة وحاولوا القيام بعدة اغتيالات سياسية قبل القيام بالثورة مباشرة ولكن بسبب افتقارهم إلى سيارات كافية ينفذون بها الاغتيالات ألغيت المحاولة ، وليس معنى هذا إقراري بأسلوب الاغتيالات السياسية كلا فقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق من أكبر الكبائر وقد جاء في السنن : " لزوال الدنيا عند اللّه أهون من قتل مسلم". فالاختلاف في الرأي لا يوجب القتل إذ لا قتل إلا بحكم قضاء عادل ونزيه تنفذه السلطات المختصة.

---

(1) أحمد عادل كمال " الإخوان المسلمون والنظام الخاص " مرجع سابق ص ٣٠٠ – ٣٠٣ بتصرف .
(2) ثروت عكاشة " مذكراتي في السياسة والثقافة " مرجع سابق ج ١ ص ٣٨، ٣٩ .

كذلك تتميز رواية ثروت عكاشة بتأكيد تجمع ضباط الجيش بعد حرب فلسطين تحت قيادة عبد المنعم عبد الرءوف الذي خلف محمود لبيب في القيادة قبل تأسيس تنظيم الضباط الأحرار وانتخاب جمال عبد الناصر في يناير ١٩٥٠ رئيساً للجنة القيادة.

وقد أطلق على الخلية الأولى للضباط الأحرار اسم "اللجنة التأسيسية". وتشكلت، من خمسة ضباط، كانوا جميعاً أعضاء في التنظيم السري للإخوان المسلمين " . (١)

الإخوان والعنف

ومن التهم التي ألصقت بالإخوان – ولا زالت – تهمة استخدام العنف أو الإرهاب وحين تذكر جماعات العنف المسلح في عصرنا ، يسارع ذوو الغرض والهوى لإدخال جماعة الإخوان فيها .

وهذا لعمري من الاعتساف والتحريف، والظلم المبين الذي لا يخفى على دارس منصف فالإخوان – من الناحية النظرية – لم يجيزوا استخدام القوة المادية إلا في مجالات معينة، وبشروط واضحة، بينها حسن البنا في رسائله بوضوح كما في رسالة المؤتمر الخامس وغيرها . ومن هذه المجالات : مقاومة الاحتلال الإنجليزي لمصر والاحتلال الصهيوني في فلسطين .

فما عرف عن الإخوان أنهم قتلوا سائحاً أو اعتدوا على مسيحي ، أو قتلوا امرأة أو طفلاً صغيراً، أو شيخاً كبيراً كما شاهدنا ما يفعله هؤلاء الوحوش الذين يذبحون الناس بأبشع الآلات وأشنع صور القتل ولا يتورعون عن قتل النساء والولدان والزراع والرهبان، ممن لا ناقة لهم في حرب ولا جمل!. فمن غير المقبول والمعقول: أن يلحق الإخوان بهؤلاء المفترسين . وهناك حوادث معروفة من أعمال العنف منسوبة إلى الإخوان لها ظروفها وملابساتها: ومن العدل أن توضح في إطارها الزمني فقد كان الاغتيال السياسي معروفاً عند الوطنيين منذ اغتيال بطرس باشا غالي ,وأمين عثمان وغيرهما وكان الرئيس السادات ممن أتهم في مقتل أمين عثمان . (٢)

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول علاقة الإخوان المسلمين بتنظيم الضباط الأحرار وثورة ٢٣ يوليو راجع كتابنا " آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة " مكتبة غريب للطباعة النشر .

(٢) د. يوسف القرضاوي " الإخوان والعنف " موقع ويكيبيديا الإخوان المسلمين .

جرائم التنظيم السري

بالإضافة إلى الأعمال الجليلة التي قام بها التنظيم السري للإخوان المسلمين ضد الإنجليز واليهود ارتكبوا ثلاثة جرائم : قتل الخازندار ، والنقراشي ، ونسف محكمة الاستئناف .

وإليكم دفاع د. يوسف القرضاوي عن هذه الجرائم وملابسات وقوعها .

الحادثة الأولى ، قتل القاضي الخازندار في ظروف معروفة زينت لبعض الشباب المتحمس أن يقتلوا هذا القاضي، ولم يكن ذلك بأمر الأستاذ البنا ولا بإذنه أو علمه وقد استنكر وقوع هذا الحادث ومن الإنصاف أن يوضع الحدث في ظرفه الزمني، مقروناً بالباعث عليه، حتى لا يأخذ من حجمه ، ولم يتكرر هذا من الإخوان قط،ولم يفكروا في أخذ ثأرهم حتى من القضاة العسكريين الذين حكموا عليهم أحكاما لا يشك إنسان موضوعي أنها قاسية ظالمة .

وبعد ذلك كان قتل النقراشي رئيس الوزراء والحاكم العسكري الذي يحمل تبعة حل الإخوان واقتيادهم إلى المعتقلات بالآلاف وتعرضهم للتعذيب والفصل والتشريد والتجويع، حتى الذين كانوا يقاتلون الصهاينة في فلسطين نقلوا من الميدان إلى الاعتقال فقام شاب من الإخوان بمساعدة بعض زملائه في النظام الخاص بقتله وهو ما حاول الأستاذ حسن البنا الحيلولة دون وقوعه ولقى بعض الرجال المسئولين وحذرهم من أن يتهور بعض شباب الإخوان ويحدث ما لا تحمد عقباه فقالوا له بعبارة صريحة ماذا يفعلون؟ سيقتلون رئيس الوزراء ليكن إن ذهب عير (أي حمار) فعير في الرباط .!

وقد استدعى الأستاذ البنا بعد مقتل النقراشي وحقق معه، ثم أفرج عنه إذ لم تثبت أيه صلة له بالحادث .

والحادثة الثالثة :محاولة نسف محكمة الاستئناف التي كانت تضم أوراق قضايا الإخوان ,وهو الحادث الذي أغضب الأستاذ البنا كثيرا وجعله يسارع بإصدار بيانه الشهير الذي نشرته الصحف وفيه يقول" :هؤلاء ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين "!

والواقع أن الجماعة بعد حلها ليست مسئولة عن كل هذه الحوادث لأنها ليست موجودة حتى تساءل .ولم يحدث بعد ذلك أي حادث عنف إلا ما كان من محاولة اغتيال عبد الناصر في ميدان المنشية بالإسكندرية في أكتوبر سنة ١٩٥٤م وهو حادث تكتنفه الشبهات من كل جانب، وقد شكك فيه بعض رجال الثورة أنفسهم مثل حسن التهامي .

ولو أخذنا الأمور على ظواهرها فليست الجماعة مسئولة عنه ولم يثبت في التحقيق أنها هي التي دبرته، وإنما هو من تدبير هنداوى دوير ومجموعته .

على كل حال، هذا تاريخ ولم يثبت بعد ذلك أن الإخوان استخدموا العنف من سنة ١٩٥٤م حتى اليوم رغم ما وقع عليهم من عسف وظلم وقتل علني لقادتهم بحكم القضاء العسكري، والتعليق على أعواد المشانق مثل الشهداء :عبد القادر عودة – محمد فرغلي – يوسف طلعت – إبراهيم الطيب , أو لشبابهم بحكم التحريش المثير داخل السجن كما في حادث سجن طره الشهير الذي قتل فيها السجانون مسجونيهم علانية، وسقط ثلاثة وعشرون شاباً من خيرة الشباب شهداء في سبيل الله ولم يصنعوا جرماً إلا أنهم طالبوهم بتحسين أحوالهم والسماح لذويهم أن يزورهم كبقية سجناء الدنيا .

وقد أعدم بعد ذلك :سيد قطب وعبد الفتاح إسماعيل,ومحمد يوسف هواش ولم يريقوا قطرة دم واحدة ، إلا ما قيل: إنهم كانوا ينوون كذا وكذا .

واقتيد الإخوان بعشرات الألوف إلى السجون والمعتقلات وعذبوا تعذيباً لم يسبق له مثيل .ورغم توسط الكثيرين واحتجاج الكثيرين على إعدام سيد قطب لم يستجب عبد الناصر لهم وأصر على قتله .

وهناك الإخوان قتلوا تحت سياط التعذيب في السجن الحربي بعد أن سهر عليهم الجنود القساة يتعاورون عليهم واحد بعد الآخر، كلما تعب هذا من الجلد والإيذاء أخذ عنه صاحبه، فمن هؤلاء المعذبين من تحمل جسده ,وإن بقى طوال عمره يعانى آثار العذاب ما يعانى ومنهم من نفذت طاقته، وعجز عن الاحتمال فخر قتيلا بين أيدي هؤلاء الوحوش وهم لا يبالون .

وقد كان كثيرون يطالبون الإخوان أن يأخذوا بثأرهم من الضباط الذين اشتهروا بتعذيبهم مثل حمزة البسيونى قائد السجن الحربي الذي كان يقول في صلف وغرور: لا قانون هنا: أنا وحدي القانون!. بل تطاول بجرأة ووقاحة على مقام الإلوهية .

المهم أن الإخوان لم يفكروا في الانتقام من ظالميهم، وتركوا الأمر لربهم ينتقم لهم إنه عزيز ذو انتقام وهو سبحانه يمهل ولا يهمل .

فسبحان الله جماعة بهذه الروح المتسامحة مع أقسى ظالميها كيف تتهم بالعنف أو بالإرهاب وهى منهما براء ؟ !! [١]

---

(١) د. يوسف القرضاوي " الإخوان والعنف " موقع ويكيبيديا الإخوان المسلمين .

وجماعة الإخوان المسلمين ذات الانتشار الواسع في ربوع مصر ، وذات التاريخ الذي تجاوز الثمانين عاماً لا تسلم من وجود عناصر مفسدة تنتسب إليها وتسيء إلى نشاطاتها .

يقول مهدي عاكف المرشد السابق للإخوان المسلمين في حديث صحفي .

" - بل أزيد لك إنه لدينا بعض العناصر الفاسدة، ونحن نقوِّم أنفسنا وإخواننا، وجماعة الإخوان نسيج من الوطن المصري، منهم من هو علي صواب، ومنهم من يخطيء.

- هل حاولتم إبعاد الفاسدين، وتقويمهم حفاظاً علي الإسلام؟

- نحن نشرح لهم المنهج الصحيح ولدينا رسالة أسبوعية، ونطلب منهم الالتزام بشرع الله، لكن ربما تكون العناصر المنحرفة موجودة في الإخوان خارج مصر أكثر منها في الداخل لكن هناك مواقف كثيرة يغلب فيها بعض الإخوان مصلحتهم الشخصية علي المصالح العامة .

هذه كلها أمور تدخل في نطاق التقديرات الشخصية وتحدث بشكل فردي، لكن تقديرات الجماعة كلها تصب في مواجهة الظلم والظالمين، وكشف الفساد والمحاسبة. " (١)

الإخوان بين الدين والسياسة

الاتهام الثاني الذي وُجِّه إلى الإخوان المسلمين هو خلطهم الدين بالسياسة ، أو استخدام الدين للحصول على مكاسب سياسية ، فالجماعة ليست حزباً سياسياً مدنيّاً كغيرها من الأحزاب ، ولا هي جماعة دعوية كغيرها من الجمعيات والمؤسسات الدينية الخيرية ، إنما تجمع بين الاثنين دون تفرقة واضحة بين النشاط الدعوي والسياسي ، ولقد حاول الإخوان أن ينشئوا حزباً سياسيّاً مدنيّاً كسائر الأحزاب .

والحقيقة أن الجماعة لم يُسمَح لها منذ أواخر العهد الملك فاروق وحتى قيام ثورة ٢٥ يناير بممارسة الدين ولا السياسة إلا في فترة قصيرة لم تتجاوز العامين بعد ثورة ٢٣ يوليو حيث اعتمد عليها عبد الناصر ليضرب بها خصومه ، وبعد أن تم له ذلك عصف بها ونكَّل بقياداتها وأعضائها ، وظلت الجماعة محظور عليها

---

(١) د. رفعت السعيد "مهدي عاكف في مواجهة شرسة مع رفعت السعيد " الأهرام بتاريخ ٢٠١١/١١/٢٥

ممارسة النشاط الديني فضلاً عن السياسي ، وعندما سمحت الدولة بإعادة الأحزاب بعد نحو ربع قرن من حلها رفض نظام مبارك السماح لها بتأسيس حزب كما رفض السماح للجماعة بممارسة النشاط الدعوي بحرية وأطلق هو وإعلامه عليها الجماعة المحظورة ؛ لينفر الناس منها كما دأب على اعتقال قياداتها بصورة دائمة ومتكررة متأسياً بجميع الحكومات التي حكمت مصر منذ النقراشي باشا الذي أصدر أمراً بحل الجماعة حتى ثورة ٢٥ يناير حيث رأت هذه الحكومات في الإخوان قوة منافسة لها على الحكم ولما كان النظام في مصر خاصة بعد ثورة يوليو نظاماً عسكرياً دكتاتورياً مستبداً قمعياً فقد جعل همه القضاء على هذه الجماعة والتنكيل بأعضائها بسبب بعض الممارسات الخاطئة التي تقع من بعض أعضائها أو بدون سبب حقيقي إلا الرغبة في التخلص من منافس قوي .

وأخيراً ، وبعد ثورة الخامس والعشرين من يناير ، استطاعت جماعة الإخوان المسلمين أن تنشئ حزباً سياسياً أسمته " الحرية والعدالة " واستطاعت أن تحصد به أكثرية في مجلس الشعب وصلت نسبتها إلى ٤٧,٢ % من مقاعد المجلس ، كما حصلت على أغلبية مجلس الشورى بنسبة ٥٩ % من مقاعد المجلس إلا أن المحكمة الدستورية العليا المصرية أصدرت في ١٤ يونيو ٢٠١٢ حكمًا يقضي بعدم دستورية القانون الخاص بترشيح ثلث أعضاء البرلمان من المستقلين، مما أدى إلى حل البرلمان بالكامل .

علاقة الدين بالسياسة

أما بالنسبة للسؤال الذي يُطْرَح كثيراً هل هناك علاقة بين الدين والسياسة ؟ أو هل من حق الجماعات الدينية أن تتحول إلى أحزاب تقوم على أساس ديني ؟ أو هل إفتاء رجل الدين في السياسة يعد خروجاً على حدود علمه ، ومجال تخصصه ؟

هناك آراء ثلاثة في هذا الموضوع نعرضها بإيجاز :

أولاً : رأي العلمانيين والماركسيين ، وهو أنه لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين . فتسييس الدين أو تَدَيُّن السياسة هو فعل خاطئ من الناحية المنهجية ؛ ذلك لأن السياسي يطرح رأياً أو موقفاً أو برنامجاً فإن اختلفت معه كنت معارضاً له أو معترضاً عليه . لكن هذا الرأي إن جاء متشحاً بالدين ومستخدماً رداءً دينياً يوحي أو يفرض عليك أن هذا القول هو الدين ذاته أو في أحسن الأحوال هو الرأي الصحيح في الدين وفي معطياته .

فماذا لو خالفته أو اختلفت معه ؟

أنت إذن تختلف مع صحيح الدين . ومن هو السياسي الذي يرغب أو يتجاسر فيختلف مع صحيح الدين ؟

والمشكلة تأتي من تعمد الخلط بين الرأي في الدين ، والدين ذاته ، فالدين معطى سماوي كلّي الصحة ، والرأي معطى إنساني نسبي الصحة . فهل يرضى واحد من " أمراء " أو " أئمة " التأسلم السياسي بمنزلة كمنزلة البشر العاديين فيكون رأيه أو رأي جماعته نسبي الصحة ؟ فإن رضي فما جدوى " التأسلم " والالتحاق بالدين ، إنه يتأسلم لكي يفرض علينا رأيه فرضاً . فهو جماعة المسلمين ، وهو صحيح الدين ، وهو صاحب الحق في تحديد الحدود بين الحرام والحلال . فماذا لو تجاسرت على مخالفته ؟ الإجابة جاهزة رادعة من خرج على الجماعة فاضربوه بحد السيف . ومن هنا وتحت ستار الدين أو تديين السياسة يكون العنف مفترضاً أو مفروضاً . (١)

ويؤكد أصحاب هذا الرأي رأيهم هذا بكثرة جرائم العنف والإرهاب التي قامت بها جماعات دينية ضد مخالفيهم في الرأي .

ثانياً : رأي الجماعات الدينية السلفية المعاصرة ، وخلاصته أن تعاليم الإسلام لا تتعلق بالعقيدة والعبادة فحسب بل تشمل جميع شئون الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ... الخ وأن هذه التعاليم والتشريعات صالحة لكل زمان ومكان ، وغير قابلة للزيادة والنقصان فهي من لدن الله تعالى خالق الكون ؛ لذا فإن أصحاب هذا الرأي يرون عدم الاستناد في سن القوانين والتشريعات إلى إرادة ورغبة البشر من سكان بلد ما ، إنما يستند نظام الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع .. الخ إلى ما يقدمه أنصار هذه الجماعات من قوانين وتشريعات في شتى مجالات الحياة ، وأن الخروج على هذه التشريعات يعتبر كفراً مبيناً يستحق صاحبه العقاب الشديد .

وتؤمن هذه الجماعات أنه ليس من حق الشعوب أن تغير تلك القوانين أو تستبدل بها قوانين يسمونها وضعية . وأن المجتمع الذي لا يطبق هذه القوانين الدينية يعد مجتمعاً جاهلياً " حيث إن هذه المجتمعات لم ترضَ بحاكمية الله تعالى وأشركت معه آلهة أخرى، استوردت من عندها الأنظمة والقوانين والقيم والأفكار والمفاهيم، واستبدلوا بها شريعة الله وسنة رسوله ﷺ. " (٢)

---

(1) د. رفعت السعيد " التيارات السياسية في مصر " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٣٣ ، ١٣٤

(2) د. عبد المنعم أبو الفتوح " سيد قطب .. نذكره ونحبه ونختلف معه " نقلاً عن موقع إسلام أون لاين .

وتعمل هذه الجماعات على نشر هذه الأفكار بشتى الطرق والوسائل لدرجة أن بعضها يلجأ إلى استخدام العنف في فرضها ، والعنف هنا تفسره هذه الجماعات (السلفية الجهادية) على أنه جهاد في سبيل الله لنشر دينه وتحكيم شرعه !!

ثالثاً : الرأي الإسلامي الوسطي ، ويرى أن كلاً من أصحاب الرأيين السابقين يخلطون بين النصوص المقدسة – القرآن الكريم ، وصحيح السنة الشريفة – كنصوص العقيدة والعبادة والأخلاق قطعية الثبوت والدلالة التي لا يجوز الاجتهاد فيها ، وبين الاجتهاد البشري في تفسير النصوص المقدسة ظنية الثبوت والدلالة ، أو قطعية الثبوت ظنية الدلالة التي تتعلق بشئون السياسة والاقتصاد والاجتماع .. الخ ... كما يخلطون بين وسائل الدعوة إلى دين الله التي ينبغي أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن { ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (النحل : ١٢٥) ، وبين الجهاد في سبيل الله الذي ينبغي أن يكون ضد المعتدين من أعداء الأمة { وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ } (البقرة : ١٩٠) .

فإن كان للماركسيين والعلمانيين الحق في التخوُّف من هذا الخلط ، فهذا لا يعطيهم الحق في إسقاط نصوص الدين بالكلية ، وتنحية الدين عن حياة الناس ومحاربة كل دعاة الدين وعلمائه ، فإذا كان دستور كل أمة يراعي قيمها وعاداتها وتقاليدها ومُثُلها فإن ما اتفق عليه المسلمون من أمور الدين واجب الاتباع ولا يجوز الخروج عليه فضلاً عن معاداته فلا يجوز لحاكم أن يحرِّم على الشعوب ذات الأغلبية المسلمة، إقامة الصلاة ، وصيام رمضان ، ولبس المرأة الحجاب ، ويفرض عليهم شرب الخمر ، والزنى ، وأكل لحم الحنزير ، كذلك يؤخذ على الماركسيين والعلمانيين وَسْم كل علماء الدين بميسم واحد فليس كل علماء الدين ممن يؤمنون بقداسة آرائهم الاجتهادية وحرمة الخروج عليها بل إن جُل علماء الدين يؤمنون في الأمور الخلافية بقول الشافعي : " رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب " ... كذلك فإن الجماعات السلفية إن كان من حقها أن تنادي باحترام جميع حقوق الإنسان المدنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، التي نصت عليها الشريعة الإسلامية . فإنها لا بد أن تؤمن أن الأمة مصدر جميع السلطات التي يجب الفصل بينها واستقلال كل منها عن الأخرى في إطار من التوازن العام ، وهذا المبدأ يتضمن حق الشعب في أن يشرِّع لنفسه وبنفسه القوانين التي تتفق ومصالحه ، كما أنها يجب أن تقر التعددية الفكرية

والسياسية ، والحق في تشكيل الأحزاب السياسية والجمعيات ومؤسسات المجتمع المدني كافة [١] وأن تقلع تماماً ونهائياً عن لغة التكفير والتخوين والتفسيق والتبديع مع من يخالفها الرأي من أبناء الوطن ، كما أنها تقلع تماماً ونهائياً عن استخدام العنف والإرهاب في فرض آرائها وأفكارها ؛ لأنها لا تعيش وحدها في مجتمعاتها إنما يشاركهم فيها جماعات وطوائف وديانات أخرى ذات مشارب مختلفة واتجاهات متباينة ، وهي لا ترضى أن تفرض عليها جماعة أخرى فكرها بالقوة وكذلك لا يرضى الآخرون ذلك .

كما أن الجماعات الإسلامية تخلط خلطاً فاضحاً بين أحكام الشريعة التي تتسم بالثبات ، وبين اجتهادات أولي الأمر المتغيرة تبعاً لمصلحة الأمة . [٢]

***

---

(1) من برنامج حزب الوسط نقلا عن موقع الحزب على الإنترنت .
(2) لمزيد من التفاصيل حول عوامل السعة والمرونة الرجوع إلى الباب الأول من هذا الكتاب .

الفصل السادس
المدرسة الألبانية

محمد ناصر الدين الألباني

يعتبر الشيخ محمد ناصر الدين بن الحاج نوح الألباني من علماء الحديث البارزين المتفردين في علم الجرح والتعديل، فهو حجة في مصطلح الحديث .

ولد الشيخ الألباني عام ١٩١٤م في مدينة أشقودرة عاصمة دولة ألبانيا ، حينئذ، في أسرة فقيرة متدينة يغلب عليها الطابع العلمي، فكان والده مرجعاً للناس يعلمهم ويرشدهم .

هاجر بصحبة والده إلى دمشق الشام للإقامة الدائمة فيها بعد سعى أحمد زاغو (ملك ألبانيا) إلى سلخ ألبانيا من جلدها الإسلامي ودفعها إلى ارتداء العلمانية الغربية

أتمَّ الألباني دراسته الابتدائية في مدرسة الإسعاف الخيري في دمشق بتفوق، ونظراً لرأي والده الخاص في المدارس النظامية من الناحية الدينية، فقد قرر عدم إكمال الدراسة النظامية ووضع له منهجاً علمياً مركزاً قام من خلاله بتعليمه القرآن الكريم، والتجويد، والنحو والصرف، وفقه المذهب الحنفي، وقد ختم الألباني على يد والده حفظ القرآن الكريم ، كما درس على الشيخ سعيد البرهاني مراقي الفلاح في الفقه الحنفي وبعض كتب اللغة والبلاغة، هذا في الوقت الذي حرص فيه على حضور دروس وندوات الشيخ بهجة البيطار .

أخذ الألباني عن أبيه مهنة إصلاح الساعات فأجادها حتى صار من أصحاب الشهرة فيها، وأخذ يتكسب رزقه منها، وقد وفَّرت له هذه المهنة وقتاً جيداً للمطالعة والدراسة، وهيأت له هجرته للشام معرفة اللغة العربية والاطلاع على العلوم الشرعية من مصادرها الأصلية .

على الرغم من توجيه والد الألباني المنهجي له بتقليد المذهب الحنفي وتحذيره الشديد من الاشتغال بعلم الحديث، فقد اتجه الألباني نحو دراسة علم الحديث وعلومه، فتعلم الحديث في نحو العشرين من عمره متأثراً بأبحاث مجلة المنار التي كان يصدرها الشيخ محمد رشيد رضا وكان أول عمل حديثي قام به هو نسخ كتاب "المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار" للحافظ العراقي مع التعليق عليه .

كان ذلك العمل فاتحة خير كبير على الشيخ الألباني حيث أصبح الاهتمام بالحديث وعلومه شغله الشاغل، فأصبح معروفاً بذلك في الأوساط العلمية بدمشق، حتى إن إدارة المكتبة الظاهرية بدمشق قد خصصت غرفة خاصة له ليقوم فيها بأبحاثه العلمية المفيدة، بالإضافة إلى منحه نسخة من مفتاح المكتبة حيث يدخلها وقت ما شاء، أما عن التأليف والتصنيف، فقد ابتدأهما في العقد الثاني من عمره، وكان أول مؤلفاته الفقهية المبنية على معرفة الدليل والفقه المقارن كتاب " تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد " وقد طُبِعَ مراراً، ومن أوائل تخاريجه الحديثية المنهجية أيضاً كتاب "الروض النضير في ترتيب وتخريج معجم الطبراني الصغير" ولا يزال مخطوطاً .

كان لاشتغال الشيخ الألباني بحديث رسول الله ﷺ أثره البالغ في التوجه السلفي للشيخ، وقد زاد تشبثه وثباته على هذا المنهج مطالعته لكتب شيخ الإسلام ابن تيميه وتلميذه ابن القيم وغيرهما من أعلام المدرسة السلفية .

حمل الشيخ الألباني راية الدعوة إلى التوحيد والسنة في سوريا حيث زار الكثير من مشايخ دمشق وجرت بينه وبينهم مناقشات حول مسائل التوحيد والاتباع والتعصب المذهبي والبدع، فلقي الشيخ لذلك المعارضة الشديدة من كثير من متعصبي المذاهب ومشايخ الصوفية والخرافيين والمبتدعة، فكانوا يثيرون عليه العامة والغوغاء ويشيعون عنه بأنه "وهَّابي ضال" ويحذرون الناس منه، هذا في الوقت الذي وافقه بعض العلماء المعروفين بالعلم والدين في دمشق، والذين حضُّوه على الاستمرار قُدُماً في دعوته ومنهم، الشيخ بهجت البيطار، والشيخ عبد الفتاح الإمام رئيس جمعية الشبان المسلمين في سوريا، والشيخ توفيق البزرة، وغيرهم .

جهود الألباني العلمية والدعوية

نشط الشيخ الألباني في دعوته من خلال :

١- دروسه العلمية التي كان يعقدها مرتين كل أسبوع حيث يحضرها طلبة العلم وبعض أساتذة الجامعات ومن الكتب التي كان يدرسها في حلقات علمية :

- فتح المجيد لعبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب .
- الروضة الندية شرح الدرر البهية للشوكاني شرح صديق حسن خان .
- أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف .
- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير شرح احمد شاكر .
- منهاج الإسلام في الحكم لمحمد أسد .
- فقه السنة لسيد سابق .

٢- رحلاته الشهرية المنتظمة التي بدأت بأسبوع واحد من كل شهر ثم زادت مدتها حيث كان يقوم فيها بزيارة المحافظات السورية المختلفة، بالإضافة إلى بعض المناطق في المملكة الأردنية قبل استقراره ، في المرحلة الأخيرة من حياته ، هذا الأمر دفع بعض المناوئين لدعوة الألباني إلى الوشاية به عند الحاكم مما أدى إلى سجنه .

في أوائل ١٩٦٠م كان الشيخ يقع تحت مرصد الحكومة السورية، مع العلم أنه كان بعيداً عن السياسة، وقد سبب ذلك نوعاً من الإعاقة له. فقد تعرض للاعتقال مرتين، الأولى كانت قبل ٦٧ حيث اعتقل لمدة شهر في قلعة دمشق وهي نفس القلعة التي اعتقل فيها ابن تيمية ، وعندما قامت حرب ٦٧ رأت الحكومة أن تفرج عن جميع المعتقلين السياسيين فأفرجت عنه .

لكن بعدما اشتدت الحرب أعادوه إلى المعتقل مرة ثانية، ولكن هذه المرة ليس في سجن القلعة، بل في سجن الحسكة شمال شرق دمشق، وقد قضى فيه الشيخ ثمانية أشهر، وخلال هذه الفترة حقق مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري واجتمع مع شخصيات كبيرة في المعتقل .

لقد كان للألباني جهود علمية وخدمات عديدة منها :

١- تدريسه لعلوم الحديث لمدة ثلاث سنوات في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة .

٢- تخريجه أحاديث البيوع الخاصة بموسوعة الفقه الإسلامي، التي عزمت جامعة دمشق على إصدارها عام ١٩٥٥ م .

٣- الإشراف على نشر كتب السنة وتحقيقها حيث تمَّ اختياره عضواً في لجنة الحديث، التي شكلت في عهد الوحدة بين مصر وسوريا .

٣- تلبيته دعوة من اتحاد الطلبة المسلمين في أسبانيا، وألقى محاضرة مهمة طبعت فيما بعد بعنوان " الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام " .

٤- انتدب من الشيخ عبد العزيز بن باز رئيس إدارة البحوث العلمية والإفتاء للدعوة في مصر والمغرب وبريطانيا إلى التوحيد والاعتصام بالكتاب والسنة والمنهج الإسلامي الحق .

٥- زار الكويت والإمارات وألقى فيهما محاضرات عديدة، وزار أيضاً عدداً من دول أوروبا، والتقى فيها بالجاليات الإسلامية والطلبة المسلمين، وألقى دروساً علمية مفيدة .

٦- للشيخ مؤلفات وتحقيقات قيمة، ربت على المئة، وترجم كثير منها إلى لغات مختلفة، وطبع أكثرها طبعات متعددة ومن أبرزها، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، وسلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، وصفة صلاة النبي من التكبير إلى التسليم .

٧- منح جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية عام ١٩٩٩م تقديراً لجهوده القيمة في خدمة الحديث النبوي تخريجاً وتحقيقاً ودراسة.

قال الشيخ عبد العزيز بن باز عنه : " ما رأيت تحت أديم السماء عالماً بالحديث في العصر الحديث مثل العلامة محمد ناصر الدين الألباني" .

وقال الشيخ محمد صالح العثيمين عنه " فالذي عرفته عن الشيخ من خلال اجتماعي به وهو قليل، أنه حريص جداً على العمل بالسنة، ومحاربة البدعة، سواء كان في العقيدة أم في العمل، أما من خلال قراءتي لمؤلفاته فقد عرفت عنه ذلك، وأنه ذو علم جم في الحديث، روايةً ودراية، وأن الله تعالى قد نفع فيما كتبه كثيراً من الناس، من حيث العلم ومن حيث المنهاج والاتجاه إلى علم الحديث، وهذه ثمرة كبيرة للمسلمين ولله الحمد، أما من حيث التحقيقات العلمية الحديثية فناهيك به."

توفي الألباني عفا الله عنا وعنه وعن سائر المسلمين في الثاني من أكتوبر ١٩٩٩م. (١)

الألباني ومدرسة الحديث الجديدة

إذا كان أحمد ابن حنبل هو رائد مدرسة الحديث وإمامها فإن الألباني يعد رائد مدرسة الحديث المعاصرة فقد انتصر لظاهر الحديث الصحيح وقدَّمه على رأي الصحابة والتابعين ، ورأي الفقهاء الأربعة الأعلام الذين أجمعت الأمة على إمامتهم

---

(١) نقلاً عن موقع ناصر الدين الألباني .

في الفقه (أبو حنيفة ، مالك ، الشافعي ، أحمد) وقدم ظاهر الحديث على العقل ، والمصلحة بل إنه جعل السنة قاضية على القرآن الكريم !!

ودونك ملخصا لمذهبه كما جاء في كتابه " الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام " :

إن من المتفق عليه بين المسلمين الأولين كافة أن السنة النبوية هي المرجع الثاني والأخير في الشرع الإسلامي في كل نواحي الحياة من أمور غيبية اعتقادية أو أحكام عملية أو سياسية أو تربوية وأنه لا يجوز مخالفتها في شيء من ذلك لرأي أو اجتهاد أو قياس .

قال تعالى :

{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا } (الأحزاب : ٣٦)

وقال : { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ }

(آل عمران : ٣٢)

وقال عز من قائل : { مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا } (النساء : ٨٠)

وقال : { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } (الحشر : ٧)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " كُلُّ أُمَّتِي يَدخُلُونَ الجَنَّةَ إلاَّ مَنْ أَبَى قِيلَ : وَمَنْ يَأبَى يَا رَسُول الله ؟ قَالَ : " مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى " (أخرجه البخاري)

وفي هذه النصوص من الآيات والأحاديث أمور هامة جداً يمكن إجمالها فيما يلي:

١ – أنه لا فرق بين قضاء الله وقضاء رسوله وأن كلاً منهما ليس للمؤمن الخيرة في أن يخالفهما وأن عصيان الرسول ﷺ كعصيان الله تعالى وأنه ضلال مبين .

٢ – أنه لا يجوز التقدم بين يدي الرسول ﷺ كما لا يجوز التقدم بين يدي الله تعالى وهو كناية عن عدم جواز مخالفة سنته ﷺ .

٣ – أن المطيع للرسول ﷺ مطيع لله تعالى .
٤ – أن التولي عن طاعة الرسول ﷺ إنما هو من شأن الكافرين .
٥ – وجوب الرد والرجوع عند التنازع والاختلاف في شيء من أمور الدين إلى الله وإلى الرسول ﷺ .
٦ – أن الرضى بالتنازع بترك الرجوع إلى السنة للخلاص من هذا التنازع سبب هام في نظر الشرع لإخفاق المسلمين في جميع جهودهم ولذهاب قوتهم وشوكتهم .
٧ – التحذير من مخالفة الرسول ﷺ لما لها من العاقبة السيئة في الدنيا والآخرة .
٨ – استحقاق المخالفين لأمره ﷺ الفتنة في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة .
٩ – وجوب الاستجابة لدعوة الرسول ﷺ وأمره وأنهـا سـبب الحيـاة الطيبـة والسعادة في الدنيا والآخرة .
١٠ – أن طاعة النبي ﷺ سبب لدخول الجنة والفوز العظيم وأن معصيته وتجاوز حدوده سبب لدخول النار والعذاب المهين .
١١ – أن من صفات المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام ويبطنون الكفر أنهـم إذا دعوا إلى أن يتحاكموا إلى الرسول ﷺ وإلى سنته لا يستجيبون لذلك بـل يـصدون عنه صدوداً .
١٢ – وأن المؤمنين على خلاف المنافقين فإنهم إذا دعوا إلى التحاكم إلى الرسول ﷺ بادروا إلى الاستجابة لذلك وقالوا بلسان حالهم ومقالهم : " سمعنا وأطعنا " وأنهم بذلك يصيرون مفلحين ويكونون من الفائزين بجنات النعيم .
١٣ – كل ما أمرنا به الرسول ﷺ يجب علينا اتباعه فيه كما يجب علينا أن ننتهي عن كل ما نهانا عنه .
١٦ – وأن سنته ﷺ هي بيان لما أنزل إليه من القرآن .
١٨ – أن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله وكذلك كل شيء جاء به رسـول الله ﷺ مما ليس في القرآن فهو مثل ما لو جاء في القرآن لعموم قولـه : " أَلا إِنِّـي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ "

إن هذه النصوص المتقدمة من الكتاب والسنة كما أنها دلت دلالـة قاطعـة علـى وجوب اتباع السنة اتباعاً مطلقاً في كل ما جاء به النبي ﷺ وأن مـن لـم يـرض بالتحاكم إليها والخضوع لها فليس مؤمناً فإني أريد أن ألفت نظركم إلى أنهـا تـدل بعموماتها وإطلاقاتها على أمرين آخرين هامين أيضاً :

الأول : أنها تشمل كل من بلغته الدعوة إلى يوم القيامة وذلك صريح في قوله تعالى : { لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ } وقوله : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا } وفسره ﷺ بقوله في حديث : " كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً" (متفق عليه)

وقوله : " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وَلاَ يَهُودِيٌّ ، وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ، وَلاَ يُؤْمِنُ بِي إِلاَّ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ" (رواه مسلم)

والثاني : أنها تشمل كل أمر من أمور الدين لا فرق بين ما كان منه عقيدة علمية أو حكما عملياً أو غير ذلك .

تحكم الخلف بالسنة بدل التحاكم إليها :

ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا السنة النبوية وأهملوها بسبب أصول تبناها بعض علماء الكلام وقواعد زعمها بعض علماء الأصول والفقهاء المقلدين كان من نتائجها الإهمال المذكور الذي أدى بدوره إلى الشك في قسم كبير منها ورد قسم آخر منها لمخالفتها لتلك الأصول والقواعد فتبدلت الآية عند هؤلاء فبدل أن يرجعوا بها إلى السنة ويتحاكموا إليها فقد قلبوا الأمر ورجعوا بالسنة إلى قواعدهم وأصولهم فما كان منها موافقاً لقواعدهم قبلوه وإلا رفضوه وبذلك انقطعت الصلة التامة بين المسلم وبين النبي ﷺ وخاصة عند المتأخرين منهم فعادوا جاهلين بالنبي ﷺ وعقيدته وسيرته وعبادته وصيامه وقيامه وحجه وأحكامه وفتاويه فإذا سئلوا عن شيء من ذلك أجابوك إما بحديث ضعيف أو لا أصل له أو بما في المذهب الفلاني فإذا اتفق أنه مخالف للحديث الصحيح وذكروا به لا يذكرون ولا يقبلون الرجوع إليه لشبهات.

أصول الخلف التي تُركت السنة بسببها :

فما هي تلك الأصول والقواعد التي أقامها الخلف حتى صرفتهم عن السنة دراسة واتباعاً ؟

يمكن حصر تلك الأصول في الأمور الآتية :

الأول : قول بعض علماء الكلام : إن حديث الآحاد لا تثبت به عقيدة وصرح بعض الدعاة الإسلاميين اليوم بأنه لا يجوز أخذ العقيدة منه بل يحرم .

الثاني : بعض القواعد التي تبنتها بعض المذاهب المتبعة في " أصولها " يحضرني الآن منها ما يلي :

أ – تقديم القياس على خبر الآحاد .

ب – رد خبر الآحاد إذا خالف الأصول .

ج – رد الحديث المتضمن حكما زائداً على نص القرآن بدعوى أن ذلك نسخ له والسنة لا تنسخ القرآن .

د – تقديم العام على الخاص عند التعارض أو عدم جواز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد .

هـ – تقديم عمل أهل المدينة على الحديث الصحيح .

الثالث : التقليد واتخاذه مذهباً وديناً .

بطلان تقديم القياس وغيره على الحديث

إن رد الحديث الصحيح بالقياس أو غيره من القواعد التي سبق ذكرها مثل رده بمخالفة أهل المدينة له لهو مخالفة صريحة لتلك الآيات والأحاديث المتقدمة القاضية بوجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة عند الاختلاف والتنازع ومما لا شك فيه عند أهل العلم أن رد الحديث لمثل ما ذكرنا من القواعد ليس مما اتفق عليه أهل العلم كلهم بل إن جماهير العلماء يخالفون تلك القواعد ويقدمون عليها الحديث الصحيح اتباعاً للكتاب والسنة كيف لا مع أن الواجب العمل بالحديث ولو مع ظن الاتفاق على خلافه أو عدم العلم بمن عمل به .

أمثلة من الأحاديث الصحيحة التي خولفت بتلك القواعد :

حديث المسح على الجوربين .

وحديث أبي هريرة ومعاوية بن الحكم السلمي في أن كلام الناسي والجاهل لا يبطل الصلاة .

وحديث : " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " .

وحديث إتمام صلاة الصبح لمن طلعت عليه الشمس وقد صلى منها ركعة .

وحديث إتمام الصوم لمن أكل ناسياً .

وحديث الصوم عن الميت .

وحديث الحج عن المريض الميئوس من برئه .

وحديث القضاء بالشاهد مع اليمين .

وحديث قطع يد السارق في ربع دينار .

وحديث " لا يقتل مؤمن بكافر " .

وحديث " لعن الله المحلل والمحلل له " .
وحديث " لا نكاح إلا بولي " .
وحديث المطلقة ثلاثاً لا سكنى لها ولا نفقة .
وحديث " أصدقها ولو خاتما من حديد " .
وحديث إباحة لحوم الخيل .
وحديث " أنت ومالك لأبيك " .
وحديث الوضوء من لحوم الإبل .
وأحاديث المسح على العمامة .
وحديث الأمر بإعادة الصلاة لمن صلى خلف الصف وحده .
حديث جمعه ﷺ بين الظهر والعصر في غير خوف ولا سفر.
وحديث من دخل والإمام يخطب يوم الجمعة يصلي تحية المسجد .
وحديث الصلاة على الغائب .
وحديث الجهر بآمين في الصلاة .
وحديث نضح بول الرضيع الذي لم يأكل الطعام .
وحديث الصلاة على القبر .
وحديث من السنة وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة .
وحديث لا تجزيء صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه في ركوعه وسجوده .
وأحاديث رفع اليدين في الصلاة عند الركوع والرفع منه .
وحديث حمل الصبية في الصلاة .
وحديث : " لو أن رجلا اطلع عليك بغير إذنك " .
وحديث نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان .
قلت : هذه الأحاديث كلها أو جلها إلى أضعافها تركت من أجل القياس أو القواعد التي سبق ذكرها .

والخلاصة أنه يجب على المسلم أن يؤمن بكل حديث ثبت عن رسول الله ﷺ عند أهل العلم به سواء أكان في العقائد أو الأحكام وسواء أكان متواتراً أم آحاداً وسواء أكان الآحاد عنده يفيد القطع واليقين أو الظن الغالب على ما سبق بيانه فالواجب في كل ذلك الإيمان به والتسليم له .

نهي الأئمة عن التقليد :

ومن هنا جاءت أقوال الأئمة المجتهدين تتتابع على النهي الأكيد عن التقليد لهم أو لغيرهم :

١ – فقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : " لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه " . " وفي رواية : حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي فإننا بشر نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً " .

٢ – وقال مالك رحمه الله تعالى : " إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه ".

٣ – وقال الشافعي رحمه الله تعالى : " أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة عن رسول الله ﷺ لم يحل له أن يدعها لقول أحد " . وقال : " كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله ﷺ عند أهل النقل بخلاف ما قلت فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي " . وقال : " كل ما قلت فكان عن النبي ﷺ خلاف قولي مما يصح فحديث النبي أولى فلا تقلدوني " .

٤ – وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : " لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا "

واشتهر عنهم أنهم قالوا : " إذا صح الحديث فهو مذهبي " . إلى غير ذلك من الأقوال المأثورة عنهم .

فوطنوا أنفسكم على أن تؤمنوا بكل حديث ثبت لديكم عن رسول الله ﷺ سواء كان في العقيدة أو الأحكام وسواء قال به إمامك الذي نشأت على مذهبه بحكم بيئتك أو غيره من أئمة المسلمين ولا تتبنوا قاعدة من تلك القواعد التي وضعت بآراء بعض الرجال واجتهاداتهم وهم غير مجتهدين فيصدكم ذلك عن الاتباع . ولا تقلدوا بشرا مهما علا أو سما تؤثرون قوله على قول رسول الله ﷺ بعد أن بلغتموه .

واعلموا أنكم بذلك فقط لا بغيره تحققون علماً وعملاً المبدأ القائل : " لا إله إلا منهج الحياة " و " الحاكمية لله وحده تبارك وتعالى " وبدون ذلك يستحيل أن نوجد " الجيل القرآني الفريد " الذي ، هو وحده ، يستطيع أن ينشئ " المجتمع المسلم وخصائصه " (١) وبالتالي الدولة المسلمة المنشودة مصداقاً للحكمة الصادقة التي قالها أحد الدعاة الإسلاميين الكبار رحمه الله تعالى : " أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم لكم على أرضكم " (٢) وعسى أن يكون ذلك قريباً .

---

(١) جميع الأقوال التي بين القوسين من بعد قوله المبدأ القائل ، تنسب للأستاذ سيد قطب .

(٢) قال هذه العبارة المستشار حسن الهضيبي المرشد الثاني لجماعة الإخوان المفسدين بعد حسن البنا .

ويحمد للألباني وكل أنصار السنة دفاعهم عن السنة النبوية الشريفة ، وتنقيتها من الموضوع والضعيف ، وجهد الألباني في هذا الصدد لا ينكر ، وتصنيفه لسلسلتي الأحاديث الصحيحة ، والأحاديث الضعيفة والموضوعة ما ندعو الله أن يجعله في ميزان حسناته ، فكثير من الأحاديث الضعيفة بل والموضوعة كذلك انتشرت بين الناس وكثرت على ألسنة الوعاظ والدعاة ، ولم يسلم حتى الكتّاب الإسلاميون من الاستشهاد ببعض الضعيف وربما الموضوع أيضاً في كتبهم اعتماداً على أن هذه الأحاديث موجودة في كتب أئمة الحديث المعروفين بصدقهم وأمانتهم كالكتب الستة وموطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد مع أن ما تضمنته الكتب المذكورة وغيرها ، باستثناء الصحيحين ، ليس كل ما فيها من الحديث صحيحاً . بل منه الصحيح والحسن والضعيف وفي بعضها الموضوع أيضاً كما هو معلوم عند أهل العلم بالحديث الشريف . [١]

وما عمله الألباني يجعله أحد المحدثين الذين يعملون على الحفاظ على صحيح السنة المطهرة وتنقيتها مما علق بها من شوائب غير صحيحة ، ولقد سبقه إلى ذلك أئمة أعلام مثل : مالك ، البخاري ، ومسلم ، والنسائي ، والترمذي ، وأبو داود ، والحاكم ، والسيوطي .. وغيرهم .

لكن ينبغي أن نعلم أن هناك فرقاً كبيراً بين علماء الحديث وعلماء الأصول والفقه، وهم جميعاً لا غنى لأحدهم عن الآخر ، فالمحدث يجمع الأحاديث ويصنفها: صحيح ، مشهور ، ضعيف ، موضوع .. والأصولي يضع القواعد العامة لكيفية استنباط الأحكام من مصادر التشريع القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والإجماع، والقياس ، والاستحسان ، المصلحة المرسلة ، والعرف ، الاستصحاب ، شرع من كان قبلنا ، ومذهب الصحابي . ثم يأتي دور الفقيه ليطبق هذه القواعد العامة على فروع الشرع وجزئياته ليقول مثلاً : أن صوم رمضان فريضة ، وصوم يوم الشك حرام ، وصوم ست من شوال سنة مؤكدة ، وأن السحور مستحب، وأن اغتسال الصائم مباح ... ويدلل على كل حكم بالأدلة الشرعية .

الواقع أن عمل الفقيه متمم لعمل المحدثين وحارس للسنة من أي خلل قد يتسلل إليها عن ذهول أو تساهل . إن في السنة متواتراً له حكم القرآن الكريم وفيها

---

(١) ناصر الدين الألباني " دفاع عن الحديث النبوي والسيرة " ص ٣

الصحيح المشهور الذي يفسر العموم والمطلق في كتاب الله وفيها حشد كبير من أحكام الفروع التي اشتغلت بها المذاهب الفقهية وقد يصح الحديث سنداً ويضعف متناً بعد اكتشاف الفقهاء لعلة كامنة فيه . (١)

ولقد عاش أئمة الحديث وأئمة الفقه يعرف كل واحد منهم لآخر فضله في خدمة الدين ولم يقل البخاري أو مسلم أو بن حنبل مثلاً أننا نحن ، وحدنا ، ورثة الأنبياء وأننا أهل السلف وغيرنا من الفقهاء كأبي حنيفة ومالك والشافعي والليث بن سعد .. وغيرهم من المبتدعة الذين لا يؤمنون بوجوب طاعة النبي ولا يتمسكون بسنته الشريفة ، كما يبدو من كلام الألباني عن الفقهاء والأصوليين .

فبناءً على ما ذكره الألباني ، وقد أفضنا في النقل عنه ، فإنه لا ينبغي للمسلم اتباع علماء الفقه والأصول ولا حتى صحابة رسول الله إنما يجب الأخذ بظاهر الحديث الشريف الذي صحَّ لديه دون اعتبار لعقل أو مصلحة أو مقاصد الشريعة العليا أو أي اعتبار آخر وضعه علماء الأصول ؛ لأن كل ما وضعه علماء الأصول من قواعد لاستنباط الحكم باطلة فمصادر التشريع اثنان لا ثالث لها القرآن الكريم ، والحديث الشريف فقط لا غير ، ولا يلتفت لقول سلف أو خلف إن خالف ظاهرهما وأن القرآن لا يفهم إلا بالسنة وإذا تعارضا فإن الحديث يقضي على القرآن !

يقول الألباني : " قال بعض السلف : السنة تقضي على الكتاب " (٢)

وهذا القول ليس قرآناً كريماً،ولا سنة مطهرة،ولم يقل به أحد من صحابة رسول الله ﷺ ولا من تبعهم بإحسان إلا قوم منهم مكحول والزهري عفا الله عنا وعنهم .

وقد أنكر أحمد بن حنبل إمام أهل الحديث على من قال السنة تقضي على الكتاب فقال بل السنة تفسر الكتاب وتبينه .

والذي يشهد الله ورسوله به أنه لم تأت سنة صحيحة واحدة عن رسول الله ﷺ تناقض كتاب الله وتخالفه ألبتة . (٣)

ونحن نكره التعصب للمذاهب الفقيه على حساب الأدلة الشرعية ، فمعظم ما ذكر الألباني من أحاديث خالف بعض الفقهاء فيها الأحاديث الصحيحة نحن معه فيها ما

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول الفرق بين المحدثين والأصوليين والفقهاء الرجوع إلى الباب الثاني فصل الأول " السلفية الحنبلية " .

(٢) ناصر الدين الألباني " منزلة السنة في الإسلام " ص ١٢

(٣) ابن قيم الجوزية " الطرق الحكمية في السياسة الشرعية " ص ١٠٧

عدا حديث " لا يقتل مؤمن بكافر " وحديث " أنت ومالك لأبيك " ، وحديث : " لو أن رجلاً اطلع عليك بغير إذنك " .

فنحن لا نردها إنما نقول بوجوب فقهها في إطار مقاصد الشريعة العليا ، والمصلحة وعدم أخذ معناها على ظاهره .

نحن مع الفقه المستقل فقه المجامع الإسلامية التي تأخذ من آراء الفقهاء الأحكام بأدلتها ، وما يناسب العصر وفقه الواقع من آرائهم ، وتفتي بما يناسب الزمان والمكان والحال فيما يستجد من أمور ولا تخرج على مقاصد الشريعة الإسلامية ومصلحة الأمة ورفع الحرج عنها .

ولكن ما قول الألباني عن الفقه الواقع ، وتغير الزمان والمكان والحال ؟ وهل كل هذا لا يؤثر في فهم الحديث ، وتغيير الفتوى ؟

يقول الألباني في كتابه " فقه الواقع " :

إن المسلم لا يكاد يتصور عالماً فقيهاً في الكتاب والسنة ثم هو مع ذلك طبيب ثم هو مع ذلك يعرف كما يقولون اليوم (فقه الواقع) إذ بقدر اشتغاله بهذا العلم ينشغل عن ذاك العلم وبقدر اهتمامه بذاك العلم ينصرف عن هذا العلم .. وهكذا .

القول الوسط الحق في (فقه الواقع) :

فقه الواقع بمعناه الشرعي الصحيح هو واجب بلا شك ولكن وجوباً كفائيّاً إذا قام به بعض العلماء سقط عن سائر العلماء فضلاً عن طلاب العلم فضلاً عن عامة المسلمين فلذلك يجب الاعتدال بدعوة المسلمين إلى معرفة (فقه الواقع) وعدم إغراقهم بأخبار السياسة وتحليلات مفكري الغرب وإنما الواجب دائماً وأبداً الدندنة حول تصفية الإسلام مما علق به من شوائب ثم تربية المسلمين : جماعات وأفراداً على هذا الإسلام المصفى وربطهم بمنهج الدعوة الأصيل : الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة ووجوب المحبة والولاء .

ومن الواجب على العلماء أيضاً وعلى مختلف اختصاصاتهم فضلاً عن بقية الأمة أن يكونوا ممتثلين قول نبيهم ﷺ : " مَثَلُ الْمُؤْمنينَ في تَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى "

ولا يتحقق هذا المثل النبوي العظيم بمعناه الرائع الجميل إلا بتعاون العلماء مع أفراد المجتمع تعليماً وتعلماً دعوة وتطبيقاً فيتعاون إذا من عرفوا فقه الشرع بأدلته

وأحكامه مع من عرفوا فقه الواقع بصورته الصحيحة التطبيقية لا النظرية فأولئك يمدون هؤلاء بما عندهم من علم وفقه وهؤلاء يوقفون أولئك على ما تبين لهم ليحذروا ويحذروا ومن هذا التعاون الصادق بين العلماء والدعاة على تنوع اختصاصاتهم يمكن تحقيق ما ينشده كل مسلم غيور .

خطر (السياسة) المعاصرة :

ولا بد أخيراً من تعريف المسلمين بأمر مهم جداً في هذا الباب فأقول :

يجب ألا يدفعنا الرضا بفقه الواقع بصورته الشرعية أو الانشغال به إلى ولوج أبواب السياسة المعاصرة الظالم أهلها مغترين بكلمات الساسة مرددين لأساليبهم غارقين بطرائقهم وإنما الواجب هو السير على السياسة الشرعية ألا وهي (رعاية شئون الأمة) ولا تكون هذه الرعاية إلا في ضوء الكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح وبيد أولي الأمر من العلماء العاملين والأمراء العادلين فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

أما تلك السياسة الغربية التي تفتح أبوابها وتغر أصحابها : فلا دين لها وسائر من انساق خلفها أو غرق ببحرها : أصابه بأسها وضربه جحيمها لأنه انشغل بالفرع قبل الأصل ورحم الله من قال : " من تعجل الشيء قبل أوانه : عوقب بحرمانه " .

ويخلط الألباني بين فقه الواقع الذي يعني الإلمام بخلاصة العلوم الطبيعية والحكمية الحديثة ، وبين التخصص في هذه العلوم والتبحر فيها ، فهو يقول إن التخصص في العلوم الحديثة التطبيقية لا النظرية فرض كفاية كما أن التخصص في العلوم الدينية فرض كفاية أيضاً ، وما على المتخصصين في العلوم الطبيعية إلا عرض علومهم على علماء الشرع لإبداء الرأي فيها حتى لا يقدم هؤلاء العلماء على فعل شيء مخالف للشرع ، أما العلوم الحكمية مثل علوم السياسة ، والفلسفة ، والاجتماع ، وعلم النفس ... فهذه مما لا ينبغي إضاعة الوقت فيها !! بل إن العلوم السياسية ظالم أهلها ، ومن الجملة التي اشتهرت عنه قوله إنه في الظروف الحالية: " من السياسة ترك السياسة " .[1]

إن العلوم السياسية التي تبين حق المحكوم على الحكام وتمنع الحكام من الاستبداد بالحكم والتسلط على شعبهم بل تجعلهم خُدَّماً لمن اختاروهم ، مُرَاقبين دوماً منهم ،

---

(1) انظر : أبو أسامة سليم بن عبد الهلالي " المقالات السلفية في العقيدة والدعوة والمنهج " ص ٨٠ .

محاسبين على ما يفعلون كغيرهم من عامة الشعب ، فهذه العلوم التي تجعل الشعب يختار حاكمه من أكثر من مرشح في انتخابات حرة نزيهة بناء على برنامج انتخابي تراه الأمة أنه الأصلح ، وبناء على مقومات شخصية وسيرة ذاتية ترى الأمة أنها الأجدر على تنفيذ هذا البرنامج ، ومع ذلك لها حق مراقبة الحاكم ، ومحاسبته وعزله ومحاكمته . هذه العلوم السياسية ، في رأي الألباني ظالم أهلها ، ويجب تركها ، والسياسة عنده وجوب طاعة ولي الأمر لأنها من طاعة الله تعالى ، وتحريم الخروج عليه وإن ظلم وتجبر ، وأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

بل وصل الأمر بالألباني بناء على نظرته هذه للسياسة والحكم أن دعا الفلسطينيين إلى ترك الأراضي المحتلة في قطاع غزة والضفة طالما أنهم لم يعودوا قادرين على ممارسة شعائرهم الدينية بشكل صحيح ، وأنه فيما بين العقيدة والأرض لا بد من أن تحظى العقيدة بالأولوية. (١)

والحقيقة أن الفقيه لا بد له من أن يعيش واقعه ويطالع الجديد في العلوم الطبيعية والحكمية فمجموعة العلوم إنسانية والاجتماعية والتاريخية، التي لا يرى الألباني فائدة منها ، لم تعد تنفع معها النظرة العابرة، أو الملاحظة الآنية، أو الأُمنية المخلصة. حتى أنه يمكن القول: بأن وسائل وأدوات سبر حقيقة المجتمع، وكشف خفاياه، ومعرفة واقعه، وتحديد وجهاته، أصبحت علوماً. فعلم الإحصاء وحصر الإمكانات والاستطلاعات والمسح والبحث الاجتماعي بوسائل منهجية للتقويم والقياس لم يعد أرقاماً جامدة، وإنما يعبر عن مؤشرات ويحمل دلالات لا يمكن تجاهلها عند أي دراسة أو تخطيط أو تجديد أو تنمية للموارد البشرية والمادية.. فلم يعد علم الإحصاء أداة ووسيلة، وإنما أصبح مقوماً لا يمكن تجاوزه.

حتى أن استطلاع الرأي والتعرف على التحولات الاجتماعية وأسبابها، أصبح علماً وفناً، لا يقتصر على قراءة الحاضر وإنما يتجاوز إلى التأثير فيه والتوجيه له. وليست الاستبيانات وفنية وضعها وما يطرح فيها من أسئلة، وما يتوصل إليه من نتائج، بأقل شأناً في فقه الواقع وامتلاك مفاتحه، والدخول إليه من أبوابه. بعيداً عن المجازفات والخبط الأعشى. إن علوم فقه الواقع اليوم أشبه بالحواس والنوافذ العقلية للحركة الإنسانية، والأمة التي تفتقدها في عالم اليوم أمة تعيش فيما يشبه مدارس الصم والبكم. (٢)

---

(١) ستيفان لاكوروا " سلطة الحديث في السلفية المعاصرة " مرجع سابق ص ١٤.
(٢) أحمد بوعود " فقه الواقع (أصول وضوابط) مكتبة مشكاة الإسلامية ص ١٥ ، ١٦

وكان من شروط المفتي أن يكون عارفًا بأعراف بلده وزمانه وعادات أهله، حتى إن ابن عابدين قال: " من لم يكن عالمًا بعادات أهل زمانه فهو جاهل " .

إن تغير الزمان والمكان أو أحدهما يعني تغير الواقع.

وما يكون محققًا لمصلحة في زمن ما قد لا يحققها في آخر، وما يحقق مفسدة في زمن ما قد لا يحققها في زمن آخر.. وقد رأينا من ذلك إسقاط عمر رضي الله عنه سهم المؤلفة قلوبهم، عندما رأى أنه وبتغير الزمان، لم يعد يحقق تلك المصلحة، ولم تعد هناك حاجة إلى ذلك.

وإن النظر في الواقع والعلم بمكوناته، في الزمان والمكان، إليه يرجع في تقدير المصلحة وإنشاء الفتوى وتغير المواقف. وقد عقد لهذا ابن القيم فصلاً عنونه: تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والأحوال والعوائد والنيات)، يقرر فيه أن الفتوى، بما بنيت عليه من مصلحة، تتغير بتغير العناصر المذكورة . [١]

ولكي تكتمل الصورة نعرض رأي المحدِّث محمد رشيد رضا صاحب المنار أستاذ الألباني الذي حبب إليه دراسة الحديث ، نعرض رأي رشيد رضا في قضية أن السنة قاضية على الكتاب (القرآن الكريم) ، وأن الكتاب لا يقضي على السنة .

موقف رشيد رضا من أهل الحديث

يقول رشيد رضا : " إن دين الإسلام هو القرآن كتاب الله تعالى وما بيَّنه به رسوله ﷺ من فعل وقول صار سنة متبعة بالعمل أو التبليغ العام في الدعوة إلى الإسلام وبيانه للناس من أصحابه رضي الله عنهم ، وأما الأحاديث التي لم يأمر النبي ﷺ بتبليغها ولا عني خلفاؤه وعلماء أصحابه بتبليغها للناس على أنها من دينهم ولم تصِرْ سنة مُتَّبَعَة بعمل جمهورهم بها إما لأن الحديث منها كان خاصًّا بمن خوطِب به من تشديد أو تخفيف اقتضته حاله أو لأنه لم يقصد به التشريع أو لغير ذلك ثم رواها التابعون عن أفراد منهم روايات آحادية لم تتواتر فهي لا تعد تشريعًا عامًّا لبيان دين الإسلام بحيث يجب على الأمة وأئمتها تبليغه والأخذ به .

على أن فيما صح منها لنقاد الرواية وبعض ما صح متنه ولم يصل سنده إلى درجة الصحيح ، ولم يسقط إلى حد الموضوع أو الواهي من الهداية والحكم ما لا يسع من بلغه من المسلمين إلا أن يهتدي به .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول المصلحة راجع الباب الأول فصل المصلحة في هذا الكتاب .

إن أصح ما ورد في المنع من كتابة الحديث ما رواه أبو سعيد الخدري مرفوعًا "لاَ تَكْتُبُوا عَنِّى شَيْئاً إِلاَّ الْقُرْآنَ ، فَمَنْ كَتَبَ عَنِّى شَيْئاً غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ " (مسلم)

وإن أصح ما روي في الإذن به حديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما مرفوعًا " اكْتُبُوا لأَبِى شَاهٍ " وقد بينت أنه لا يعارض حديث أبي سعيد وما في معناه على قاعدتنا التي مدارها على أن نهيه ﷺ عن كتابة حديثه مُرَاد به أن لا يتخذ دينًا عامًّا كالقرآن ، وذلك أن ما أمر بكتابته لأبي شاه هو خطبة خطبها ﷺ يوم فتح مكة موضوعها تحريم مكة ولقطة الحرم ، وهذا من بيانه ﷺ للقرآن الذي صرَّح به يوم الفتح ، وصرح به في حجة الوداع ، وأمر بتبليغه فهو خاص مستثنى من النهي العام ، وقد صرَّح البخاري في باب اللقطة من صحيحه بأن أبا شاه اليمني طلب أن تكتب له الخطبة المذكورة فأمر ﷺ بإجابة طلبه .

ولو فرضنا أن بين أحاديث النهي عن الكتابة والإذن بها تعارضًا يصح أن يكون به أحدها ناسخًا للآخر لكان لنا أن نستدل على كون النهي هو المتأخر بأمرين : أحدهما استدلال من رُوِي عنهم من الصحابة الامتناع عن الكتابة ، ومنعها بالنهي عنها ، وذلك بعد وفاة النبي ﷺ وثانيهما عدم تدوين الصحابة الحديث ونشره ولو دونوا ونشروا لتواتر ما دونوه .

فعزيمة علي رضي الله عنه على من عنده كتاب أن يمحوه وقول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : " تريدون أن تجعلوها مصاحف " وقول عمر بن الخطاب عند الفكر في كتابة الأحاديث أو بعد الكتابة : " لا كتاب مع كتاب الله " وفي الرواية الأولى – وقوله في الرواية الثانية بعد الاستشارة في كتابتها : " والله إني لا أشوب كتاب الله بشيء أبدًا " وقول ابن عباس : " كنا نكتب العلم ولا نُكْتِبه " أي لا نأذن لأحد أن يكتبه عنا ونهيه في الرواية الأخرى عن الكتابة ، ومحو زيد بن ثابت للصحيفة ثم إحراقها وتذكيره بالله من يعلم أنه يوجد صحيفة أخرى في موضع آخر، ولو بعيدًا أن يخبره بها ليسعى إليها ويحرقها ، وقول سعيد بن جبير عن ابن عمر : إنه لو كان يعلم بأنه يكتب عنه لكان ذلك فاصلاً بينهما – ومحو عبد الله بن مسعود للصحيفة التي جاءه بها عبد الرحمن بن الأسود وعلقمة وقوله عند ذلك : "إن هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره" كل هذا الذي أورده ابن عبد البر وأمثاله مما رواه غيره كإحراق أبي بكر لما كتبه وعدم وصول شيء من صحف الصحابة إلى التابعين وكون التابعين لم يدونوا الحديث لنشره إلا بأمر الأمراء – يؤيد ما ورد من أنهم كانوا يكتبون الشيء لأجل حفظه ثم يمحونه .

وإذا أضفت إلى هذا ما ورد في عدم رغبة كبار الصحابة في التحديث ؛ بل في رغبتهم عنه ، بل في نهيهم عنه قوي عندك ترجيح كونهم لم يريدوا أن يجعلوا الأحاديث كلها دينًا عامًّا دائمًا كالقرآن ، ولو كانوا فهموا عن النبي ﷺ أنه يريد ذلك لكتبوا ولأمروا بالكتابة ولجمع الراشدون ما كتب وضبطوا ما وثقوا به وأرسلوه إلى عمالهم ليبلغوه ويعملوا به ولم يكتفوا بالقرآن والسنة المتبعة المعروفة للجمهور بجريان العمل بها ، وبهذا يسقط قول من قال : إن الصحابة كانوا يكتفون في نشر الحديث بالرواية .

وإذا أضفت إلى ذلك كله حكم عمر بن الخطاب على أعين الصحابة بما يخالف بعض تلك الأحاديث ثم ما جرى عليه علماء الأمصار في القرن الأول والثاني من اكتفاء الواحد منهم كأبي حنيفة بما بلغه ووثق به من الحديث ، وإن قل وعدم تعنيه في جمع غيره إليه ؛ ليفهم دينه ويبين أحكامه قوي عندك ذلك الترجيح .

بل نجد الفقهاء بعد اتفاقهم على جعل الأحاديث أصلاً من أصول الأحكام الشرعية وبعد تدوين الحفاظ لها في الدواوين وبيان ما يُحتَج به وما لا يحتج به لم يجتمعوا على تحرير الصحيح والاتفاق على العمل به ، فهذه كتب الفقه في المذاهب المتبعة ولا سيما كتب الحنفية فالمالكية فالشافعية فيها مئات من المسائل المخالفة للأحاديث المتفق على صحتها ، ولا يُعَدُّ أحد منهم مخالفًا لأصول الدين .

وقد أورد ابن القيم في إعلام الموقعين شواهد كثيرة جدًّا من رد الفقهاء للأحاديث الصحيحة عملاً بالقياس أو لغير ذلك ، ومن أغربها أخذهم ببعض الحديث الواحد دون باقيه ، وقد أورد لهذا أكثر من ستين شاهدًا .

إن هذا البحث الأصولي بمعزل عن مسألة اهتداء المسلم بما يصح عنده من أقوال الرسول ﷺ فتلك الأقوال هي ينابيع الحكم ، ومصابيح الظلم ، وجوامع الكلم ، ومفخر الأمة على جميع الأمم ، بل إن في الأحاديث التي لم تصح أسانيدها من البدائع ، والحكم الروائع ، والكلم الجوامع ، ما تتقاصر عن مثله أعناق العلماء ، وتكبوا في غاياته فرسان الحكماء ، ولا تبلغ بعض مداه قرائح البلغاء ، ولا غرو فإن من الأحاديث ما صحت متونه ، ولم تصح أسانيده ، كما أن منها ما أشكلت متونه ، وإن سلم من الطعن رواته ، وأنى لغيرنا ببعض ما عندنا من الأسانيد لأقوال حكمائهم ، أو لكتب أنبيائهم ، فنحن يسهل علينا من التمحيص والتحقيق ما لا يسهل على غيرنا فليتدبر المتدبرون ، وليعمل العاملون .

وكان الصحابة والتابعون متفقين على أنه يجب على المسلمين أن يأخذوا دينهم من كتاب الله في المرتبة الأولى ثم من سنة رسوله ﷺ وكانوا يعنون بالسنة الطريقة المأثورة عنه ﷺ بالعمل لا الروايات النادرة التي لم يكن يعرفها إلا رواتها من الآحاد ، وهذا أمر قطعي لا خلاف فيه ، ثم صار علماء الأمصار يطلقون اسم السنة على كل ما روي في شأن الرسول ﷺ من قول وعمل وتقرير وصفة ، وقرَّروا أن كل ما ثبت من ذلك متعلقًا بالتشريع فهو من دلائل هذا الدين وشرعه ، وإنما يخرج من ذلك ما كان من أمور العادات وشئون الدنيا كالزراعة والصناعة والأكل والشرب مما لم يحرم بالنص ، فأفعاله ﷺ فيها تدل على الإباحة ويطلقون على الأمر فيها لقب الإرشاد .

ثم كان من هدي علماء الأمصار في عصر الرواية أن يهتدي كل منهم بما يصح عنده من أحاديث الآحاد ، وإن لم تصر سنة متبعة بالعمل بحسب فهمه واجتهاده ، ولا يعد من لم يبلغه ذلك أو من لم يصح عنده ناقصًا في دينه أو مقصرًا فيه ولا يعدون اجتهادهم في تصحيح الحديث ، وفي كونه مما يحتج به تشريعًا عامًّا إلا أن بعض الذين وقفوا حياتهم على رواية الأحاديث .

وقد أذن الرسول ﷺ لمعاذ رضي الله عنه حين أرسله إلى اليمن أن يجتهد رأيه في الحكم ؛ إذا عرضت له قضايا لا يجد فيها نصًّا في القرآن ولا سنة من أحكام الرسول التي جرى عليها العمل في عهده ، ولكن الفقهاء توسعوا في هذا الإذن فجعلوا أحاديث الآحاد حتى الشاذ والمفرد والمرسل ، وكذا الضعيف غير الواهي منها في حكم السنة المتبعة على خلاف بينهم في ذلك ، واصطلحوا على تسمية ذلك كله سنة ، وجعل أكثرهم اجتهاد الرأي عامًّا في العبادات والمعاملات الشخصية لا خاصًّا بالقضاء كمورده ، كما جعلوا الإجماع الاصطلاحي في كل عصر حجة شرعية ، وما ثبت عندهم بذلك دينًا على إنكار بعض أئمة الهدى كالإمام أحمد لما عدا إجماع الصحابة ، ووافقه بعض علماء الأصول على عدم إمكان العلم بهذا الإجماع إن وقع مع الشك في إمكان وقوعه ، عادة ، ولكن بعض المتأخرين حتى من الحنابلة جعلوا اتفاق الأئمة الأربعة حجة .

فكان ذلك له سببًا لكثرة التكاليف والتشديد في الدين ، ولا سيما جعل كل ما كتب في الفقه دينًا يجب على الأمة اتباعه ، وأما الأئمة فلم يطالبوا الأمة إلا بما ثبت قطعيًّا ، وأما ما فيه مجال للاجتهاد من دليل ومدلول ، فلم يكلفوا به إلا من ثبت عنده وحرموا تقليدهم فيما ثبت من اجتهادهم . (١)

---

(١) رشيد رضا " مجلة المنار " ج ٢٩ ص ٥٠٧

الألباني والسلفية النهضوية .

أخذ الألباني من السلفية النهضوية الدعوة إلى تجديد الاجتهاد ورفض التقليد للفقه السائد ، وكانت السلفية النهضوية ولا سيما محمد رشيد رضا ولغرض إتاحة مثل هذا التجديد قد شدد على أهمية إعادة نقدية لتقييم الحديث ، لكن من دون أن يجعلوا من ذلك مضموناً مركزياً في مدرستهم ، لقد استمر هؤلاء نسبيّاً في إعطاء دور فقهي مهم للعقل وللرأي المستقل بالإضافة إلى أن نقدهم للحديث كان يجمع بين كونه طبيعة " تقنية " فيما يتعلق بالأسانيد و" معقلنة " حين يتعلق الأمر بالمتن " .

في هذا الاتجاه تختلف المقاربة الألبانية جذريّاً عن تلك الخاصة بأساتذته فالعقل بالنسبة لديه يجب أن يستبعد قدر الإمكان من العملية الفقهية لأجل ذلك يجب أن يوضع الحديث الذي يتيح حل المسائل التي لم يرد فيها نص قرآني من دون اللجوء إلى العقل البشري – في قلب هذه العملية ، ولكنه يجني في المقام الأول إنجاز فرز للحديث بين الصحيح والضعيف مساق يتكون من مئات الآلاف من الروايات .

على هذا النحو وجد الألباني نفسه وقد جعل من علم الحديث رأس العلوم الدينية بشكل يتجاوز الفقه الذي لم يعد في نظره سوى نتيجة طبيعية لهذا الأخير (وهو ما يسميه بفقه الحديث) بيد أن علم الحديث هذا يجب أن يظل بمعزل عن تدخلات العقل ، هنا يجب أن يبقى نقد المتن نقداً لغويّاً أو نحويّاً لا يناقش المضمون ، والأسانيد وحدها التي يمكن إخضاعها لطعن حقيقي ودراستها فقط هي التي ستسمح بتحديد صحة حديث ما . هكذا يصبح التخصص الأكثر أهمية بالنسبة للألباني في علم الحديث هو " علم الرجال " الذي يقيم درجة موثوقية من يتواتر عنهم الحديث . ويعرف هذا التخصص أيضا بعلم الجرح والتعديل .

ولم يتردد الألباني في نقد أحاديث وردت في صحيحي البخاري ومسلم . [١]

فصل الخطاب بين السلفية النهضوية والألبانية

ويعد ما ذكره رشيد رضا ، آنفاً ، رد السلفية النهضوية على العلماء المحافظين التقليدين الحنابلة أتباع مدرسة الحديث الحنبلية الذين عنوا برواية الحديث والعمل به وإن خالف ذلك ظاهر القرآن ، وأفعال الصحابة ، واجتهاد أعلام الفقهاء .. أولئك

---

(١) ستيفان لاكوروا " سلطة الحديث في السلفية المعاصرة " مرجع سابق ص ٨، ٩ .

الذين جعلوا الحديث سلطاناً على القرآن الكريم فإذا تعارض ظاهر الحديث وبعض آي القرآن إما أن ينسخوا آي القرآن بظاهر الحديث أو يتأولوا آي القرآن لتتوافق مع ظاهر الحديث . كنت أقول كرد فعل لقول الحنابلة وغيرهم بهيمنة الحديث الصحيح على القرآن الكريم راح رشيد رضا ومن قبله أستاذه محمد عبده يردون الحديث إذا خالف ظاهر القرآن الكريم أو خالف العقل أو خالف عمل أهل القرون الأولى ويستشهدون على ذلك بمخالفة الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب لكثير من الأحاديث الشريفة والإفتاء بغيرها – كما بينا في الباب الأول – والحقيقة أن هذا الأمر يحتاج إلى روية من مدرستي الحديث : الحنبلية والألبانية ، ومدرسة العقل النهضوية فلا يجوز التسليم مطلقاً بقول الأولى بنسخ الحديث للقرآن الكريم ولا بالهيمنة عليه ، كما لا يجوز التسليم بقول الثانية برد الأحاديث الصحيحة لمخالفتها للعقل أو ظاهر القرآن الكريم والنظريات العلمية .

لكن يجب النظر في هذه المتعارضات ، وهي قليلة جداً ، نظرة تأمل وتدبر ودارسة للواقع ومصلحة العباد ومقاصد الشريعة ويأخذ بأقربها لمصلحة العباد ومقاصد الشريعة ويتأوّل النص الآخر . وإن استحال الجمع بين المتعارضات ولم يجز التأويل نتوقف ولا نغامر برد النص أو القول بنسخه فما رددناه اليوم من نصوص الدين سنحتاج إليه غداً فلا نحكم على النصوص بعقولنا حكماً أبدياً إنما نعرف لعقولنا حدها المتناهي ونعرف للنصوص فهمها اللامتناهي فنجتهد في فهم النصوص بقدر علمنا وبما يتناسب مع مصلحة العباد ومقاصد الشريعة ولا ندعي أن ما وصلنا إليه هو الكلمة الأخيرة في هذه الأمور الخلافية فنحجر على غيرنا الاجتهاد فيها كما اجتهدنا نحن ، كما ينبغي التفرقة الحاسمة بين أصول الدين المتفق عليها المعلومة من الدين بالضرورة التي لا يجوز الاجتهاد فيها أو تبديليها قطعية الثبوت والدلالة ، وبين الأمور ظنية الثبوت والدلالة ويسوغ الاجتهاد فيها بحسب الزمان والمكان والحال ، ومن المعلوم أن الذي يتصدى لهذه الأمور العلماء المجتهدون الذين يجمعون بين فقه العلوم الشرعية وفقه الواقع المعيش .

وأي مصلحة يجنيها العالم المجتهد في رد النصوص الصحيحة ، ولكن الجدل والملاحاة كثيراً ما يلجآن صاحبهما إلى رد النصوص أو التطرف في تأويلها إذا أعوزته الملاحاة إلى ذلك .

والقرآن الكريم يعلمنا أدب الخلاف .

فقال تعالى : { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } (النحل: ١٢٥)

كما يعلمان تعالى أن مردَّ الخلاف يكون بصحة البرهان .

وقال تعالي : { قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ } (البقرة : ١١١)

كما علمنا تعالي عند الاختلاف وتمسك كل طرف برأيه أن نفوض الأمر إلى الله { وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } (الحج :٦٧، ٦٨)

وكان سلفنا الصالح يتناقشون بالحسنى ويتجادلوا بالتي هي أحسن ، وكانوا لا يتكبرون فإذا استبان الحق سلّم الذي أخطأه لصاحبه وشكره أن علمه ما لم يكن يعلم، وإن كانت المسألة مما يسوغ فيها الخلاف سلّم أحدهما للآخر برأيه وإن لم يأخذ به كما قال الشافعي " رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب " وهكذا يتعايش الجميع وتُحترم الآراء .

ولقد لاحظت أن الآراء الشاذة الغريبة التي يصر أصحابها عليها ، غالباً ، ما تكون بسبب استبدال الملاحاة بالجدال بالتي هي أحسن .

وأختم هذه القضية بالتذكير برأي حسن البنا البديع في هذه القضية .

قال حسن البنا في الأصل التاسع عشر : " النظر الشرعي والنظر العقلي لا يدخل في دائرة الآخر ولكنهما لم يختلفا في القطعي " فلا تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة ؛ ويؤوّل الظني منهما ليتفق مع القطعي ، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولي بالأتباع حتى يثبت العقلي أو ينهار ." .

الألباني والوهابية

أما المعركة بين الوهابيين التقليديين لم تكن بعد قد تحققت بالنسبة للألباني فقد أثار وجوده منذ اللحظة الأولى جدلاً قوياً في الأوساط الدينية السعودية التي لم تزل تحت هيمنة أنصار المذهب الوهابي الكامن بدءاً بالمفتي محمد بن إبراهيم الشيخ (١٨٩٣- ١٩٦٩) فدعوة الألباني لاجتهاد يمارس خارج إطار المذاهب الفقهية كان يشكل بالنسبة له طعناً مباشراً في سلطة العلماء الوهابيين يضاف إلى ذلك مما لم يكن مقبولاً أن الألباني كان يعتبر دخيلاً بالنسبة للمجال الديني السعودي الذي ظل

تحت هيمنة أرستقراطية دينية محدودة ذات أصول تنتمي إلى سلسلة قرى تقع في منطقة نجد في المملكة . لقد اعتبروا أن الألباني كان يتحدى سلطتهم في المقام الأول .

بيد أن المشكل برمته كان يكمن في أن هؤلاء وجدوا أنفسهم وقد وقعوا في حرج فالوهابية التي يدَّعون أنهم حراسها تميزت منذ ولادتها بالازدواجية بين طموح نحو الاجتهاد يتم التأكيد عليه مرات عديدة – وهو الطموح الذي يعتد به الألباني بشدة – من جهة وبين ممارسة فقهية تقع في النهاية في استمرارية مع المذهب الحنبلي من جهة ثانية ، علاوة على ذلك لم يكن من السهل الطعن في سلطة الألباني الدينية طالما أن مفهومه للعقيدة كان في الواقع وهابياً لا غبار عليه . لقد أثارت فتاوى الألباني في مرات متكررة ضجة في المؤسسة الدينية . [١]

إن شعبية الألباني كانت تزداد واضطر علماء المملكة لانتظار أن يرتكب خطأ كبيراً يوفر العذر الذي يخرجه من البلاد وحانت الفرصة أخيراً عندما بدأ ينتشر كتابه المعنون بـ " حجاب المرأة المسلمة " ففي هذا الكتاب أعاد الألباني قياس صحة عدد من الأحاديث المقبولة من قبل العلماء الوهابيين بحق النساء في عدم تغطية الوجه كاملاً ولم تكن الأوساط الدينية أيّاً كانت اتجاهاتها لتقبل بموقف مخالف على هذا النحو فإضافة أن إلى الفتوى كانت تخالف المذهب الوهابي / الحنبلي كان ذلك يتعارض بالكلية مع الأعراف السائدة في الجزيرة العربية . على هذا النحو أصبح في مقدور المفتي ابن إبراهيم أن يجد مبرراً لعدم تجديد عقد الألباني في الجامعة الإسلامية والذي اضطر إلى مغادرة السعودية عام ١٩٦٣ .

وبالرغم من أن الألباني لم يمارس مهنة التدريس إلا لفترة وجيزة نسبيّاً في المملكة مضافاً إليها أيضاً الدعوات التي تلقاها للمؤتمرات ودروسه خلال مواسم الحج فإن أفكاره حظيت بتأثير متصل ؛ فعلى المستوى العام أنعش الألباني الاهتمام بدراسة الحديث وصحته وهو الزخم الذي انتشر ليطال مجموع التيارات الموجودة على الساحة الدينية . يقول أحد الإسلاميين السابقين : " لقد كان الأمر أشبه بدكتاتورية الحديث فحين كان عالم ما يذكر حديثاً في خطبة أو محاضرة ما كان يمكن أن يقاطعه أحد طلابه في أية لحظة ليسأله : هل هذا الحديث صحيح ؟ هل

---

(١) ستيفان لاكوروا " سلطة الحديث في السلفية المعاصرة " مرجع سابق ص ١٠

صححه الألباني ؟ هذا لم يكن إلا ليساهم في تعزيز توجس علماء المؤسسة الدينية تجاه الألباني .[1]

لم يتردد الألباني في أن ينكر على الوهابيين ارتباطهم بالمذهب الحنبلي ووصل إلى درجة القول بأن محمد بن عبد الوهاب كان سلفياً بما ذهب إليه في مسائل العقيدة ، لكنه لم يكن كذلك في مجال الفقه . إضافة إلى ذلك لم يكن ابن عبد الوهاب في نظر الألباني عارفاً جيداً بالحديث بدليل أن إحدى رسائله تحتوي على حديث اشتهر بأنه حديث ضعيف .[2]

مآخذ الألباني على جماعة الإخوان المسلمين

ينبغي التذكير هنا أنه في المرحلة التي مال فيها كل الفاعلين الإسلاميين ومن كل المشارب بما في ذلك مجموع المؤسسة الدينية الرسمية في السعودية وعلى رأسها الشيخ ابن باز إلى تأبين استشهاد المفكر الإخواني سيد قطب الذي نفذ فيه الإعدام عام ١٩٦٦ بأمر من جمال عبد الناصر ، كان الألباني من بين أوائل الشيوخ الذين خاطروا بنقده علناً ولم تكن انتقادات الألباني تتعلق بالآراء السياسية لدى قطب بقدر ما تعلقت بمفهومه للعقيدة كما يعرضها في تفسيره للقرآن في كتابه " في ظلال القرآن " كما يعتقد الألباني أن الظلال كانت تتضمن أيضاً إشارات عن مذهب " وحدة الوجود " التي تحدث عنها الصوفي الأندلسي " ابن عربي " ، ثم إن الألباني علاوة على ذلك ينكر على الشيخ حسن البنا مؤسس الإخوان المسلمين " مواقفه المخالفة للسنة " مؤكداً على فكرة أن البنا ليس عالم دين .

لهذه الانتقادات علاقة مباشرة بالمأخذ الرئيسي للألباني على الإخوان المسلمين يتعلق باهتمامهم المتزايد بالسياسة عنه بالعلم الشرعي والعقيدة . فبالنسبة للألباني ينبغي أن يعكس ترتيب الأولويات فلم يتردد بالتالي في الإعلان عن الجملة التي اشتهرت عنه إلى يومنا هذا حين يقول إنه في الظروف الحالية : " من السياسة ترك السياسة " في الوقت نفسه وكما يشرح الأمر في محاضرة له عام ١٩٧٧م وعبر إشارة غير مباشرة إلى الإخوان المسلمين يقول : " كل المسلمين يتفقون على ضرورة إقامة دولة إسلامية لكنهم يختلفون حول المنهج لتحقيق هذا الهدف ،

---

(١) نفسه ص ١١
(٢) نفسه ص ١٢

بالنسبة لي ، فقط انتماء المسلمين إلى عقيدة التوحيد يمكنه أن يؤدي إلى اختفاء مبررات التنازع ؛ بحيث يتوجهون نحو هدفهم صفاً واحداً في هذا الإطار بالضبط يطور الألباني نظريته حول الدعوة التي يسميها " التصفية والتربية " والتي يعرضها بالطريقة التالية " بالتصفية أعني تصفية الإسلام من كل ما هو دخيل ويفسده لأجل ذلك سيكون من الحاجة في المقام الأول تصفية السنة من كل الأحاديث الموضوعة والضعيفة التي تحتوي عليها ثم تفسير القرآن في ضوء هذه السنة التي أصبحت صحيحة إضافة إلى المصطلحات والمفاهيم الموروثة عن السلف الصالح . أما التربية فـ " تعتمد على تلقين الشباب العقيدة الإسلامية الصحيحة المأخوذة من القرآن والسنة .

يتمظهر الاختلاف الجذري بين هذه المقاربة التي تقدم العقيدة على السياسة والفرد على الدولة وبين تلك التي يدعو إليها الإخوان المسلمين بشكل بالغ الوضوح في الفتوى الشهيرة التي أطلقها الألباني والتي دعا في نصها الفلسطينيين إلى ترك الأراضي المحتلة في قطاع غزة والضفة طالما أنهم لم يعودوا قادرين على ممارسة شعائرهم الدينية بشكل صحيح ، وأنه فيما بين العقيدة والأرض لا بد من أن تحظى العقيدة بالأولوية . (١)

والحقيقة أنه لا يختلف أحد من المسلمين على أهمية العقيدة وتعليمها ولكن ما تميزت به المدارس السلفية في العموم ، باستثناء النهضوية والإخوان المسلمين ، هو التركيز على تفاصيلها ودخولهم في جدال علم الكلام والردود على المخالفين لهم وإهمالهم بشئون الناس والسياسة وإصلاح نظم الحكم والحكومة ومواكبة تطور المجتمع وتلبية حوائجة إلى فقه جديد يحقق مصلحة البلاد والعباد .

***

---

(١) نفسه ص ١٣ ، ١٤

الفصل السابع

السلفية الجهادية

السلفية الجهادية : التعريف ، والمنهج

السلفية الجهادية مصطلح يطلق على ذلك التيار الذي يدَّعي أنه يتبع منهج سلف المسلمين وأن الجهاد أحد أركانه وأن الجهاد الذي يجب وجوباً عينيّاً على المسلمين يتم تطبيقه ضد العدو المحتل وضد النظام الحاكم المبدّل للشريعة الإسلامية ويحكم بالقوانين الوضعية أو النظام المبالغ في الظلم والقهر .

لقد أنشأ السلفيةَ الجهاديةَ مجموعةٌ من الشباب المتحمس صغير السن قليل العلم عديم الخبرة بفقه الواقع ومصلحة الأمة ، وكانت الظروف التي نشأت فيها تلك التنظيمات الجهادية شديدة التعقيد ، حالكة السواد ، ليس فيها بارقة أمل في التغيير والإصلاح ؛ فقد ادلهمت في أواخر الخمسينات من القرن العشرين وطوال عقد الستينات الخطوب ، وكثرت فيها المظالم ، واستبدل حكامها الشيوعية بالإسلام ، والديكتاتورية بالديمقراطية ، وتصفية الخصوم جسديّاً بالحوار ، والنظام البوليسي بالأحزاب السياسية ، وكان هؤلاء الشباب ممن اصطلوا بنار هذا النظام ورأوا من ألوان العذاب في السجون والمعتقلات مالا يصدقه إنسان .

ادَّعى هؤلاء الشباب أنهم تنظيم يسعى لتطبيق الإسلام الصحيح المستقى من القرآن والسنة والإجماع، متمثلاً في العقيدة وفقه الجهاد وفقه السياسة الشرعية في الحكم على والتعامل مع المحتل والمبدل للشريعة، فهو يرى أن التغيير بالقوة هو أنسب وأصح الوسائل للتحرر، وتحكيم الشريعة وتصحيح البنية الأساسية الدينية والاجتماعية والسياسية.

تختلف السلفية الجهادية مع غيرها من السلفيات المعاصرة لها كالسلفية العلمية والإخوان المسلمين في تبنيهم خط ومنهج التنظيم الثوري المسلح من أجل التغيير،

وليس التربية والتعليم أو المجالس التشريعية المنتخبة من أجل الإصلاح ؛ لأن هـذه الأنظمة ، عندها ، متجذرة ومدعومة من الخارج وفشل معها الإصلاح .

ويعتبر ابن تيمية علامة بارزة في التيار السلفي الجهادي لأنه نظر لفقه الجهاد في صورة مفصلّة وقتها وقام بنفسه بالجهاد ضد المحتلين. أما في العصر الحديث فيعتمد تيار السلفية الجهادية على أطروحات سيد قطب إذ يعتبر أول منظري فكر السلفية الجهادية لما قدمه من صياغة في حقبة الستينات وطرحه لفكرتي الجاهلية والحاكمية والسلاح للتغيير في أعقاب انقلاب جمال عبد الناصر على الإسلاميين والحكم بالقوانين الوضعية وتبنيه للمعتقدات القومية العلمانية وتحالفه مع المعسكر الشيوعي بقيادة السوفييت .

ومن أبرز قادة ومنظري هذا التيار اليوم الشيخ عمر عبد الرحمن وأيمن الظواهري وأبو يحيى الليبي وأبو مصعب السوري وأبو محمد المقدسي وأبو قتادة الفلسطيني وفي الجملة يعتبرون أن كل مسلم متبني للإسلام كمنهج حياة وقام بالجهاد ضد المحتل أو المبدل للشريعة هو رمز للسلفية الجهادية حتى وإن كان من جماعة أخرى أو ليس له انتماء سياسي، وعلى هذا الأساس يعتبرون عبد الله عزام وأحمد ياسين وخطّاب من أعلام الجهاد المستشهد بهم، كما أيدوا معنويّاً سليمان خاطر في هجومه على الإسرائيليين.

أهم مبادئ السلفية الجهادية

والسلفية الجهادية تؤمن بعدة مبادئ تميزها عن سائر المدارس السلفية الأخرى منها :

المبدأ الأول : مبدأ الحاكمية لله الذي يعني أن تكون مرجعية التشريع الوحيدة في الدستور والقوانين هي الشريعة الإسلامية بما تحمله من مصادر أصلية وفرعية وتعني أن الحكم والتشريع هو حق خالص للخالق، فأي إضافة مساوية أو إباحة للأخذ من مرجعية أخرى بجانب الشريعة الإسلامية فهذا شرك وكفر بالله الخالق.

وهم بذلك يخالفون ما نادت به السلفية الإصلاحية والنهضوية من وجود " الشرع المُتَأوّل " الشامل لاجتهادات المجتهدين وفقه الفقهاء وتشريعات الحكام والولاة الذي يمكن أن نسميه " تراث الأمة القانوني والسياسي " الذي أصبح مما يندرج تحت مصطلح " الشرع والشريعة " وإن لم تكن له قدسية الدين وإلزام " الشرع المُنَزّل "

لجميع المؤمنين فهنا نمو في "الشريعة والشرع " ولكنه نمو يتكون منه " بناء قانوني " ذو " طبيعة مدنية " وليس دينية .[1]

المبدأ الثاني : مبدأ الولاء والبراء ويعني أن تكون الدولة قائمة على أساس إسلامي ديني وليس شعوبي قومي ولاؤها للإسلام والمسلمين ومعادية للشرك والمشركين دولة تتبنى الإسلام في سياستها الداخلية ليصبح المسلمون في موضع عزة وتحكم في مفاصل الدولة المهمة، وفي السياسة الخارجية هدفها إعلاء كلمة الله وإقامة دولة إسلامية عالمية قوية، دولة معادية للأنظمة المحاربة وغير الشرعية (والنظام الشرعي من وجهة النظر الفقهية السلفية إما أن تكون الدولة: إسلامية تحكم بالشريعة أو ذمية تدفع الجزية أو معاهدة) .

والحقيقة أن الدولة في الإسلام دولة مدنية ولم يعرف تاريخ الإسلام كله الحكم الثيوقراطي ، حكم البشر المتألهين ، حكم فرعون موسى { قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ } (غافر: ٢٩) ذلك الحكم الذي عرفته الأمم الكافرة قديماً وساد أوربا في العصور الوسطى عصور الظلام والجهل .

أما الخلفاء المسلمون المهديون فدستور حكمهم " إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني.. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم . "

حتى الخلفاء الظالمون المتجبرون في تاريخ الإسلام لم يدَّع واحد منهم أنه إله أو ابن إله أو حتى يوحى إليه من الله أو أن كلامه قرآن ، وفعله سنة .

يقول كرم زهدي (عضو مجلس شورى الجماعة الإسلامية في مصر) في مراجعاته : " نعم لا حكم إلا الله لكن لا بد للناس من أمير وحاكم يعرف أمورهم بما لا يخالف ثوابت الشرع . فالشريعة المنزلة من عند الله تمثل الحكامية العظمى، لكن الفقه الذي يطبق الشريعة على الواقع لا بد أن يكون بالضرورة فقهاً إنسانياً متغيراً يواكب مستجدات الزمان والمكان والمصالح والوقائع والأعراف وجميع المتغيرات الإنسانية . فهناك حاكمية ربانية أساسها المبادئ الرئيسية لا تشغل نفسها بالتعامل مع الجزئيات أما حاكمية البشر فهي التي تحكم بالاجتهاد في الفروع

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول أنواع الشرع الرجوع إلى الباب الأول ، الفصل الخامس من هذا الكتاب .

والمتغيرات وللبشر أن ينشئوا أحكاماً وقوانين توافق متغيرات عصرهم وتلزم الناس جميعاً ما دامت لا تتصادم مع أحكام الشريعة ." (١)

المبدأ الثالث : مبدأ الجهاد ضد الأنظمة غير الشرعية خاصة الأنظمة الحاكمة في الدول الإسلامية، والجهاد ضد الدول المحتلة والدول الداعمة للاحتلال والأنظمة العميلة. كان تنظيم الجهاد المصري يركز على جهاد الأنظمة العميلة، في مقابل تنظيم القاعدة السعودي يركز على جهاد الدول المحتلة والداعمة، ثم تحالفا وكونا تنظيم قاعدة الجهاد .

ونترك الرد على مبدأ الجهاد ضد الأنظمة غير الشرعية لأمير تنظيم الجهاد السيد إمام عبد العزيز المعروف ، عند الجهاديين ، باسم الدكتور فضل الذي يقول في مراجعاته : " أما من الناحية الشرعية : فإن الصدام مع السلطات الحاكمة باسم الجهاد لا يجوز لعدم توفر كثير من شروطه ووجود بعض موانعه ولغلبة مفاسده على المستويين الخاص والعام .

والرسول ﷺ لم يجاهد ولم يفرضه الله عليه إلا بعد ما توفرت له مقومات الجهاد وهي من شروط وجوبه ومقدمات نجاحه، وهذه لا وجود لها في معظم البلدان، ومنها:

١- دار الهجرة والنصرة : لا دار التخفي، ولم يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة إلا بعدما أخذ من أهلها البيعة على الإسلام ثم على الإيواء والنصرة والمنعة في بيعتي العقبة الأولى ثم الثانية .

٢- التكافؤ في العدد والعدة : فمع انعدام التكافؤ بين طرفي الصدام لا يجب الجهاد، (فالعجز يسقط التكليف والوجوب)، وهذا هو واقع حال الجماعات الإسلامية في معظم بلدان المسلمين .

٣- تأمين ذراري المسلمين (نساؤهم وعيالهم): متعذر، ومن خاضوا الصدام عاد بالضرر على ذراريهم، وفي غزوة الأحزاب جعل النبي ﷺ الذراري في حصن بالمدينة، وهذا يتعذر.

٤- النفقة اللازمة للجهاد: متعذرة وهذا يسقط وجوبه ،ولا يحل نهب أموال المعصومين بذريعة تمويل الجهاد ، ولا يجوز ارتكاب ما لا يحل لأداء ما لا يجب.

---

(١) نقلاً عن د. عبد المعطي محمد " شيوخ بلا خناجر " الهيئة العامة للكتاب ص ١٣٨

٥- الفئة التي يمكن التحيز إليها: لا جود لها، وقال عمر رضي الله عنه: " أنا فئة لكل مسلم " فأين هذا ؟ .

٦- تمير الصفوف متعسر: بما يؤدي إلى قتل من لا يحل قتله من المعصومين والمسلمين حال الصدام .

ومع عدم توفر مقدمات الجهاد ومقوماته ومع وجود موانعه، فلا يجوز شرعًا الإصرار على خيار الصدام مع السلطات لأجل تحكيم الشريعة ويجب الانتقال إلى الخيارات الشرعية الأخرى الميسورة كالدعوة والإصلاح ونحوها، وخصوصاً أن التجارب السابقة أظهرت مفاسد جسيمة ترتبت على هذا الصدام على المستويين الخاص والعام، والقاعدة أن " درء المفاسد مقدم على جلب المصالح" وأن " الفساد علة التحريم»" وأن " الضرر لا يزال بمثله ولا بأشد منه " وهذا كله يثبت منع الصدام من الناحية الشرعية . (١)

هذه كانت أهم مبادئ السلفية الجهادية وردوهم هم بعد ذلك عليها في مراجعتهم التي بدأت عام ١٩٩٨م كما سيأتي بيانه .

الفرق بين الأفغاني والسلفية الجهادية في التغيير الثوري

وقد يبدو عند النظرة السطحية العاجلة أن هناك تشابهاً بين مفهوم الثورة عند الأفغاني والسلفية الجهادية فكلاهما ينشد تغيير النظام الحاكم بالقوة ، ولكن الحقيقة أن هناك بوناً شاسعاً بين الثورتين فالثورة التي يدعو إليها الأفغاني على الاحتلال والحكام المستبدين إنما هي ثورة شعبية تشارك فيها جميع الطوائف والجماعات بغرض طرد الاحتلال إن كانت الأرض محتلة وعزل الحاكم المستبد ثم تقام الجمهورية الدستورية البرلمانية حيث يختار الشعب من يمثلهم ويراعي فيهم الله والدستور .

أما السلفية الجهادية فهي تنظيم سري يكفر الحاكم بسبب عدم تطبيقه لشرع الله لا لأنه مستبد ، كما يكفر الشعب لأنه رضي بحكم من لم يحكم بشرع الله ، كما أنه يهدف من وراء القضاء على الحاكم الاستيلاء على الحكم لا ليقيم الجمهورية الدستورية البرلمانية فهذه ، عنده ، أنظمة آتية من بلاد الكفر إنما ليطبق شرع الله

---

(١) الدكتور فضل من حديث له عن الأسباب الشرعية والواقعية التي تدعو إلى عدم الصدام مع السلطات بمصر " جريدة الجريدة " بتاريخ ١٧/ ٢ / ٢٠٠٩

كما يراه .. والويل كل الويل لمن يعارض هذا النظام أو ينتقد بعض الإجراءات فضلاً عن منازعته الحكم فإنه يعد خارجاً على الإسلام مستحقاً للقتل .

أما الأفغاني فقد دعا أهل مصر إلى الثورة على الاستعمار والاحتلال الإنجليزي فقال : " ذلك أن مقاومة الأهالي أشد بأضعاف مضاعفة من القوة العسكرية المجتمعة في أماكن مخصوصة تحت قيادة رؤساء معينين تنهزم بانهزامهم ، وما جرى لحكومة إنجلترا مع الأفغان أفضل شاهد على ما نقول .

دخلت الحكومة الإنجليزية أرض الأفغان بستين ألف عسكري ، واستولت على المدن ، وكاد قدمها يرسخ في البلاد فلما قام الأهالي من كل صقع ، والتحمت المقاتل في جميع أنحاء أفغانستان ، عجز الستون ألفاً عن الوقوف موقف الدفاع ، واضطرت حكومة إنجلترا بعد تسلطها سنتين وبعد صرف ثلاثين مليون جنيه إسترليني إلى ترك البلاد .

وإن على المصريين أن يقتدوا بالأفغانيين لينقذوا بلادهم من أيدي أعدائهم الأجانب ، وليس من الفتنة أن تدعوهم إلى طلب الحقوق والدفاع عن الدين والوطن، كما يظن بعض المتطفلين على موائد السياسة ، وإنما ننادي على صاحب البيت أن يدافع عن حريمه وماله وشرفه ، وأن يُخرِج مخالب عدوه من أحشائه وهي سُنَّة جرى عليها دعاة الحق في كل أمة .

وعلى المصريين عموماً ، وعلى الفلاحين خصوصاً أن يجمعوا أمرهم على أن يمنعوا الحكومة الإنجليزية كل ما تطلب منهم ، وأن يرفعوا أصواتهم بنداء واحد ، قائلين : لا نطيع إلا حاكماً وطنياً ، فإن فعلوا هذا وجدوا لهم من الدول أنصاراً بل ومن الجنس الإنجليزي نفسه .." (١)

تاريخ ظهور تنظيمات الجهاد وجماعات التطرف

لم تكن الجماعة الإسلامية إلا إحدى الحلقات في سلسلة السلفية الجهادية وإن كان ما أقدموا عليه من قتل الرئيس السادات حَصَرَ السلفية الجهادية فيهم ، ولم ينافسهم في ذلك إلا تنظيم القاعدة بعد ذلك .

---

(١) نقلاً عن د. محمد عمارة " الآثار الكاملة لجمال الدين الأفغاني " رجع سابق ص ٤٧.

وتختلف الآراء في تحديد الفترة الزمنية التي نشأت فيها تنظيمات الجهاد والجماعات الإسلامية، ويرجِّح هشام مبارك في كتابه " الإرهابيون قادمون" أن أولى حلقات خط الجهاد نشأت في مصر العام ١٩٦٠م بتشكيل مجموعة من الشباب المسلم الذي تأثر بكتاب الفتاوى لابن تيمية.

وترجع النشأة إلى محاولات الشاب نبيل البرعي لإقناع المحيطين به من الشباب المتدين بأفكار معلمه ابن تيمية وفتاويه . وتمحورت فكرته حول موضوع الجهاد، ونجح في تنظيم حلقة ضمت مجموعة من الطلاب أبرزهم : طلال الأنصاري وإسماعيل طنطاوي وأيمن الظواهري، واقتصر نشاطها على الدراسة والتعمق في الفكر الإسلامي ولم تنشط سياسيّاً إلا في مطلع السبعينات . [١]

ويرجِّح د. حسنين توفيق إبراهيم أستاذ العلوم السياسية في جامعة القاهرة أن بدايات التطرف الديني ظهرت في السجون والمعتقلات خلال الستينات، وذلك نظراً لعمليات التعذيب الجسدي والمعنوي التي تعرّض لها المعتقلون من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين في تلك الفترة التي دفعت بعض شباب الجماعة إلى تبني أفكار سيد قطب عن الجاهلية والتكفير والعنف والجيل القرآني . [٢]

أما عبد المنعم منيب أحد القادة الجهاديين فيقول في كتابه " خريطة الحركات الإسلامية في مصر " :

" نشأت أول مجموعة جهادية في مصر حوالي عام ١٩٦٤م بالقاهرة، وكان أبرز مؤسسيها ثلاثة هم علوي مصطفى وإسماعيل طنطاوي ونبيل البرعى وكانوا جميعاً طلبة في الثانوية العامة وقتها.

انظم إلى هذا التنظيم بعد ذلك أيمن الظواهري في نهاية الستينيات، كما كان من أعضاء هذا التنظيم يحيى هاشم ورفاعى سرور، وأيضاً كان من أعضائه محمد إسماعيل المقدم من الإسكندرية، كما انضم لهذا التنظيم في نفس الفترة (نهاية الستينات) مجموعة الجيزة التي كان من أبرز قادتها مصطفى يسرى وحسن الهلاوى لكن هذه المجموعة سرعان ما انفصلت في أوائل السبعينات عند أول بادرة خلاف مع التنظيم. [٣]

---

(١) هشام مبارك " الإرهابيون قادمون " ص ١٤١
(٢) د. حسنين توفيق إبراهيم " **شؤون الأوسط** " **العدد ٥٠، مارس ١٩٩٦ م**
(٣) عبد المنعم منيب " خريطة الحركات الإسلامية في مصر " نقلاً عن موقع نحو الحرية .

لكن أيمن الظواهري يأبى إلا أن ينسب لنفسه شرف نشأة السلفية الجهادية فيقول د. هاني السباعي [١] : " ظهرت جماعات جهادية عدة بدءا من حقبة الستينيات، لكن جماعة " الجهاد " تحديدا ظهرت علي يد الدكتور أيمن الظواهري، وقد سمعت ذلك منه شخصياً، سألته ما الذي أثر فيك لتكوين هذه الجماعة وما الذي دفعك إلي تأسيس هذه المجموعة وقد كنتم لا تزالون فتياناً في الثانوية العامة في مدرسة المعادي ؟

فقال لي: إنه تأثر بكتابات سيد قطب وحادثة الحكم بإعدامه عام ١٩٦٦، وتأثر بمشروع هذا الرجل من خلال القراءات والكتابات البليغة والوضوح في تشريح الواقع، ووصف الظواهري سيد قطب بأنه مثل الطبيب الشرعي، الذي يشرح الجثة بمهنية وتقنية عالية وكأنه يعرفها بأدق تفاصيلها ". [٢]

وفي كتابه " أيمن الظواهري الذي عرفته " يقول منتصر الزيات إن الظواهري كوّن خليته السرية دون أن يكمل السادسة عشرة وقتها وتضمنت ١٣ عضواً، وكان يتولي إمارة ذلك التنظيم وأنه اضطلع بالإشراف الثقافي علي بقية الأعضاء بما يضمن تثقيفهم فكرياً ووضع الأسانيد الشرعية لتكفير نظام الحكم، ويتم تداولها بصفة سرية بين الأعضاء.

في نفس السياق يقول د. هاني السباعي: " قال لي الدكتور أيمن إن تأسيس المجموعة رسميّاً حدث في عام ١٩٦٨ " بحيث أصبحت مجموعة كأي تنظيم بعد مرحلة التكوين عام ١٩٩٧، وأنهم كانوا يذهبون في تلك الفترة إلي مسجد "الكخيا" في منطقة عابدين بالقاهرة، وكان هناك مسجد لجماعة أنصار السُنة وهي جماعة تركز علي التوحيد وتهتم بالعقائد وتحارب البدع والقبور والطواف حولها.

وكنا نلتقي في مسجد أنصار السُنة، حيث نستمع إلي الدروس الدينية وحلقات التجويد وكانت هذه بدايتنا، نقرأ القرآن ونتعلم التجويد علي يد أحد المشايخ، ثم من يحترف من بيننا القرآن وتجويده يعلم الباقي، ثم قراءة كتب التفاسير وبعد ذلك بدأنا نقرأ في مكتبة المسجد، التي تحوي الكتب السلفية مثل كتب ابن تيمية الذي أثرت فينا فتاويه كثيراً " .

---

(١) مدير مركز المقريزي للدراسات التاريخية والقيادي السابق في " جماعة الجهاد " والذي يعيش في لندن كلاجئ سياسي

(٢) احمد الطيب " الجهاد من النشأة إلي المراجعة " جريدة المصري اليوم بتاريخ ١٥ نوفمبر ٢٠٠٧

ويضيف د.السباعي: " كانت تلك الجماعة " جماعة الظواهري" بسيطة وكانت هزيمة ١٩٦٧، بداية تعزيز الاقتناع لدي أعضاء المجموعة بضرورة العمل من أجل التعيير، فقد قال لي الظواهري عن هذه الفترة إنهم شعروا خلالها وهم لا يزالون في سن الشباب بالخجل والعار علي هذه الفضيحة، وكانوا يقرعون لبعض الناس الصالحين الطيبين، الذين قالوا إن السبب في كل هذه الخسارة هو غياب الشريعة عن الحكم، وكل هذه العوامل أثرت تأثيراً كبيراً في اتجاه تبني مشروع إسلامي .[١]

ولقد ساهم في تشكيل أفكار واستراتيجية هذا التنظيم ثلاثة عوامل :

الأول- أن كل قادة وأعضاء التنظيم تربوا في مساجد الجمعية الشرعية وجماعة أنصار السنة المحمدية وهما جماعتان ذاتا توجه سلفي واضح، كما تأثر جميع أعضاء التنظيم بالشيخ محمد خليل هراس " وهو أحد علماء الأزهر ، ورئيس جماعة أنصار السنة في ذلك الوقت من أواخر الستينيات وحتى منتصف السبعينيات من القرن الماضي" تأثراً كبيراً جداً حتى أن بعض المصادر تنقل روايات لم تتأكد بعد أنه رحمه الله كان على علم بالتنظيم ويؤيده ويوجهه شرعيّاً.

الثاني- أن فكرة الانقلابات العسكرية كانت رائجة في ذلك الوقت في المنطقة العربية والعالم ، وجرى تنفيذها بنجاح كبير في دول عربية وإسلامية كثيرة في ذلك الوقت، كما راجت في ذلك الوقت أيضاً فكرة حرب العصابات من أجل التحرر الوطني.

الثالث- اعتقاد مؤسسو التنظيم أن تنظيم الضباط الأحرار كان تابعاً للإخوان المسلمين ثم خانهم لأن الإخوان لم يحسنوا تربية وتثقيف الضباط على فكر الجماعة، كما أن الجماعة -حسب رأيهم- أخطأت لأنها لم تستخدم القوة وتحديداً الانقلاب العسكري في مواجهة عبد الناصر.

وكانت الآثار المباشرة لهذه العوامل الثلاثة هو تبنى التنظيم للمنهج السلفي في مجالي الاعتقاد والدراسات الشرعية، وتبنيه لمنهج التغيير السياسي والاجتماعي والاقتصادي بالقوة المسلحة.

---

(١) أحمد الطيب " الجهاد من النشأة إلى المراجعة " جريدة المصري اليوم بتاريخ ١٥ نوفمبر ٢٠٠٧

ولقد اختار التنظيم مبدئياً أسلوب الانقلاب العسكري لتحقيق هذا التغيير، وتبنى نهج الاعتماد في اختراق الجيش على أشخاص تم تربيتهم مسبقاً في التنظيم ثم دفعهم للالتحاق بالكليات العسكرية.

كان التنظيم يعتمد مناهج لتعليم الدراسات الشرعية، تقوم على أساس المنهج السلفي، كما ألزم الأعضاء بحضور دروس الشيخ محمد خليل هراس بمسجد "قولة" بعابدين وهو المقر العام لجماعة أنصار السنة المحمدية بمصر، كما تضمنت المناهج الدراسية بجماعة الجهاد الأولى هذه كتابي " في ظلال القرآن " و"معالم في الطريق" لسيد قطب. (١)

وكانت هذه الجماعة تعتمد في مجال التجنيد على تجنيد الملتزمين بتعاليم الإسلام أياً كان انتمائهم الفكري باعتبار أن خلافهم الرئيسي مع غيرهم هو مسألة (طريقة التغيير) فإقناع أي ملتزم بهذه الفكرة يحوله لشخص صالح للانضمام لجماعة الجهاد.

علاقة الإخوان المسلمين بالتنظيمات الجهادية

يقول عبد المنعم منيب : " ولقد سألت العديد من المصادر والقادة والمؤسسين ومنهم نبيل البرعى تحديداً وكذا الدكتور مصطفى يسرى، هل كان لكم علاقة بالإخوان المسلمين ؟ فأجابوا جميعاً إجابة واحدة هي: لم أكن في يوم من الأيام عضواً في الإخوان المسلمين كما لم يكن أحد من أسرتي عضواً في الإخوان كما لم أتعلم على يد أحد من الإخوان.

وسألتهم ما الذي دفعكم لفكرة التغيير؟

قالوا: رأينا الواقع مخالف لما ينبغي أن يكون عليه الواقع الإسلامي كما درسناه فقررنا أن نغيره.

وسألتهم لماذا اخترتم القوة كوسيلة وحيدة للتغيير؟

قالوا: لأنها الوسيلة الوحيدة الناجحة كما أن النظام الحاكم يحكم بالقوة والقمع ويسد أي منفذ للتغيير السلمي، ويستخدم كل إمكانات الدولة لمنع أي تغيير اجتماعي إسلامي سلمى ومتدرج.

---

(١) عبد المنعم منيب " خريطة الحركات الإسلامية في مصر " نقلاً عن موقع نحو الحرية .

وسألتهم لماذا الانقلاب العسكري تحديدا وليس غيره؟

قالوا: أغلب حكام العالم الإسلامي حصلوا على الحكم بهذه الطريقة وهى طريقة فعالة ونحن أولى باستخدامها لأننا نعبر عن دين وثقافة الأمة أما هم فلا يعبرون إلا عن فكر ومصالح الغرب الصليبي أو الشرق الشيوعي (طبعاً كان الإتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية قائمين في الفترة التي نتكلم عنها) وفي نهاية الستينات كان من أعضاء التنظيم أيضاً عصام القمري. [١]

انشقاقات في تنظيم الجهاد

إثر حرب أكتوبر١٩٧٣م تفجر خلاف بين أعضاء التنظيم بشأن مدى إسلام ضباط الجيش من أعضاء التنظيم الذين شاركوا في الحرب خاصة من مات منهم فيها، وكان من ضمن الذين ماتوا شقيق علوى مصطفى، وتزعم علوي القول بأنهم شهداء بينما أصر آخرون على أنهم غير شهداء لأنهم قاتلوا تحت راية الطاغوت(السادات) ولتحقيق أهدافه.

وحاول إسماعيل طنطاوي التوفيق بين الطرفين دون جدوى، وانشق علوي عن التنظيم كما فارق آخرون التنظيم دون أن يعملوا في إطار تنظيمي آخر، واستمر التنظيم بقيادة إسماعيل طنطاوي وظل معه كثيرون أشهرهم نبيل البرعى وعصام القمري وأيمن الظواهري وكان معهم في ذلك الوقت أو بعده بقليل سيد إمام الشريف (المعروف بالدكتور فضل) .

نشأة جماعة صالح سرية

عندما أقام الدكتور صالح سرية في مصر كموظف بجامعة الدول العربية حاول إقناع قيادة الإخوان في مصر بتبني فكرة الانقلاب العسكري لكن دون جدوى، وأثناء ذلك تعرف على العديد من الشباب من قادة وأعضاء تنظيمي إسماعيل طنطاوي ويحيى هاشم ، سواء في لقاءات إسلامية ببيت السيدة زينب الغزالي ، أو في مساجد الجمعية الشرعية وأنصار السنة.

وحاول صالح سرية التقارب معهم جميعاً إلا أنه أصطدم بسلفية إسماعيل، حيث كان صالح يرى إرجاء حسم الخلافات في مسائل عقدية وفقهية لما بعد إقامة الدولة الإسلامية بعكس إسماعيل الذي يرى حتمية الالتزام بكل مواقف السلف الصالح من

---

(١) عبد المنعم منيب " خريطة الحركات الإسلامية في مصر " نقلاً عن موقع نحو الحرية .

أهل السنة والجماعة وعدم التعاون مع أي شخص يخالف ذلك، كما استحال التقارب بين صالح ويحيى هاشم بسبب إصرار الأول على الانقلاب العسكري وإصرار الثاني على حرب العصابات.

وهكذا فشل صالح في التوافق مع الجهاد بعد فشله في التوافق مع الإخوان المسلمين، فكان لزاماً عليه أن ينشئ تنظيمه الخاص ممن تعرف عليهم سواء عند زينب الغزالي أو عند إسماعيل أو يحيى ثم تحرك بهم وضم جدداً ومن ضمن من جرى ضمهم مجموعة الجيزة وصار من أبرز القادة في تنظيمه أحمد صالح كارم الأناضولي ومصطفى يسرى وحسن الهلاوى وطلال الأنصاري وخالد المنشاوي وعلى المغربي ومحمد شاكر الشريف وغيرهم.

وبعد فشل المحاولة الانقلابية التي دبرها التنظيم عبر الكلية الفنية العسكرية عام ١٩٧٤م والحكم على صالح وكارم بالإعدام وغيرهم بأحكام مختلفة، تم انتخاب المهندس أحمد صالح من بين الحائزين لحكم البراءة أميراً عاماً للتنظيم، وتم إعادة تشكيل التنظيم .

وقد تعرض التنظيم لضربة أمنية عام ١٩٧٧م، وتمت محاكمة عدد كبير من قادته وأعضائه فيما عرف إعلامياً باسم قضية تنظيم الجهاد وتم الحكم على المهندس أحمد صالح بعشر سنوات سجن كما نال الباقون أحكاماً مختلفة.

وتم انتخاب الدكتور مصطفى يسرى أميراً عاماً للتنظيم، ونشط التنظيم إلى أن أصدر مصطفى يسرى قراراً بحل التنظيم إثر اختراقات أمنية للتنظيم وضربه أمنيّاً فيما عرف بقضية تنظيم الجهاد ١٩٧٩م.

وبعد حل التنظيم شكل كل قائد من قادة المستوى الوسيط بالتنظيم تنظيماً مستقلاً من المجموعات التي كانت تابعة له قبل الحل، كما حاول بعضهم إعادة ضم كل المجموعات في تنظيم واحد كبير، وذلك كله له قصة كبيرة أخرى لاسيما أن أحد القيادات الوسيطة هذه هو محمد عبد السلام فرج مؤلف كتاب "الفريضة الغائبة" وقائد التنظيم الذي اغتال رئيس مصر السابق أنور السادات في أكتوبر ١٩٨١م.

عندما تم القبض على صالح سرية وتنظيمه تحسب إسماعيل طنطاوي من ورود اسمه في التحقيقات فهرب إلى هولندا وبعدها تزوج هولندية وحصل على الجنسية الهولندية، وعندما داهم الأمن منزله لم يجده.

وقام بعد ذلك كل من أيمن الظواهري وسيد إمام وعصام القمري بإعادة تنظيم الجماعة واستمروا في نشاطهم إلى أن انكشفوا للأمن في أكتوبر ١٩٨١م بسبب محاولاتهم للاندماج مع تنظيم محمد عبد السلام فرج، وألقى القبض على أيمن الظواهري وعصام القمري ونبيل البرعى والدكتور أمين الدميري ومعظم أعضاء التنظيم، وهرب كل من سيد إمام ومحمد الظواهري. (١)

أيمن الظواهري وتنظيم الجهاد خارج مصر :

قبض على الظواهري في ٢٣ أكتوبر ١٩٨١، وقضي ثلاثة أعوام في السجن، وفي ٢٣ أكتوبر ١٩٨٤، أفرج عنه وسافر إلي السعودية عام ١٩٨٥، وعاش فيها حتى منتصف ١٩٨٦، ثم انتقل إلي مدينة بيشاور الباكستانية .

في أفغانستان كانت الفرصة سانحة للظواهري لإعادة بناء تنظيم الجهاد من جديد، ولكن هذه المرة خارج الأراضي المصرية، التقي بالمصريين الذين سبقوه إلي أفغانستان، عقد العديد من الاجتماعات مع أعوانه، واتفقوا علي إعادة تأسيس تنظيم الجهاد، وأسندوا إمارته إلي الدكتور سيد إمام عبد العزيز، وأطلقوا عليه لقب الدكتور " فضل "، أو عبد القادر عبد العزيز .

وهكذا أعاد الظواهري لجماعة الجهاد صفوفها علي أرض أفغانستان، حيث أسسوا أول تنظيم جهادي في الخارج عام ١٩٨٧، وبالرغم من اختيار الدكتور "فضل" أميراً للتنظيم، فإن الظواهري كان هو الأمير الفعلي للتنظيم، وكان لأسامة بن لادن دور واضح ومباشر في المساهمة في التأسيس، حيث استقبل الأعضاء في معسكرات إيواء وتدريب أقامها لهم، وتولي الإنفاق عليهم، وحاصرهم بعدد من قدامي المجاهدين لتثقيفهم دينيّاً وسياسيّاً وتدريبهم عسكريّاً.

ذاع صيت الظواهري في العالم كله، وبات يحلم بجيش يستخدمه في أي حرب كما يشاء، وبالفعل نجح في إقناع صديقه أسامة بن لادن بضرورة الاستفادة من الحرب الأفغانية السوفيتية، وفي ٢٣ فبراير عام ١٩٩٨ فوجئ العالم بالظواهري وبن لادن يعلنان معاً " الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين " حيث كانت بداية تحول فكر الظواهري لمواجهة أمريكا، وضرب مصالحها في الداخل

---

(١) عبد المنعم منيب " خريطة الحركات الإسلامية في مصر " نقلاً عن موقع نحو الحرية .

والخارج، ثم أعلنا معًا إنشاء تنظيم القاعدة، أكثر من ١٨ ألف مقاتل ينتشرون في ٦٠ دولة من بينها أمريكا نفسها، حسبما جاء في تقرير المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية بلندن عام ٢٠٠٤. [١]

الفرق بين تنظيم القاعدة و الجهاد المصري :

وهناك فرق بين تنظيم الجهاد المصري وتنظيم القاعدة رغم أن كوادر الجهاد كانوا هم الركيزة الأساسية في تأسيس وإدارة القاعدة، فالقاعدة تبنّت منذ ١٩٩٨م استراتيجية محاربة الولايات المتحدة وحلفائها عبر ضرب مصالحهم في أي مكان في العالم بهدف إضعاف قدرتها ونفوذها في المنطقة الأمر الذي سيمنعها ، حسب رأيهم ، من مساندة حكام العالم الإسلامي الذين نجحوا في التغلب على محاولات الجهاديين في الحصول على الحكم بسبب المساندة الأمريكية، كما أن القاعدة بجانب ذلك تهدف بهذه العمليات لكسب تأييد الجماهير في العالم الإسلامي لدعم خط القاعدة ومحاولاتها المستقبلية للحصول على الحكم .

وقد شرح هذه الإستراتيجية كثيراً أيمن الظواهري في مناسبات شتى، لكن في حقيقة الأمر فمبتكر هذه الإستراتيجية الأصلي هو أبرز المفكرين الإستراتيجيين في القاعدة أبو مصعب السوري، لكن الظواهري تلقاها منه واقتنع بها بعدما نجحت السي أي إيه في معاونة الأجهزة المصرية في توجيه ضربات موجعة إلى جماعة الجهاد المصرية، وقام الظواهري بإقناع أسامة بن لادن بها، ومن ثم نشأ سلوك القاعدة المسلح الذي يستهدف العدو البعيد قبل العدو القريب خلافاً لرأي جماعة الجهاد المصرية .

وفي فبراير ١٩٩٨م انضم أيمن الظواهري إلى أسامة بن لادن وأسسوا "الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين" وبايع الظواهري ابن لادن أميرًا للجماعة. واستمر الأمر على ذلك لفترة ثم تبين أن العمل مع الجبهة يمكن أن يستغرق كل جهد وعمل جماعة القاعدة وجماعة الجهاد وغيرها من الجماعات

---

(١) أحمد الطيب " الجهاد من النشأة إلى المراجعة " جريدة المصري اليوم بتاريخ ١٥ نوفمبر ٢٠٠٧

الإسلامية. فتم في عمل ٢٠٠٠م إعلان الاندماج الكامل بين جماعة القاعدة وجماعة الجهاد وتكوين جماعة جديدة هي "جماعة قاعدة الجهاد".

ومنذ تم الإعلان تقرر عدم وجود جماعة باسم "جماعة الجهـــاد المـــصرية" بـــل أصبحت جزء من تنظيم عالمي اسمه "جماعة قاعدة الجهاد" وأميرها أسامة بن لادن ونائبه أيمن الظواهري.

وبعد مقتل أسامة بن لادن عام ٢٠١١م أصبح أيمن الظواهري أميرًا لـــ"جماعـــة قاعدة الجهاد" المشهور بـــ" تنظيم القاعدة ". (١)

أهم عمليات تنظيم الجهاد في مصر

ومن أبرز العمليات المسلحة التي قام بها تنظيم الجهاد في مصر هي :

١- محاولة انقلابية فاشلة عام ١٩٧٤م عرفـــت باســـم عمليـــة "الكليـــة الفنيـــة العسكرية"، وقد حوكم أعضاء وقادة من تنظيم الجهاد فيها بقضية عرفـــت إعلاميّـــاً بهذا الاسم .

٢- مهاجمة حارس قنصلية أجنبية بالإسكندرية عـــام ١٩٧٧م ومحاولـــة ســـلب سلاحه، وقد حوكم قادة وأعضاء التنظيم في ذلك الوقت في قضية عرفت إعلاميّـــاً باسم قضية تنظيم الجهاد .

٣- اشتباك علي المغربي عضو تنظيم الجهاد بالإسكندرية عام ١٩٧٧م مع قـــوة من الشرطة حاولت اعتقاله وقتل في الاشتباك ضابط أمن دولة كمـــا لقـــي علـــى المغربي مصرعه .

٤- اغتيال الرئيس أنور السادات ومجموعة من مرافقيه في العـــرض العـــسكري في ٦ أكتوبر ١٩٨١م على يد أربعة من أعضاء تنظيم الجهاد .

٥- إلقاء قنبلة على معسكر قوات أمن القاهرة بحي الساحل بشبرا في ٨ أكتـــوبر ١٩٨١م .

٦- قام أعضاء من تنظيم الجهاد باقتحام مديرية أمن أسيوط وقـــسمي أول وثـــان أسيوط ومباحث التموين بعد يومين فقط من حادث اغتيـــال الـــسادات راح ضـــحية

---

(١) إسماعيل جاد إسماعيل " الفرق بين جماعة الجهاد المصرية وتنظيم الجهاد " شبكة الخلافة الإسلامية .

الحادث ٦٦ شرطياً و ٢١ مواطنا، وأصيب ٢٣٧ آخرون، منهم ٢٠٥ شرطيين و ٣٢ مواطناً، إنه حادث اقتحام مديرية أمن أسيوط .

٧- محاولة اغتيال وزير الداخلية الأسبق اللواء حسن الألفي عبر تفجير أحد أعضاء التنظيم نفسه في موكب الوزير أمام الجامعة الأمريكية بالقاهرة ,وقد قتل عضو التنظيم بينما أصيب اللواء حسن الألفي وعدد من حراسه بجراح بالغة (صيف ١٩٩٣م)

٨- محاولة اغتيال رئيس الوزراء الأسبق عاطف صدقي بتفجير موكبه بسيارة ملغومة تم تفجيرها بالتحكم عن بعد بأحد شوارع القاهرة في حي مصر الجديدة ولم يصب رئيس الوزراء بأذى لكن أصيب بعض المارة بإصابات مختلفة (١٩٩٣م)

٩- اغتيال الشاهد الأول في قضية محاولة اغتيال عاطف صدقي قبيل موعد إدلائه بشهادته بعدة ساعات (١٩٩٣م)

١٠- عدد من المحاولات الفاشلة لاغتيال الرئيس حسنى مبارك عبر المتفجرات في شوارع القاهرة، كانت إحداها بسيارة ملغومة أمام أحد المساجد، وأخرى كانت عبر تلغيم الطريق الرئيسي الذي يمر به موكبه، وفي كل الحالات لم يتم التفجير لأن الرئيس غير مسار موكبه في اللحظات الأخيرة .

١١- تفجير السفارة المصرية في إسلام أباد (باكستان) .

١٢- الاشتراك مع منظمة القاعدة في تفجير السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا في وقت متزامن (١٩٩٨م) (١)

وبعد استعراض تاريخ الجماعات الجهادية نحاول أن تعرف على أدبياتهم التي تعكس فكرهم الجهادي الذي آمنوا به وحاولوا تطبيقه .

كتاب الفريضة الغائبة

يعتبر كتاب " الفريضة الغائبة " لمحمد عبد السلام فرج من أهم الكتب التي تحمل فكر تنظيم الجهاد إن لم تكن أهمها فقد تحول إلى دستور عمل لمختلف حلقات الجهاد، إذ فند فيه التجارب السابقة ونقضها وخصوصاً تجارب الإخوان المسلمين

---

(١) نقلاً عن الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان ٢٠٠٣ – ٢٠٠٩

وجماعة المسلمين التي تعرف باسم " التكفير والهجرة ". رفض فرج في كتابه مقولة التفكير المرحلي (الاستضعاف ثم التمكن) واستخدم تعبير " القلة المؤمنة " التي تستطيع وحدها قلب نظام الحكم من طريق الجهاد.

ويحتوى الكتاب في جملته على تفسيرات لبعض النصوص الشرعية من القرآن والسنة ، وعنى بالفريضة الغائبة " الجهاد " داعياً إلى : إقامة الدولة الإسلامية، وإلى الحكم بما أنزل الله مدعياً أن حكام المسلمين اليوم في ردة، وأنهم أشبه بالتتار، يحرم التعامل معهم، أو معاونتهم، ويجب الفرار من الخدمة في الجيش، لأن الدولة كافرة، ولا سبيل للخلاص منها إلا بالجهاد وبالقتال كأمر الله في القرآن، وأن أمة الإسلام تختلف في هذا عن غيرها في أمر القتال وفى الخروج على الحاكم، وأن القتال فرض على كل مسلم ، وأن هناك مراتب للجهاد ، وليست مراحل للجهاد ، وأن العلم ليس هو كل شيء ، فلا ينبغي الانشغال بطلب العلم عن الجهاد والقتال ؛ فقد كان المجاهدون في عصر النبي ﷺ ومن بعده وفى عصور التابعين، وحتى عصور قريبة ليسوا علماء، وفتح الله عليهم الأمصار ولم يحتجوا بطلب العلم، أو بمعرفة علم الحديث وأصول الفقه، بل إن الله سبحانه وتعالى جعل على أيديهم نصراً للإسلام ، لم يقم به علماء الأزهر يوم أن دخله نابليون وجنوده بالخيل والنعال فماذا فعلوا بعلمهم أمام تلك المهزلة ؟!! وآية السيف نسخت من القرآن مائة آية وأربعاً وعشرين آية .

وهكذا سار الكتاب في فقراته كلها داعياً إلى القتال والقتل . [١]

رد الأزهر على كتاب الفريضة الغائبة

ولقد قام بالرد على السلفية الجهادية كثير من العلماء نكتفي هنا بتلخيص رد الإمام جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر الأسبق .

يقول الشيخ جاد الحق :

قوله تعالى { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (النور ٥١) ، وقوله تعالى { وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } (المائدة ٤٤) ، وقوله تعالى { وَمَنْ لَمْ

---

(١) الشيخ جاد الحق على جاد الحق " نقض الفريضة الغائبة " مجلة الأزهر الشريف عدد المحرم ١٤١٤

يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (المائدة ٤٥) ، وقوله تعالى { وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } (المائدة ٤٧) ، ذهب الخوارج إلى أن مرتكب الكبيرة كافر، محتجين بهذه الآيات الثلاث الأخير، وهذا النظر منهم غير صحيح .

من ترك أحكام الله نهائياً وهجر شرعه كله، هم الكافرون وهم الظالمون، وهم الفاسقون، وذلك بدليل أن مرتكب الكبيرة لا يخرج بها عن إيمانه وإسلامه وإنما يكون آثماً فقط .

أو أن المراد في هذه الآيات بقول الله (بما أنزل الله) هو التوراة، بقرينة ما قبله وهو قوله { إنا أنزلنا التوراة } وإذا أخذنا هذا المعنى كانت الآيات موجهة لليهود الذين كان كتابهم التوراة، فإذا لم يحكموا بها كانوا كافرين أو ظالمين أو فاسقين، والمسلمون غير متعبدين بما اختص به غيرهم من الأمم السابقة .

وبهذا البيان يكون مجرد ترك بعض أوامر الله أو مجرد فعل ما حرم الله مع التصديق بصحة هذه الأوامر وضرورة العمل بها، يكون هذا إثماً وفسقاً، ولا يكون كفراً، ما دام مجرد ترك أو فعل دون جحود أو استباحة .

وعلى ذلك يكون تكفير الحاكم لتركه بعض أحكام الله وحدوده دون تطبيق لا يستند إلى نص في القرآن أو في السنة، وإنما نصوصهما تسبغ عليه إثم هذه المخالفة، ولا تخرجه بها من الإسلام، ولعل فيما قاله رسول الله " ثَلاثٌ مِنْ أَصْلِ الإِيمَانِ : الْكَفُّ عَمَّنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَلا نُكَفِّرُهُ بِذَنْبٍ وَلا نُخْرِجُهُ مِنَ الإِسْلامِ بِعَمَلٍ " لعل في هذا الرد القاطع على ذعوى تكفير المسلم الذي لم يجحد شيئاً من أصول الإسلام وشريعته .

بلادنا دار لإسلام جاء في ص ٧ من هذا الكتيب أن أحكام الكفر تعلوا بلادنا، وإن كان أكثر أهلها مسلمين، وهذا قول مناقض للواقع، فهذه الصلاة تؤدى، وهذه المساجد مفتوحة وتبنى، وهذه الزكاة يؤديها المسلمون، ويحجون بيت الله، وحكم الإسلام ماض في الدولة، إلا في بعض الأمور كالحدود والتعامل بالربا وغير هذا مما شملته القوانين الوضعية .

وهذا لا يخرج الأمة والدولة عن أنها دولة مسلمة وشعب مسلم، لأننا ، حاكماً ومحكومين ، نؤمن بتحريم الربا والزنا والسرقة وغير هذا، ونعتقد صادقين أن حكم

الله خير وهو الأحق بالاتباع، فلم نعتقد حل الربا وإن تعاملنا به، ولم نعتقد حل الزنا والسرقة وغير هذا من الكبائر وإن وقع كل ذلك بيننا، بل كلنا ، محكومين وحاكمين، نبتغي حكم الله وشرعه ونعمل به في حدود استطاعتنا، والله يقول {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } (التغابن ١٦) ، وعقيدتنا فيما أمر الله بقدر ما وهبنا من قوة .

أما السبيل إلى تطبيق أحكام الله غير المنفذة ، وهل يبيح هذا قتل الحاكم والخروج عليه ؟ نسوق لرسم الطريق والجواب عن هذا .

الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عوف بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول " خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ (تصلون أي تدعون لهم ويدعون لكم، لأن الصلاة في اللغة الدعاء)، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ " قَالَ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّه أَفَلاَ نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ (أي نقاتلهم) قال لا ما أقاموا فيكم الصلاة . قَالَ :" لاَ مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ " .

ومثله الحديث الذي رواه أحمد وأبو يعلى قال :"يَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَطْمَئِنُّ إِلَيْهِمُ الْقُلُوبُ، وَتَلِينُ لَهُمُ الْجُلُودُ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَشْمَئِزُّ مِنْهُمُ الْقُلُوبُ، وَتَقْشَعِرُّ مِنْهُمُ الْجُلُودُ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَنُقَاتِلُهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "لاَ مَا أَقَامُوا الصَّلاَةَ. " .

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قال " إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عليكُمْ أُمَرَاءُ ، فَتعرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَد بَرِئَ ، وَمَن أَنْكَرَ فقد سَلِمَ، ولكن مَنْ رَضِي وتَابَعَ" ، قالوا : أفَلا نُقَاتِلُهمْ ؟ قال : " لا ، مَا صَلَّوا " .

ومعناه أن من كره بقلبه، ولم يستطع إنكاراً بيد ولا لسان، فقد برئ من الإثم وأدى وظيفته ، ومن أنكر بحسب طاقته فقد سلم من هذه المعصية، ومن رضي بفعلهم وتابعهم فهو العاصي .

بهذه الأحاديث الصحيحة وغيرها نهتدي إلى أن الإسلام لا يبيح الخروج على الحاكم المسلم وقتله مادام مقيماً على الإسلام يعمل به، حتى ولو بإقامة الصلاة فقط، وأن على المسلمين إذا خالف الحاكم الإسلام أن يتولوه بالنصح والدعوة السليمة المستقيمة كما في الحديث الصحيح " الدِّينُ النَّصِيحَةُ " قُلْنَا لِمَنْ قَالَ " لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِه وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ " فإذا لم يقم الحاكم حدود الله وينفذ شرعه تاماً، فليست لَه طاعة فيما أمر من معصية أو منكر، ومعنى هذا أن الحكم بما أنزل الله

لا يقتصر على الحاكم في دولته، بل يشمل كل أفراد المسلمين رجالاً ونساء، وعليهم الالتزام بأمر الله فيما افتراض من طاعات والانتهاء عما نهى من منكرات .

ذلك أخذاً بمجموع نصوص القرآن والسنة، وإلا فإن هذا الاتجاه والفكر الذي ساقه هذا الكتاب من باب من يقرأ قول الله { فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ } (الماعون: ٤) ويسكت ولا يتبعها بقوله { الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ } (الماعون :٥) بل إن هذا الفكر ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، ويقول في دين الله بغير علم، وذلك إثم عظيم يحمله كل من يبث هذا الفكر، وعلى المجتمع مقاومته ونبذه، وعلى الدولة الوقوف ضده .

والسبيل المستقيم مع أصول الإسلام في القرآن والسنة أن نطالب جميعاً بتطبيق أحكام الله دون نقصان بالأسوة الحسنة والحجة الواضحة، لا بالقتل والقتال وتكفير المسلمين وإهدار حرماتهم .

آية السيف (ص ٢٧ - ٢٩) وقد عنى الكتيب المعروض بها .

وهي قول الله سبحانه في سورة التوبة { فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } (التوبة : ٥) ، ونقل الكتاب أن هذه الآية نسخت مائة وأربع عشرة آية في ثمان وأربعين سورة، فهي ناسخة لكل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء .

هذه الآية الكريمة، كما هو منطوقها واردة في مشركي العرب الذين لا عهد لهم، حيث نبذت عودهم، وضرب الله لهم موعد الأربعة الأشهر الحرم ، وقد فرق القرآن في المعاملة بين مشركي العرب، والمشركين وأهل الكتاب من الأمم الأخرى .

والأمر بقتال مشركي العرب في هذه الآية وما قبلها مبنى على كونهم البادئين بقتال المسلمين والناكثين لعهودهم، كما جاء في آية تالية في ذات السورة { أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } (التوبة : ١٣) ، ولقد أطلق بعض الناس القول في أن آية السيف ناسخة لغيرها من الآيات حسبما نقل هذا الكتيب، ولكن الصواب أنه لا نسخ، وأن كل لآية واردة في موضعها، كما أن الأصل أن الإعمال مقدم على الإهمال .

بل إن آية السيف جاء في آخرها ما يوقف حكم أولها { فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رحِيمٌ } (التوبة : ٥) ، فمن آمن وأسلم تائباً بذلك عن الشرك وأقام الصلاة وآتى الزكاة امتنع قتالهم وقتلهم .

فالآية موجهة إلى المشركين الكافرين بأصول الدين، وغير موجهة إلى الأمر بقتال المسلمين، فالاستدلال بها على أنها آمرة بقتال المشركين وغيرهم في غير موضعه، بل يناقض لفظها، وفى صدد المشركين أجاز القرآن التعاهد معهم والوفاء بهذه المعاهدة في قوله تعالى { إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ } (التوبة : ٧) ، وقوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ } (المائدة : ١) ، وقوله { وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولا } (الإسراء : ٣٤)، فكيف إذن يقال إن آية السيف ناسخة لأمثال هذه الآيات التي نظمت التعاهد مع المشركين وغيرهم من أهل الكتاب، وكيف يمدون حكمها إلى المسلم الذي ترك فرضاً من الفرائض عن غير جحود أو فعل موبقة منهي عنها تحريماً، والرسول ﷺ يقول : " أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَهَ إلا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلا بِحَقِّهَا " وقد فسر الرسول ﷺ هذا الحق بثلاث في قوله : " لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلا بِإِحْدَى ثَلاثٍ : كُفْرٌ بَعْدَ إِيمَانٍ ، أَوْ زِنًا بَعْدَ إِحْصَانٍ ، أَوْ قَتْلُ نَفْسٍ بِغَيْرِ حَقٍ " .

فكيف مع هذا يستباح قتل المسلم الذي يصلى ويزكى ويتلو القرآن باسم آية السيف.

إن هذه الأقوال الجائرة التي جاءت في هذا الكتيب فاسدة مخالفة للكتاب والسنة {أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} (النحل : ٥٩)

هذا الكتيب لا ينتسب للإسلام وكل ما فيه أفكار سياسية نرى هذا واضحاً في الكثير من عناوينه .

والحاكم في الإسلام وكيل عن الأمة، لذلك كان من شأنها أن تختار الحاكم وتعزلهم، وتراقبهم في كل تصرفاتهم، ويجب أن يكون الحاكم المسلم عادلاً قوياً في دينه ومقاومته لأهل البغي والعدوان .

ويتفق أهل العلم بالإسلام وأحكامه على أن (خليفة المسلمين) هو مجرد وكيل عن الأمة يخضع لسلطانها في جميع أموره، وهو مثل أي فرد فيها فهو فرد عادى، لا امتياز له ولا منزلة إلا بقدر عمله وعدله .

فالإسلام أول من سن مبدأ الآمة مصدر السلطات .

والإجماع منعقد منذ عصر الصاحبة على وجوب تعيين حاكم للمسلمين ، واستناداً إلى أحاديث رسول الله ﷺ في هذا الموضع .

ولم تحدد نصوص الإسلام طريقاً لاختيار الحاكم (ولى الأمر) لأن هذا مما يختلف باختلاف الأزمان والأماكن .

ومن ثم كان الاختيار بطريق الانتخاب المباشر أو بغيره من الطرق داخلاً في نطاق الشورى في الإسلام .

وتسمية خليفة للمسلمين أمر تحكمه عوامل السياسة في الأمة الإسلامية على امتداد أطرافها وأقطارها، وليس من الأمور التي تتعطل من أجلها مصالح الناس وإقامة الدين، بعد أن تفرق المسلمون إلى دول ودويلات، لكن المهم أن يكون هناك الحاكم المسلم في كل دولة إسلامية، ليقيم أمور الناس وأمور الدين، حتى إذا ما اجتمعت كلمة المسلمين كأمة وصاروا في دولة ذات كيان سياسي واحد بعرف العصر وأساليبه، كما هم في واقع الدين أمة واحدة مع اختلاف لغاتهم وأوطانهم، إذا اجتمعت الكلمة حق عليهم أن يكون لهم حاكم واحد .

وانتخاب الحاكم بالطرق المقررة في كل عصر، قائم مقام البيعة التي ترددت في كتب فقهاء الشريعة، فما البيعة إلا إدلاء بالرأي والتزام بالعهد وقد كان المسلمون يبايعون الرسول ﷺ على الوقوف معه وحمايته مما يحمون منه أنفسهم ونساءهم وأولادهم، فهو عهد والتزام منه بحماية الرسول وحماية دعوته، فقد كان يستوثق منهم لدينه بهذه البيعة .

ويختتم الشيخ جاد الحق رده على كتاب الفريضة الغائبة بقوله :

لا يكون الجهاد بإكفار المسلمين، أو بالخروج على الجماعة والنظام الذي ارتضته في نطاق أحكام الإسلام .

ولا يكون الجهاد بتأويل آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ إلى ما لا تحتمله ألفاظها وتحميلها معاني لا تحتويها مبانيها، إلا كان تحريفاً للكلم عن مواضعه، وهو مما نهى الله سبحانه وتعالى عنه .

ولا يكون الجهاد بقتل النفس التي حرم الله قتلها، لأن له نطاقاً حدده الله .

وإنما الجهاد في مواضعه ماضٍ إلى يوم القيامة، جهاد بالقتال إذا لزم الأمر دفاعا عن دين الله عن بلاد المسلمين، وعن النفس وعن المال وعن العرض، وجهاد للنفس حتى تكون في طاعة الله ومجاهدة للشيطان، فليس الجهاد فريضة غائبة،

ولكنه فريضة ماضية إلى يوم القيامة في حدود أوامر الله وكما فسر رسول الله قوله سبحانه { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } (الأنعام : ١٥٣) [١]

كان هذا مجمل رد الشيخ جاد الحق على ما في كتاب " الفريضة الغائبة " من حجج وبراهين على وجوب قتال حكام المسلمين الذين لا يطبقون شرع الله ، وكان من أهم الحجج والأدلة التي ساقها عبد السلام فرج لتأكيد صحة ما توصل إليه فتاوى ابن تيمية في الجهاد ، وسنقوم الآن بعرض رأي ابن تيمية في الجهاد لنرى هل كلام ابن تيمية في الجهاد ينطبق على الحكام المسلمين كما فهم عبد السلام فرج أم لا ؟

فتاوى ابن تيمية في الجهاد

من فتاوى ابن تيمية التي احتجت بها السلفية الجهادية قول ابن تيمية عندما سُئِل: "عن رجل تولى حكومة على جماعة من رماة البندق ويقول هذا شرع البندق وهو ناظر على مدرسة وفقهاء فهل إذا تحدث في هذا الحكم والشرع الذي يذكره تسقط عدالته من النظر أم لا ؟ وهل يجب على حاكم المسلمين الذي يثبت عدالته عنده إذا سمع أنه يتحدث في شرع البندق الذي لم يشرعه الله ولا رسوله أن يعزله من النظر أم لا ؟

فأجاب الحمد لله ليس لأحد أن يحكم بين أحد من خلق الله لا بين المسلمين ولا الكفار ولا الفتيان ولا رماة البندق ولا الجيش ولا الفقراء ولا غير ذلك إلا بحكم الله ورسوله ومن ابتغى غير ذلك يناوله قوله تعالى { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } وقوله تعالى { فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } فيجب على المسلمين أن يحكموا الله ورسوله في كل ما شجر بينهم ومن حكم بحكم البندق وشرع البندق أو غيره مما يخالف شرع الله ورسوله وحكم الله ورسوله وهو يعلم

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول فتوى شيخ الأزهر جاد الحق على جاد الحق حول كتاب " الفريضة الغائبة " الرجوع لكتاب " نقض الفريضة الغائبة " للإمام الأكبر جاد الحق على جاد الحق مجلة الأزهر عدد المحرم عام ١٤١٤هـ .

ذلك فهو من جنس التتار الذين يقدمون حكم الياسق [١] على حكم الله ورسوله ومن تعمد ذلك فقد قدح في عدالته ودينه ووجب أن يمنع من النظر في الوقف " [٢]

وهناك الفتوى المادرينية التي تعرف أيضاً بفتوى "التتار" وهذه الفتوى تعد الأساس الفقهي الأول لكل جماعات السلفية الجهادية في النصف الثاني من القرن العشرين، والتسويغ النظري والديني لعدد من أكبر عملياتها يأتي في مقدمتها اغتيال الرئيس محمد أنور السادات سنة ١٩٨١، حتى عمليات القاعدة الأم أو فروعها في كل من العراق والسعودية بالخصوص .

وتنسب هذه الفتوى إلى منطقة "ماردين" التي تقع الآن في الجنوب الشرقي من تركيا، وهي نفس المنطقة التي ولد فيها شيخ الإسلام ابن تيمية وتقع فيها بلدته حران، التي إليها ينسب وكانت بها عائلته، وقد استولى عليها التتار، وهو لا يزال ابن سبع سنين، فتركها هو وأهله، مستقرين بدمشق ، وتضم عرباً وتركماناً، وهي ذات أغلبية مسلمة وبها أقلية مسيحية وأيزيدية.

وخطورة هذه الفتوى وتأثيرها أنها تجاوزت التصور الإسلامي الفقهي لعلاقة المسلمين بالعالم، عبر تقسيم الديار إلى ثلاثة ديار: دار الإسلام ، ودار الكفر ، ودار العهد، حيث أنتجت ونحتت فتوى ماردين داراً جديداً تأخذ من دار الإسلام وتضيف لدار الكفر، وصفها ابن تيمية بأنها " دار مركبة " فيها الإسلام والكفر، يأتي الكفر من تطبيق الشرائع والقوانين الوضعية، رغم انتساب حكامها للإسلام، ويأتي الإسلام من إسلام مجتمعهم وأهلها .

فقد جاءت إجابة ابن تيمية مركبة في وصفه لدار ماردين، فبينما أكد على إسلام مجتمعها كفَّر حكامها من التتار ، المسلمين ، الذين كانوا يعتمدون كتاب جنكيز خان"الياسق" مرجعية لقوانينهم وأحكامهم . [٣]

---

(١) يقول ابن كثير عن الياسق " هو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعًا متبعًا، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله " تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٣١

(٢) ابن تيمية " الفتوى الكبرى" ج ٣٥ ص ٤٠٨

(٣) هاني نسيرة " مؤتمر ماردين دار السلام.. خلخلة علمية لأساس الفئة الضالة الفكري " موقع السكينة للحوار ١٧ / ١١ / ٢٠١١

نص الفتوى " في بَلد " مَاردِينَ " هَلْ هِيَ بَلَدُ حَرْب أَمْ بَلَدُ سِلْمٍ ؟ وَهَلْ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ الْمُقِيمِ بِهَا الْهِجْرَةَ إِلَى بِلادِ الإِسْلامِ أَمْ لا ؟ وَإِذَا وَجَبَتْ عَلَيْهِ الْهِجْرَةُ وَلَمْ يُهَاجِرْ وَسَاعَدَ أَعْدَاءَ الْمُسْلِمِينَ بِنَفْسِه أَوْ مَاله ، هَلْ يَأْثَمُ فِي ذَلِكَ ، وَهَلْ يَأْثَمُ مَنْ رَمَاهُ بِالنِّفَاقِ وَسَبَّهُ به أَمْ لا ؟ الْجَوَابُ : الْحَمْدُ للَّه دمَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالُهُمْ مُحَرَّمَةٌ حَيْثُ كَانُوا فِي مَارِدِينَ أَوْ غَيْرِهَا ، وَإِعَانَةُ الْخَارِجِينَ عَنْ شَرِيعَةِ دِينِ الإِسْلامِ مُحَرَّمَةٌ ، سَوَاءٌ كَانُوا أَهْلَ مَارِدِينَ أَوْ غَيْرَهُمْ ، وَالْمُقِيمُ بِهَا إِنْ كَانَ عَاجِزًا عَنْ إِقَامَةِ دِينِه وَجَبَتْ الْهِجْرَةُ عَلَيْه ، وَإِلا اُسْتُحِبَّتْ وَلَمْ تَجِبْ وَمُسَاعَدَتُهُمْ لِعَدُوِّ الْمُسْلِمِينَ بِالأَنْفُسِ وَالأَمْوَالِ ، مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ، وَيَجِبُ عَلَيْهِمْ الامْتِنَاعُ مِنْ ذَلِكَ بِأَيِّ طَرِيقٍ أَمْكَنَهُمْ مِنْ تَغَيُّبٍ ، أَوْ تَعْرِيضٍ ، أَوْ مُصَانَعَة ، فَإِذَا لَمْ يُمْكِنْ إِلا بِالْهِجْرَةِ تَعَيَّنَتْ ، وَلا يَحِلُّ سَبُّهُمْ عُمُومًا وَرَمْيُهُمْ بِالنِّفَاقِ ، بَلْ السَّبُّ وَالرَّمْيُ بِالنِّفَاقِ يَقَعُ عَلَى الصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّة ، فَيَدْخُلُ فِيهَا بَعْضُ أَهْلِ مَارِدِينَ وَغَيْرُهُمْ . وَأَمَّا كَوْنُهَا دَارَ حَرْبٍ أَوْ سِلْمٍ فَهِيَ مُرَكَّبَةٌ فِيهَا الْمَعْنَيَانِ لَيْسَتْ بِمَنْزِلَةِ دَارِ السِّلْمِ الَّتِي يَجْرِي عَلَيْهَا أَحْكَامُ الإِسْلامِ ، لِكَوْنِ جُنْدِهَا مُسْلِمِينَ ، وَلا بِمَنْزِلَةِ دَارِ الْحَرْبِ الَّتِي أَهْلُهَا كُفَّارٌ، بَلْ هِيَ قِسْمٌ ثَالِثٌ يُعَامَلُ الْمُسْلِمُ فِيهَا بِمَا يَسْتَحِقُّهُ وَيُقَاتَلُ الْخَارِجُ عَنْ شَرِيعَةِ الإِسْلامِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ ." (١)

مؤتمر مدينة ماردين والفتوى الماردينية

في يومي السبت والأحد الموافقين (٢٧-٢٨/٣/٢٠١٠م) عُقد في مدينة ماردين جنوب شرق تركيا مؤتمر بعنوان: (ماردين دار السلام) نظمه المركز العالمي للتجديد والترشيد بلندن بالتعاون مع مؤسسة كانبوس الإسلامية للاستشارات بلندن وجامعة أرتوكلو بماردين حضره جمع من العلماء وطلاب العلم والمفكرين من عدد من الدول العربية والإسلامية ناقشوا فيه فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية الشهيرة والتي جعل فيها بلد ماردين – والتي كان أهلها مسلمين ويحكمهم آنذاك المغول– بلداً مركباً لا هو دار حرب ولا دار سلم .

وأعلن المؤتمر أنه لم يعد هناك مجال لتطبيق فتوى الفقيه ابن تيمية الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي، والتي تقضي بالعنف المتشدد وتقسيم المسلمين في القرون الوسطى للعالم إلى "دار إسلام" و"دار كفر" .

---

(١) ابن تيمية " إقامة الدليل على إبطال التحليل " ج ٣ ص ٢٥٠، ٢٥١

وقال المؤتمر أن من يلتمس العون في فتوى ابن تيمية لقتل المسلمين أو غير المسلمين ضل في تفسيره .

واقتبس أسامة بن لادن زعيم القاعدة مراراً فتوى ابن تيمية في دعوته المسلمين إلى الجهاد ضد الولايات المتحدة وعيرها من القوى الغربية .

وأضاف البيان الصادر باللغة العربية في ختام المؤتمر أنه لا يجوز لأي فرد مسلم أو جماعة مسلمة أن تعلن الحرب أو تنخرط في الجهاد من تلقاء نفسها.

ويقول علماء الدين المسلمون إن هذه الفتاوى قد لا تقنع المتشددين لكنها قد تكون مفيدة في إبعاد المسلمين الذين لم ينهجوا نهج التشدد عن دعم المتشددين.

وفتوى ابن تيمية هي نص شهير في أوساط المتشددين يجيز للمسلمين أن يكفروا مسلمين آخرين ويعلنوا الحرب عليهم .

وقال الفقهاء إنه لا بد من النظر إلى هذا الرأي في سياقه التاريخي حين كان المغول يغيرون على أراضي المسلمين .

لكن علماء الدين المسلمين قالوا إن المؤتمر كان معنيّاً حقيقة بتجاوز الرأي القديم الذي يقسم العالم الإسلامي إلى دارين وإعادة تفسير الإسلام في ضوء الظروف السياسية المتغيرة.

وقال الإعلان إن ظهور الدول المدنية التي تحمي الحقوق الدينية والعرقية والقومية اقتضى إعلان العالم كله كمكان للتسامح والتعايش السلمي بين جميع الفصائل والجماعات الدينية.

وفي مداخلة مع "العربية"، قال الداعية السعودي الشيخ راشد الزهراني، إن مسألة التقسيم لدار إيمان ودار كفر موجود في كل العقائد، وموجود في الإسلام أيضاً، ولكن هناك فهم خاطئ فالبعض يكفر حتى الدول الإسلامية ويدعو لإعلان الجهاد ضدها، ولا يجوز لأي شخص أن يطبق من تلقاء نفسه.

ونبَّه الزهراني إلى أنه في وقتنا الحالي هناك دول أوروبية يوجد بها تسامح مع المسلمين خاصة قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر وأنه يجب احترام من يحترم عقدينا ولا يجوز لأي شخص إعلان الجهاد.

وشدد الداعية على أن المشكلة هي في الفهم والتفسير الخاطئ لفتاوى ابن تيمية والخروج بها عن السياق التاريخي الذي صدرت فيه. [١]

---

(١) موقع العربية نت ٣١ مارس ٢٠١٠م

وابن تيمية قد بيّن أسباب قتال التتار رغم إعلانهم الإسلام فقال : " فَقَدْ عُلِمَ أَنَّ هَؤُلاءِ الْقَوْمَ جَارُوا عَلَى الشَّامِ فِي الْمَرَّةِ الأُولَى عَامَ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ، وَأَعْطَوْا النَّاسَ الأَمَانَ وَقَرَءُوهُ عَلَى الْمِنْبَرِ بِدِمَشْقَ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ سَلَبُوا مِنْ ذَرَارِيِّ الْمُسْلِمِينَ، مَا يُقَالُ : إنَّهُ مِائَةُ أَلْفٍ، أَوْ يَزِيدُ عَلَيْهِ، وَفَعَلُوا بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَبِجَبَلِ الصَّالِحِيَّةِ، وَنَابُلُسَ، وَحِمْصَ، وَدَارِيَّا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ مَا لا يَعْلَمُهُ إلا اللَّهُ حَتَّى يُقَالَ : إنَّهُمْ سَبَوْا مِنْ الْمُسْلِمِينَ قَرِيبًا مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ وَجَعَلُوا يَفْجُرُونَ بِخِيَارِ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَسَاجِدِ وَغَيْرِهَا : كَالْمَسْجِدِ الأَقْصَى، وَالأُمَوِيِّ، وَغَيْرِهِ، وَجَعَلُوا الْجَامِعَ الَّذِي بِالْعُقَيْبَةِ دَكًّا، وَقَدْ شَاهَدْنَا عَسْكَرَ الْقَوْمِ فَرَأَيْنَا جُمْهُورَهُمْ لا يُصَلُّونَ، وَلَمْ نَرَ فِي عَسْكَرِهِمْ مُؤَذِّنًا وَلا إمَامًا. وَقَدْ أَخَذُوا مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ وَذَرَارِيِّهِمْ، وَخَرَّبُوا مِنْ دِيَارِهِمْ مَا لا يَعْلَمُهُ إلا اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ فِي دَوْلَتِهِمْ إلا مَنْ كَانَ مِنْ شَرِّ الْخَلْقِ، إمَّا زِنْدِيقٌ مُنَافِقٌ لا يَعْتَقِدُ دِينَ الإِسْلامِ فِي الْبَاطِنِ، وَإِمَّا مَنْ هُوَ مِنْ شَرِّ أَهْلِ الْبِدَعِ كَالرَّافِضَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَالاتِّحَادِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ.

وَإِمَّا مَنْ هُوَ أَفْجَرُ النَّاسِ وَأَفْسَقُهُمْ، وَهُمْ فِي بِلادِهِمْ مَعَ تَمَكُّنِهِمْ لا يَحُجُّونَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ، وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يُصَلِّي وَيَصُومُ، فَلَيْسَ الْغَالِبُ عَلَيْهِمْ إقَامَ الصَّلاةِ وَلا إيتَاءَ الزَّكَاةِ، وَهُمْ يُقَاتِلُونَ عَلَى مُلْكِ جِنْكِيزْ خَانْ، فَمَنْ دَخَلَ فِي طَاعَتِهِمْ جَعَلُوهُ وَلِيًّا لَهُمْ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا وَمَنْ خَرَجَ عَنْ ذَلِكَ جَعَلُوهُ عَدُوًّا لَهُمْ، وَإِنْ كَانَ مِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ وَلا يُقَاتِلُونَ عَلَى الإِسْلامِ وَلا يَضَعُونَ الْجِزْيَةَ، وَالصَّغَارَ، بَلْ غَايَةُ كَثِيرٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ مِنْ أَكَابِرِ أُمَرَائِهِمْ وَوُزَرَائِهِمْ أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُ عِنْدَهُمْ، كَمَنْ يُعَظِّمُونَهُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. كَمَا قَالَ أَكْبَرُ مُقَدَّمِيهِمْ الَّذِينَ قَدِمُوا إلَى الشَّامِ، وَهُوَ يُخَاطِبُ رُسُلَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَتَقَرَّبُ إلَيْهِمْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ فَقَالَ : هَذَانِ آيَتَانِ عَظِيمَتَانِ جَاءَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ : مُحَمَّدٌ، وَجِنْكِيزْ خَانْ، فَهَذَا غَايَةُ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ أَكْبَرُ مُقَدَّمِيهِمْ إلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ أَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَيْهِ، وَسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ، وَخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ، وَبَيْنَ مَلِك كَافِرٍ مُشْرِك مِنْ أَعْظَمِ الْمُشْرِكِينَ، كُفْرًا وَفَسَادًا وَعُدْوَانًا مِنْ جِنْسِ بُخْتَ نَصَّرَ وَأَمْثَالِهِ. وَذَلِكَ أَنَّ اعْتِقَادَ هَؤُلاءِ التَّتَارِ كَانَ فِي جِنْكِيزْ خَانْ عَظِيمًا فَإِنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ مِنْ جِنْسِ مَا يَعْتَقِدُهُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ، وَيَقُولُونَ : إنَّ الشَّمْسَ حَبَّلَتْ أُمَّهُ، وَأَنَّهَا كَانَتْ فِي خَيْمَةٍ فَنَزَلَتْ الشَّمْسُ مِنْ كُوَّةِ الْخَيْمَةِ فَدَخَلَتْ فِيهَا حَتَّى حَبِلَتْ، وَمَعْلُومٌ عِنْدَ كُلِّ ذِي دِينٍ أَنَّ هَذَا كَذِبٌ. وَهَذَا دَلِيلٌ

عَلَى أَنَّهُ وَلَدُ زِنًا، وَأَنَّ أُمَّهُ زَنَتْ فَكَتَمَتْ زِنَاهَا، وَأَخْفَتْ هَذَا حَتَّى تَدْفَعَ عَنْهَا مَعَرَّةَ الزِّنَا، وَهُمْ مَعَ هَذَا يَجْعَلُونَهُ أَعْظَمَ رَسُولٍ عِنْدَ اللَّهِ فِي تَعْظِيمِ مَا سَنَّهُ لَهُمْ، وَشَرَعَهُ بِظَنِّهِ، وَهَوَ حَتَّى يَقُولُوا لِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْمَالِ هَذَا رِزْقُ جِنْكِيزْ خَانْ، وَيَشْكُرُونَهُ عَلَى أَكْلِهِمْ وَشُرْبِهِمْ، وَهُمْ يَسْتَحِلُّونَ قَتْلَ مَنْ عَادَى مَا سَنَّهُ لَهُمْ هَذَا الْكَافِرُ الْمَلْعُونُ الْمُعَادِي لِلَّهِ وَلِأَنْبِيَائِهِ وَرَسُولِهِ وَعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ مُقَدَّمِيهِمْ كَانَ غَايَتُهُ بَعْدَ الإِسْلامِ أَنْ يَجْعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ بِمَنْزِلَةِ هَذَا الْمَلْعُونِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ " مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ " كَانَ أَقَلَّ ضَرَرًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذَا، وَادَّعَى أَنَّهُ شَرِيكُ مُحَمَّدٍ فِي الرِّسَالَةِ، وَبِهَذَا اسْتَحَلَّ الصَّحَابَةُ قِتَالَهُ، وَقِتَالَ أَصْحَابِهِ الْمُرْتَدِّينَ، فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ فِيمَا يُظْهِرُهُ مِنْ الإِسْلامِ يَجْعَلُ مُحَمَّدًا كَجِنْكِيزْ خَانْ، وَإِلا فَهُمْ مَعَ إظْهَارِهِمْ لِلإِسْلامِ يُعَظِّمُونَ أَمْرَ " جِنْكِيزْ خَانْ " عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْمُتَّبِعَةِ لِشَرِيعَةِ الْقُرْآنِ وَلا يُقَاتِلُونَ أُولَئِكَ الْمُتَّبِعِينَ لِمَا سَنَّهُ " جِنْكِيزْ خَانْ " كَمَا يُقَاتِلُونَ الْمُسْلِمِينَ بَلْ أَعْظَمَ.

أُولَئِكَ الْكُفَّارُ يَبْذُلُونَ لَهُ الطَّاعَةَ وَالانْقِيَادَ، وَيَحْمِلُونَ إلَيْهِ الأَمْوَالَ، وَيُقِرُّونَ لَهُ بِالنِّيَابَةِ، وَلا يُخَالِفُونَ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ إلا كَمَا يُخَالِفُ الْخَارِجُ عَنْ طَاعَةِ الإِمَامِ لِلإِمَامِ، وَهُمْ يُحَارِبُونَ الْمُسْلِمِينَ وَيُعَادُونَهُمْ أَعْظَمَ مُعَادَاةٍ وَيَطْلُبُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ الطَّاعَةَ لَهُمْ وَبَذْلَ الأَمْوَالِ وَالدُّخُولَ فِيمَا وَضَعَهُ لَهُمْ، ذَلِكَ الْمَلِكُ الْكَافِرُ الْمُشْرِكُ الْمُشَابِهُ لِفِرْعَوْنَ أَوْ النُّمْرُودِ وَنَحْوِهِمَا. بَلْ هُوَ أَعْظَمُ فَسَادًا فِي الأَرْضِ مِنْهُمَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : {إنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ}. وَهَذَا الْكَافِرُ عَلا فِي الأَرْضِ يَسْتَضْعِفُ أَهْلَ الْمِلَلِ كُلَّهُمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَالْيَهُودِ، وَالنَّصَارَى وَمَنْ خَالَفَهُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ بِقَتْلِ الرِّجَالِ، وَسَبْيِ الْحَرِيمِ، وَيَأْخُذُ الأَمْوَالَ وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ، وَالنَّسْلَ، وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَيَرُدُّ النَّاسَ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ سُلَكِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ إلَى أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا ابْتَدَعَهُ مِنْ سُنَّتِهِ الْجَاهِلِيَّةِ وَشَرِيعَتِهِ الْكُفْرِيَّةِ، فَهُمْ يَدَّعُونَ دِينَ الإِسْلامِ وَيُعَظِّمُونَ دِينَ أُولَئِكَ الْكُفَّارِ عَلَى دِينِ الْمُسْلِمِينَ وَيُطِيعُونَهُمْ وَيُوَالُونَهُمْ أَعْظَمَ بِكَثِيرٍ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمُوَالاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْحُكْمُ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَ أَكَابِرِهِمْ بِحُكْمِ الْجَاهِلِيَّةِ، لا بِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. " (١)

ولقد أطلت الاستشهاد بكلام ابن تيمية لإثبات أن قياس حكام المسلمين بحكام التتار قياس باطل ، وتقسيم بلاد المسلمين إلى دار حرب ودار سلم الآن تقسيم باطل .

---

(١) ابن تيمية الفتاوى الكبرى ج ٣ ص ٥٤١ – ٥٤٣

رأي ابن تيمية في الخروج على الحاكم

وابن تيمية الذي يستشهد بأقواله أبناء السلفية الجهادية في التاريخ المعاصر(١)، ممن لا يحرم الخروج على الحاكم وإن كان ظالماً ومغتصباً للحكم ومستبداً به .

يقول ابن تيمية : " وَمِنْ دِينِنَا نُصَلِّي الْجُمَعَ وَالأَعْيَادَ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَغَيْرِهِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الصَّلَوَاتِ الْجَمَاعَاتِ، كَمَا رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي خَلْفَ الْحَجَّاجِ .. وَنَرَى الدُّعَاءَ لأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ بِالصَّلاحِ وَالإِقْرَارِ بِإِمَامَتِهِمْ، وَتَضْلِيلِ مَنْ رَأَى الْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ إِذَا ظَهَرَ مِنْهُمْ تَرْكُ الاسْتِقَامَةِ، وَنَدِينُ بِتَرْكِ الْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ بِالسَّيْفِ وَتَرْكِ الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ. (٢)

وفي الصلاة خلف الفاجر إقرار بفجره وتأييد لسوء عمله وقد أمرنا النبي ﷺ بوجوب تغيير المنكر قدر الاستطاعة فإن عجز الإنسان عن الضرب على يد الظالم الفاجر فلينصحه بالحكمة والموعظة الحسنة فإن عجز عن نصحه فليس أقل من اعتزاله وعدم الصلاة خلفه وذلك أضعف الإيمان .

وقد منع النبي ﷺ رجلاً بصق في اتجاه القبلة أن يصلي إماماً، فروى أبو داود بإسناد جيد من حديث السائب بن خلاد : " أَنَّ رَجُلا أَمَّ قَوْمًا فَبَصَقَ فِي الْقِبْلَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْظُرُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ فَرَغَ لا يُصَلِّي لَكُمْ فَأَرَادَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُصَلِّيَ لَهُمْ فَمَنَعُوهُ وَأَخْبَرُوهُ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ نَعَمْ وَحَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ إِنَّكَ آذَيْتَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ منعه أن يصلي إماماً بقومه وقال له : " إنك آذيت الله ورسوله " .

هذا عن الذي بصق في القبلة فما بالنا بمن هدم البيت على من احتمى به مع أن الله تعالى يقول { وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا } (آل عمران : ٩٧) فكيف بالذي ضُرِبَ به المثل في الطغيان والجبروت وقتل وصلب وعذّب من خافه الرأي .

يقول ابن كثير عن الحجاج ابن يوسف : " كان ناصبياً يبغض عليّاً وشيعته في هوى آل مروان بني أمية، وكان جباراً عنيداً، مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة. وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر . " (٣)

---

(١) الذين يكفرون المجتمع حكاماً ومحكومين بدعوى أن حكام المسلمين كفار لأنهم لم يحكموا بشرع الله واستبدلوا قوانين وضعية به ، ويكفرون المحكومين بدعوى أنهم قبلوا ذلك وسكتوا عليه .

(٢) ابن تيمية الفتاوى الكبرى " ج ٦ص ٦٥٩

(٣) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ٩ ص ١٥٣

فإنه أجدر وأحق أن يمنع من الإمامة لأن تقديمه للإمامة تعظيم له ، والفاسق ليس أهلاً لهذا التعظيم ، والإمام يقتدي به الناس في الغالب ويتعلمون منه ، ويقبلون توجيهاته وإرشاداته ، فكلما كان عدلاً مستقيماً كان أقرب إلى انتفاع الناس به وقبولهم لكلامه .

وإذا كان فاسقاً لم يقبل الناس منه ، بل ربما يكون سبباً لفتنة بعضهم . فإن لم يستطع الناس منعه من الإمامة فأضعف الإيمان ألا يصلوا خلفه حتى لا يقروه على فعله .

أما المسح على الخفين في السفر والحضر فهذا من حسن فقه ابن تيمية وانحيازه لمصلحة المُكَلَّف ورفع الحرج عنه .

فكثير من الموظفين والعمال ورجال الشرطة والقوات المسلحة يتركون الصلاة في محل عملهم حتى يضيع وقتها لمشقة خلع الأحذية والجوارب وغسل القدمين ، خاصة في البرد القارس ، فجواز المسح على الخفين والصلاة فيهما يرفع عنهم الحرج وييسر لهم أداء الصلاة في أوقاتها .

وكذلك الدعاء للحكام وأولياء الأمر بالصلاح والتقوى وتوفيق الله لهم فيما يحب ويرضى .

فولاة الأمر والأمراء هم أحق الناس بالدعاء وأولى الناس بالدعاء؛ لأن في صلاحهم صلاح الرعية والخير الكثير للرعية، والإمام أحمد كان يقول: لو كان لي دعوة مستجابة لجعلتها للسلطان، والفضيل بن عياض كان يقول: لو كان لي دعوة مستجابة لجعلتها للسلطان. وذلك لأنه يريد صلاح الناس، والسلطان إذا كان صالحاً حصل الخير الكثير في صلاحه، فهم أولى من يدعى لهم. والرسول ﷺ نص عليهم في قوله: " الدِّينُ النَّصِيحَةُ قَالُوا : لِمَنْ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : لِكِتَابِ الله ، وَلِنَبِيِّهِ ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ." (رواه مسلم وغيره)

نص عليهم مع أنه لو قال: وللمسلمين دخلوا في هذا العموم؛ إذ يدخل فيه الرعاة والرعية، لكنه نص عليهم لعظم شأن صلاح الولاة، وأنَّه بصلاحهم يكون الخير الكثير. (١)

---

(١) عبد المحسن العباد " شرح سنن أبو داوود " ج ٦ ص ٤٩١

لكن إذا خرج الولاة والأمراء على الحق وأصبحوا أئمة جور وجب جهادهم عند القدرة ، وعدم طاعتهم إن أمروا بمعصية ، واعتزالهم وعدم تأييدهم عن العجز .

فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَأَجَّجَ لَهُمْ نَارًا وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقْتَحِمُوا فَهَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَفْعَلُوا وَقَالَ آخَرُونَ إِنَّمَا فَرَرْنَا مِنَ النَّارِ فَأَبَوْا ثُمَّ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ :« لَوْ دَخَلُوهَا لَمْ يَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ " (متفق عليه)

أما تحريم الخروج على الحاكم مع تركهم الاستقامة والصلاح فهذا مخالف لقوله لحديث النبي الصحيح : " أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ أحدكم عند إمَامٍ جَائِرٍ " (رواه الطبراني عن واثلة)

وقوله ﷺ: " أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ" (أبو داود ، وابن ماجه عن أبي سعيد)

وقوله " أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر " رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن)

وابن تيمية الذي عُرف بجرأته في الصدع بما يعتقد وإن خالف المذاهب الأربعة ، وابن تيمية الذي جاهر بالعداء لكل من اعتقد غير اعتقاده في ذات الله وصفاته ولم يلاطف خصومه ولم يرفق بهم مما أنبت في قلوبهم العداء له وإغراء السلطان به ، ابن تيمية الذي عاش في ظل دولة سلاطين المماليك دولة الظلم والمظالم ، إلا من رحم ربي، يردد في آثاره الفكرية تلك المأثورة التي تبرأ منها الشريعة ، والتي تقول : " إن السلطان ظل الله في الأرض " [١] ويحبذ الطاعة للإمام الجائر لأن ضررها أقل بما يقارن من أضرار العصيان .

والحقيقة أن ابن تيمية تابع إمامه أحمد وغيره في ذلك ففي مقالات الإسلاميين يقول الأشعري : " إن أهل الحديث قد اتفقوا على أن السف (أي استخدام القوة في التغيير) باطل ، ولو قُتِلَتْ الرجال وسبيت الذرية ، وأن الإمام قد يكون عادلاً ، ويكون غير عادل ، وليس لنا إزالته وإن كان فاسقاً ، وأنكروا الخروج على

---

(١) قال الألباني عن هذا الحديث أنه منكر .

السلطان ولم يروه ! " ويقول ابن حنبل : " ومن غلب بالسيف حتى صار خليفة ، وسمي أمير المؤمنين ، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً عليه ، براً كان أو فاجراً ، فهو أمير المؤمنين " فهو هنا لا يبيح للناس استخدام السيف لمقاومة الوالي الفاجر الذي استبد بحكومتهم حتى ولو كان استخدام السيف لمقاومة الوالي الفاجر رداً على استخدامه له في الاستبداد بما لا يستحق من السلطة والسلطان . [١]

وهذا الرأي لبعض العلماء كان وراء وقوع بلاد المسلمين تحت نير الحكام الظالمين من بني أمية والعباس وعثمان إذ سوّغ لطغاة الحكام طغيانهم وحرم عدم خروج الناس عليهم .

والعجيب أن يستشهد بابن تيمية في الخروج على الحاكم بل وقتله !!

مراجعات السلفية الجهادية

وفي ٥ يوليو ١٩٩٧م، أصدر مجلس شورى الجماعة الإسلامية بياناً يعلن فيه وقف جميع العمليات المسلحة داخل مصر وخارجها وكذا وقف البيانات الإعلامية المحرضة عليها، وقد تم إعلان هذا البيان عبر أحد متهمي الجماعة الإسلامية الذي كان مقدماً للمحاكمة ضمن مجموعة من أعضاء الجماعة الإسلامية أمام المحكمة العسكرية العليا بالقاهرة، وقد تلا البيان أمام وسائل الإعلام التي كانت تجمعت بقاعة المحكمة لحضور أولى جلسات المحاكمة .

وبعده تتابعت الإشارات من مجلس شورى الجماعة الإسلامية بالسجن لترسل للحكومة ولوسائل الإعلام رسائل فائقة الوضوح بشأن المسلك الجديد الذي باتت تسلكه الجماعة إزاء الأحداث .

وبناء على جهود وضغوط مجلس شورى الجماعة الإسلامية بالسجن صدر بيان من مجلس شورى الجماعة الإسلامية بخارج مصر في ٨ ديسمبر ١٩٩٧م يعلن وقف العمليات التي تستهدف السياح الأجانب .

كما أرسل كرم زهدي رئيس مجلس شورى الجماعة الإسلامية بالسجن إلى رفاعي طه رئيس مجلس شورى الجماعة بخارج مصر ما دعاه لإعلان انسحابه

---

(١) محمد عمارة " السلفية " دار المعارف للطباعة والنشر تونس ص ٤٩

من "الجبهة العالمية لجهاد الصليبيين واليهود" بقيادة أسامة بن لادن في مارس ١٩٩٨م، ثم أعلن بعد ذلك مجلس شورى الجماعة الإسلامية بالخارج وقف جميع العمليات المسلحة داخل وخارج مصر،وجاء ذلك الإعلان في ٢٨ مارس ١٩٩٩م.

ورغم أن هذا كله قد أدى إلى استقالة كل من أسامة رشدي ورفاعي طه ومحمد شوقي الإسلامبولي من مجلس شورى الجماعة الإسلامية بالخارج إلا أن مبادرة الجماعة الإسلامية قد انطلقت منذئذ، تسطع حيناً وتخبو حيناً حسب أولويات الجهاز الأمني وترتيباته إلى أن بلغت منتهاها.

كانت المرحلة الأولى في عملية مبادرة الجماعة الإسلامية هي البيانات التي أشرنا إليها آنفا، لكن سرعان ما جاءت المرحلة الثانية وهي التي تم الإعلان عنها ابتداءً من يناير عام ٢٠٠٢م بصدور أربع كتب منسوبة لمن أطلق عليهم القادة التاريخيين للجماعة، وقد تم تخصيص كل من الكتب الأربعة لقضية رئيسة لتغطي الكتب الأربعة أربع قضايا كبرى تتعلق بما راجعته الجماعة من أفكارها السابقة.

أحدها: فكرة مبادرة وقف العنف بصفة عامة، وذلك في كتاب "مبادرة وقف العنف رؤية واقعية ونظرة شرعية"، وقد تضمن بالإضافة للمقدمة تبريراً شرعيّاً وسياسيّاً للمبادرة عبر ثلاثة أبواب أساسية الأول عن المصالح والمفاسد وفقه الموازنات في الإسلام وقد تضمن نقلاً عن الدكتور يوسف القرضاوي استغرق وحده أكثر من خمس صفحات كاملة، والباب الثاني تضمن التبرير السياسي للمبادرة بالكلام عن إسرائيل وأمريكا والعلمانيين واستفادة كل منهم من ما أسماه الكتاب "القتال التي تشنه الجماعة ضد الحكومة المصرية" (حسب رأي وتعبير الجماعة الإسلامية)، أما الباب الثالث والأخير فقد تضمن ما أطلقوا عليه موانع القتال وهو كالتفصيل لرؤيتهم الشرعية الموجبة لمنع العمليات المسلحة.

الفكرة الثانية: التأصيل تفصيلاً لفكرة الرجوع عن تغيير المنكرات بالقوة وقد تضمنها كتاب بعنوان "النصح والتبيين في تصحيح مفاهيم المحتسبين" .

الفكرة الثالثة: التأصيل تفصيلاً لفكرة الرجوع عن القيام بأي عمليات مسلحة وقد تضمنها كتاب بعنوان "تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء" .

الفكرة الرابعة: الرد على فكر الغلو في الدين وعدم العذر بالجهل في العقائد وتكفير موظفي الدولة والتكفير بالمعصية وقد تضمن ذلك كله كتاب بعنوان "حرمة

الغلو في الدين وتكفير المسلمين" وقد لاحظنا تأثر الكتاب بكتابي الشيخ القرضاوي "ظاهرة الغلو في التكفير" و"الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف"، وإن لم يذكر مؤلفوه ذلك.

ثم جاءت المرحلة الثالثة وفيها بدأت الجماعة تصدر كتباً عديدة تعليقاً على أحداث جارية وأصدرت ثلاثة كتب هي: "تفجيرات الرياض الأحكام والآثار" و"نهر الذكريات" و" استراتيجية القاعدة ".

ثم جاءت مرحلة رابعة بدأ فيها عدد من قادة مجلس شورى الجماعة بتأليف كتب عديدة تتناول نفس قضايا العمل المسلح والخروج على الحكام ونحوها ولكن بشكل مفصل جداً، وقد صدر في بداية هذه المرحلة خمسة كتب تأليف ناجح إبراهيم لكن نسب فيها لبقية أعضاء مجلس الشورى الموافقة عليها، ثم صدر له كتاب "الحاكمية" الذي أثار لغطاً كثيراً داخل السجون، كما ألف في هذا الوقت كل من عصام دربالة وعاصم عبد الماجد كل على حدة كتباً خاصة بهما تتناول قضايا مشابهة لكنها لم تطبع حينئذ، لكنها كان يتم تداولها مصورة بين أعضاء الجماعة الإسلامية بالسجن، وقد رأيت بعضها بنفسي حينئذ في سجن استقبال طرة عام ٢٠٠٦م، لكنها تم طبعها في السنوات التالية.

وبعد ذلك جاءت المرحلة الأخيرة وهي المستمرة حتى الآن وهي التي تعلن فيها الجماعة رأيها في الأفكار والأحداث عبر موقعها الرسمي على الإنترنت كما يصدر أغلب قادتها من أعضاء مجلس الشورى كتباً باسمهم تكرر أرائهم الجديدة والتي سبق وأعلنوها.

العملية الثانية- مراجعات جماعة الجهاد الإسلامي المصرية والتي أعلنتها "وثيقة ترشيد العمل الجهادي في مصر والعالم" تأليف د.سيد إمام في صيف ٢٠٠٧م:

لم يتم الإعلان عن تفاصيل ما سمي إعلامياً بمراجعات الجهاد إلا عندما تم نشر "وثيقة ترشيد العمل الجهادي في مصر والعالم" تأليف الدكتور سيد إمام الشريف والمعروف بالاسم الحركي "الدكتور فضل" في جريدتي "الجريدة" اليومية الكويتية، و"المصري اليوم" اليومية المصرية، وقد تم النشر فيهما على ١٥ حلقة يومية ابتداء من ١٨-١١-٢٠٠٧م .

ويلاحظ أن الوثيقة اكتفت بالكلام عن الجانب الفقهي للقضايا التي تعرضت لها، بينما يمكن أن نلمح جانباً بسيطا لكنه مهم من الأبعاد السياسية للمراجعات من خلال

الحوار الصحفي المطول الذي أجرته جريدة الحياة اليومية التي تصدر في لندن مع د. سيد إمام على ست حلقات.

ويمكن تلخيص الجوانب الهامة في الوثيقة على النحو التالي :

(١) دين الإسلام ملزم لجميع المكلفين وهو الاستسلام والانقياد لشرع الله والذي منه الجهاد في سبيل الله و ذلك كله منوط بالاستطاعة .

(٢) أ- التكليف منوط بالعقل والعلم والقدرة.

ب- هناك فرق بين نقل العلم وبين إنزال العلم على الواقع (فتوى العالم).

ج- الورع واجب مع ذلك كله فالنبي ﷺ قد تورع في تمرة، فالتورع في الدماء والأموال أولى قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا } ، فإذا دخلت الشبهة فالكف واجب قال ﷺ " مَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ وَدِينِهِ ".

د- لا تقبل فتوى من أحد إلا بحجة (الدليل الشرعي) من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس صحيح .

وفي مقام الجهاد فهو كغيره من أمور الدين القدرة عليه من شروط وجوبه إلا أن القدرة في الجهاد لا تنحصر في ذات المسلم كالقدرة البدنية والمالية وإنما تتعداه إلى واقع الظروف المحيطة به من الموافقين والمخالفين .

ولهذا فقد أثنى الله تعالى على المجاهدين في سبيل الله كما أثنى على أصحاب الكهف لما اعتزلوا قومهم، وكذلك أثنى الله على مؤمن آل فرعون الذي كتم إيمانه، هذا كله بالرغم من أن هؤلاء الثلاثة قد واجهوا نفس الواقع (وهو حشد من المخالفين في الدين) إلا أن ردود أفعالهم التي واجهوا بها هذا الواقع قد اختلفت، فهذا جاهد، وهذا اعتزل، وهذا تخفى بدينه، ومع ذلك فالكل محمود لأن كلا منهم قد عمل بما وجب عليه شرعاً في وقته ومكانه وحدود استطاعته .

وهكذا يجب على المسلم أن يتفقه في دينه كي يختار الواجب الشرعي المناسب لواقعه وقدرته.

والمستضعف والعاجز لا يجب عليهما الجهاد .

(٣) فاقد النفقة لا يجب عليه الجهاد، وإن كان فرض عين { لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ } عذرت أصحاب الأعذار في تبوك برغم تعين القتال بقوله انفروا خفافاً وثقالاً "، ويلزم المجاهد نفقة أهله قال ﷺ " كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ " (رواه مسلم)

(٤) ومن شروط وجوب الجهاد إذن الوالدين وإذن الدائن بذلك .

(٥) المحافظة على ذات المسلمين وقوتهم من مقاصد الشريعة :
فالمقصود من الجهاد إظهار الدين والتمكين له، فالمحافظة على المسلمين وعدم الدفع بهم إلى خوض ما لا يعود على الدين بنفع أو بنصر كالمواجهات المهلكة واجب شرعي.
(٦) النهى عن الخروج على الحكام في بلاد المسلمين:
فهناك فرق بين العلم بكفر السلطان وبين وجوب الخروج عليه فلا يجب عند العجز أو إذا غلبت المفسدة في الخروج، والفقيه يجب عليه أن يختار أهون الشرَّين وأخف الضررين.
(٧) النهى عن التعرض بالأذى للأجانب والسياح في بلاد المسلمين:
وذلك لأنهم مستأمنين وقد اتفق العلماء على أن الأمان يشمل كل قول أو إشارة فهم منها الأجنبي أنها أمان فهو آمن حتى لو لم تكن هذه الكلمة أو الإشارة تعني في حقيقتها الأمان وهذا هو هدى الخلفاء الراشدين والصحابة رضي الله عنهم.
(٨) نهى من دخل البلاد الأجنبية بإذن حكومتها من الغدر بهم:
وهذه هي مسألة العمليات الجهادية في دار الحرب وهي لا تجوز لسببين:
أ- انتشار المسلمين في معظم بلاد العالم، ولا يجوز قتل المسلمين المختلطين بالكفار بدعوى التترس لأن قتل الترس المسلم ليس في إجازته نص وإنما هو اجتهاد ولا يجوز إلا للضرورة.
ب- أن من دخل بلاد الكفار بأمانهم لا يحل له أن يخونهم في شيء لحديث " إنا لا يصلح في ديننا الغدر".
(٩) النهى عن قتل المدنين في بلاد المسلمين :
فالناس فيهم المسلم وغير المسلم و مستور الحال و مجهول الحال، وإذا اختلط الحلال بالحرام يحرم الكل لحديث: " لاَ يَزَالُ الْمَرْءُ في فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا " (رواه البخاري)
(١٠) من ضوابط التكفير في الشريعة:
التكفير حكم شرعي يستلزم النظر في فعل المكلف والنظر في النص القاضي بكفر من فعل هذا الفعل ... هل هو نص صريح في الكفر الأكبر أم محتمل ؟
ومن ذلك أيضاً، النظر في حال المكلف من حيث خطأه أو نسيانه أو وقوع إكراه عليه، أو انطباق حالة الجهل المعذور صاحبه عليه.
ومن ذلك أيضاً، النظر في مسألة استتابته، لأن له الحق في التوبة.
وكذا النظر في مدى القدرة على معاقبته، وهذه لا تكون إلا مع التمكين.

وأيضا النظر في المصلحة والمفسدة المترتبة على معاقبته.

(١١) معاملة أهل الكتاب المقيمين في بلاد المسلمين:

فلا خلاف بين العلماء على وجوب معاملتهم بالحسنى وعدم إيذائهم، وأنهم ليسوا أهل ذمة بل مواطنون.

(١٢) مسألة جهاد المنفرد:

لا يوجد دليل في قوله تعالى {فَقَاتِلْ في سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ} على وجوب الجهاد على المسلم لو كان وحده، لكنه جائز بشروط .

(١٣) نصيحة لأتباع الجماعات الإسلامية ولعموم المسلمين:

تعلم دينك ثم اعمل به.

(١٤) نصيحة لولاة الأمور ببلاد المسلمين:

بأن يحكموا الشريعة، ويحدو من الفساد، كما عليهم تشجيع دعاة الإسلام، وتقويم مناهج التربية والتعليم.

وإسناد الأمور للثقات.

(١٥) لابد أن يستبشر المسلمون أجمعون بانتشار الإسلام، وبقائه هو وأهله إلى أخر الزمان." انتهى.

هذا عن الوثيقة وهي التي تمثل السياق الفقهي العام لمراجعات الجهاد.

أما حوار سيد إمام مع جريدة الحياة فيمكن تلخيص الجوانب الهامة التي فيه على النحو التالي:

- معظم الحوار كان نوع من الهجوم اللفظي ضد أيمن الظواهري وأسامة بن لادن وقادة الجهاد والقاعدة وأعضائهما ممن لازال يرفض "وثيقة ترشيد العمل الجهادي".

- احتوى الحوار على ملامح سياسية هامة وهادفة وموضوعية لكنها قليلة مثل: قوله لقادة الجهاد الرافضين للمراجعات عندما قابلهم في السجن " لا تفشلوا في السلم كما فشلتم في الحرب" وقوله "ليس كل ما يصب في خانة الأعداء ممنوعاً أو مذموماً شرعاً " يقصد ما دام نفعه الأكبر يعود على المسلمين .

- وبصفة عامة احتوت الحلقات الست بين ثناياها تكراراً وعرضاً لأفكار وحجج "وثيقة ترشيد العمل الجهادي".[١]

---

(١) عبد المنعم منيب " مراجعات الجهاديين ، جدل الحاضر والمستقبل " المبحث الأول مفهوم المراجعات وتطوراتها .

ويقول كرم زهدي : " نعم لا حكم إلا الله لكن لا بد للناس من أمير وحاكم يعرف أمورهم بما لا يخالف ثوابت الشرع . فالشريعة المنزلة من عند الله تمثل الحاكمية العظمى ، لكن الفقه الذي يطبق الشريعة على الواقع لا بد أن يكون بالضرورة فقهاً إنسانيّا متغيراً يواكب مستجدات الزمان والمكان والمصالح والوقائع والأعراف وجميع المتغيرات الإنسانية . فهناك حاكمية ربانية أساسها المبادئ الرئيسية لا تشغل نفسها بالتعامل مع الجزئيات أما حاكمية البشر فهي التي تحكم بالاجتهاد في الفروع والمتغيرات وللبشر أن ينشئوا أحكاماً وقوانين توافق متغيرات عصرهم وتلزم الناس جميعاً ما دامت لا تتصادم مع أحكام الشريعة ."

وخلص إلى أن الحاكمية لا تختلف عن أي حكم مدني معاصر ما دام يراعي ثوابت الشرع ، وهو تطور بالغ الأهمية في فكر الجماعة لأنه يشير إلى قبولهم لشرعية النظم الحاكمة الآن التي كانوا في السابق يعتبرونها كافرة ، كما يشير إلى قبولهم لكل المؤسسات المدنية الديمقراطية التي كانوا أيضاً في السابق يعتبرونها ضلالاً ووسائل تبعد الناس عن حكم الشرع .

يقول زهدي : " الحاكمية في الإسلام من وجهة نظرنا هي حكم مدني يختار فيه الشعب حاكمه ويحاسبه ويعارضه وقد يعزله ، والعلاقة بين الحاكم والأمة هي علاقة عقد يقوم على العدالة والإصلاح وإلا تعرض العقد للبطلان " .

وأعلن موقفه المؤيد لقيام الأحزاب موضحاً أن الفكر القديم للجماعة كان خاطئاً عندما سحب معنى حزب الله وحزب الشيطان الذي ورد بالقرآن على الأحزاب السياسية ، والصحيح أن القرآن الكريم كان يقصد جماعة المؤمنين وجماعة غير المؤمنين ، ويقول : " الأحزاب ليست كما يرها البعض بدعة أو ضلالة ، كما أن التاريخ الإسلامي ليس مصدراً للتشريع يمكن أن يحتج به أحد على صحة أو خطأ الأشياء لأن ترك السابقين لفكرة الأحزاب ليس دليلاً على حرمتها ، والأصل في الأشياء هو الإباحة ما لم يكن هناك نص واضح يحظر الشيء وتعددية الأحزاب في ظل حاكمية الإسلام أشبه بتعدد المذاهب الفقهية وليس في الدين ما يحظرها . " (١)

وهكذا تراجعت السلفية الجهادية المصرية ، معظمها ، عن تكفير الحاكم والسعي إلى الانقلاب عليه ، كما تخلت عن فكرة الحاكمية لله والدولة الدينية ، وارتضت

---

(١) د. عبد المعطي محمد " شيوخ بلا خناجر " الهيئة العامة للكتاب ص ١٣٨

الدولة المدنية والنظام الديمقراطي ، واستبدلت تغيير نظام الحكم عن طريق الانتخابات الحرة بالانقلاب الدموي الجهادي ، وللأسف تمت هذه المراجعات بعدما تلطخت أيديهم بدماء الأبرياء من المصريين وغيرهم .

نسأل الله تعالى أن يتقبل توبتهم التائبين منهم ويعفو عنا وعنهم ، وفي هذا درس عظيم يجب أن يعيه كل من شرّفه الله تعالى بالعمل في حقل الدعوة إلى دين الله تعالى أن يفهم دينه فهماً صحيحاً قبل أن يدعو الناس وأن يفرق بين المقطوع به والمختلف عليه ، فلا ينكر المختلف فيه وإنما ينكر المتفق عليه .

ونسأل الله تعالى أن يساهم هذا الكتاب في تبصير المسلمين والدعاة بحقيقة ما يجب أن يدعوا إليه الناس والمنهج الذي يسلكونه في الدعوة .

{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }(النحل : ١٢٥)

{ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ } (الغاشية: ٢١، ٢٢)

{ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } (الرعد:٤٠)

***

كتب للمؤلف

كتب دينية

١- ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية . مكتبة مدبولي

٢- ميزان الحق (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة) دار زهور المعرفة والبركة

٣- الدين والسياسة والنبوءة . دار الكتاب العربي

٤- المدارس السلفية . دار زهور المعرفة والبركة

سلسلة كتب دروس سياسية من التجربة الناصرية

١- آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

٢- العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو "" "" "" "" ""

٣- إنجازات عبد الناصر الكبرى من منظور سياسي "" "" "" "" ""

٤- نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي "" "" "" "" ""

٥- أمريكا وعبد الناصر من التحالف إلى العداء "" "" "" "" ""

٦- هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية "" "" "" "" ""

سلسلة كتب نحو فهم صحيح للصراع العربي الإسرائيلي

١- الاستراتيجية الصهيونية تجاه العرب ، والمنهج الإلهي لميراث الأرض .

دار هبة النيل العربية

٢- اليهود والصليبيون الجدد . دار الإبداع للصحافة والنشر

٣- اليهود والصليبيون الجدد (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة "" "" "" ""

٤- إسرائيل وحزب الله ولبنان ، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن "" "" "" ""

٥- فتح وحماس ، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة "" "" "" ""

٦-اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية "" "" "" ""

كتب عن الثورة

١- متى يثور المصريون ، دراسة في الشخصية المصرية والثورة عبر التاريخ زهور المعرفة والبركة

٢- دروس من ثورة يوليو لثورة يناير . "" "" "" ""

المؤلفات الأدبية

١- مهاجرون (قصص قصيرة) زهور المعرفة والبركة

٢- الحرف التاسع والعشرون (قصص قصيرة) "" "" "" "

٣- ليت قومي يعلمون . (قصص قصيرة) "" "" "" ""

٤- القاهرة ، يناير ٢٠١١ (رواية) "" "" "" ""

كتب أطفال

* سلسلة أصدقاء البيئة (ثماني قصص) زهور المعرفة والبركة

كتب المؤلف في مكتبات أفضل ٤٠ جامعة في العالم

(١٤) كتاباً جامعة هارفارد رقم ١ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١٢) كتاباً جامعة استنافورد رقم ٣ في الترتيب العالمي للجامعات .

(٤) كتب جامعة كاليفورنيا رقم ٤ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٤) كتب جامعة كولومبيا رقم ٧ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٦) كتب جامعة برينستون رقم ٨ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١) كتاب جامعة أكسفورد رقم ١٠ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٧) كتب جامعة بيل رقم ١١ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٢) كتابان جامعة بنسلفانيا رقم ١٥ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١) كتاب جامعة واشنطن رقم ١٧ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١) كتاب جامعة ميشيجان رقم ٢١ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١) كتاب جامعة كيوتو رقم ٢٢ في الترتيب العالمي للجامعات.

(٤) كتب جامعة تورنتو رقم ٢٤ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١) كتاب جامعة إلينوي رقم ٢٥ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١٦) كتاباً جامعة كورنيل رقم ٢٩ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١) كتب جامعة دوكي رقم ٣٢ في الترتيب العالمي للجامعات.

(١) كتب جامعة تكساس رفم ٣٦ في الترتيب العالمي للجامعات.

هذا بخلاف كتب المؤلف العديدة الموجودة في مكتبات الجامعات الأجنبية الأخرى غير هذه الجامعات .

كتب للمؤلف في مكتبات الجامعات العربية

(٢) كتابان جامعة الملك فيصل – المملكة العربية السعودية.

(١) كتاب جامعة الملك فهد – المملكة العربية السعودية.

(١) كتاب جامعة الإمام محمد بن سعود – المملكة العربية السعودية

(١) كتاب جامعة الحسين بن طلال– الأردن.

(١) كتاب جامعة اليرموك – الأردن .

(١) كتاب جامعة مؤتة – الأردن.

(١) كتاب الجامعة الأردنية للعلوم والتكنولوجيا.

(١) كتاب جامعة السلطان قابوس – سلطنة عمان.

(١) كتاب جامعة الإمارات – الإمارات العربية المتحدة.

(٢) كتابان جامعة النجاح – فلسطين.

(١) كتاب جامعة الأزهر الشريف – جمهورية مصر العربية.

(١) كتاب كلية دار العلوم – جمهورية مصر العربية .

(٢) كتابان كلية التربية – جامعة المنصورة – جمهورية مصر العربية

(١) كتاب كلية الآداب – جامعة بني سويف – جمهورية مصر العربية

(١) كتاب كلية الزراعة – جامعة الإسكندرية - جمهورية مصر العربية

(١) كتاب المكتبة المركزية - جامعة بنها - جمهورية مصر العربية

كتب للمؤلف في المكتبات العالمية والعربية

(١٢) كتاباً في مكتبة الكونجرس الأمريكية.

(٢) كتاب في مكتبة الإسكندرية.

(٣) كتب في مكتبات مبارك العامة.

(١) كتاب في مكتبة وزارة الشباب الإماراتية.

(١) كتاب في مكتبة المجلس الوطني اليمني.

(١) كتاب في مكتبة وزارة الخارجية أبو ظبي.

(٢) كتاب في مكتبة مسجد البيرة الفلسطيني.

-كتبت عن مؤلفاته عديد من الصحف العربية ، والأجنبية والمواقع الالكترونية.

استضافته قناة النيل الثقافية في برنامج " الرفيق " لعرض كتابه " متى يثور لمصريون"

التليفون المحمول 01226406489 :

البريد الالكتروني : yuness112@hotmail.com

موقع المؤلف على الإنترنت www.albab.hooxs.com

***

المحتويات

الموضـــــــــوع	الصفحة

الصفحة | الموضـــــــــوع

الفصل الرابع : السلفية النهضوية الدعوية

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الفصل الخامس : الإخوان المسلمون

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــــوع | الصفحة

الفصل السادس : المدرسة الألبانية

الفصل السابع : السلفية الجهادية